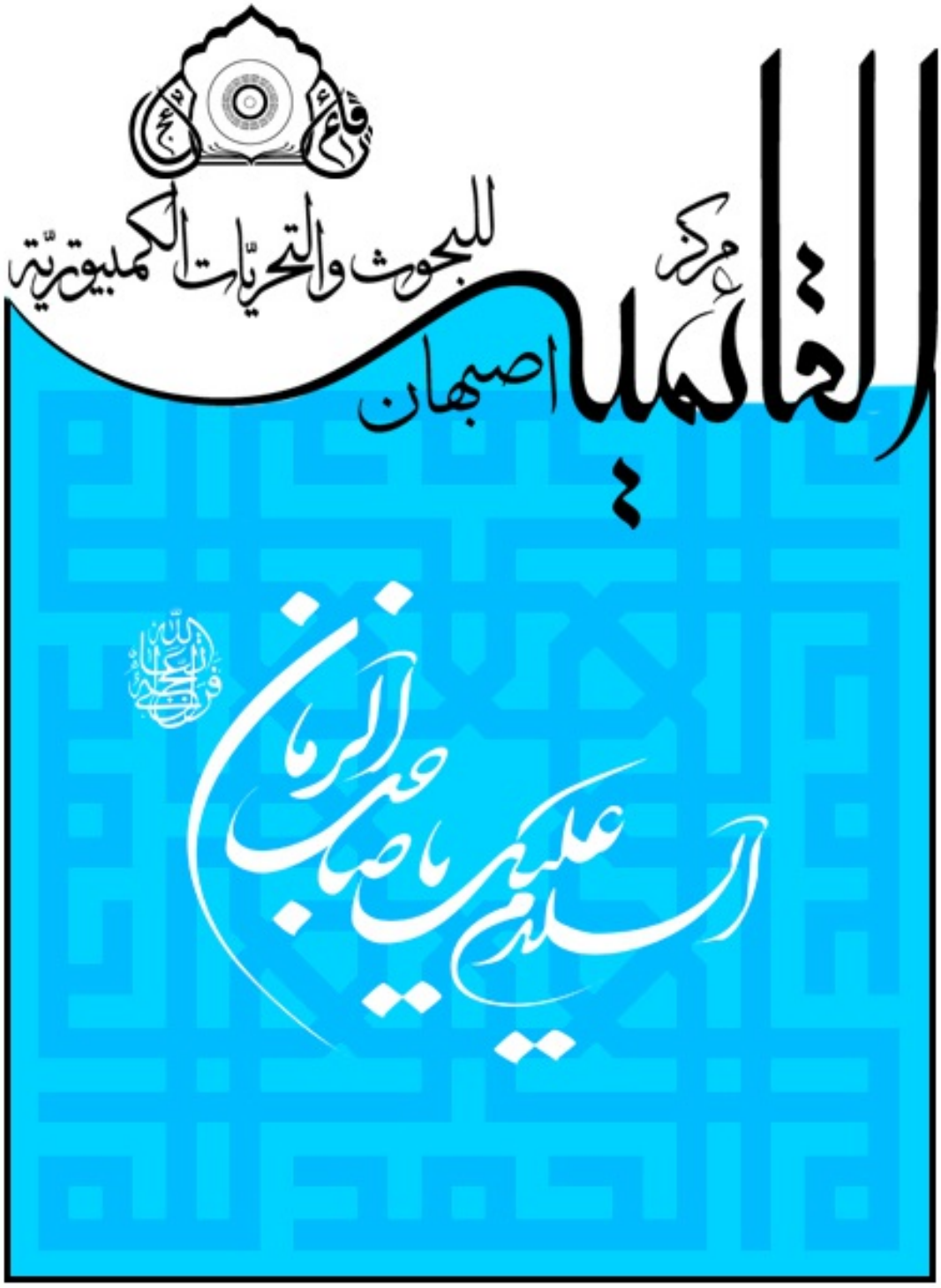

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

ميقات الحج

تعنى بتعريف سنوية فقهية بالشؤون الفقهية
والتاريخية والسياسية والاجتماعية للحج

٢

* الحج، رموز وحِكَم (١) * صلاة الطواف ومكانها *
* فقهيات معاصرة في الحج «٣» * فقه الجدال في الحج «٢» *
* صفحات من تاريخ المدينة المنورة *
* حكايات من مكّة المكرّمة * أسماء بنت عميس، دافية لحنكي *
* الرحلة الحجية للعلّامة السيّد محسن الأمين *
* مكّة المكرّمة دراسة في جغرافية المدن *

بسم الله الرحمن الرحيم

دو فصلنامه « میقات الحج »

کاتب:

محمدی ری شهری

نشرت فی الطباعة:

مشعر

رقمی الناشر:

مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

الفهرس

الفهرس ----- ۵
میقات الحج المجلد۲ ----- ۷
اشارة ----- ۷
الحجُّ فی أحادیث الإمام الخمینی (۱) ----- ۷
الحجُّ فی أحادیث الامام الخامنئی «حفظه اللّه» ----- ۸
البعد العرفانی والتربوی والعبادی للحج ----- ۱۰
لیشهدوا منافع لهم ----- ۲۱
إتمَام الحجج فی تفسیر مَدلول و لا جدَال فی الحَج ----- ۲۹
أدنی الحِلِّ «مواقیت العمرة المفردة لمن کان بمکّة» ----- ۴۸
نیّات الحجّ والعمرة ----- ۶۳
المنازل الثلاثة للرحمة فی السعی ----- ۷۶
عثمان بن مظعون ----- ۱۲۲
ارجوزة فی فقه الحجِ ----- ۱۵۲
ما هی الاستطاعة، ومن هو المستطیع؟ ----- ۱۶۰
حجّ الصبیان ----- ۱۸۴
الیهود فی الجزیرة العربیة ----- ۲۰۲
النواحی العمرانیة لمکة المکرّمة علی مرّ العصور ----- ۲۱۷
غزوة بدر الکبری ----- ۲۳۵
الحجُّ فی مبناه ومعناه ----- ۲۵۴
تعریفٌ بکتاب «اخبار مکّة» للفاکهی ----- ۲۵۸
الإخلاص فی الحج ----- ۲۷۱
حِوارٌ مع ممثّل الولی الفقیه فی شؤون الحجِّ والزیارة ----- ۲۷۷
لبیک قد لبیتُ لک ----- ۲۸۳

مفتاح القلوب ----- ۲۸۳

تعریف مرکز ----- ۲۸۶

ميقات الحج المجلد۲

اشارة

عنوان و نام پديدآور : ميقات الحج[پايند: مجله]

مشخصات نشر : تهران: منظمة الحج و الزيارة، ۱۴۱۷ ق. - = ۱۳۷۵ -

فاصله انتشار : شش ماه يكبار

يادداشت : عربی

فهرست‌نويسی براساس سال۳ شماره۵ سال۱۴۱۷ق.

يادداشت : اين نشريه در بيروت نيز منتشر می‌شود

يادداشت : المديرالمسؤول: محمد محمدی‌ری‌شهری

رئيس‌التحرير: علی قاضی‌عسكر

يادداشت : كتابنامه

ترجمه عنوان : Mighat al - haj

موضوع : حج -- نشريات ادواری

شناسه افزوده : محمدی ری‌شهری، محمد، ۱۳۲۵، -مدير مسئول

Muhammadi Reyshahri, Muhammad

قاضی عسكر، سيدعلی، ۱۳۲۵، - سردبير

شناسه افزوده : سازمان حج و زيارت

رده بندی كنگره : BP۱۸۸/۸

رده بندی د... : ۲۹۷/۳۵۷۰۵

ص: ۱

الحجُّ فی أحاديث الإمام الخمينی (۱)

العدد الثانی

الحجُّ فی أحاديث الإمام الخمينی (۱).

... والآن، ونحن علی أعتاب فريضة الحجِّ المباركة، من اللازم أن يكون لنا توجه للأبعاد العرفانية والروحية والاجتماعية والسياسية والثقافية لهذه الفريضة، عسی أن يكون ذلك باعثاً علی اتخاذ خطوات فعّالة أخری ..

كثير من الاخوة الملتزمين تحدّثوا عن هذه الموضوعات، لهذا فإنّی أكتفی بإشارة عابرة إلی بعض أبعاد (هذه الفريضة) لعلّها تكون تذكرة.

لمّا كانت هذه المناسك العجيبة من أول الإحرام والتلبية حتی آخر المناسك تنطوی علی اشارات عرفانية وروحية لا يتيسر الحديث عنها بتفصيل فی هذا المقال، أكتفی ببعض إشارات التلبيات:

التلبيات المكرّرة تكون حقيقة من أولئك الذين سمعوا نداءَ اللّه، فأجابوا دعوته- سبحانه- باسمه الجامع.

المسألة مسألة الحضور فی المحضر (الإلهی)، ومشاهدة جمال المحبوب. وكأن الملبی قد ذابت ذاته فی هذا المحضر فيكرِّر تلبية

(لبيك اللهم لبيك)، ويتبع ذلك سلب الشريك (لبيك لا شريك لك لبيك) .. سلب الشريك بالمعنى المطلق، وأهل اللّه يعلمون أن هذا السلب للشريك لايقتصر على الإلوهية، وإن كان سلب الشريك فى (الإلوهية) يشمل- فى نظر أهل المعرفة- جميع المراتب حتى فناء العالم. وتحوى (التلبية) جميع الفقرات الاحتياطية والاستحبابية، ففيها تخصيص الحمد باللّه والنعمة به وتنفى عنه (مرّة أخرى) الشريك (إنّ الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك لبيك). وهذه عند أهل المعرفة غاية التوحيد، وتعنى أنّ كل حمد ونعمة فى عالم الوجود إنما هو حمد اللّه ونعمة اللّه سبحانه بدون شريك.

ويجرى هذا الموضوع والهدف الأعلى فى كلّ موقف ومشعر وعمل وحركة وسكون، وخلافه الشرك بالمعنى الأعمّ.

***

الحجُّ فى أحاديث الامام الخامنئى «حفظه اللّه»

ص: ۲

الحجُّ فى أحاديث الإمام الخامنئى «حفظه اللَّه»

«وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعلى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ» (۱).

أقبل شهر ذى الحجة الحرام بكلِّ ما يحمله من عطاء أبدى للأمة الإسلاميّة.

حمداً للَّه- سبحانه- على ما أنعم به من هدية خالدة وينبوع دفّاق، يستطيع المسلمون أن يتزوّدوا منهما كلّ سنة بقدر همتهم وبقدر معرفتهم.

المصالح والمنافع التى أودعها العِلم الإلهى والحكمة الإلهية فى فريضة الحجِّ تبلغ من السعة والتنوّع بحيث لا يُرى لها شبيه فى فريضة إسلاميّة أخرى. الذكر والحضور المعنوى، ووعى الإنسان المسلم لنفسه فى خلوته مع اللَّه، وغسل القلب منصدإ الذنب والغفلة، وإحساس الحضور فى المجموع، واستشعار وحدة كلّ مسلم مع جميع الأمّة المسلمة، وتحسّس القدرة المنبثقة عن عظمة جماعة المسلمين، وسعى كلّ فرد لأن يَبْرأ من أسقامه وأمراضه المعنوية، أى الذنوب، ثم البحث والسعى لمعرفة ما يعانى منه جسدُ الأمّة المسلمة من آلام وجراحات عميقة، ومعرفة دوائها وعلاجها، ومواساة الشعوب المسلمة التى تشكل أعضاء هذا الجسد العظيم ... كلُّ ذلك قد أودع فى الحجّ .. فى تركيب أعماله ومناسكه المختلفة.

القرآن يطلق على أعمال الحجّ اسم «الشعائر». وهذا يعنى أنها لا تنحصر فى أعمال فردية وتكاليف شخصية، بل إنها معالم تثير شعور الإنسان وتفتح معرفته على ما ترمز له تلك المعالم وتدل عليه. ووراء هذه المعالم يقف التوحيد، أى رفض كلّ القوى التى تهيمن بشكل من الأشكال على جسم الإنسان وروحه، وترسيخ الحاكمية الإلهية المطلقة على كلّ الوجود، وبعبارة واضحة ومألوفة: حاكمية النظام الإسلامىّ والقوانين الإسلاميّة على الحياة الفردية والاجتماعية للمسلمين.

۱- ۱ الحجّ: ۲۷.

ص: ۳

الهوامش:

البعد العرفانی والتربوی والعبادی للحج

ص: ۴

البعد العرفانى والتربوى والعبادى للحج

محمد حسين فضل اللَّه

أعتقـد أنّ أى بُعد من هذه الأبعاد يحتاج إلى حديث مستقل، ولذلك: سأحاول إثارة بعض الأفكار فى هذا الموضوع، من خلال عدة نقاط:

النظرة التجزيئية ... المشكلة:

النقطة الأولى: إن مشكلة الإسلام، فى تجارب المفكّرين المسلمين، هى النظرة التجزيئية التى حاولت أن تنظر إلى كل جزءٍ فى الإسلام بعيـداً عن الأجزاء الأخرى، فنقرأ عن البعـد الروحى، وعن البعـد الاجتماعى، وعن البعـد السياسـى، وعن البعد الاقتصادى، كما لو كان كل واحـدٍ منها موضوعاً مستقلًا .. فى طبيعته، مما أدى إلى بعض الانعكاسات السلبية على واقع التصوّر الإسـلامى، والممارسة العملية للإنسان المسلم فى التزامه ببعض الجوانب من دون بعض آخر.

وإننـا نلاحـظ فى هـذا المجـال، أن هـذه النظرة تبعـدنا عن الفهم الشـمولى للإسـلام؛ لأـنه يختزن فى كـل جانب من جوانبه، الجوانب الأخرى .. فنحن مثلًا عندما ندرس الناحية الاقتصادية فى الإسلام، فإننا لا نجد فيها جوّاً مادياً يتحدّث عن العلاقات الاقتصادية، وطريقة تحركها فى علاقات الانتاج والتوزيع، وما إلى ذلك فقط، بل نجـد- إلى جانب ذلك- عمقاً روحياً ومنهجاً أخلاقياً، وحركـةً اجتماعيةً وسـياسةً فى نطاق حركـة الفرد والمجتمع، يوحى لنا بأن هـذه الأبعاد كلها تتكامل لتكوّن البعـد الاقتصادى فى المنهـج، وفى النظرية .. وفى ضوء ذلك فإننا لا نستطيع أن نفصل الجانب الذاتى عن الجانب الموضوعى فى المسألة الاقتصادية.

وإذا أردنا أن ندرس البعد الأخلاقى فى الإسـلام، فإنك لن تسـتطيع دراسـته فى نطاق النظرية الأخلاقية من الجانب الفلسـفى، بل لابد لك من استحضار المجالات الفردية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية كافة، حتى نقف

ص: ۵

على الجانب العبادى، لتجد الخطوط الأخلاقية تمتد إليها من جهة، وتنطلق منها من جهةٍ أخرى.

وهكذا لن تجد الجانب الروحى مفصولًا عن الجانب المادى، بل تجد هنا لوناً من التزاوج الواقعى والعملى، والتفاعل النظرى بينهما على مستوى التصور فى تركيز النظرية الإسلامية فى تفسير الكون والحياة والإنسان.

إننا ندعو إلى دراسة هذه المسألة بعمقٍ؛ لنصل إلى النتيجة الحاسمة التى نخرج منها بالفكرة القائلة: إن الإسلام كيان فكرى وتشريعى عملى تتغذى جوانبه تماماً كما هو الجسد الذى يتكامل ويتغذى من كل أجهزته، فلا يستطيع أىّ جهازٍ أن يعطى الحياة الإنسانية شيئاً إلّا من خلال الطاقة التى تمدها بقية الأجهزة بالحيويّة، فيما تحمل من عناصر القوّة والحياة.

وعلى هذا الأساس، نستطيع أن ندخل إلى الواقع الإسلامى للإنسان المسلم من خلال الحالة التكاملية، لنوجّه السلوك العملى إلى مواجهة المسألة من هذا الموقع، لنتخلص من كثيرٍ من الخطط التى أثارها الكفر فى وعى الأمة، وحركها الاستعمار فى حياتها عندما فصل الإسلام عن الواقع، من خلال الفصل بين أجزاء الواقع ومفرداته، فجعل القضية المطروحة، هى أن هناك ديناً ودنيا، وأن للدين دائرته، وللدنيا دائرتها، فآفاق الدين هى آفاق الغيب والروح والمثال، التى تنطلق معها العبادة فى أجواء الصلاة والصوم والحج والدعاء والابتهال والتصوف وغيبوبة الذات عن الواقع. أمّا آفاق الدنيا فهى آفاق الحياة العامة والخاصة فى أجوائها المادية، فى اجتماعياتها وذاتياتها، وسياستها واقتصادها، وحربها وسلمها، وشهواتها وملذاتها. فللدين ربّه، وللدنيا ربّها .. واللَّه هو ربّ الدين، وقيصر هو ربّ الدنيا، فليس للَّهأن يتدخل فيصلاحيات القيصر وشؤونه وليس للقيصر أن يدخل إلى ملكوت اللَّه وساحته .. وهكذا دخل الإسلام هذه الدائرة .. وبقيت الدوائر الأخرى تنتظر الفكر الآخر، والقوّة الأخرى التى لا مكان فيها للإسلام.

وقد نلاحظ أن عصور التخلف التقليدية استطاعت أن تهيّىء الأرضية الصالحة لمثل هذا الاتجاه فى الذهنية الإسلامية، وذلك فيما لاحظناه من الأبحاث العبادية التى عاشتها التجارب الإسلامية الفكرية والفقهية التى حاولت أن تعتبر العبادات كياناً مستقلًا مفصولًا عن الجوانب الأخرى .. فنشأت عندنا شخصية الإنسان المسلم العابد الذى يستغرق فى عبادته فينسى كل ماحوله، ومَن حوله ..

حتى «العرفان» الذى انطلق فى الدائرة الروحية الإسلامية، كفكر وممارسةٍ من أجل أن يكون أسلوباً متقدماً فيصنع الشخصية الإسلامية المتحررة من كل القيود، فتنتقل حركتها فى سبيل الأهداف الكبيرة .. ليرتبط الإنسان بالحياة من خلال الحرية الداخلية المنفتحة على اللَّه، المتحركة فى الحياة من خلاله؛ ليكون إنسان الحياة، الحرّ فى فكره وفى إرادته .. وفى حركة الحياة من حوله. حتى العرفان هذا، دخلت فيه الفلسفة اليونانية والهندية وغيرهما، فجعلت منه- فى وعى الكثيرين فى الساحة الإسلامية- فكراً منفصلًا عن الحياة بحيث يستغرق فيه الإنسان- فى الأجواء الإلهية التى يعيش فيها- الاستغراق فى هواجسه وتأملاته وابتهالاته مع اللَّه، من دون أن ينفتح من خلال ذلك على الحياة.

ص: ۶

وقد رأينا- فى تاريخنا وفى حاضرنا- الكثيرين ممن أخذوا بالعرفان كفلسفةٍ، وكسلوكٍ، وكاتجاهٍ، قد ابتعدوا عن الحياة، وعن قضاياها وهمومها ومشاكلها وحركتها فى ساحة الصراع، واستغرقوا فى الفكرة الانعزالية التى تعتبر ذلك كله شأناً مادياً لا يتناسب مع الانطلاقة الروحية المجرّدة التى يعيشها العارف؛ لأنها تشغله عن اللّه ..

وقد لاحظنا فى بعض هؤلاء، أنهم لا يدققون فى قضايا الشرع فيما يمارسونه من أساليب الرياضة الروحية وفيما يفعلون، وفيما يتركون، ممّا قد يعيش الإنسان فيه الابتعاد عن التكليف الشرعى فيما يحلّ اللّه وفيما يحرّمه، وربما وصل ذلك بالبعض الى اعتبار الشرع حالة فى الظاهر لا ترفع إلى مستوى العرفان، الذى هو عمق الوعى الروحى فى الباطن.

ولكننا نعرف أن «العرفان الإسلامى» قد انطلق من خلال مفاهيم القرآن، التى تلحظ فى الإنسان ارتباطه باللّه، الذى يطلّ به على مسؤوليته فى الحياة عن الحياة كلّها، وعن الإنسان كله، فى المنهج الفكرى الذى أقامه الإسلام للحياة، وفى الخط التشريعى الذى أراد للناس أن يسيروا عليه، وفى الأجواء العامة التى وجّههم إلى أن يعيشوا فى داخلها وفى ساحاتها .. وبذلك كان يمثل الإعداد الفكرى والعملى للدخول إلى ساحة الإسلام فى الحياة من خلال اللّه.

فليست هناك خلفيّة فلسفيّة يمكن للعرفان أن ينتمى اليها، أو ينطلق منها بعيداً عن المفاهيم القرآنية الإسلامية، التى أكدت أن يكون الإنسان المسلم إنساناً يتحرك فى الحياة؛ ليكون خليفة اللّه فى الأرض، ليبنى الكون فى دائرة قدرته، على النهج الذى يحب اللّه له أن يكون فيه، بعيداً عن كل ما يثقله؛ ليكون الإنسان الحرّ من الداخل، من أجل أن يؤكد حريته فى الخارج.

- محل الصورة-

الأبعاد العبادية فى انفتاحها على الأبعاد السياسية:

ص: ۷

النقطة الثانية: إننا نريد- من خلال شمولية النظرة الإسلامية إلى الحياة- أن نقترب من الأبعاد العبادية التى تنفتح على الأبعاد السياسية والاجتماعية فى الحج، كما نفهم ذلك من خلال كل عباداتنا؛ لنصل إلى تأكيد فكرتنا فى تكامل الإسلام فى كل مفرداته .. فنجد أن العبادة تلتقى بالسياسة فى مفهومها الواسع، كما تطلّ على ساحة الحياة الاجتماعية .. وبذلك تدخل قلب الحياة، بدلًا من أن تنفصل عنه.

فإذا دققنا فى الصلاة، فى كلماتها وفى أفعالها، وفى إيحاءاتها .. وإذا درسنا الصوم فيما يثيره من أجواء نفسية، وفيما يؤكده من قوّةٍ حركية، ولاحظنا ما فى الحج من معطيات ومؤثراتٍ وأجواء ونتائج .. فإننا نجد أنها تلتقى فى ارتفاعها بالإنسان إليصفاء إنسانيته، وفى توجيهه إلى ما يحقق توازن حركته الإنسانية فى الحياة .. لأن سرّ المشكلة الإنسانية هو هذا الاستغراق فيما حوله من الحياة الدنيا، بعيداً عن كل هدف كبير ينطلق من مواقع القيم الخيّرة فى حركة الرسالات .. إنها مسألة القضايا الكبيرة التى تأكلها أو تستنزف طاقاتها القضايا الصغيرة، التى تطوف بالإنسان فى دائرة شهواته وملذاته وأطماعه الذاتية.

وكانت الفكرة الإسلامية تتحرك على أساس أن يجعل الإنسان دنياه آخرةً، وأن تكون آخرته منطلقةً من حركة مسؤوليته فى بناء الدنيا على النهج الذى يحبه اللَّه .. فلا تمثل الآخرة- فى هذه النظرة- منطقة مستقلة عن الدنيا، بل الآخرة تمثل أهدف الدنيا الكبيرة التى تخضع لها حركتها الصاعدة إلى اللَّه ..

فإذا أردت أن تفكر، كمسلم، يريد أن يمارس دوره فى الدنيا .. فكِّر ما هو هدفك منها .. لا مانع من أن تنطلق معها، وتتحرك فى داخلها .. وتحتوى مواقعها ومصادرها ومواردها، لكن .. فكّر لنفسك بالسؤال التالى .. ما هو هدفك منها؟

إن الآية الكريمة تقول لك:

«وابتغ فيما أتاك اللَّهُ الدارَ الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسِن كما أحسن اللَّه اليك ولا تبغِ الفساد فى الأرض انّ اللَّه لا يُحبّ المفسدين» (۱) ..

اجعل الدار الآخرة هدفاً لكل ما أعطاك اللَّه من علم أو من مال أو من قوّةٍ .. ولكل ما أعطاك من الحياة ..

وعش حياتك من خلال حاجاتك الجسديّة .. وأحسن إلى الآخرين، فقد أعطاك اللَّه النموذج الأكمل للإحسان فيما أحسن اللَّه إليك .. لتعرف كيف تحسن إلى الآخرين .. ولا تبغ الفساد فى الأرض فى كل المفردات التى تملكها مما تستطيع أن تستخدمه فى طريق الفساد، كما تستطيع أن تستخدمه فى طريق الصلاح والإصلاح .. لأن اللَّه لا يحب المفسدين.

وهكذا نجد أن العبادة يمكن أن تكون نافذةً واسعةً تطلّ على كل ما فى الدنيا من قضايا ومشاكل للحياة والإنسان، من حيث هى نافذة تتحرك فى آفاق الغيب، مع اللَّه، وفى نتائج المسؤولية فى الدار الآخرة.

فى إيحاءات الحجّ المختلفة:

النقطة الثالثة: إننا نستطيع- من خلال ما أثرناه فى النقطة الثانية- أن نقترب من هذه الأجواء، لنفكر فيما

۱- ۱ القصص: ۷۷.

ص: ۸

حشده التشریع الإسلامی فی تشریعه، فی الحج من عدة جوانب، تتفرّع فی شکلها وفی طبیعتها، وفی ایحاءاتها، فإذا وقفنا فی أجواء الإحرام، فإننا نشعر بأن هناک نوعاً من أنواع التدریب علی أن یتحرر الإنسان من کل ما یعیق حرکته من الارتباط بکل الأشیاء التی یمارسها فی عاداته، أو فی أجواء الترف التی یحبها، أو فی أجواء الحیاة الاجتماعیة التی یعیش فی داخلها.

ثم بعد ذلک- نجد کلمات التلبیة- فیما توحی به فی معانٍ واسعةٍ- تعنی التزاماً أمام اللّه سبحانه، بطریقةٍ مؤکّدةٍ مضافةٍ بالاستجابة لکل نداءات اللّه .. لیس- فقط- ما یقوله بعض المفسرین والمحلّلین، أنّ کلمة «لبیک» یراد بها الاستجابة لنداء إبراهیم علیه السلام فیما أمره اللّه به، من أن یؤذن للناس بالحج لیدعوهم إلی الإقبال علیه، فیما تحدث به القرآن الکریم فی قوله تعالی:

«وأذّن فی الناس بالحجّ یأتوک رجالًا وعلی کلّ ضامرٍ یأتین من کلّ فجّ عمیق لیشهدوا منافع لهم ...» (۱).

فنحن نری أن المسألة أکثر شمولًا فی ذلک؛ لتکون استجابةً لکل نداءات اللّه فی کتابه وفی رسالته فیما وجهه للناس، بعنوان «یا أیها الناس» وفیما وجهه للمؤمنین من خلال الإیمان بعنوان «یا أیها الذین آمنوا ..».

إن کلمة «لبیک» تعنی .. إننا یا رب نلتزم فی موقفنا هذا، بکل نداءاتک بالإسلام کله، فی عباداته، وفی أخلاقه، وفی جهاده، وفی سیاسته واقتصاده .. وفی مواجهة کل التحدیات التی یواجهها الإنسان من الشیطان الداخلی فی عمق نفسه، أو من الشیطان الخارجی فی عمق واقعه وفیما یحیط بحیاته ..

إنها الحرکة الصارخة، فی النداء الذی تنطلق به کل حناجر الحجاج؛ لتؤکد موقفهم الذی یرید أن یلتزم بالإسلام من جدید، فی مسیرتهم إلی مرکز الدعوة الإسلامیة الأولی فی مکّة ..؛ لتکون مسیرة الحجاج من سائر أقطار العالم هی مسیرة الإسلام التی تقول:- من خلال تلک الکلمات الخاضعة الهادرة- یا رب .. إذا کان الناس قد ترکوا الإسلام، فلم یؤمنوا به، ولم یرتبطوا به .. وإذا کان المسلمون قد انحرفوا عن خطه، وترکوا الکثیر من تعالیمه، وانتموا إلی الاتجاهات الأخری التی تختلف عن خطه المستقیم .. إذا کان الواقع هو ذلک .. فها نحن قادمون إلی بیتک المحرّم ..؛ لنقول لک، من کل قلوبنا، ومن کل عقولنا، ومن کل مواقعنا ومواقفنا وتطلعاتنا .. «لبیک اللهم لبیک». فقد جعلت الإسلام لنا- بکل عمقه وامتداده- .. رسالة الحیاة، ونحن نرید أن ننطلق إلی الحیاة، من خلاله ..

ومن هنا قد نفهم کیف أن التشریع لم یقتصر علی کلمة «لبیک» ولکنه أضاف کلمة «وحدک لا شریک لک»؛ لیؤکد الإنسان فیها أن التلبیة التی تتوجه إلی اللّه سبحانه، لا یمکن أن تتوجه لأیّ انسانٍ آخر، فنحن فی الحیاة عندما نرید أن نستجیب لنداءٍ من أیّ منادٍ، أو لکل مبدإ أو قانونٍ من أیّ مشرّعٍ أو مفکّرٍ، أو لأیّة علاقة بالناس، فلابد من أن یکون ذلک منطلقاً من استجابتنا للّه، وعلاقتنا به؛ لتکون علاقاتنا بالحیاة کلها منطلقةً من ذلک .. فلا شیء .. ولا حد .. مع اللّه .. فهو وحده الذی نتوجه إلیه بکل ما فی قلوبنا من محبة وإخلاص وعبودیة .. فلا نتوجه لأیشخص معه .. بل إن علاقتنا بالناس منطلقة من علاقتنا باللّه، من خلال باب اللّه الذی یدخل منه الجمیع .. حتی علاقتنا برسول اللّه، وبکل رسل اللّه لا ترتبط بهم کأشخاص، بل بصفة أنهم رسل اللّه، والمبلغون عنه .. وهکذا هی علاقتنا بالأئمة والأولیاء، من خلال أنهم عباد اللّه الذین أطاعوه بما یجب، وعبدوه کما یرید ..

۱- ۱ الحج: ۲۶- ۲۷

ص: ۹

«لبيك لا شريك لك ..» لن نجيب غيرك، ولن نستمع إلى أىّ نداءٍ سواءٌ انطلق من حاكم، أو من حكومة، أو من حزب، أو من محور إقليمىّ أو دولىّ .. فأنت وحدك، المحور الذى نتحرك فى ساحته؛ لأن ذلك هو الذى يجعلنا ننسجم مع عقيدتنا إذا أجبناك ..

«لبيك لا شريك لك» .. وتعود الكلمة من جديد؛ لتتضاعف، ولتعمِّق المشاعر فى نفس الإنسان ..، ثم لتطلّ على الحياة كلها، لِتطلّ على كل ما فى الحياة من ملوكٍ وجبابرةٍ وطغاةٍ، وما تحتويه من نِعم وثروات، فلا نجد المدّاحين الذين يمدحون هذا، ويحمدون ذاك؛ ليؤكد الإنسان فى موقف الحج .. أن الملك للَّهوحده، وأن الحمد له وحده، وأن النعمة له وحده، فكل حمدٍ مستمدٌّ من حمده، وكل نعمةٍ مستمدّةٌ من نعمته، وكل ملك فهو ظلّ لملكه، فليس هناك محمودون ممدوحون، وليس هناك منعِمون فى ذاتهم، فهو وحدهصاحب الحمد والملك والنعمة .. وبذلك يحسُّ الإنسان هناك- أمام اللَّه وحده- أنه بعيدٌ عن كل أحدٍ غير اللَّه- سبحانه وتعالى- .. ومن خلال ذلك يتأكد معنى العبودية المطلقة للَّه .. بأن تكون عبداً بكلّك، وبفكرك، وشعورك، وضميرك .. وحركتك .. وكل خطواتك العملية فى الحياة .. وفى جميع مشاريعك على كلصعيدٍ .. أن تكون الإنسان الذى يعيش العبودية للَّه ..؛ لتنطلق حريتك أمام العالم .. وأمام الأشياء من خلال ذلك .. وبهذا تلتقى الحرية والعبودية فى عمق الإنسان .. فتتعمق حريتك بمقدار ما تتعمق عبوديتك للَّه .. فأنت من موقع عبوديتك للَّهتأخذ حريتك .. أما الآخرون فإنهم يمارسون عبوديتهم للناس وللشهوات وللمطامع من موقع حريتهم المطلقة أمام اللَّه ..

ثمّ ننطلق فى بعض ايحاءات الحج؛ لنصل إلى البيت الحرام، لنتساءل .. ماذا يعنى البيت، وماذا يعنى الطواف حوله .. هل هى الأحجار التى يتألف منها .. نقدّسها ..؟

إنها ليست حتميّة جديدة تتخذ الأحجار الثابتة بدلًا من الأحجار المتحركة بل هى التمرد على الصنمية ..

ولكنها .. الرمز .. الرمز الذى يُراد من خلاله تربية الإنسان على طريقةٍ جديدةٍ فى مواجهة حركة الإسلام فيصعيد الواقع .. فكيف نفهم ذلك؟

إننا- كمسلمين- قد نصنع للَّهبيتاً فى مدننا وقُرانا .. فهذا مسجد للقبيلة، وهذا مسجدٌ للمحلة، وهذا مسجد البلد .. وتتنوع الصفات المحدودة لتدخل فيها دوائرنا العائلية والقبلية، فهذا مسجد آل فلان وذاك مسجد تلك القبيلة .. ودوائرنا القومية، فهذا مسجد العرب، وهذا مسجد العجم .. وهكذا نحاول فى مساجدنا أن نحافظ على كل الحدود التى تفصلنا عن بعضنا البعض، وتبعدنا عن ساحتنا الإنسانية الواسعة؛ لنؤكد فيها عصبياتنا العائلية والإقليمية والقومية .. أو لنبقى فى الدائرة الضيّقة المحدودة التى تحجب عنا رؤية الدائرة الواسعة للحياة وللإنسان، فكانت الكعبة- البيت الحرام- التى جعلها اللَّه قياماً للناس .. كل الناس بعيداً عن كلصفاتهم اللونية والعرفية والجغرافية؛ ليكون بيتاً للَّهفى حجم العالم .. البيت الإلهىّ العالمىّ، ليشعر كل مسلم .. أنه بيته .. ورمزه ومنطلقه .. ولهذا أراد اللَّه لهم أن يتوجهوا إليه أينما كانوا ... «.. فولّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولّوا وجوهكم شطره ..» (۱) ولا يتوجهون إلى غيره؛ ليكون قاعدة وحدتهم، ومنطلق عالميتهم .. وموقع إنسانيتهم.

۱- ۱ البقرة: ۱۴۴.

ص: ۱۰

ثم قـد نفهم جانباً آخر من الصورة .. فی الطواف حول البیت کعبادة، فنحن نعبـد اللّه بحسب الحالة الطبیعیة أفراداً .. فی بیوتنا ومواقعنا الفردیـة .. ثم نمـارس العبـادة- بعـد ذلک- جماعـة فیصـلاة جماعـة محـدودةٍ، قـد تتسع فی أفرادها، وقـد تضـیق، تبعاً للموقع وللإمام وللمناسـبة .. وتبقی العبادة فی حـدودها الفردیـة والاجتماعیـة الضـیّقة .. فلا نعیش فیها الانفتاح فی عبادتنا للّهعلی مسـتوی حجم الأمة کلها، تبعاً للتنوع الواسع فی النطاق العالمی .. الإنسانی.

وهنا تأتی عبادة الطواف ..؛ لتکون العبادة حول البیت الإلهی العالمی فی حجم الأمة کلّها .. عندما یشترک المسـلمون- من سائر أقطار العـالم- لیعبـدوا اللّه کأُمّـةٍ، یتمثل فیها العربی والفارسـی والهنـدی والامریکی والافریقی والاوروبی، وما إلی ذلک؛ لینطلق الجمیع فی عبادةٍ إسـلامیة عامّـةٍ کأُمّـةٍ؛ لیعیشوا الأفق الواسع فی العبادة، ولیتفاعلوا بهـذه الشخصـیة الجدیـدة التی تؤکد فی داخلهم معنی الامتداد الإنسانی الشعوری فی روحیة العبادة بین یدی اللّه ...

ویتخلصوا بـذلک عمـا اعتادوه فی حیاتهم؛ لأن الناس إذا مارسوا فکرهم وعبادتهم ومسؤولیاتهم فی النطاق الضـیّق، فإن ذلک یتحول إلی حالـةٍ نفسـیةٍ ضـیّقة مخنوقـة فی الـدائرة المحدودة .. فینسونصـفتهم کجزء من الأمة الواسـعة .. بینما توحی العبادة فی داخل التنوع الإنسانی للأمـة المسـلمة بالبعـد العالمی للشخصـیة، وهی بین یـدی اللّه رب العالمین ..؛ لیتمثل من خلال ذلک الهدف التربوی للحج، وهوصنع الإنسان المسلم العالمی، الذی یتحرر من ذاتیته وعائلیته وإقلیمیته وقومیته عندما یطوف بالبیت العالمی للّه ..

وتلک هی القضـیة التی قد نحتاج إلی أن نتمثلها ونعیشـها فی واقعنا الاجتماعی والسیاسی ..؛ لندخل فی نشاطاتنا فی دور جید، وساحةٍ جدیدةٍ؛ لأن من مشاکلنا الإسـلامیة أن المسلمین قد یغلب علیهم الاهتمام بقضایاهم الخاصة، التی قد تتطور من الحالة الذاتیة إلی حالة البلـد الـذی ینتمی الیه الإنسان المسـلم، فیری أن قضایا بلـده الإسـلامی هی المحور الذی یجب أن یدور حوله کل النشاط الإسـلامی، سواءً کان نشاطه، أو نشاط الناس من حوله .. مما یجعله یصـرف کل طاقاته فی هذا الموقع، ویعمل علی أن یسـتخدم کل قضایا العالم من أجله .. من دون أن یفکر بأن علیه أن یسـتفید من بلـده لخدمـة قضایا العالم الإسـلامی الأخری .. الأمر الذی قد یتحول إلی شـعور داخلیّ بالانفصال عن قضایا العالم ..

وهکـذا لاحظنا أن الواقع السیاسـی الـذی یعیشه المسـلمون فی بلدانهم؛ هو أن قضـیةً إقلیمیة إسـلامیة فی هذا البلد، وأن هناک قضـیةً قومیةً فی هذا المحیط الجغرافی .. وأن المسـلمین یتحرکون فی حجم هذه القضایا تبعاً لمواقعهم المحلیة، ولا یحاولون الاهتمام بقضایا الآخرین إلا من خلال علاقتها بهـذه القضـیة، کما لو کانت قضـیةً أجنبیـةً یلامسونها کما یلامسون أیّة قضـیة بعیدة عن ساحتهم .. وقد یسجلون علی الآخرین نقطة سوداء إذا انشغلوا عن هذه القضیة بقضیتهم .. حتی لو کانت قضیةً إسلامیة.

وقـد یقول البعض، إننی أهتم بهـذه القضـیة الخاصـة؛ لأنها قضـیة إسـلامیة، ولأنَّ طبیعة الموقع الذی أمثله فی هذه الساحة یفرض علیّ الحرکـة فی هذه الدائرة؛ لأنی أعرف منها ما لا یعرفه الآخرون، ولأنی أملک من مواقعها ما لا یملکه الآخرون، فی نوعیة الحرکة، وفی طبیعة النتائج؛ ولأن قیمتها قد تفوق قیمة کثیرٍ من القضایا الإسـلامیة الأخری، بالنظر إلی أهمیتها السیاسـیة، وقیمتها الإستراتجیّة فیما هو الواقع الإسلامی فی حرکة الصراع.

ص: ۱۱

وقد يكون هذا الكلام معقولًا ومقبولًا، ولكنّ هناك نقطةً مهمّة، وهى .. إن العقلية الإسلامية الشاملة تفرض على الإنسان المسلم الذى يتحرك فى قضية بلده أو منطقته- كقضيةٍ إسلامية- أن يدرس موقعها من المسألة الإسلامية فى العالم من حيث طبيعتها السياسية أوالاقتصادية أو الأمنية؛ لتعرف كيف يكون حجم حركتك وكيف يكون موقفك من هذا الوضع أو ذاك فى هذا البلد، أو فى ذلك البلد، فهناك فرق بين أن تفكر بأن تنتصر قضية بلدك حتى لو انهزمت كل قضايا الإسلام فى العالم، وبين أن تفكر ببلدك كجزءٍ من قضايا الإسلام الكبرى ..

إننا نقول، لا تتحمسوا لقضاياكم الخاصّة ..، لتقولوا بأن المسلمين فى هذا البلد يهتمون بقضاياهم، لأنهم لا يجدون أحداً من المسلمين الآخرين قادراً على حمايتها .. كما أن المسلمين فى البلد الآخر يقولون نفس القول .. لكنّ هناك نقطةً مهمّةً لا بدّ من ملاحظتها بدقة وهى؛ إننا نهتمّ بقضايانا على أساس أنها جزءٌ من كلٍّ، لا على أساس أنها قضيّةٌ منفصلةٌ عن الجسم الإسلامى.

إننا ندعو- من خلال الحجّ- إلى أن نصوغ شخصية الإنسان المسلم العالمى من جديد، الذى يفكر فى الإسلام بحجم العالم من خلال قدراته وإمكاناته، وليطوِّر نفسه بحيث يستطيع أن يكون مفيداً للمسلمين فى كل منطقة من مناطق الأرض .. فلا تتجمد طموحاتنا فى الزوايا الضيّقة والمواقع المحدودة، ولا تتساقط مواقفنا عند الحواجز الذاتية الخاصة ..

إننا إذا استطعنا الوصول إلى هذا الهدف الكبير فيصنع الشخصية الإسلامية العالمية؛ فإننا نستطيع أن نعتبر أنفسنا فى الموقع الصحيح للبداية الحاسمة؛ التى نتحول فيها إلى أمّةٍ بدلًا من أن نبقى أفراداً متناثرين، أو جماعات متفرّقة. وهذا هو ما نستوحيه من معنى الطواف حول البيت.

ثم ننتقل إلى السعى بين الصفا والمروة، الذى يمثل حركة الإنسان من بداية معينة إلى نهاية معينة، فى أشواط ..

من أجل أن نتعبد للّهفى ذلك لأنه أمرنا به .. فكان السعى حركةً فى معنى الطاعة، وسرّ العبادة ..؛ لتكون انطلاقةً ايجابية تربويةً فى بداياتٍ ونهاياتٍ أخرى فى حركة الإنسان فى طلب العلم، أو فى تحصيل القوّة، أو فى مواجهةِ التحديات التى يفرضها المستكبرون، أو فى إطلاق المواقف المتحدية ضدهم، أو فى قضاء حوائج الناس ..؛ لأن اللّه طلب منك السعى من أجل هذه الأمور، كما طلب منك السعى فى هذا المكان ..

إن اللّه يريد منك أن تجعل الحياة حركةً من أجل اللّه فى خط المسؤولية؛ لتحوّلها إلى ساحةٍ تبتعد عن كل الفئات الطاغية والكافرة والمستكبرة؛ ليكون سعيك بدايةً ونقطة انطلاق إلى كل الساحات فى العالم فيما أرادنا اللّه أن نتحرك فيه من ساحات.

ثم نعيش- فى الحج- الوقفات، فى عرفة، وفى المزدلفة، وفى منى التى نعيش لياليها فى لحظات تأمّلٍ وتفكير ..

إننا نشعر بأن إيحاءاتها، وبأن الإنسان عندما يندمج فى أجواء الحركة فى الحياة، فى أىّ موقعٍ من مواقعها، وفى أىّ اتجاه من اتجاهاتها فى العلم والسياسة، والحرب والسلم، لا بدّ له من أن يقف ليفكر، وليتأمل، وليحسب حساب الأرباح والخسائر؛ ليكتشف فيما يمكن أن يكون قد وقع فيه من انحرافٍ فى خط السير، لئلا تؤدى بك الغفلة فى اندفاع الحركة

ص: ۱۲

إلى الشعور بالغرور، الذى يوحى لك بضخامة معينةٍ فى شخصيتك لا وجود لها فى الواقع، فيخيّل إليك بأنك لا يمكن أن تخطئ! لأن الحق معك، فيما تملكه من وضوح الرؤية للأشياء، ومستوى المعرفة فى عقلك وتجربتك.

إن هذه الوقفات توحى لك- من موقع الرمز- بأن عليك أن تخفف من سرعة اندفاعاتك؛ لتقف وتفكر بما قلته أو فعلته، لتكتشف احتمالات الخطأ والصواب فيه؛ لتنقد نفسك نقداً موضوعياً فى كل ذلك .. لتفهم نفسك جيّداً.

إن الموقف فى عرفات والمزدلفة ومنى- أمام اللَّه- هو موقفٌ نقدىّ تأمليٌّ لتذكر نفسك، وتذكر ربك، وتفكر فى موقعك منه وفى موقفه منك .. وفيما يجب أن تتحرك فيه نحو المستقبل من أعمالٍ ومشاريع ونتائج .. ولا سيّما فى منى، التى توحى إليك لياليها بأنك فى الموقع الأخير من الحج .. فكيف كنت .. وكيف أنت الآن، وماذا تريد أن تفعل غداً ..

وما هى طموحاتك الجديدة؟ .. هل هى قصة الدنيا فى الإخلاد إلى الأرض، أو هى قصة الآخرة والدنيا فى عملية الاندماج بينهما، فيما هى الفكرة، وفيما هى الروح، وفيما هو الهدف الكبير فى ابتغاء رضوان اللَّه .. كما يريد اللَّه لنا أن نعيش المسألة هناك فى الابتهال إليه.

«... فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وما له فى الآخرة من خلاق ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار أولئك لهم نصيب مما كسبوا ...» (۱).

وبذلك فإن الحجّ لا يفصلك عن الدنيا، بل يريد أن يربطك بالآخرة إلى جانب الدنيا فى عملية تكاملٍ وامتدادٍ.

وأخيراً .. إن الحجّ يُطلّ بنا على فكرة الصراع ضد الشيطان، من خلال الإيحاء الحسى فى عملية رجم الشيطان، بطريقة رمزية لا تبتعد عن الواقع، فيما تتحرك به الحياة .. إنك لم تستحضر شيطاناً خفيّاً يعيش فى زوايا نفسك من دون أن تعرف طبيعته، بل إنك تستحضر فى داخل وعيك الذاتى كل الشياطين، من خلال طبيعة فكر الشيطان، لا من خلال حجمه ..

إنك تتطلع لتجد الشيطان فى نفسك وفى واقعك؛ لتبصر وتحدّق جيداً أين هو الشيطان فى داخل ذاتك، وأين هو فى حياتك الاجتماعية .. وفى حياتك السياسية .. وما هو حجمه فيما يتمثل به من أحجام القوّة فى مواقع السلطة ..

بين حجمٍ كبيرٍ وصغير، وأكبر .. أو متوسّطٍ؟

وهذا هو معنى نهاية الحجّ .. فى عملية رجم الشيطان .. أيها الإنسان المسلم الحاج .. لقد انتهيت من عملية التدريب فيما هى التجربة على مستوى الحركة الذاتية فى العبادة، فى المواقع التى لا تمثل التحدى الصارخ فى ساحة الصراع .. وها أنت تقف لترجم الشيطان ..؛ لترى أمامك كل شياطين الكفر والظلم والاستكبار فى مواقع القوّة فى العالم .. وها أنت قد انتهيت من الحج إلى ساحة العمل؛ لتنطلق فى الحياة كلها بكل أصنامها ومواقفها ومشاكلها وشياطينها ووسائلها وغاياتها ..

إنها عملية النجاح، فى الحج .. بعد ذلك، لا فى نهاية الحج، بل فى نهاية الحياة عندما يقوم الناس لرب العالمين.

هل انتهى الحجّ .. بانتهاء أعماله؟

إنه لم ينته بل بدأ الآن، ليكون الحجّ إلى الحياة الإسلامية التى تنتظر أكثر من حج، إلى الساحات الملتهبة فى الواقع الإسلامى فى كل أنحاء العالم ..؛ ليكون الدين كله للَّه .. وتكون الحياة فى خدمة اللَّه ..

وتلك هى قصة الإنسان عندما يعبد ربه من موقع إحساسه بالإيمان المسؤول، والهدف المسؤول .. لا من موقع

۱- ۱ البقرة: ۲۰۰- ۲۰۲.

ص: ۱۳

إحساسه بالفراغ. وذلك هو البعد الحقيقى للحج .. إنهصناعة الإنسان المسلم الذى يحب اللّه ويحب الإنسان والحياة من خلال هذا الحبّ الواعى الخاشع المسؤول.

الهوامش:

ليشهدوا منافع لهم

ص: ۱۴

«ليشهدوا منافع لهم»

وهبة الزحيلى

الإسلام وشرائعه خير كلّه، ورحمة كلّه، ومصلحة كلّه، وفضل ونعمة مسداة كلّه، مَن دان به رشد، ومَن عمل به سعد، ومَن التزمه فاز ونجا، ومَن أعرض عنه أو انحرف زاغ وضلّ، وتاه وشذّ.

وكلّ شيء فى هذا الإسلام العظيم من عقيدة قائمة على التوحيد الخالص، والتنزيه المطلق للّه. وعبادة تصقل النفوس، وتهذب الطبائع، وتربى القلب، وتصحح الفكر، وتصلح الفرد والمجتمع. ومعاملة قائمة على الحقّ، والعدل والميزان، والاستقرار. وأخلاق وفضائل تقوّم الاعوجاج، وتلجم الأهواء والشهوات، وتنمى عواطف الحبّ والودّ والخير والسلام، وتحقق الاستقامة والرشد، وراحة النفس والضمير، وسلامة الأمة والجماعة ... كل هذه العقائد والعبادات، والأخلاق والمعاملات، ذات غايات سامية ومقاصد عالية، هدفها تهذيب النفس الإنسانية، وتربية الإنسان تربية قويمةصحيحة، توفّر على العلماء والدولة والمعلمين ثروات كبرى، لا تحتاج إلا إلى شيءٍ من التذكير والبيان، والتبسيط فى تحديد الأهداف والسمات المميزة لها.

وهذا واضح كل الوضوح، ففى جانب العبادات المفروضة فى الإسلام- منصلاة وزكاة وصيام وحجّ على سبيل المثال- حصر دقيق لغاياتها فى القرآن، يدور حول التقويم والتهذيب والتربية والإصلاح، وأكتفى بإيراد آية كريمة فى كلّ منها عدا الحجّ:

ففى قوله تعالى عن الصّلاة: «.. إنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ..» (۱) بيان الغاية التربوية منها.

وفى قوله سبحانه عن الزكاة: «خذ من أموالهمصدقةً تطهرهم وتزكيهم بها» (۲) إرشاد لجانب التطهير وتزكية النفوس وتخليصها من آفات البخل والشح، وإنقاذ المستضعفين من الفقراء والمساكين من ذلِّ الحاجة والضعف والعوز.

وفى قوله- عزّ وجلّ- عنصيام شهر رمضان: «يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم، لعلكم تتقون» (۳) بيانصريح لثمرة الصوم وفائدته العظمى، وهى إعداد النفس لتقوى اللّه، بترك الشهوات

۱- ۱ العنكبوت: ۴۵.

۲- ۲ التوبة: ۱۰۳.

۳- ۳ البقرة: ۱۸۳.

ص: ۱۵

المباحة والمحظورة، وتقويم النفس وتربيتها وتزكيتها، والالتزام بالمأمورات الإلهية، واجتناب المنهيات.

فهذه كلها غايات تربوية سامية تتحقق بممارسة العبادات، ومنها فريضة الحجّ بدءاً من رحلة المغادرة للوطن ثم العودة إليه، وهذه الرحلة تدريب عملى ميدانى على آداب الإسلام وأخلاقه، وتجرد خالص للعبادة، وإظهار شامل للطاعة المطلقة، وتصفية الأعمال من شوائب المادة وآصار الدنيا ومغرياتها، وتعلقات الحياة الرغيدة ومفاتنها، وتجوال الفكر العميق فى تقديس اللَّه- تعالى- وجلاله وعظمته، وتحقيق- كغيره من العبادات- لمنافع الدين والدنيا والآخرة.

قال اللَّه تعالى فى كتابه الكريم: «وأذّن فى الناس بالحجِّ يأتوك رجالًا وعلى كلّ ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم اللَّه فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير» (۱)فجاء الأمر الإلهى- فى هاتين الآيتين- بفريضة الحجّ، مقروناً ببيان حكمة الحجّ، للفرد والجماعة والأمة، فى نطاق العبادة والنفع الذاتى والاجتماعى والسياسى، فكانت منافعه وفوائده خاصة وعامة، لأنه بمثابة مؤتمر عام، يستفيد منه الحجّاج فوائد دينية بأداء الفريضة، وتربوية أخلاقية بالممارسة الفعلية للعلاقات الاجتماعية الحساسة والعادية، وسياسية إسلامية. يتداول فيه المسلمون- بنحو جماعى- أوضاع بلادهم، وشؤون شعوبهم، بإخلاص وصراحة، وجدية وحرارة، ونقد بنّاء، ومذاكرة فى هموم وآمال وآلام الأمة الإسلامية، يعودون بعدها لبلادهم، وهم مزوّدون بماينبغى فعله على الصعيدين: المحلى الخاص والدولى العام، واضعين نصب أعينهم وحدة الأمة الإسلامية ومصلحتها العليا، وأخوّة المؤمنين وما تتطلبه من تضحيات جسام وتعاون وتضامن فعّال، ووقوف بصرامة وجرأة أمام مخططات الأعداء ومؤامراتهم الخبيثة أو المشبوهة، ومحاولة التغلب عليها وإحباطها، حفاظاً على العزّة والكرامة الإسلامية، وحماية لوجود المسلمين، ورعاية لمصالحهم فى الداخل والخارج، سواء فى وقت السلم والاستقرار، أو فى وقت المحنة والحرب والصراع المسلح، والمجابهة الاقتصادية والتحديات المختلفة.

والكلام عن الآية: «ليشهدوا منافع لهم» يحتاج لبيان معنى اللام فى الفعل، ومعرفة سبب تنكير كلمة «منافع»، وتحديد أنواع المنافع.

أمّا معنى لام «ليشهدوا» فهو- كما جاء فى تفسير الميزان- للتعليل أو الغاية، والجار والمجرور فى «لهم» متعلق بقوله: «يأتوك» والمعنى: يأتوك لشهادة منافع لهم، أو يأتوك فيشهدوا منافع لهم. وجاء فى أحكام القرآن لابن العربى: هذه لام المقصود والفائدة التى ينساق الحديث لها، وتنسَّق عليه،- أى أنها لام الغاية والصيرورة- وأجلّها قوله تعالى: «... لتعلموا أنّ اللَّه على كل شىء قدير وأنّ اللَّه قد أحاط بكل شىء علماً» (۲). وقد تتصل هذه اللام بالفعل، كما تقدم، وتتصل بالحرف كقوله تعالى: «... لئلا يعلمَ أهلُ الكتاب ...» (۳).

وأمّا تنكير كلمة «منافع» فهو كما قال الفخر الرازى: إنما نكّر المنافع؛ لأنه أراد منافع مختصة بهذه العبادة، دينية ودنيوية، لا توجد فى غيرها من العبادات. وقال الآلوسى: «منافع» أى عظيمة الخطر، كثيرة العدد، فتنكيرها- وإن

۱- ۱ الحج: ۲۷- ۲۸.

۲- ۲ الطلاق: ۱۲.

۳- ۳ الحديد: ۲۹.

ص: ۱۶

لم يكن فيها تنوين- للتعظيم والتكثير، ويجوز أن يكون للتنويع، أى نوعاً من المنافع الدينية والدنيوية.

وأما المراد بكلمة «منافع» فيروى عن محمد الباقر رضى الله عنه تخصيص المنافع بالأخروية وهى العفو والمغفرة. وفى رواية عن ابن عباس- رضى اللَّه عنهما- تخصيصها بالدنيوية. أى أنه حملها على منافع الدنيا، وهى أن يتجروا فى أيام الحجّ، وتكون إذناً بالاتجار، كما جاء فى آية أخرى: «ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلًا من ربكم» (۱). قال القرطبى: ولا خلاف فى أن المراد بالآية: التجارة.

والأولى عند جماهير المفسّرين حمل الكلمة على الأمرين، أى المنافع الدينية والدنيوية معاً، وروى ذلك عن ابن عباس، فقد أخرج ابن أبى حاتم عنه أنه قال فى الآية: منافع فى الدنيا ومنافع فى الآخرة، فأما منافع الآخرة فرضوان اللَّه تعالى، وأما منافع الدنيا فما يصيبون من لحوم البُدْن (الإبل والبقر ونحوهما) فى ذلك اليوم، والذبائح والتجارات. وخصّ مجاهد منافع الدنيا بالتجارة، فهى جائزة للحاج من غير كراهة، إذا لم تكن هى المقصودة من السفر. وهذا مستبعد؛ لأن نداءهم ودعوتهم لذلك غير مقصود فى العبادة، بحسب العادة التشريعية.

والتعميم يشمل أربعة أمور: هى شهود (أى حضور) المناسك، كعرفات والمشعر الحرام، والمغفرة، والتجارة، والأموال، والمعنى: ليحضروا منافع لهم، أى ما يرضى اللَّه- تعالى- من أمر الدنيا والآخرة، فتتحقق بالحجّ منافع الدنيا والآخرة، وما أكثرها وأجداها لكل مؤمن.

وأُرجح القول بالعموم؛ عملًا بالمعهود من كثرة أفضال اللَّه وعوائده الحسنى على الناس؛ ولأن مقتضى الترغيب والتحريض على أداء الحجّ يناسب ذلك، ولا داعى للتضييق وتحجير الواسع، فإن سعة رحمة اللَّه شملت كلّ شىء. قال ابن العربى: والدليل عليه عموم قوله: «منافع» فكل ذلك يشتمل عليه هذا القول. وهذا يعضده تفسير قوله- تعالى-: «ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلًا من ربكم» وذلك هو التجارة بإجماع من العلماء. فيكون القصد من المنافع- إذن- منافع الدنيا والآخرة:

المنافع الدنيوية:

هى التى تكون سبباً لتقدم الحياة الإنسانية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية والأخلاقية والعادات كلها.

فيكون الحجّ والعمرة مدرسة عملية تدريبية على تحقيق المساواة التامة بين الناس فى مظهرهم وحقوقهم وواجباتهم، فلا يتميز غنى بغناه، ولا يعرف فقير بفقره، ولا حاكم بعزّته وسلطانه، ولا متنفذ ذو جاه بنفوذه وجاهه، ولا متفوق فى أى شىء بتفوقه وتميزه فكراً وعملًا واختراعاً وتطبيقاً. الكل يضرعون إلى اللَّه، ويتجهون إلى عزّته، والطمع بعفوه ومغفرته، والجميع يتساوون فى أداء المناسك والشعائر فى الوقوف بعرفات، والمشعر الحرام، ورمى الجمار، والطواف حول الكعبة المشرفة، والسعى بين الصفا والمروة، والحلق أو التقصير.

وبعد أداء المناسك يتذاكر الحجاج الآراء فى تبادل خيراتهم ومنتجاتهم وثرواتهم، فينتفع الكل فرداً وجماعة، ويعقدون الصفقات أو يصدرون الوعود، وتتم المكاتبات ومعرفة العناوين لإكمال ما تمت المفاوضة حوله.

وفى أثناء ممارسة تلك الشعائر يتعاطف الناس، ويتعلمون كيفية التخلص من داء الشح والبخل، فتسخو الأيدى، ويكثر العطاء والبذل، ويزداد الإنفاق فى سبيل اللَّه، وتراق الدماء من الأضاحى والقربات، ويعم الخير

۱- ۱ البقرة: ۱۹۸.

ص: ۱۷

الطوعى، ويستفيد الكل من هذا وذاك. وهذا يحقق تضامناً وتكافلًا اجتماعياً وطيد الجذور بين الأسرة الإسلاميّة الكبرى، ويغتنى الفقراء، وتظهر ثمرات نداء سيدنا إبراهيم عليه السلام فيما حكاه اللَّه عنه: «ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرّم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون» (۱).

ويقوى الشعور بالانتماء الخالد للأمة الإسلاميّة، والغيرة على مصالحها، والإحساس بواجب المسلم وحقه على أخيه المسلم، وضرورة الإسهام فى تفادى المشكلات، وتخطى المحن والأزمات والصعاب، وترسيخ جذور وحدة المسلمين، بالتعارف والتآلف، وتقييم الأحوال والأوضاع، والتخطيط لمستقبل باسم زاهر بعيد عن العثرات والمآسى والآلام. ويشعر الحجّاج بقوة الروابط التى تربطهم بإخوانهم فى المشارق والمغارب، والتى أنعم اللَّه بها عليهم، فأنشأها الإيمان، وحققها لهم الإسلام، وأحكم نسيجها بروابط الأخوة السامية المخلصة، والمحبة الصادقة، والودّ فى اللَّه ومن أجل اللَّه، والإيثار والتضحية والفداء، والصدق فى القول والعمل، والتأثر ببيئة وأحوال الصفا والطهر الذى كان الحجُّ مظلة لها، ومؤثراً فى تكوينها، فيسهل اللقاء، وتتجرد النفوس عن الأطماع والمصالح الذاتية، والأهواء والشهوات الصارفة عن جادة الاستقامة.

وتظهر فى رحلة الحجّ أخلاق سامية- عدا ما ذكر- من الصبر والتجمل وتحمل الأذى والمشقة، والتخلص من العادات الذميمة والخصال السيئة، والترفع عن المعاصى والذنوب، وتحلى النفوس بعواطف المحبة وتنمية عوامل الخير وصنع المعروف، مما يجعل هذه الرحلة من أقوم السبل المؤدية إلى تهذيب الأنفس وتقويم الطباع، والشعور براحة النفس والأمن والاطمئنان، وغمرة الفرحة والسعادة بأداء الفريضة، وبذكر اللَّه: «... ألا بذكر اللَّه تطمئن القلوب» (۲).

وقد حذّر القرآن الكريم من التورط بما يتنافى مع إيجابيات الحجّ وآدابه المتعددة، فقال تعالى: «الحجُّ أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج وما تفعلوا من خير يعلمه اللَّه وتزودوا فإنّ خير الزاد التقوى واتقون يا أولى الألباب» (۳). ويبشّر النبيصلى الله عليه و آله و سلم الحجّاجَ المترفعين عن دنايا الأخلاق، المعتصمين بعفة اللسان وطهارة القلب، يبشرهم بالمغفرة الشاملة، فقال فيما يرويه البخارى ومسلم والنسائى وابن ماجه والترمذى عن أبى هريرة: «مَن حجّ، فلم يرفُثْ، ولم يفسُق، رجع من ذنوبه كيومَ ولدته أُمّه» والرفث كما قال الأزهرى: كلمة جامعة لكل مايريده الرجل من المرأة. والفسق: المعصية، وقد جاء من حديث جابر مرفوعاً: «إن بِرَّ الحجّ: إطعام الطعام، وطيبُ الكلام، وإفشاء السلام».

ويمكن تلخيص منافع الحجّ الدنيوية: بطهر النفس، ونقاء القلب، وعفة اللسان، وسلامة الجوارح (الأعضاء) من كل ما يشينها ويوقع فى الأذى.

منافع الحجّ الأخروية:

۱- ۱ ابراهيم: ۳۷.

۲- ۲ الرعد: ۲۸.

۳- ۳ البقرة: ۱۹۷.

ص: ۱۸

هی وجوه التقرب إلی اللَّه تعالی، بما یمثّل عبودیة الإنسان من قول وفعل، وترک لذائذ الحیاة وشواغل العیش، کما جاء فی تفسیر المیزان. وثمرته واضحة وهی محو الذنوب، وغفران السیئات، وتحقیق المساواة بین العباد، فلا تفاضل بینهم إلا بالتقوی والعمل الصالح، کما فی قوله تعالی: «إن أکرمکم عند اللَّه أتقاکم إن اللَّه علیم خبیر» (۱).

إن مناسک الحجّ ترشد إلی معانٍ کثیرة، لا یصح لحاج تخطیها دون تأمل وإدراک، وإمعان النظر فیها؛ لأن فهم الحکمة التشریعیة منها تزید النفس متعة، وتبعث لأداء التکالیف الشرعیة والطاعات الإلهیة، وتحقق مغزی الحجّ علی النهج الربانی المقصود به خیر الإنسان وإسعاده.

فالإحرام والتجرّد من لباس الرجال- ما عدا ستر العورات بملابس الإحرام المعروفة- یقمع شهوات النفس والأهواء، ویبعد الناس عن التفکیر فی الدنیا، ویوجه الإنسان إلی الخالق والتفکیر بقدسیته وعظمته وجلاله، ویؤدی إلی سمو الروح، وترقی الوجدانات والضمائر، وإظهار الخضوع والتواضع للَّه تعالی، والبعد عن شوائب الکبریاء والغرور، وعلاج أمراض النفس من حبّ الاستعلاء ومزامنة الحقد والشحناء، وإخلاص العمل للَّه جلّ جلاله، وبغیر الإخلاص للَّه الذی هو جوهر الدین لا قیمة لأی عمل، ولا فضل لأی مسلم فی عبادة ومعاملة وخلق وغیر ذلک. ومن أهم مقومات الإخلاص: التسامح مع المسلمین، وتطهیر النفوس من البغضاء والأحقاد والخصومات لهم، سواء المعاصرون أم الغابرون، عملًا بقول اللَّه- تبارک وتعالی-: «والذین جاءُوا من بعدهم یقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذین سبقونا بالإیمان ولا تجعل فی قلوبنا غلًا للذین آمنوا، ربنا إنک رؤوف رحیم» (۲).

ونشید التلبیة الذی یردّده الحجّاج، بدءاً من الإحرام حتیصباح یوم العید برجم جمرة العقبة الکبری شاهد حی، وواقع ملموس علیصدق التوجه إلی اللَّه تعالی، والترفع عن أوضار (أوساخ) الدنیا وشهواتها، والتذکیر الدائم بطاعة اللَّه وامتثال أوامره واجتناب نواهیه.

والحضور إلی بیت اللَّه الحرام لزیارته یحقّق منافع الدنیا والآخرة؛ لأن شهود الکعبة المشرفة إرواء لتعلق القلوب المتلهفة لها، والإنسان مجبول علی حبّ النفع.

والطواف حول البیت الحرام یؤکّد وحدة المسلمین العامة، ودلیل علی التشبه بملائکة الرحمن الحافین حول العرش، وتصعید الروح نحو العلو الإلهی، وعروج إلی ملکوت اللَّه بالقلب والفکر، وتذکیر دائم بصاحب البیت وهو اللَّه جلّ وعلا، وتجدید العهد مع اللَّه علی الإقرار بربوبیته ووحدانیته، بدءاً من نقطة الانطلاق فی الطواف بالحجر الأسود أو الأسعد؛ لیکون قرینة أو أمارة علی وحدة العمل بین الناس، وطریقاً لإنفاذ عهد اللَّه علی الحقّ والعدل والخیر والتوحید والفضیلة. وهذا العهد الإلهی القدیم أشار إلیه القرآن المجید فی قوله تعالی: «وإذ أخذ ربّک من بنی آدم من ظهورهم ذریَتهم وأشهدهم علی أنفسهم، ألستُ بربکم قالوا بلی شهدنا أن تقولوا یوم القیامة إنا کنا عن هذا غافلین» (۳).

والسعی بین الصفا والمروة تردد فی معالم الرحمة الإلهیة، والتماس للمغفرة والرضا الربانی، وتلمس لأفضال اللَّه وخیراته، وطلب عونه لتحمل مشاق الحیاة، کما فعلت السیدة هاجر زوج إبراهیم الخلیل علیه السلام حین أعوزها الماء، فقامت تسعی ضارعة إلی اللَّه- تعالی- لإرواء ظمئها، وسدّ حاجة ابنها إسماعیل علیه السلام، قال اللَّه تعالی: «إن الصفا والمروة من شعائر اللَّه فمن حجّ البیت أو اعتمر فلا جناح علیه أن یطوّف بهما ومَن تطوع خیراً فإن اللَّه شاکر علیم» (۴).

۱- ۱ الحجرات: ۱۳.

۲- ۲ الحشر: ۱۰.

۳- ۳ الأعراف: ۱۷۲.

۴- ۴ البقرة: ۱۵۸.

ص: ۱۹

وقال النبيّصلى الله عليه و آله و سلم فيما رواه أحمد فى مسنده: «اسعَوا فإن اللَّه كتب عليكم السعى».

والوقوف بعرفة فى ساحة الرضوان الإلهى، الساحة الواحدة الشاملة لجميع الحجّاج، إقبال خالص على اللَّه عزّ وجلّ، واتصال روحانى مباشر مع اللَّه، واحتماء بسلطان اللَّه، وطلب فضله ورحمته، موقناً الحاج بإجابة دعائه.

وأما الرمى أو رجم إبليس فى يوم العيد وأيام التشريق الثلاثة: فهو رمز مادى لمقاومة وساوس الشيطان وأهوائه، والتخلص من نزعات الشر، ومحاربة الفساد والانحراف، فهو كما يقول المناطقة: «المحسوس يدل على المعقول» فيكون رمى الجمرات، واستلام الحجر الأسود، والطواف حول الكعبة، تمثيلًا للحقائق بصور المحسوسات، ورمزاً لمعانٍ عميقة بصور حركية مادية، تذكّر المؤمن بأهدافها وغاياتها، وتحمله على استدامة المقاومة لشرور النفس ونزعاتها.

هذا هو القصد من هذه الشعائر، وليس كما يتصور سخفاء العقول من المستشرقين، وضعفاء الإيمان، أن مناسك الحجّ دوران حول أحجار، وتعظيم للرموز المادية، وامتداد للوثنية.

وقد تنتهى هذه الشعائر بذبح الأضاحى والنذور وجزاءات المخالفة للمناسك؛ ليكون ذلك الوداع الأخير للرذيلة بإراقة الدم تعبيراً عن التخلص منها، والتزام فضيلة التضحية والفداء، كما قال اللَّه تعالى: «لن ينالَ اللَّهَ لحومُها ولا دماؤها ولكن ينالُه التقوى منكم كذلك سخّرها لكم لِتكبروا اللَّه على ما هداكم، وبشر المحسنين» (۱).

وكلّ هذه الشعائر والمناسك ذات المنافع الأخروية، تدل دلالة قوية على الثقة باللَّه، وطلب أفضاله، وتشعر الإنسان فى أعماق نفسه بعظمة اللَّه وجلاله؛ وحلاوة مناجاته وعبادته، وطلب رضاه وقربه، فيكثر البكاء، ويشتدّ النحيب، وتصفو النفوس، وتتكاثر حالات التوبة النصوح الخالصة للَّهوالندم على الماضى. هذا فضلًا عن تذكر أهل الإيمان بماضى الإسلام، وجهاد نبىّ اللَّه وصحبه الكرام فى نشر دعوة اللَّه، وتحطيم معاقل الشرك، وهدم معالم الوثنية، وتهاوى الأصنام، وانتصار دعوة الحقّ والتوحيد. وما أجمل منافع الحجّ فى حديث رواه البيهقى: «الحجاج والعمّار وفد اللَّه، إن سألوا أُعطوا، وإن دعوا أُجيبوا، وإن أنفقوا أُخلف لهم»!.

الهوامش:

۱- ۱ الحجّ: ۳۷.

ص: ۲۰

إتمَام الحجج فی تفسیر مَدلول و لا جدَال فی الحَج

ص: ۲۱

إتمَام الحجج فی تفسیر مَدلول و لا جدَال فی الحَج

محمد باقر حجتی

تمهید:

الحمد للَّهالذی حرّضنا علی الجدال والقتال- فی جلّ الأحوال- ضد أولیاء کل شیطان محتال، ومنافق بطّال، ومشرک مختال، وقال: «... حرّض المؤمنین علی القتال ...»، و «... جاهد الکفار والمنافقینَ واغلُظ علیهم ...»، و «... فقاتلوا أولیاء الشیطان ...»، وقال: «... وجادلهم بالتی هی أحسن ...».

والصلاة والسلام علی محمد وجمیع انبیاء اللَّه ورسله، الذین جادلوا بالحق لیدحضوا به الباطل، والمشرکین فأکثروا جدالهم، وعلی آله الذین أفرغوا جهدهم فی دعوة الناس إلی سبیل ربّهم بالحکمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتی هی أحسن، فبذلوا وسعهم فی مجادلة الملاحدة والکفرة فأحسنوا جدالهم.

وبعد، فقد قال عزّ من قائل: «الحجُّ أشهر معلومات فمَن فرض فیهن الحجَّ فلا رفث ولا فسوق ولا جِدال فی الحجّ وما تفعلوا من خیر یعلمه اللَّه وتزوّدوا فإن خیر الزاد التقوی واتّقون یا أولی الألباب» (۱).

قبل أن نتناول تفسیر الآیة نلقی الضوء علی کلمة «جدال» لغة واصطلاحاً الواردة فیها:

ألف- المدلول اللغوی للجدال:

۱- کلمة الجدال، بکسر الجیم من «الجَدْل»، وللجدل ذکرت المعانی التالیة: شدّة الفتل التی هی أصل معنی «الجدل» (۲)، فالإحکام والفتل هما روح هذه اللغة، ویشکّلان أساسها أیضاً. وسائر المعانی الأخری التی ذکرت لهذه اللغة فی المعاجم وکتب اللغة ترجع إلی هذین المفهومین الذین هما أساسا هذهِ اللغة وتلائمهما. ولهذه المناسبة والملاءمة تطلق کلمة الجدیل علی «زمام الناقة» الذی یفتل من الأدم أو الشَّعْر، ویعلّق علی عنق البعیر أو الناقة، کما قال

۱- ۱ البقرة: ۱۹۷.

۲- ۲ معجم متن اللغة، ط دار مکتبة الحیاة، بیروت ۱۳۳۷ ه. ق ۱: ۴۸۹.

ص: ۲۲

ابن منظور: «الجديل حبل مفتول من أدم أو شعر يكون فى عنق البعير أو الناقة». والذى يصحّح اطلاق الجديل على زمام النّاقة أو البعير هو أن هذا الزّمام مفتول وأُحكم فَتْله. وبهذه المناسبة تستعمل كلمة المجادلة فى المخاصمة والمنازعة والمشاجرة،- وهى نظائر- لأن كل واحد من الخصمين يروم أن يفتلصاحبه عن رأيه الحق أو الباطل (۱).

ونشير هنا إلى أن الجديل فى بعض المعاجم- أيضاً- بمعنى الزّمام، وبمعنى عقدى اللؤلؤ والمجوهرات الملوّنة اللذَيْن تشدّهما المرأة عليصدرها: «الوشاح» (۲).

۲- اشتدادصغار الغزال والحيوانات الأخرى لتكون قادرة على أن تتبع أمّها. أو اشتداد الحبّة فى السّنبلة، وبهذه المناسبة تطلق كلمة الجدل والجديل على العظام الكبيرة والمستحكمة، والعظام المجوّفة فى اليد والرّجل، وعلى معان أخرى تفيد جميعها مفهوم القوّة والاستغلاظ. والجدل، باعتبار القدرة على المخاصمة والجدال، قد استعمل انطلاقاً من هذا المفهوم، ولذلك أطلقت على كل فرد لَدُود فى المخاصمة (۳).

وبمراجعة معاجم اللغة ودراسة النصوص الأصيلة التى وردت فيها مادّة هذه الكلمة، نستنتج أن فى مفهوم هذه الكلمة- فى الغالب- معنى الفتل أو الاستحكام والقوة، أو المعنيين معاً.

من هنا يجب أن نتلمّس فى مفهوم الجدال روح هذه اللفظة: التى هى عبارة عن القدرة والقوة والفتل والشدّ.

أى أن الفرد الذى يعمد إلى الجدال يكون قوياً «ومتصلباً» فى الخصومة، ويستهدفصرف الجانب الآخر عن نظرياته، ويدفعه إلى الاستسلام.

ويُرى فى المعاجم توسعٌ أكثر فى المدلول اللغوى للجدال، لو أردنا استعراضه لطال بنا الحديث؛ لذلك نختم الكلام مكتفين بهذا المقدار، لنبدأ الحديث فى المدلول الاصطلاحى لكلمة الجدل والجدال:

ب- المفهوم الاصطلاحى للجدال والجدل: جدل/ ()

() الجدل طريقة فى المناقشة والاستدلال، وأخذ معانى متعددة فى المدارس الفلسفية المختلفة:

* عند سقراط: مناقشة تقوم على حوار وسؤال وجواب، يعنى (التهكم والتوليد).

* عند أفلاطون: منهج فى التحليل المنطقى يقوم على قسمة الأشياء إلى أجناس وأنواع، بحيث يصبح علم المبادئ الأولى والحقائق الأزلية.

* عند أرسطو ومناطقة المسلمين: قياس مؤلف من مشهورات ومسلّمات.

* عند هيغل: انتقال الذهن من قضية ونقيضها إلى قضية ناتجة عنهما، ثم متابعة ذلك حتى نصل إلى المطلق.

* عند كانط: منطق ظاهرى ينحصر فى سفسطة المصادرة على المطلوب وخداع الحواس. قال الجرجانى فى «التعريفات»: الجدل هو القياس المؤلف من المشهورات والمسلّمات، والغرض منه إلزام الخصم وإفحام من هو قاصر عن إدراك مقدّمات البرهان (۴).

الجدل والمجادلة فى القرآن الكريم والأحاديث:

۱- ۱ القاموس المحيط، ۳: ۳۶۴- وكتاب معجم متن اللغة، ۱: ۴۹۰.

۲- ۲ القاموس المحيط، ۳: ۳۶۴- وكتاب معجم متن اللغة.

۳- ۳ انظر المراجع السابقة المذكورة فى اللغة، الفيروز آبادى وابن منظور على أن «الجدل» بالتحريك: اللّدَدْ فى الخصومة والقدرة عليها. راجع: القاموس المحيط، ۳: ۳۴۷- لسان العرب، ۱: ۴۲۰.

۴- ۴ راجع لسان العرب: المصطلحات العلمیة والفنیة، ۴: ۱۰۷.

ص: ۲۳

وردت کلمة «الجدل» فی کتاب اللّه العزیز فی موضعین، ووردت مشتقّات من المجادلة فی ثلاثة وعشرین موضعاً، ووردت کلمة الجدال فی موضعین.

ینبغی قبل دراسة هذه المواضع التذکیر بأن مصطلح «الجدل»- إضافة إلی أنه یعنی فی المنطق القیاس المتأتی من المشهورات والمسلّمات- فی علوم القرآن والتفسیر یعنی أیضاً، الاستدلال والقیاس البرهانی. وعلی سبیل المثال:

۱. بدر الدین الزرکشی فی النوع الثالث والثلاثین عقد باباً فی کتابه «البرهان» تحت عنوان «فی معرفة جدله» (۱)، أی جدل القرآن.

۲. وهذا هو جلال الدین السیوطی فی النوع الثامن والستین فتح باباً فی کتابه «الإتقان» تحت عنوان «فی جدل القرآن» (۲).

وهما قصدا من الجدل «مفهوماً واسعاً» یشمل القیاس الجدلی والقیاس البرهانی عند المنطقیین. وقال بدر الدین الزرکشی:

«وقد أفرده بالتصنیف نجم الدین الطوفیّ (ت ۷۱۶ ه. ق)، قال العلماء: «قد اشتمل القرآن الکریم علی جمیع أنواع البراهین والأدلة، وما من برهان ودلالة وتقسیم وتحذیر یبنی من کلیات المعلومات العقلیة أو السمعیة إلا وکتاب اللّه قد نطق به ..» (۳).

واضح أن المقصود من هذا المصطلح لیس هو مفاهیم الجدل الأخری کالمغالطة والسفسطة، بل هو استخدام القیاس الذی یهدی الخصم إلی الحق والحقیقة وصلاح الحال والمآل، من هنا لا- یمکن القول: إن الجدل أو المجادلة تقوم علی المخاصمة واللّجاج المذموم، وحتّی فی القرآن الکریم- حیث وردت مشتقّات هذه الکلمة فی مواضع مختلفة، وفی استعمالات متباینة- لم ترد جمیعاً بمعنی الخصومة والجدال المذموم.

الجدل والمجادلة فی القرآن أساساً بمفهوم الاستدلال، فوردت فی مواضع بمعنی الاستدلال الخاطئ والواهی الممزوج بالمخاصمة، وفی مواضع أخری بمعنی الاستدلال الصحیح والمنطقی ذی الأساس العقلانی المقرون بالأنس والمحبة والمودّة.

وبشکل عام أن المنهیّ عنه فی القرآن من الجدل والمجادلة هو اللّجاج والعناد، والاستدلال المقرون بالسفسطة لإثبات أمر باطل بعید عن الواقع. نقول فی تفسیر الآیة ۱۹۷ من سورة البقرة: إن الجدال والاستدلال المتجه إلی إثبات الحق لیس بمنهیّ عنه فی القرآن الکریم بل هو أکثر من ذلک، فقد کُلّف المسلمون جمیعاً بمثل هذا الجدال والمجادلة، کما سنری فی تفسیر هذه الآیة:

«الحجُّ أشهر معلومات فمن فرض فیهنّ الحجّ فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فی الحج ...».

المدة لأداء مناسک الحج هی الأشهر التی عینتها الشریعة المقدسة الإسلامیة، ولا یمکن أداء هذه المناسک أکثر من مرة واحدة فی السنة، بینما یمکن شرعاً أداء العمرة عدّة مرات خلال أشهر السنة. والأشهر التی یمکن فیها أداء مناسک الحج علی رأی الشیعة: شوال وذو القعدة وعشرة أیام من ذی الحجة أو کل ذی الحجة (۴)، وأهل السّنة

۱- ۱ البرهان فی علوم القرآن، ط دار المعرفة للطباعة والنشر، بیروت، ۲: ۲۴. ولأجل الاطلاع علی أنواع الاستدلال فی القرآن، راجع نفس المصدر، ۲: ۲۴- ۲۵.

۲- ۲ الإتقان فی علوم القرآن، تحقیق محمد أبو الفضل ابراهیم، ۴: ۶۰. ذکر السیوطی فی هذا النوع أصناف الجدل والاستدلال التی وردت فی القرآن الکریم، راجع نفس المصدر ۴: ۶۰- ۶۶.

۳- ۳ البرهان فی علوم القرآن، ۲: ۲۴- وانظر أیضاً: الإتقان، ۴: ۶۰. حریّ بالذکر أن السیوطی فی کتابه «الإتقان» لم یأت بشیء زائد علی ما فی البرهان.

۴- ۴ انظر مجمع البیان للطبرسی، ط کتابفروشی اسلامیة، طهران، ۱۳۷۳ ه. ق، ۲: ۳۹۳- وجواهر الکلام فی شرح شرائع الإسلام للنجفی، ط دار إحیاء التراث العربی، ۱۹۸۱ م، ۱۸: ۱۲- ۱۳.

ص: ۲۴

أیضاً ذهبوا إلی أن الفترة هی شوال وذو القعدة وبعض أیام من ذی الحجة وقیل: إنها العشرة الأولی من هذا الشهر (۱).

من هنا لا یجوز تقدیم المناسک ولا تأخیرها عن هذه الأشهر، کما کان یفعل النسأة الذین کانوا یجیزون تقدیم الحج وتأخیره، وقد قال اللَّه تعالی: «إنّما النسیء زیادة فی الکفر یُضلّ به الّذین کفروا یُحلّونه عاماً ویُحرّمونه عاماً لیواطئوا عدّة ما حرّم اللَّه فیُحلّوا ما حرّم اللَّه، زیّن لهم سوء أعمالهم واللَّه لا یهدی القوم الکافرین» (۲)(۳).

النسأة هم الذین أحلّوا التقدیم والتأخیر فی الحج.

ومن أوجب علی نفسه الحجَّ فی هذه الأشهر- أی الأشهر المحدّدة لإحرام الحج- وأحرم فیها لعمرة التمتع علی رأی الشیعة، فلا یجوز له أن یمارس الأعمال الجنسیّة من جماع وتلذّذ: «فلا رفث». ولا یجوز له الکذب، کما یجب أن یصون لسانه من سبّ المؤمن وشتمه، فقد قال رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم: «سباب المؤمن فسوق وقتاله کفر» (۴).

وقیل: إن المراد بالفسوق کل ألوان المعاصی. وقال بعضهم: «إنه التنابز بالألقاب» أو «الکذب» (۵)، ولا جدال فی الحجِّ.

وکل ما یقدّمه الإنسان من عملصالح، فاللَّه به علیم، ولعدله یثیب الصّالحین علی ما قدّموا من خیر. وتأمر الآیة بالتزوّد فی الحجّ بما یحتاجه المسافر فی الطریق، أو بالأعمال الصالحة التی هی زاد الآخرة، «فإنّ خیر الزاد التقوی».

وتؤکد الآیة الکریمة علی التقوی لأجل مطالبة أهل العقول أن یتّقوا اللَّه «واتقون یا أولی الألباب»، هذا هو موجز تفسیر الآیة المذکورة فی سورة البقرة.

* والذی نرید أن ندرسه ونمعن النظر فیه بدقة هنا، هو الجدال المنهی عنه فی هذه الآیة، ذلک لأن فئة من السطحیین أو المتزمتین الجاهلین، أو الفقهاء المأجورین للمستکبرین، المنفذین لأوامر السلاطین، اتخذوا من هذه الآیة ذریعة لتوجیه سیاط نقدهم إلی المسلمین، الذین یرفعونصوتهم فی موسم الحجِّ بلعن شیاطین الإنس والجن، والذین یستهدفون توعیة المسلمین واستنهاضهم.

«ولا جدال فی الحجِّ»، ما هو الجدال المَنهی عنه فی الحجِّ؟

ألف- ما هو المقصود من هذا الجدال؟

۱- آراء المفسرین وعلماء الشیعة فی هذا المجال:

ذکر المفسرون وفقهاء الشیعة أن الجدال فی الحج هو قول: «لا واللَّه» و «بلی واللَّه» جدیر بالذکر أن هذا القول هو الحدّ الأدنی من الجدال، حیث یروم الفرد بذلک القسم أن یصرّ علی قوله ورأیه، أو ینقض رأی مخاطبه لیرجّح علیه رأیه.

من هذا یتبیّن أن «الجدال فی الحجّ»- بهذا المفهوم- مقرون بالقسم، أی مقرون بالتشدید والتأکید، وهذا المعنی یرتبط بما ذکرناه بشأن الأصل اللغوی لکلمة الجدال.

۱- ۱ انظر التفسیر الکبیر للرازی، ط دار احیاء التراث العربی، ۱۹۸۱ م، ۵: ۱۶۲- وتفسیر القرآن العظیم لابن کثیر، ط دار المعرفة، بیروت، ۱۴۰۳ ه. ق، ۱: ۲۳۶.

۲- ۲ التوبة: ۳۷. معنی النسیء: تأخیر الأشهر الحرم عمّا رتّبها اللَّه تعالی علیه.

وکانت العرب تحرّم الشهور الأربعة وهی ذو القعدة وذو الحجة والمحرّم ورجب وذلک مما تمسّکت به من ملّة إبراهیم وإسماعیل. وهم کانوا أصحاب غارات وحروب، فربما یشقّ علیهم أن یمکثوا ثلاثة أشهر متوالیة لا یغزون ویقولون: إنّ مهنتنا هی الحرب والغارة، ولو أمسکنا عن الحرب والغارة فی مدّة طویلة- یعنی ذی القعدة وذی الحجة، والمحرّم- لتعبنا. فکانوا یؤخرون تحریم المحرّم إلیصفر،

فیحرّمونه ویستحلّون المحرّم، فیمکثون بذلک زماناً ثم یؤول التحریم إلی المحرّم، ولا یفعلون ذلک إلا فی ذی الحجة. ولمّا أحلّوا المحرّم سمّوه أحد الصفرین.

قال مجاهد: کان المشرکون یحجون فی کل شهر عامین، فحجّوا فی ذی الحجة عامین، ثمّ حجّوا فی المحرّم عامین، ثمّ حجّوا فیصفر عامین، وکذلک فی الشّهور حتّی وافقت الحجّة التی قبل حجّة الوداع فی ذی القعدة. ثمّ حجّ النّبیصلی الله علیه و آله و سلم فی العام القابل حجّة الوداع، فوافقت فی ذی الحجة، فذلک حین قال النّبیصلی الله علیه و آله و سلم وذکر فی خطبته:

«ألا وإن الزمان قد استدار کهیئة یوم خلق السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم، ثلاثة متوالیات: ذو القعدة وذو الحجّة ومحرّم. ورجب الذی بین جمادی وشعبان».

أرادصلی الله علیه و آله و سلم: الأشهر الحرم رجعت إلی مواضعها، وعاد الحجّ إلی ذی الحجّة وبطل النسیء. قال العلّامة المیرزا أبو الحسن الشعرانی: قول مجاهد من الأقوال التی لیس فیها إبهام، بل هو أوضح من القول الأوّل، ولکن أوضح ما ذکر فی شرح النسیء هو ما قاله أبو ریحان البیرونی فی «الآثار الباقیة عن القرون الخالیة». وحاصله:

أن السنة القمریّة تتقدّم علی الشّمسیة عشرة أیام تقریباً فی کل عام، فإذا مضی ثلاثة أعوامصار المتأخر بمقدار شهر. وکانوا یزیدون علی السنة الثالثة شهراً، ویجعلون أول السّنة الرّابعة منصفر ویسمونه «محرماً» فکان یقع حجهم فی تلک السّنة من محرّم، ثم بعد سنتین فیصفر، وهکذا. وغرضهم من ذلک التشبه بالیهود فی تطبیق الشهور علی الفصول. وفی تفسیر الرازی والنیشابوری ما یعین علی فهم ذلک. راجع: مجمع البیان، ۵: ۲۹ وهامشه- وکشف الأسرار وعدّة الأبرار، ط ۲، طهران، ۱۳۵۷ ه. ش، ۴: ۱۳۸- روض الجنان وروح الجنان لأبی الفتوح الرّازی، ط ۲، شرکت تضامنی علمی، طهران، ۱۳۶۱ ه. ق، ۵: ۱۷۸. وهذان التفسیران من التفاسیر الّتی کتبت باللّغة الفارسیّة.

۳- ۲ التوبة: ۳۷. معنی النسیء: تأخیر الأشهر الحرم عمّا رتّبها اللّه تعالی علیه.

وکانت العرب تحرّم الشهور الأربعة وهی ذو القعدة وذو الحجة والمحرّم ورجب وذلک مما تمسّکت به من ملّة إبراهیم وإسماعیل. وهم کانوا أصحاب غارات وحروب، فربما یشقّ علیهم أن یمکثوا ثلاثة أشهر متوالیة لا یغزون ویقولون: إنّ مهنتنا هی الحرب والغارة، ولو أمسکنا عن الحرب والغارة فی مدّة طویلة- یعنی ذی القعدة وذی الحجة، والمحرّم- لتعبنا. فکانوا یؤخرون تحریم المحرّم إلیصفر، فیحرّمونه ویستحلّون المحرّم، فیمکثون بذلک زماناً ثم یؤول التحریم إلی المحرّم، ولا یفعلون ذلک إلا فی ذی الحجة. ولمّا أحلّوا المحرّم سمّوه أحد الصفرین.

قال مجاهد: کان المشرکون یحجون فی کل شهر عامین، فحجّوا فی ذی الحجة عامین، ثمّ حجّوا فی المحرّم عامین، ثمّ حجّوا فیصفر عامین، وکذلک فی الشّهور حتّی وافقت الحجّة التی قبل حجّة الوداع فی ذی القعدة. ثمّ حجّ النّبیصلی الله علیه و آله و سلم فی العام القابل حجّة الوداع، فوافقت فی ذی الحجة، فذلک حین قال النّبیصلی الله علیه و آله و سلم وذکر فی خطبته:

«ألا وإن الزمان قد استدار کهیئة یوم خلق السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم، ثلاثة متوالیات: ذو القعدة وذو الحجّة ومحرّم. ورجب الذی بین جمادی وشعبان».

أرادصلی الله علیه و آله و سلم: الأشهر الحرم رجعت إلی مواضعها، وعاد الحجّ إلی ذی الحجّة وبطل النسیء. قال العلّامة المیرزا أبو الحسن الشعرانی: قول مجاهد من الأقوال التی لیس فیها إبهام، بل هو أوضح من القول الأوّل، ولکن أوضح ما ذکر فی شرح النسیء هو ما قاله أبو ریحان البیرونی فی «الآثار الباقیة عن القرون الخالیة». وحاصله:

أن السنة القمریّة تتقدّم علی الشّمسیة عشرة أیام تقریباً فی کل عام، فإذا مضی ثلاثة أعوامصار المتأخر بمقدار شهر. وکانوا یزیدون علی السنة الثالثة شهراً، ویجعلون أول السّنة الرّابعة منصفر ویسمونه «محرماً» فکان یقع حجهم فی تلک السّنة من محرّم، ثم بعد سنتین فیصفر، وهکذا. وغرضهم من ذلک التشبه بالیهود فی تطبیق الشهور علی الفصول. وفی تفسیر الرازی والنیشابوری ما یعین علی فهم

ذلک. راجع: مجمع البیان، ۵: ۲۹ وهامشه- وکشف الأسرار وعدّة الأبرار، ط ۲، طهران، ۱۳۵۷ ه. ش، ۴: ۱۳۸- روض الجنان وروح الجنان لأبی الفتوح الرّازی، ط ۲، شرکت تضامنی علمی، طهران، ۱۳۶۱ ه. ق، ۵: ۱۷۸. وهذان التفسیران من التفاسیر الّتی کتبت باللّغة الفارسیّة.

۴- ۳ مجمع البیان، ۲: ۲۹۴- تفسیر القرآن العظیم، ۱: ۲۳۷- والکافی أصول ...، ط کتابفروشی اسلامیة، طهران، ۴: ۶۴ تری فی المصدر الأخیر عبارة أضیفت إلی هذا الحدیث، وهی «... وأکل لحمه معصیة، وحرمة ماله کحرمة دمه»، وانظر أیضاً جامع البیان للطبری، ط دار المعارف مصر، ۴: ۱۵۰- ومسند أحمد، ۳۶۴۷.

۵- ۴ مجمع البیان، ۲: ۲۹۴- روض الجنان، ۱: ۵۰۳- کشف الأسرار، ۱: ۵۳۱- المنار، ۲: ۲۲۷- جواهر الکلام، ۱۸: ۳۵۵.

ص: ۲۵

حسب هـذه النّظریـة، لـو أراد شـخص أن یؤکّـد أقواله أو ینقض أقوال الآـخرین، ولم یمزج ذلـک بقسم، ولم یشـدّد علی قوله بیمین، فلیس ذلک من الجـدال فی الحجّ ولم یصدر بشأنه نهی (۱). ولکی نعطیصورة أکمل عن نظریة الشّیعة فی هذا الصدد، نذکر خلاصة لما ذکره المرحوم الشیخ محمّد النجفی الإصفهانی حول الجدال فی الحج:

«والجدال کتاباً وسنّة وإجماعاً بقسمیه (۲) هو علی ما فی أکثر کتب الأصحاب أو جمیعها وأکثر النصوص، قول «لا واللّه» و «بلی واللّه» (۳).

ونحن نذکر بعض النصوص علی سبیل المثال:

صحیـح معاویة بن عمّار، قال: سألت أبا عبد اللّه (جعفر بن محمّد الصّادق) علیه السـلام عن رجل یقول: «لا لعمری» وهو محرم؟ فقال: لیس بالجـدال، وإنما الجدال قول الرّجل «لا واللّه وبلی واللّه»، وأما قوله «لا ها» فإنما طلب الاسم، وقوله «یا هناه» فلا بأس به، وأما قوله «لا بل شانیک» فإنه من قول الجاهلیة (۴).

وفی خبر أبان بن عثمان عن أبی بصیـر- علی ما فی التهـذیب (۵)- قال أبو عبـد اللّه علیه السـلام: «إذا حلف الرّجل ثلاث أیمان (۶)- وهوصادق، وهو محرم- فعلیه دم یهرقه، وإذا حلف یمیناً واحدة کاذباً فقد جادل، فعلیه دم یهرقه» (۷).

لکن روی عن أبی بصیر فی خبر آخر أنه قـال: سـألته عن المحرم یریـد أن یعمـل العمـل فیقولصـاحبه: «واللّه لاـ تعمله»، فیقول: «واللّه لأعملنّه» فیخالفه مراراً، أیلزمه ما یلزمصاحب الجدال؟ قال: إنما أراد بهذا إکرام أخیه، إنما ذلک ما کان فیه معصیة» (۸).

الجـدال عنـد الإمامیـة قول «لا واللّه وبلی واللّه» بـدلیل إجماع الطائفـة وطریقـة الاحتیاط، وأما قول المخالف: «لیس فی لغـة العرب أنّ الجـدال هو الیمین» لیس بشـیء؛ لأـنه لیس بممتنع أن یقتضـی العرف الشّـرعی ما لیس فی الوضع اللغوی ...، بل ظاهر الروایات اعتبار الکذب أو کونه معصـیة مع ذلک، فلو جادلصادقاً لم یکن علیه شیء، مؤید ذلک بأصل البراءة، وبنَفْی الضرر والحرج فی الدین، وبأنه ربما وجب عقلًا وشـرعاً، إلا أن عموم النص والفتوی، وخصوص نص الکفارة علی الصّادق بخلافه، ولعل هذا ما دعا الجبعی [العاملی] إلی القول فی الدّروس (۹):

«الجدال فاحشة إذا کان کاذباً أو فی معصیة، فاذا قاله مرّتین فعلیه شاة» (۱۰).

ویقولصاحب الجواهر:

«ثمّ إن الظاهر عدم اعتبار وقوع الأمرین (یعنی «لا واللّه» و «بلی واللّه») فی تحقق الجدال، فیکفی أحدهما ...

فتلخص ممـا ذکرنـا کون الجـدال الحلف بـاللّه بالصـیغة المخصوصـة یعنی «لا واللّه» أو «بلی واللّه»، لا مطلق الحلف باللّه وإن لم یکن بالصیغة المزبورة» (۱۱).

۲- الجدال فی الحجّ فی رأی المفسرین وفقهاء أهل السّنة:

ولکبار المفسرین والفقهاء من أهل السنة آراؤهم المتعددة فی تفسیر «الجدال فی الحجّ» ونحن نلقی علیها الضوء باختصار:

* یعقد الطبری وغیره فی تفاسیرهم بحثاً مفصلًا بشأن الجدال فی الحجّ، ملخصه ما یلی:

۱- ۱ راجع: تفسـیر البرهان للسید هاشم البحرانی، ط مؤسسة الرسالة، بیروت ۱۴۰۳ ه. ق: ۱۹۹- ۲۰۱- مجمع البیان وهامشه، ۲: ۲۹۴- المیزان فی تفسیرالقرآن للعلّامة الطباطبائی، ط ۳، مؤسسة الأعلمی، بیروت ۱۳۹۳ ه. ق، ۲: ۷۹- جواهر الکلام، ۱۸: ۳۵۵ و ۳۵۹- ۳۶۱.

۲- ۲ یعنی الإجماع المنقول والإجماع المحصل.

۳- ۳ جواهر الکلام، ۱۸: ۳۵۹.

۴- ۴ نفس المصدر.

۵- ۵ وهو کتاب تهذیب الأحکام للشیخ الطّوسی، ویعدّ من الکتب الأربعة عند الإمامیة.

۶- ۶ بصیغة «لا واللّه أو بلی واللّه».

۷- ۷ جواهر الکلام، ۱۸: ۳۶۰.

۸- ۸ نفس المصدر، ۱۸: ۳۶۰- ۳۶۱.

۹- ۹ هو کتاب «الدروس الشرعیة فی فقه الإمامیة» للشهید الأول.

۱۰- ۱۰ جواهر الکلام، ۱۸: ۳۶۱.

۱۱- ۱۱ نفس المصدر، ۱۸: ۳۶۴.

ص: ۲۶

* قال بعضهم: معنی ذلک النهی هو المنع عن أن یجادل الُمحْرم أحداً، وهو أن تماریصاحبک حتی تغضبه، وأورد الطبری أحادیث کثیرة بهذا التعبیر فی کتابه (۱).

* الجدال فی الحجّ: السباب والمراء والخصومات (۲).

* عن محمد بن کعب القرظی قال: الجدال، کانت قریش إذا اجتمعت بمنی قال هؤلاء: حجّنا أتمّ من حجّکم (۳).

* عن القاسم بن محمّد أنه قال: الجدال فی الحج أن یقول بعضهم: الحجّ الیوم، ویقول بعضهم: الحجّ غداً.

* قال ابن زید فی قوله: «ولا- جدال فی الحجّ» قال: کانوا یقفون مواقف مختلفة یتجادلون، کلّهم یدّعی أن موقفه موقف إبراهیم، فقطعه اللَّه حین أعلم نبیّهصلی الله علیه و آله و سلم بمناسکهم (۴).

* ولا جدال فی الحج، خبر من اللَّه تعالی عن استقامة وقت الحج علی میقات واحد لا یتقدّمه ولا یتأخره، وبطلان فعل النسیء (۵) (ونحن أسهبنا القول فی تفسیر معنی النسیء کما سبق فی هذا المقال).

واختار الطبری هذا القول من بین سائر الأقوال لبیان مدلول «الجدال فی الحج». ثم یقول: وإنما اخترنا هذا التأویل فی ذلک ورأیناه بالصواب مما خالفه، لما قدّمناه من البیان آنفاً فی تأویل قوله: «ولا فسوق»: انه غیر جائز أن یکون اللَّه خصّ بالنهی عنه فی تلک الحال مطلق مباح فی الحال التی یخالفها، وهی حال الإحلال، وذلک أن حکم ما خصّ به من ذلک حال الإحرام، وان کان سواء فیه حال الإحرام وحال الإحلال فلا وجه لخصوصه به حالًا دون حال، وقد عمّ به جمیع الأحوال. وإذ کان ذلک کذلک وکان لا معنی لقول القائل فی تأویل قوله: «ولا جدال فی الحج»، ان تأویله: «لا تمارصاحبک حتی تغضبه» إلا أحد المعنیین:

- إمّا أن یکون أراد: لا تماره بباطل حتی تغضبه، فذلک ما لا وجه له، لأن اللَّه- عزّ وجلّ- قد نهی عن المراء بالباطل فی کل حال، محرماً کان الممارِی أو محلًّا، فلا وجه لخصوص حال الإحرام بالنهی عنه، لاستواء حال الإحرام والإحلال فی نهی اللَّه عنه.

- أو یکون أراد: لا- تماره بالحق، وذلک- أیضاً- لا وجه له؛ لأن الُمحرم لو رأی رجلًا یروم فاحشة کان الواجب علیه مراءه فی دفعه عنها، أو رآه یحاول ظلمه والذهاب منه بحق له قد غصَبَهَ علیه، کان علیه مراءه فیه وجداله حتی یتخلّصه منه (۶).

* ویقول محمّد رشید رضا:

«وقیل: هو المراء بالقول، وهو یکثر عادة بین الرّفقة والخدم فی السّفر، لأنّ مشقّته تضیّق الأخلاق، هذا هو المشهور» (۷).

کما قال البروسوی: «ولا جدال» أی لا مراء مع الخدم والمُکارین؛ لأنه یُفْضی إلی التّضاغن وزوال التألیف.

فأما الجدال علی وجه النظر فی أمر من أمور الدین فلا بأس به (۸).

یقول محمّد رشید رضا:

«قال الأستاذ الإمام (محمد عبده): إن تفسیر الکلمات الثلاث (أی الرفث والفسوق والجدال) ینبغی أن یکون متناسباً وبحسب حال القوم فی زمن التشریع.

۱- ۱ جامع البیان، ط دار المعرفة، بیروت، ۱۴۰۰ ه. ق، ۲: ۱۵۸ و ۱۵۹- وانظر أیضاً: تفسیر القرآن العظیم، دار المعارف، بیروت، ۱۴۰۲ ه. ق: ۲۳۸.

۲- ۲ نفس المصدر، ۲: ۱۵۹- وانظر أیضاً: کشف الأسرار، ۱: ۵۳۱- التفسیر الکبیر، ۵: ۱۶۵.

۳- ۳ نفس المصدر، ۲: ۱۵۹. قال مالک فی الموطأ: الجدال فی الحجّ أن قریشاً کانوا یقفون عند المشعر الحرام فی المزدلفة بقزح،

وکان غیرهم یقفون بعرفات، وکانوا یتجادلون، ویقول هؤلاء: نحن أصوب، قال اللَّه تعالی: «لکل أمّة جعلنا منسکاً هم ناسکوه فلا ینازِعُنّک فی الأمر وادع إلی ربّک إنک لعلی هدی مستقیم وإن جادلوک فقل اللَّه أعلم بما تعملون». قال مالک: هذا هو الجدال فیما یُرْوی واللَّه أعلم. راجع التفسیر الکبیر، ۵: ۱۶۵- تفسیر القرآن العظیم، ۱: ۲۳۸.

۴- ۴ جامع البیان، ۲: ۱۵۹.

۵- ۵ نفس المصدر، ۲: ۱۵۹- ۱۶۰- والتفسیر الکبیر، ۵: ۱۶۵.

۶- ۶ جامع البیان، ۲: ۱۶۰.

۷- ۷ تفسیر المنار، ۲: ۲۷۷.

۸- ۸ روح البیان، ۱: ۳۱۴.

ص: ۲۷

- فأما الرفث: فهو کما قیل: الجماع.

- وأما الفسوق: فهو الخروج عمّا یجب علی الُمحْرم إلی الأشیاء التی کانت مباحة فی الحل، کالصید والطیب والزینة باللباس الَمخیط.

- والجدال: هو ما کان یجری بین القبائل من التنازع والتفاخر فی الموسم.

فبهذا یکون التناسب بین الکلمات، وإلّا حمّلت کلها علی مدلولها اللغوی، فجعل الرّفث: قول الفحش، والفسوق: التنابز بالألقاب علی حدّ «ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق» والجدال: المراء والخصام. فتکون هذه المناهی کلّها آداباً لسانیة (۱).

بعد هذه الجولة فی آراء الفریقین بشأن «ولا جدال فی الحجّ» نطرح هذا السؤال: هل الجدال ضد شیاطین الجنّ والإنس ممنوع فی حال الإحرام؟

یقول الإمام فخر الدین الرّازی فی ثنایا تفسیر الآیة الّتی نحن بصددها:

«وأما جمهور المتکلمین فإنهم قالوا: الجدال فی الدین طاعة عظیمة، واحتجّوا علیه بقوله تعالی: «ادع الی سبیل ربک بالحکمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتی هی أحسن ...» (۲)، وبقوله- تعالی- حکایة عن الکفار، إنّهم قالوا لنوح علیه السلام: «قالوا یا نوح قد جادلتنا فأکثرت جدالنا ...» (۳). ومعلوم أنّ ذلک الجدال ما کان إلّالتقریر أصول الدّین.

إذا ثبت هذا فنقول: «لا بد من التوفیق بین هذه النصوص (یعنی النصوص التی ذکرها الرّازی)، فنحمل الجدال المذموم علی الجدل فی تقریر الباطل وطلب المال والجاه، والجدال الممدوح علی الجدل فی تقریر الحق، ودعوة الخلق إلی سبیل اللّه، والذبّ عن دین اللّه» (۴).

إن مناسک الحجّ بأسرها طافحة بمظاهر الجدال، الجدال فی تقریر الحق، ودعوة الخلق إلی سبیل اللّه، والذبّ عن دین اللّه، الجدال مع الشیطان ومخاصمته وتحدّیه. هذه المناسک العظیمة تبتدئ بهذا الموقف المتصلّب إزاء الشیطان وتنتهی به: رمی الجمار الذی یتم فی المراحل الأخیرة من المناسک هو تجسید معنی الاستعداد الدّاخلی، وللتأهّب نحو مواجهة العدو الأصلی المتمثّل بالشیطان، ومن ثمّ رمیه.

الرّمْی یُبْدأ بدعاء: «اللهمّ اذْحَر عنّی الشّیطان»، وهو تعبیر عن إدانة العامل الأساسی فی ارتکاب المعاصی، والوقوع فی أنواع الشقاوة والتهلکة، والحاج بهذا یعلن عن عزمه علی مواجهة ومجابهة ومجادلة خطط الشیطان الماکرة بکل ألوانها.

الحاج فی مثل هذه الحالة یُعرب عن ذروة رفضه لکل فساد ولکل عامل فساد، ویستثمر فرصة وجوده مع سائر أبناء أمته الإسلامیة لیوطّد عری تلاحمه، ولیوحّد خطاه معهم، ثمّ یرمی أعداءه (من شیاطین الإنس) کما رمی رموز الشیاطین المتمثّلة بالجمرات.

وهذه الظاهرة توعیة للمسلمین وشحذ لهممهم ودفعهم إلی أن لا یُرْهبوا من قوی الشرق والغرب المعادیة

۱- ۱ تفسیر المنار، ۲: ۲۲۷.

۲- ۲ النّحل: ۱۲۵.

۳- ۳ هود: ۳۲.

۴- ۴ التفسیر الکبیر، ۵: ۱۶۵.

ص: ۲۸

للإسلام، ولا يخافوا شياطين الجنّ والإنس؛ لأنهم قادرون بتلاحمهم أن يهزموا أعداءهم مهما تزايدت قدرة الأعداء.

رمی الجمار يصعّد روح المقاومة والجهاد فی نفوس المسلمين ليواجهوا الأعداء ويجادلوهم ويمنعوهم من كل تطاول علی مقدسات المسلمين، ويكفوا أيديهم عن نهب ثروات المسلمين الماديّة والمعنويّة.

هل الحجّ الذی ينطوی علی هذه المفاهيم الثائرة الملحميّة يجب أن يمرّ بهدوء دون أن يحرّك ساكناً؟

ألا ـ ينبغی أن يكون الحج أبرز مظاهر إلقاء الرّعب فی قلوب أعداء اللّه؟ ألا يجب أن ترتفع فيه أصوات المسلمين منـدّدة بالشياطين الكبری والوسطی والصغری؟ وهل مثل هذا العمل من الجدال منهیٌّ عنه فی الحج؟

لو كانت كل ألوان المقاومة والصمود والمجادلة محظورة فی موسم الحجّ لانتفی رمی الجمار؛ لأنه لون من ألوان المقاومة ومقارعة الشيطان، ولانتفی بعد ذلك كل موقف يتّخذه المسلمون فی هذا الموسم بوجه من يذلّونهم وينتهكون حرماتهم ويسرقون ما عندهم.

هؤلاء الذين يريدون أن يُبْعدوا الحج عن كل ما يزعج طواغيت الأرض، عليهم أن يمنعوا التكبير والتهليل أيضاً، لأنّ فی كلمة «اللّه أكبر» تصغيراً لشأنهم ولشأن كل ما سوی اللّه، وكلمة «لا إله إلّااللّه» تُنزّل هؤلاء الطّغاة من عرش ألوهيّتهم، وتبعد الناس عن عبادتهم؛ لأنها دعوة إلی إخلاص العبوديّة للّهدون سواه.

أیّ مفسّر وأیّ فقيه من مفسّری وفقهاء المذاهب الإسلاميّة قال: إن مجادلة شياطين الأرض، وإعلان الوقوف بوجه الظالمين والطّغاة هی الجدال المنهیّ عنه فی الحجّ؟ كل مظاهر ومناسك الحجّ تنبئ بأنّ هذه المناسك ينبغی أن تتحول إليصرخة تصمّ آذان الطغاة، وإلی وهج يعمی عيون الظّالمين، وإلی حشد قوی متماسك يلقی الرّعب فی قلوب أعداء اللّه. ولعلّ ذلك هو السبب فی ضرورة التلبية الجماعية وضرورة رفع الصوت بالتلبية فی موسم الحجّ.

قال رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم:

«أتانی جبريل فقال لی: إن اللّه يأمرك أن تأمر أصحابك أن يرفعوا أصواتهم بالتلبية فإنها من شعار الحجّ» (۱).

وقال أيضاً: «أتانی جبريل فأمرنی أن آمر أصحابی ومن معی أن يرفعوا أصواتهم بالتلبية» (۲).

وليس ذلك منحصراً فی التلبية فقط، بل فی كل شعارات الحجّ، قال (عليه أفضل الصلاة والسلام): «أمرنی جبريل برفع الصوت فی الإهلال، فإنه من شعائر الحجّ» (۳).

لا أدری كيف تبلغ الجرأة بالمدافعين عن مصالح القوی الكبری لأن يعلنوا أن رفع الصّوت بكل شعار إسلامی مناف لأهداف الحج؟ ولعلّ الجرأة تبلغ بهم إلی منع الهرولة فی السعی بين الصّفا والمروة لأنها نوع من التّحرّك الشديد.

كيف يريد هؤلاء سلب الحجّ من مظاهر الحركة، وكلّه حركة تتبلور فی طواف وسعی وإفاضة آناءَ الليل وأطراف النّهار؟

إنّ الحجَّ انقطاع عن الانشداد بالأرض والاتجاه نحو بيت اللّه الحرام «رجالًا» وعلی كل «ضامر» لإعلان الالتفاف حول محور دين اللّه، ولمقارعة كل أعداء اللّه من شياطين الإنس والجن.

ألم يصرّح المفسرون عند تفسير قوله تعالی: «ولا جدال فی الحجّ» أن الجدال فی الدّين طاعة عظيمة (۴)؟ ألم

۱- ۱ كنز العمّال، ط أوفست عن نسخة حيدر آباد، مؤسسة الرّسالة، بيروت، ۱۳۹۹ ه. ق، ۵: ۳۱.

۲- ۲ نفس المصدر.

۳- ۳ نفس المصدر.

۴- ۴ التفسیر الکبیر، ۵: ۱۶۷.

ص: ۲۹

يقل سبحانه وتعالى: «ادع إلى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالّتى هى أحسن»؟

وهل استثنى موسم الحجّ من مجادلة الكفر المتحكّم فى رقاب المسلمين، والفساد المستشرى فى بلادهم، وشياطين الإنس والجنّ بمقدّراتهم؟

هل الأمر بالدعوة إلى سبيل اللَّه لا يشمل موسم الحجِّ الذى تطفح مناسكه بالحركة والمقاومة والمنافع؟ لم يقل بذلك مفسر وفقيه.

لم يجرؤ عالم حتى اليوم أن يقول: إنّ على المسلمين أن يتّخذوا فى موسم الحجِّ موقف السّكوت والسّكينة واللامبالاة تجاه ما يجرى على المسلمين من مصائب، وما يحلّ بهم من تقتيل وتشريد ونهب وانتهاك.

الحجُّ أصلًا والاحتجاج من أصل لغوى واحد، «وتَحاجّوا» تعنى تجادَلوا، والِمحجاج: الذى يكثر الجدل (۱)، فكيف- والحالة هذه- يمرّ الحجّاج- وهم قادمون (من كلّ فجّ عميق) ليتجمّعوا على أرض الطواف حول بيت اللَّه، وأرض رمى الشّيطان عدو اللَّه- مرّ الكرام تجاه ما ينزل بالمسلمين من قبل قوى الشّرق والغرب، ومن دون أن ينبسوا ببنت شفة، ومن دون أن يدينوا- على الأقلّ- الغرب والشرق على جرائمهما فى فلسطين المحتلّة ولبنان والبوسنة والهرسك.

كيف بمقدور أمّة- فيها ولو ذرّة من وعى وغيرة- أن تتجمّع فى موسم الحجِّ، ثمّ تغمض عيونها عمّا يفعله اليهود والصهاينة فى أرض فلسطين المحتلّة، وعمّا ينوون أن يفعلوه؟

كيف يمكنهم أن يسكتوا أمام مخططاتهم الرّامية إلى السيطرة على عالمنا الإسلامى من النّيل إلى الفرات؟

إنّ ما يشهده موسم الحجِّ خلال الأعوام الأخيرة إنّما هو تعبير طبيعى عن الصّحوة الّتى تصاعدت فى إيران، وعمّ نورها بقاعاً مختلفة من عالمنا الإسلامى، ولا يمكن أبداً إخماد هذه الصّحوة باسم «... ولا جدال فى الحج ...» لأن الحجّ من مناهج الدّين، والدّين قال لنا: «مَن أصبح ولم يهتمّ بأمور المسلمين فليس بمسلم». نعم لا يمكن للمسلم أن ينسى كل أصول دينه وفروعه لإرضاء فئة تريد أن تحوّل الحجَّ إلى مقبرة والحجيجَ إلى أموات. لا يمكنهم؛ لأنّ مناسك الحجِّ حركة وكفاح، ولأنّ الدّين كلّه حركة توحيديّة ترفض الآلهة المزيّفة، وتقارع شياطين الجنّ والإنس.

الحجُّ نفسه جهاد، والجدال مع الكفر فى موسم الحجِّ جهاد مضاعف وطاعة أخرى.

يقول الإمام فخر الدّين الرّازى فى تفسير «فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحجِّ»: «ولو كان الجدال فى الدّين طاعة وسبيلًا إلى معرفة اللَّه تعالى لما نُهى عنه فى الحجِّ، بل على ذلك التّقدير كان الاشتغال بالجدال فى الحجّ ضمّ طاعة الى طاعة، فكان أولى بالترغيب فيه ...

فَتُحْمل الجدل المذموم على الجدل فى تقرير الباطل وطلب المال والجاه، والجدال الممدوح على الجدل فى تقرير الحق ودعوة الخلق إلى سبيل اللَّه والذبّ عن دين اللَّه تعالى» (۲).

شرّع اللَّه سبحانه وتعالى الحجَّ لتحقيق منافع سامية للأمة الإسلامية منها:

۱- ۱ المعجم الوسيط، ۱: ۱۵۶ و ۱۵۷.

۲- ۲ التفسير الكبير، ۵: ۱۶۵.

ص: ۳۰

إن المسلمين المتّجهين إلى بيت اللَّه ينقطعون عن بيئتهم، ويهجرون الأهل والأحباب، ويتركون ما كانوا يألفونه كل يوم من سكن وعمل رتيب، ويهاجرون أوطانهم نحو بيت اللَّه الحرام، وقبل أن يدخلوه، عليهم أن يتجرّدوا من ثيابهم وينزعوا من نفوسهم وأبدانهم كل مفاخرهم ورواسبهم وامتيازاتهم، ويتّجهوا بشكل واحد وبخطىً متّحدة نحو مكّة المكرّمة ليكونوا عليصعيد بيت اللَّه الحرام أشبه بالمبعوثين فى عالم المحشر.

وفى هذا الجو المتحرّر من الذّات والذّاتية، ومن الأنا والأنانية يعيش الإنسان- بطبيعة الحال- هموم أمّته أكثر من ذى قبل، ويفكّر بشؤون المسلمين وما يحيط بهم من مشاكل، ويزداد اهتمامه بالأمور العامّة بعد أن كانت الهموم الخاصّة تشغله وهو بين أهله ومتاعه.

ثمّ إن أرض مكّة طافحة بالذكريات التى تستحث المسلم أن يراجع أحداثها، ويدرس وضعه ووضع المسلمين على ضوئها، فهى أرض التوحيد وإخلاص العبوديّة للَّه، وأرض تحطيم الأصنام ومقارعة الوثنيّة والشّرك. وكل هذه الظواهر القائمة على أرض مكّة المقدّسة تدفع بالحاج لأن يفكّر فى الأصنام البشرية وغير البشريّة المنتصبة على ظهر الأرض، وفى الآلهة المزيّفة التى تحثّ الناس على أن يعبدوها من دون اللَّه. ذكريات هذه الأرض تعيد إلى الأذهان ذلّ الكفر حين ظهر الإسلام وعلّم أبناءه قائلًا:

«... ولن يجعل اللَّه للكافرين على المؤمنين سبيلًا» (۱). وحين علّمهم أنّ العبادة- وخاصة عبادة الحجّ- لا تنفصل عن الجهاد: قالصلى الله عليه و آله و سلم: «الحجّ جهاد، والعمرة تطوّع» (۲). وقال أيضاً: «نعم الجهاد الحجّ» (۳). أين هذه التعاليم السّامية الحركية من وضعنا الرّاهن اليوم، حيث الجمود والخمود والذّل والاستكانة، وحيث الأعداء يفترسون أشلاء جسد أمتنا الإسلامية من كل حدب وصوب، وحيث أفرغت العبادات من كل محتوى وتحوّلت إلى طقوس خالية من كل روح؟

أين هذه التعاليم من هذه الفتاوى التى يصدرها بعض الفقهاء داعية المسلمين إلى الكفّ عن إدانة أعداء اللَّه فى موسم الحجّ ومعلنة حرمة هذا العمل؟

وعلى هذا لا نجد مبرراً أن تصدر فتاوى لا تنسجم إطلاقاً مع روح الحجّ، ولا يستفيد منها إلا منتهكو أعراض المسلمين ومقدساتهم.

وعلى المسلمين اليوم أن ينصاعوا لقوله تعالى: «ولا تَتبعوا أهواء قوم قد ضلّوا من قبل وأضلّوا كثيراً وضلّوا عن سواء السّبيل» (۴).

وعليهم أن يصيغوا السّمع لنداء اللَّه سبحانه ويحوّلوا الحج كما كان فى عهد رسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم منطلق البراءة من المشركين: «وأذان من اللَّه ورسوله إلى النّاس يوم الحجّ الأكبر أنّ اللَّه برىء من المشركين ورسولُه ...» (۵).

عليهم أن يفهموا أن منطلق البراءة من المشركين لا يجوز تحويله إلى خمود وخنوع، ولا يجوز إفراغه من محتواه الحركى النّاهض، بل يجب أن يكون فى عصرنا هذا منطلق الصّرخة الّتى ترهب أعداء اللَّه، ومنطلق العزّة التى تعيد الرّفعة لدين اللَّه، ومنطلق الحركة نحو استعادة العزّة التى شاءها اللَّه- تعالى- لنا.

نسأل اللَّه- سبحانه وتعالى- أن يمنّ على أمّتنا الإسلاميّة باليقظة والصحوة، وبالعودة إلى إسلامنا الحقيقى لنعود أمّة واحدة «شاهدة» على ساحة التأريخ و «وسطاً» بين شعوب العالم.

الهوامش:

۱- ۱ النساء: ۱۴۱.

۲- ۲ سنن ابن ماجة المناسك، ۴۴. راجع: المعجم المفهرس لألفاظ الحديث.

۳- ۳ الجامع الصحيح، البخارى، ۶۲.

۴- ۴ المائدة: ۷۷.

۵- ۵ التوبة: ۳.

ص: ۳۱

أدنى الحِلِّ «مواقيت العمرة المفردة لمن كان بمكّة»

ص: ۳۲

أدنى الحِلِّ «مواقيت العمرة المفردة لمن كان بمكّة»

حسن الجواهرى

إن المقصود بأدنى الحِلِّ: هو أقرب الأماكن الى حدود الحرم من خارج الحدود؛ ولهذا تعرف المنطقة التى تقع داخل حدود الحرم ب (الحرم)، لما لها من أحكام خاصة تقديساً لمكّة.

وتعرف المنطقة التى تقع خارج الحدود ب (الحِل) لأن اللَّه تعالى حلّل فيها ممارسة ما حرم داخل الحدود.

وقد انعكس ذكر (الحل والحرم) فى الشعر العربى، كما ورد فى قول الفرزدق مادحاً الإمام على بن الحسين (زين العابدين) عليه السلام فقال:

هذا الذى تعرفُ البطحاء وطأته والبيتُ يعرفه والحلّ والحرمُ وقد جعل الشارع المقدّس أدنى الحِلِّ ميقاتاً للعمرة المفردة على نحو الرخصة بالتفصيل الآتى:

لقد ذكر الفقهاء (رضوان اللَّه عليهم) أن القارن أو المفرِد أو المتمتع بعد إتمام حجّة التمتع، أو مَنْ كان بمكّة ليس بحاجٍ أو مَنْ تعدَّى المواقيت (التى وقَّتها رسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم للإحرام وأراد الدخول الى مكّة) إذا أراد اتيان العمرة المفردة فميقاته أدنى الحِل بلا خلاف فى ذلك، ومعنى ذلك هو أن يخرج المعتمر مثلًا الى خارج حدود الحرم المحدّد فى الروايات بأنه: «بريد فى بريد» فيحرم منه. وقد ذكر الفقهاء استحباب أن يحرم المعتمر من الجعرانة أو الحديبيّة أو التنعيم، للتصريح بها فى الروايات، وللتأسى، فمن الروايات:

۱- ما عن معاوية بن عمار فى الصحيح عن الإمام الصّادق عليه السلام قال:

«اعتمر رسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم ثلاث عمر متفرقات: عمرة ذى القعدة، أهلّ من عسفان وهى عمرة الحديبية، وعمرة أهلّ من الجحفة وهى عمرة القضاء، وعمرة من الجعرانة بعدما رجع من الطائف من غزوة حنين» (۱).

وقد نقل عن طريق أبناء السنة عن ابن عباس: «أن النبيّصلى الله عليه و آله و سلم اعتمر أربع عمر: عمرة الحديبية وعمرة القضاء من قابل، والثالثة من الجعرانة والرابعة التى مع حجته» (۲).

أقول: وظاهر الروايتين جواز الإحرام من عسفان، وهو يبعد عن مكة مرحلتين (۴۸ كيلومتراً) تقريباً، وهو ليس ميقاتاً، وليس من أدنى الحِل.

ولكن الإمام الخوئى رحمه الله ذكر ما يلى: «إن الذى يظهر من الروايات الصحيحة والتواريخ المعتبرة أن رسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم إنما اعتمر بعد الهجرة عمرتين، وإنما عبّر فى الصحيحة

۱- ۱ وسائل الشيعة، ۱۰: باب ۲ من أبواب العمرة ح ۲.

۲- ۲ وسائل الشيعة، ۱۰: باب ۲ من أبواب العمرة ح ۶.

ص: ۳۳

المتقدمة بثلاث عمر باعتبار شروعه فی العمرة والإحرام لها، ولكن المشركين منعوه من الدخول الی مكّة، فرجعصلی الله علیه و آله و سلم بعد ماصالحهم فی الحدیبیة، واعتمر فی السنة اللاحقة قضاءً عما فات عنهصلی الله علیه و آله و سلم وعن أصحابه فسُمیت بعمرة القضاء، كماصرح بذلك فیصحیحة أبان عن الإمام الصادق علیه السلام قال: «اعتمر رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم عمرة الحدیبیة وقضی الحدیبیة من قابل، ومن الجعرانة حین أقبل من الطائف ثلاث عمر كلهن فی ذی القعدة» (۱).

وفیصحیحةصفوان أنهصلی الله علیه و آله و سلم أحرم من الجعرانة (۲).

فالذی یستفاد منصحیحة معاویة بن عمار: أن رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم أحرم من مسجد الشجرة للعمرة، ورفعصوته بالتلبیة من عسفان (وهو معنی أهلّ) وهی العمرة التی منعه المشركون من الدخول الی مكة وصالحهم فی الحدیبیّة، ورجع من دون إتیان مناسك العمرة، ثم فی السنة اللاحقة اعتمر وأحرم من مسجد الشجرة، وأهلّ ورفعصوته بالتلبیة من الجحفة فسُمیت بعمرة القضاء، وأما الجعرانة فالظاهر من الصحیحة أنهصلی الله علیه و آله و سلم أحرم منها لظهور قوله «وعمرة الجعرانة» فی أن ابتداء العمرة كان من الجعرانة، لا أنه أحرم قبل ذلك، ورفعصوته بالتلبیة من الجعرانة، كماصرح بذلك فیصحیحة أبان المتقدمة. فالمستفاد من الصحیحة جواز الإحرام للعمرة المفردة من الجعرانة اختیاراً وإن لم یكن من أهل مكّة كالنبیصلی الله علیه و آله و سلم وأصحابه، كما یجوز الإحرام من أدنی الحِلّ، ولكن یختص ذلك بمن بدی له العمرة فی الأثناء (۳).

أقول: وعلی هذا الذی تقدم، فستكون هذه الروایة دلیلًا علی جواز الإحرام من الجعرانة، التی هی أقرب الحلِّ الی الحرم فقط.

۲- ما عن جمیل بن دراج فی الصحیح قال: «سألت الإمام الصادق علیه السلام عن المرأة الحائض إذا قدمت مكّة یوم التروية؟ قال علیه السلام: تمضی كما هی الی عرفات فتجعلها حجة، ثم تقیم حتی تطهر فتخرج الی التنعیم فتحرم فتجعلها عمرة، قال ابن أبی عمیر: كماصنعت عائشة» (۴).

وكانصنع عائشة كما ذكره ابن ادریس فی آخر السرائر نقلًا من كتاب معاویة بن عمار فقال:

«... إن رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم نزلها (البطحاء) حین بعث عائشة مع أخیها

۱- ۱ وسائل الشیعة، ۱۰: باب ۲ من أبواب العمرة ح ۳.

۲- ۲ وسائل الشیعة، ۸: باب ۹ من أقسام الحجّ ح ۶.

۳- ۳ مستند العروة الوثقی، كتاب الحج، ۲: تقریرات الإمام الخوئی، بقلم السید رضا الخلخالی: ۳۹۱- ۳۹۲.

۴- ۴ وسائل الشیعة، ۸: باب ۲۱ من أقسام الحجّ، ح ۲.

ص: ۳۴

عبد الرحمن إلى التنعيم فاعتمرت لمكان العلّة التى أصابتها؛ لأنها قالت لرسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم ترجع نساؤك بحجّة وعمرة معاً، وأرجع بحجّة؟

فأرسل بها عند ذلك ...» (۱).

۳- روى ابن بابويه فى الصحيح عن عمر بن يزيد عن الإمام الصّادق عليه السلام: «مَنْ أراد أن يخرج من مكّة ليعتمر فليعتمر من الجعرانة أو الحديبية أو ما أشبههما» (۲).

وهذه الرواية تشمل جميع مواضع الحرم لقوله عليه السلام: أو ما أشبههما، كما أنها مطلقة من حيث كون العمرة مسبوقة بالحجّ أم لا فحينئذٍ لا ينبغى الريب فى هذا الحكم.

أقول: تبين من هذه الروايات:

أن ثلاثة مواقيت قد فضِّلت فى إحرام العمرة المفردة على بقية نقاط أدنى الحِل وهى:

۱- الحديبية.

۲- الجعرانة.

۳- التنعيم.

أما الجحفة فهى ميقات أبعد من أدنى الحِلّ بكثير، يمرّ بها- الآن- حجاج البحر القادمون عن طريق ميناء ينبع من مصر وغيرها، وحجاج البرّ القادمون من الأردن عن طريق العقبة. وقد رأينا أن النبيصلى الله عليه و آله و سلم أهلَّ منها، وكذا عسفان التى تبعد عن مكة مرحلتين.

ولا بأس بالإشارة الى أن هذه المواقيت الثلاثة هى رخصة لا عزيمة كما ذكر ذلكصريحاً شيخ الطائفة وصاحب الجواهر ۰ (۳).

وبهذا يكون من الجائز الخروج الى أحد المواقيت كالجحفة ويلملم والعقيق وغيرها للإحرام منها، وذلك للروايات الدالة على أن هذه المواقيت لأهلها ولمن أتى عليها من غير أهلها، فقد رويصفوان بن يحيى فى الصحيح عن الإمام أبى الحسن الرضا عليه السلام فكتب: «... إن رسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم وقَّت المواقيت لأهلها، ومن أتى عليها من غير أهلها، وفيها رخصة لمن كانت به علة، فلا تجاوز الميقات إلا من علّة» (۴).

والذى نريد أن نبحثه الآن هو تفصيل المواقيت الثلاثة:

وهى: (الحديبية، الجعرانة، التنعيم)، وما أشكل على موضع التنعيم من كونه أبعد من موضعه الحالى والجواب عنه، فنقول:

۱- الحديبية:

«بضم الحاء المهملة، ففتح الدال المهملة ثم ياء مثناة تحتانية ساكنة، ثم باء موحدة، ثم ياء مثناة تحتانية ثم تاء التأنيث: وهى فى الأصل اسم بئر خارج الحرم على طريق جدّة عند مسجد الشجرة، التى كانت عندها

۱- ۱ نفس المصدر، باب ۳ من أقسام الحج، ح ۴.

۲- ۲ نفس المصدر، باب ۲۲ من المواقيت، ح ۱.

۳- ۳ جواهر الكلام، ۱۸: ۱۱۹.

۴- ۴ وسائل الشيعة، ۸: باب ۱۵ من ابواب المواقيت، ح ۱.

ص: ۳۵

بيعة الرضوان» التى نزل فيها القرآن:

«لقد رضى اللّه عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ...» (۱).

وقال الخطابى فى أماليه: سُميت بالحديبية لشجرة حدباء كانت فى ذلك الموضع، وبين الحديبية ومكة مرحلة:

«وفى الحديث: إنها بئر» وبعض الحديبية فى الحِل وبعضها فى الحرم وهو أبعد الحلّ من البيت ... وعند مالك بن أنس انها جميعها من الحرم (۲).

ضبط الكلمة:

فقد استعملت الياء المثناة المفتوحة بالتخفيف والتشديد، وفى كشف اللثام، قال السهيلى:

«والتخفيف أعرف عند أهل العربية، وقال أحمد بن يحيى: لا يجوز فيها غيرُه وكذا عن الشافعى». وقال أبو جعفر النحاس: «سألت كل من لقيت ممن أثق بعلميته من أهل العربية عن الحديبية فلم يختلفوا على أنها مخففة.

وقيل: إن التثقيل لم يُسمع من فصيح» (۳).

وقال فى الحدائق الناضرة:

«قال ابن ادريس فى السرائر:

الحديبية اسم بئر خارج الحرم يقال:

الحديبية بالتخفيف والتثقيل، وسألت ابن العطار النوهى، فقال: أهل اللغة يقولونها بالتخفيف وأصحاب الحديث يقولونها بالتشديد، وخطّه عندى بذلك، وكان إمام اللغة ببغداد» (۴).

وفى تهذيب الأسماء عن مطالع الأنوار: «ضبطناها بالتخفيف عن المتقنين وأما عامة الفقهاء والمحدثين فيشددونها» (۵).

وتعرف منطقة الحديبية- اليوم ب «الشميسى» بالتصغير، وتقع غربى مكة المكرمة فى الحِل على طريق مكة- جدة القديم، بينها وبين علمى الحرم المكى مسافة قليلة، وبين العلمين ومكة حوالى اثنين وعشرين كيلو متراً.

۲- الجعرانة:

ضبطها «بكسر الجيم وإسكان العين المهملة وتشديد الراء المهملة المفتوحة» كما عن الجمهرة. وعن الأصمعى والشافعى: «بكسر الجيم وإسكان العين وتخفيف الراء. قيل العراقيون يثقلونه والحجازيون يخففونه» وحكى عن ابن ادريس:

بفتح الجيم وكسر العين وتشديد الراء أيضاً، فالراء فيها تخفف وتشدّد لاستعمالين موثقين.

وهى موضع بين مكّة والطائف

۱- ۱ الفتح: ۱۸.

۲- ۲ معجم معالم الحجاز لعاتق بن غيث البلادى، ۲: ۲۴۶- ۲۴۷.

۳- ۳ كشف اللّثام.

۴- ۴ الحدائق الناضرة للشيخ يوسف البحرانى، ۱۴: ۴۵۵- ۴۵۶.

۵- ۵ عن كتاب الحج، تقريرات آية اللّه العظمى السيد الشاهرودى، ۲: ۲۹۴.

ص: ۳۶

من الحِلِّ، بينها وبين مكّة ثمانية عشر ميلًا على ما ذكره الباجى، وتقع شمال شرقى مكة المكرمة، وفيها علما الحدّ، ومنها أحرم رسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم لعمرته الثالثة على ما نصت عليه الروايات، وفيها مسجده الذيصلّى فيه وأحرم منه، عند مرجعه من الطائف بعد فتح مكة، ويقع هذا المسجد وراء الوادى بالعدوة القصوى ويعرف بالمسجد الأقصى لذلك، ولوجود مسجد آخر بُنى من قبل أحد المحسنين يعرف بالمسجد الأدنى. وبالقرب من مسجد الرسولصلى الله عليه و آله و سلم بئر واسعة عذب ماؤها. وهى اليوم قريةصغيرة تبعد عن مكة فى الشمال الشرقى لها بحوالى أربعة وعشرين كيلو متراً، وفيها المسجد الذى أقامته الحكومة السعودية محرماً، شرقى أرض المسجد القديم دونما فصل بينهما .. (۱) ولكن مؤلف معجم معالم الحجاز ذكر عن الجعرانة: «ومن قال: إنها (الجعرانة) بين مكة والطائف فقد أخطأ، فهى شمال مكة، مع ميل إلى الشرق ولا لزوم فى ذكر الطائف فى تحديدها أبداً، إذ هى لا تبعد عن مكة بأزيد من (۲۹) كيلو متراً» (۲).

الجعرانة وموقعها الجغرافى:

ذكر مؤلف مختصر معجم معالم مكّة التاريخية أن «جبل الستار يقع قُرب الجعرانة من الجنوب، وهو الجبل الذى يُشرف على علمى طريق نجد من الشمال، والذاهب من مكة الى نخلة يجعل الستار على يساره عن قرب، والجعرانة- اليوم- قريةصغيرة فيصدر وادى سَرِف» (۳).

۳- التنعيم:

بفتح التاء الفوقانية المثناة «بلفظ المصدر، سُمى به موضع على ثلاثة أميال من مكة أو أربعة ... به مسجد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ومسجد الإمام زين العابدين عليه السلام ومسجد أم المؤمنين عائشة، وسمى بالتنعيم؛ لأن جبلًا اسمه نعيم يقع عن يمينه، وعن شماله يقع جبل آخر اسمه ناعم، واسم الوادى نعمان، وهو أقرب أطراف الحِلّ الى مكة كما هو واضح الآن» (۴).

والتنعيم يقع فى الشمال الغربى لمكّة المكرّمة، بينها وبين سَرِف (الذى فيه قبر أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث زوجة رسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم) على طريق مكة- المدينة المارِّ بوادى فاطمة (المعروف قديماً بمرِّ الظهران).

وقد ذكر مؤلف مختصر معجم معالم مكة التاريخيّة موقع التنعيم فقال:

«وادٍ ينحدر شمالًا بين جبال بشم شرقاً، وجبل الشهيد جنوباً، فيصب فى وادى ياج وهو ميقات لمن أراد

۱- ۱ هداية الناسكين، تحقيق الدكتور عبد الهادى الفضلى: ۸۹.

۲- ۲ معجم معالم الحجاز عاتق بن غيث البلادى، ۲: ۱۴۸- ۱۴۹.

۳- ۳ مختصر معجم معالم مكة التاريخية عاتق بن غيث البلادى: ۱۵.

۴- ۴ كتاب الحج للسيد آية اللَّه العظمى الشاهرودى، ۲: ۲۹۵ بتصرّف. أقول: سيأتى ان جبل نعيم جنوب شرق التنعيم مسجد العمرة وجبل ناعم يكون من ناحية الشرق.

ص: ۳۷

العمرة من المكيين، وتسمى عمرته:

عمرة التنعيم، أى مكان الاعتمار وذلك تمييزاً لها عن عمرة الجعرانة، وكان يسمى نعمان، قال محمد بن عبد اللّه النميرى:

فلم تر عينى مثل سرب رأيتهُ خرجنَ من التنعيم معتمرات

مررنَ بفخٍّ ثمّ رحْنَ عشية يلبين للرحمن مؤتجرات

تضوَّع مسكاً بطنُ نعمان إذ مشت به زينبٌ فى نسوةٍ عطرات (۱) وقد ذكر فى المختصر المتقدّم «وقد توهم البعض أن نعمان الوارد هنا هو نعمان الأراك وهذا خطأ، إذ إن من يعتمر قاصداً المسجد الحرام ليس قريباً من نعمان الأراك» (۲).

أقول: لا ينبغى الريب فى أن نعمان الذى يكون بعد الاعتمار من مسجد التنعيم لا ارتباط له بنعمان الأراك الذى يكون جنوب عرفات، وذلك: لأن التنعيم يقع شمال غربى مكّة، فالمعتمر منه الذى يريد مكة لا يمرّ بنعمان الأراك الذى يكون جنوب عرفات (۳)، والذى حدده البلادى بأنه «واد فحل من أودية الحجاز التهامية ... ينحدر غرباً، فيمرّ جنوب عرفات عن قرب، ثم يجتمع بعُرنة فيطلق عليه اسم عُرَنة، يمرّ بين جبلى كُساب وحَبَشى جنوب مكة على أحد عشر كيلو متراً، ويكون هناك حدود الحرم الشريف، ويتسع الوادى بين كبكب والقرضة فيسمى خبت نعمان لفياحه وسعته» (۴).

ثم إنه يُعرف موضع الإحرام من التنعيم اليوم ب «العمرة»، وفيه مسجد يعرف ب «مسجد عائشة» نسبة الى أمّ المؤمنين عائشة زوجة رسول اللّهصلى الله عليه و آله و سلم، لأن أخاها عبد الرحمن أحرم بها للعمرة من التنعيم امتثالًا لأمر رسول اللّهصلى الله عليه و آله و سلم عندما أمره بذلك، كما ذكرت ذلك الرواية المتقدّمة، وقد شيدت الحكومة السعودية مسجداً جنوبى علمى الحرم المكّى، الماثلين حالياً وقريباً من موقع المسجد، الذى كان قبله فى هذا الموضع، وقد أصبح المكان اليوم حيّاً من أحياء مكّة السكنيّة يُعرف بحيّ العمرة، يبعد عن المسجد الحرام أو مكّة القديمة (۶) كيلومترات.

التشكيك فى ميقات التنعيم الحالى:

هذا وقد وجدت كلمات لبعض المؤرخين الجغرافيين تلمح الى أن التنعيم الذى هو موضع الإحرام هو فى غير الموضع المعروف حاليّاً بالعمرة،

۱- ۱ مختصر معجم معالم مكة التاريخية عاتق بن غيث البلادى: ۹- ۱۰.

۲- ۲ نفس المصدر.

۳- ۳ ومعلوم أن عرفات تقع شرقى مكّة.

۴- ۴ معجم معالم الحجاز، ۹: ۶۹.

ص: ۳۸

واليك بعض الكلمات فى ذلك:

۱- قال أبو إسحاق الحربى الخراسانى (ت ۲۸۵) فى كتابه المناسكص ۴۶۷: «والتنعيم وراء القبر (قبر ميمونة) بثلاثة أميال، قبل مسجد عائشة، وهو موضع الشجرة، وفيه مسجد وأبيات، ومنه يحرم مَنْ أراد أن يحرم».

والشجرة التى أشار اليها هى شجرة هليلجة كانت فى المسجد المعروف بمسجد الهليلجة ثمّ سقطت.

وهذا الكلام يتنافى مع ما هو واقع اليوم، من أن التنعيم بين مكة وسَرِف الذى فيه قبر ميمونة، ويتنافى مع كون التنعيم هو مسجد عائشة، التى أحرمت منه بأمر الرسول الكريم حيث يقول المؤرخ: «بأن التنعيم وراء قبر ميمونة بثلاثة أميال، وقبل مسجد عائشة».

ثم قال أبو اسحاق الحربى الخراسانى: «عن مالك بن دينار عن القاسم عن عائشة: أن النبيصلى الله عليه و آله و سلم أعمرها من التنعيم، ثم مسجد عائشة بعده بنحو ميلين دون مكة بأربعة أميال».

وهذا الكلام- أيضاً- يغاير ما هو المعروف- اليوم- من أن المسافة الى علمى التنعيم القائمين حالياً لا يزيد على ستة كيلومترات أى أربعة أميال.

۲- وجاء فى كتاب «وفاء الوفاء» للسمهودى (ت ۹۱۱ ه):

«قال الأسدى: والتنعيم وراء قبر ميمونة بثلاثة أميال، وهو موضع الشجرة وفيه مسجدٌ لرسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم وفيه آبار، ومن هذا الموضع يحرم من أراد أن يعتمر، ثمّ قال: ميقات أهل مكّة بالإحرام مسجد عائشة، وهو بعد الشجرة بميلين، وهو دون مكة بأربعة أميال، وبينه وبين أنصاب الحرم غلوة».

وهذا النص- أيضاً- يصرِّح بأن التنعيم الذى يحرم منه للعمرة ليس هو ما يكون ماثلًا اليوم، إذ يكون التنعيم بعد قبر ميمونة بثلاثة أميال، وبينه وبين أنصاب الحرم غلوة.

۳- وقال أحمد بن عبد الحميد العباسى من مؤرخى القرن العاشر الهجرى فى كتابه «عمدة الأخبار»ص ۱۴۴: «والتنعيم وراء قبر ميمونة بثلاثة أميال».

۴- وقال المقدم عاتق بن غيث البلادى (مؤرخ الحجاز المعاصر) فى كتابه (على طريق الهجرة:ص ۱۰):

«ويقال: إن العمرة كانت فى هذا المكان (يعنى عند قبر ميمونة) وإن المكيين يعتقدون أنه حدود الحرم، ثمّ غيّرت العمرة عندما اختل الأمن خوفاً على الحجاج والمعتمرين».

أقول: إن هذه النصوص

ص: ۳۹

المتقدمة كلها قد اتفقت على أن التنعيم الذى أجيز للمعتمر أن يحرم منه هو:

إمّا أن يكون عند قبر ميمونة كما فى النص الأخير وإمّا أن يكون أبعد منه بثلاثة أميال أو ميلين، وبهذا تكون هذه النصوص قد خالفت موقع مسجد التنعيم اليوم من كونه بين مكة وسَرِف (الذى فيه قبر ميمونة) الذى يبعد عن المسجد أو مكة القديمة ستة كيلومترات تقريباً.

وهناك نصوص اخريصرحت بأنّ التنعيم هو أبعد من أدنى الحلِّ الى مكة بقليل، منها:

۱- ما ذكره المحب الطبرى المكى (ت ۶۹۴ ه) فيما حكاه عنه محقق أخبار مكة للأزرقى رشدى ملحِسى بهامش الكتاب المذكور، ۲: ۱۳۰:

والتنعيم «أبعد من أدنى الحلِّ بقليل وليس بطرف الحلِّ».

۲- وقال أبو الطيب الفاسى المكى فى شفاء الغرام، ۱: ۲۸۹:

«الثّانى التنعيم المذكور فى حدِّ الحرم من جهة المدينة المنوّرة وهو أمام أدنى الحلِّ كما ذكره المحب الطبرى، قال:

«وليس بطرف الحلِّ» ومَنْ فسّره بذلك تجوَّز وأطلق اسم الشىء على ما قرب منه، وأدنى الحلِّ إنما هو من جهته، وليس موضع فى الحلِّ أقرب إلى الحرم منه، وهو على ثلاثة أميال من مكّة، والتنعيم أمامه قليلًا».

وهناك نص ثالث يقول: بأنَّ التنعيم يبعد عن مكّة فرسخين فقد قال الفاسى: «وقالصاحب المطالع:

والتنعيم من الحلّ بين مكة وسَرِف على فرسخين من مكّة، وقيل على أربعة أميال».

موقع فخ:

ومما يزيد فى التشكيك: «موقع فخ» الذى يقع غربى مكة، على طريق مكة- التنعيم- المدينة وبينه وبين مكة ثلاثة أميال أى حوالى ستة كيلومترات.

وفخ بفتح الفاء الموحدة فتشديد الخاء المعجمة بئر معروف على نحو فرسخ من مكة كما قيل، وفى القاموس: «موضع بمكّة دفن فيه ابن عمر» وفى نهاية ابن الأثير: «موضع عند مكة، وقيل وادٍ دفن فيه عبد اللَّه بن عمر». وفى السرائر لابن إدريس الحلّى: «إنّه موضع على رأس فرسخ من مكّة، قتل فيه الحسين بن على بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن على أمير المؤمنين عليه السلام على ما حكاهصاحب كشف اللثام.

وعلى كلّ حال: فإن الموقع

ص: ۴۰

واضح، وهذه المعرِّفات قد تكون كلهاصحيحة، فهو وادٍ دفن فيه ابن عمر وفيه بئر، وقد وقعت فيه معركة فخ التى ذكروا بأنها من الشدّة بحيث لم تكن مصيبة بعد كربلاء أشد وأفجعَ من فخّ (۱).

وفخ قد اختلف فقهاء الإماميّة فى كونها ميقاتاً للصبيان على قولين:

الأوّل: ذهب جمع من فقهاء الإماميّة (رضوان اللَّه عليهم) الى كون فخ ميقاتاً للصبيان، بمعنى جواز تأخير إحرامهم الى هذا المكان من دون تعيّن ذلك عليهم، واستدلوا لذلك بصحيح أيوب بن الحر قال: «سُئِل الإمام الصادق عليه السلام عن الصبيان: من أين يجرّد الصبيان؟ قال عليه السلام: كان أبى يجرّدهم من فخ» (۲) هذا إذا مرّوا من طريق المدينة، أمّا إذا مرّوا من طريق آخر فيحرمون من الميقات الذى مرّوا عليه.

فقد ذكر جماعة: أن فى الرواية كناية عن جواز إحرامهم من فخ (بل ربما نسب الى الأكثر، بل فى الروضة يظهر من آخر عدم الخلاف فيه).

الثّانى: ذهب آخرون الى أن إحرام الصبيان من الميقات، ولكن رُخص لهم فى لبس المخيط الى فخ، فإذا وصلوا الى فخ جرّدوا منه، استناداً الى ظاهر الصحيح المتقدم فى حمله على الحقيقة، وظاهر الروايات المقتضية لزوم الإحرام من الميقات.

وإذا كان إحرام الصبيان من الميقات مطلقاً فى حجّ أو عمرة، وكان مطلقا حتى لمن كان من أهل مكة وأراد العمرة المفردة، كما هو ظاهر إطلاقهم ذلك، فحينئذٍ على القول الثانى يكون إحرام المعتمر من التنعيم الحالى البالغ بعده ستة كيلومترات، مع أن الصبى يحرم من الميقات، ولكن يجرّد من فخّ الذى يبعد ستة كيلومترات أيضاً، وهذا فيه بعد عرفى واضح؛ يكون الصبى فى هذا الحكم أشد حالًا من البالغ، أمّا بالنسبة إلى القول الأول فإنّ الصبى والبالغ فى هذا الحكم سيّان، مع أن العرف يرى لابديّة أن يكون إحرام الصبى أسهلَ من البالغ إذا أردنا الإرفاق به (۳).

جواب التشكيك:

ولنا فى الجواب على هذا التشكيك عدّة مسالك نستعرضها إن شاء اللَّه تعالى:

۱- جواب التشكيك من الناحية الفقهية:

نقول: إن الأقوال المتقدمة فى تقدير المسافة الى موضع الإحرام فى التنعيم وإن كانت مختلفة اختلافاً غير يسير، إلا أن هذا الاختلاف بين المؤرخين والجغرافيين لا يجيز لنا رفع

۱- ۱ ومنطقة فخ الآن فيها حيّان من أحياء مكة هما: «حىّ الزاهر» و «حىّ الشهداء» نسبة الى شهداء فخ الحسين بن على بن الحسن المثلث بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن على بن أبى طالب وأنصاره- رضوان اللَّه عليهم-. وفى فخ مقبرة معروفة تُعرف بمقبرة المهاجرين، كان يدفن فيها كلّ مَنْ جاور مكة منهم، ولا تزال موجودة معروفة حتى الآن. أما موضع شهداء فخ فلا أثر له الآن، يقول السباعى فى تاريخ مكة: ۸۹: «فى هذا المكان يعنى فخّاً تقرر مصير العلويين حيث قتل الحسين بن على وهو محرم، بعد أن أبلى بلاءً شديداً، وقتل معه أكثر من مائة من أصحابه، وكانت قبورهم معروفة هناك، ويُشرف قبر زعيمهم الحسين على ربوة فى الوادى. وجاء فى معجم معالم الحجاز، ۷: ۱۹ للمقدم عاتق بن غيث البلادى ما نصه: «حكى شاهد عيان أنه كان فى أواخر الستينات من هذا القرن الرابع عشر الهجرى حدث أثناء حفر أساس قصر بالشهداء، أن بدت يدُ إنسانٍ طريّة عارية من تحت الأرض، فحفروا عنها فإذا هى مطبقة عليصدر إنسان فجذبوها، فإذا الدم يندفع من موضعها، فتركوها، فاذا هى ترتدّ بسرعة الى مكان النزيف فتوقفه».

۲- ۲ وسائل الشيعة، ۸: باب ۱۸ من المواقيت، ح ۱.

۳- ۳ قد يقال: إن الرواية فى تجريد الصبيان من فخّ ناظرة لمن أحرم من طريق المدينة فقط، فلا اطلاق فيها لما نحن فيه.

ص: ۴۱

اليد عن موضع الإحرام فى التنعيم الحالى وذلك لعدم حجيّة هذه الأقوال فى أنفسها، إذ هى إما أخبار آحاد غير معتبرة وإمّا متعارضة، وحتى إذا كانت أقوال ذوى الخبرة فهى ساقطة بالتعارض، فتبقى السيرة المتلقاة من المسلمين فى الإحرام من مسجد التنعيم الحالى الذى يبعد ۶ كيلومترات عن المسجد أو حدود مكة القديمة، وهذا خير دليل على بطلان التشكيك المتقدم، فإن هذه السيرة المتلقاة يداً بيد ممن يلتزم الشريعة الغراء نهجاً فى حياته، وفى زمن المعصومين عليهم السلام تفيد العلم فى معرفة ميقات التنعيم، الذى وقّته رسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم، ولو كان هناك أىّ تغيير فى الميقات فى أى زمان لنقل الينا بصورة واضحة، إذ إن التغيير فى العبادات وأماكنها التى شرعها وسنّها رسولُ اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم، مما يوجب اعتراض المسلمين قاطبة، ونقل ذلك التغيير والاعتراض لغيرهم، مع إننا لم نجد فى الروايات التى بين أيدينا أىّ تغيير فى ميقات التنعيم، نعم نقل عن بعض المؤرخين المعاصرين «تغير موضع العمرة عندما اختل الأمنُ خوفاً على الحجّاج والمعتمرين» بقوله ويقال، وهذا الكلام لا يعتدّ به لأنه لم يعتقد به حتى هذا المؤرخ المعاصر كما تقدم، فهو عبارة عن كلام غير معتبر تردّه السيرةُ القائمة على تعيين موضع الإحرام للعمرة من مسجد التنعيم الحالى من قبل كلّ المسلمين.

هذا وقد ذكر غيرُ واحد من الأصحاب (۱) هنا الاكتفاء فى معرفة هذه المواقيت بالشياع المفيد للظن الغالب، ولعلّه لصحيح معاوية بن عمار عن الإمام الصادق عليه السلام: «يجزيك إذا لم تعرف العقيق أن تسأل الناس والأعراب عن ذلك» (۲). ومعنى ذلك أن الشياع الموجود عند المسلمين هو المرجع فى تحديد الميقات، لا قول المؤرخ أو الجغرافى، خصوصاً مع التعارض والاختلاف.

۲- جواب التشكيك من الناحية الرياضية:

إن الأقوال المتقدمة فى تقدير المسافة الى موضع الإحرام فى التنعيم تتمثل فى المسافة التالية: «۳ ميل/ ۴ ميل/ ۶ ميل/ ۱ فرسخ/ ۲ فرسخ/ ۶ كم/ ۱۲ كم» تقريباً. فهل يمكن أن نرجع هذا الاختلاف فى المسافة الى اختلاف أسباب العدّ مع كون الموضع الذى يحرم منه هو الموضع الحالى؟

الجواب: نعم يمكننا ذلك؛ لأن تقدير المسافة يختلف لأسباب متعددة

۱- ۱ راجع جواهر الكلام، ۱۸: ۱۰۷.

۲- ۲ وسائل الشيعة، ۸: باب ۵ من المواقيت، ح ۱.

ص: ۴۲

منها:

(أ) الاختلاف فی تقدیر الذراع المستعمل فی العدّ، فإنّه علی ثلاثة أوجه:

الأوّل: ذراع الیـد الـذی هو مختلف بین عدّه (۵۲ سـم) أو (۵۰ سـم) أو (۴۸ سم) وذلک: لأن الـذراع- کما ذکر أهل اللغـة (کمجمع البحرین)- «من المرفق الی أطراف الأصابع، والذراع ست قبضات، والقبضة أربع أصابع» وبما أن الأصـبع یختلف قدره من شخص الی شخص فی الإنسان المتعارف، فبذلک یختلف العدّ بین الأرقام الثلاثة المتقدّمة.

الثّانی: الذراع الحدیدی یساوی (۵۸ سم تقریباً).

الثّالث: الذراع المعماری الذی یساوی (۷۵ سم تقریباً).

(ب) الاختلاف فی تقدیر المیل بالذراع، فقد قُدر المیل بالنسبة لذراع الید بتقدیرات مختلفة.

الأوّل: ۲۰۰۰ ذراع ید.

۳۵۰۰ ذراع ید.

۴۰۰۰ ذراع ید.

۶۰۰۰ ذراع ید (۱).

ولهـذا الاختلاف فی تقـدیر المیل بالـذراع یفهم الاختلاف فی تقـدیر المسافـة بالأمیال، ومنه یفهم اختلاف تقدیر المسافة بالفرسخ أو الکیلومتر.

(ج) أضف الی ذلک الاختلاف فی مبدإ العدّ، فإن مبدأ العدِّ قد یکون باب المسجد، کما قد یکون سور مکة.

(د) الاختلاف فی تقـدیر الطریق المعـدود الـذی یختلف باختلاف الانحناءات فی أزمان مختلفـة، فقـد یکون طریق فیه تعرجات کثیرة یستوجب کثرة المسافة المطویة فی زمان، وفی زمان آخر یتبدل الطریق بإزالة هذه التعرجات أو اختصارها بما یستوجب قلة المسافة.

۳- جواب التشکیک من ناحیة تعیین موضع التنعیم بالوصف:

فان الموضع الحالی للتنعیم هو بین مکة وسَرِف (الذی فیه قبر أم المؤمنین میمونة بنت الحارث زوجة رسول اللّهصـلی الله علیه و آله و سلم، وحینئذٍ یمکن أن تکون العبارات القائلة: بأن التنعیم وراء قبر میمونة بثلاثة أمیال متفقة مع الوصف الأولی، إلا أن الوصف الأولی یکون للموضع لمن کـان فی مکـة وأراد السیر إلی الموضع، أمّـا الوصف الثانی فهو ناظر إلی الموضع لمن کان خارج مکّـة أو بعیـداً عنهـا، فالموضع هو نفسه بین مکـة والقبر لمن أراد الإتیان إلیه من مکـة، وهو بعـد القبر لمن أراد الوصول إلیه، وهو خارج مکـة، واللّه تعالی هو العالم بحقائق الأمور.

ولعلّ مما یحسم الخلاف والتشکیک ما وجدته فی خریطة مکة

۱- ۱ استندنا فی ذکر هذه التقدیرات الی کتاب هدایة الناسکین للدکتور الفضلی:ص ۹۳.

ص: ۴۳

المكرمة (المرفقة بكتاب مكّة المكرمة فى شذرات الذهب للغزاوى، وهو دراسة وتحقيق لبعض المعالم الجغرافية) من وجود ثلاث مناطق للتنعيم:

الأولى: منطقة العمرة التى هى شمال غربى جبل نعيم وغربى جبل ناعم، وهو مكان العمرة الحالى.

الثانية: التنعيم التى تقع شمال منطقة العمرة.

الثالثة: منطقة التنعيم التى تقع شمال جبل الواتد وجنوب منطقة الغزالة وجبل الغبير.

وحينئذٍ فإن الخلاف فى بُعد التنعيم عن المسجد الحرام أو مكة قد يكون منشؤه هذه المناطق الثلاث فالذى يصح منه الإحرام هو منطقة العمرة التى هى أقرب مناطق التنعيم للحرم.

هل يشكِّل الجمع بين حدود الحرم الحالية ومواقيت أدنى الحلّ مشكلة؟

إن الشارع المقدّس قد حدّد الحرم المكّى كما فى موثق زرارة قال:

سمعتُ الإمام الباقر عليه السلام يقول: حرّم اللّه حرمه بريداً فى بريد ...» (۱) «الذى هو عبارة عما يقارب ثلاثة وعشرين كيلومتراً».

فهل بإمكاننا أن نوفق بين هذا التحديد الإجمالى وما هو متلقى من تعيين الحدود ومعرفتها بالعلامات والنصب الموجودة الآن، المأخوذة يداً بيد من زمن المعصومين عليهم السلام بحيث يكون التنعيم الحالى خارج حدود الحرم، والى جنبه النصب الموجودة حاليّاً؟

نقول: إننا إذا نظرنا الى الأدلة القائلة بأن المزدلفة هى من الحرم؛ بقرينة جواز التقاط حصى الجمار منها، وبأن الجعرانة والتنعيم والحديبية هى خارجة عن حدود الحرم؛ لجواز الإحرام للعمرة المفردة منها، للنصوص المتقدمة، بل جواز الإحرام من أشباه الجعرانة والحديبية كما فى الصحيح المتقدم الذى يدلّ على جواز الإحرام من كلّ مكان خارج الحرم، فيلزمنا أن نفسر حدود الحرم الواردة فى الموثق بما يكون بين هذه المواقيت، بحيث تدخل المزدلفة فيه، وبهذا فسوف يكون الحرم مختلفة أبعاده بالنسبة الى مكة، فمن ناحية التنعيم (الشمال الغربى) يكون الحرم قبل مسجد التنعيم الحالى كما هى علامات الحرم بالنصب الموجودة حاليّاً، وهى لا تبعد إلا ستة كيلومترات وأما من ناحية الجنوب فقد ذكروا أن اضاءة لبين (لبن) هى حدود الحرم من

۱- ۱ وسائل الشيعة، ۹: باب ۸۷ من تروك الإحرام، ح ۴.

ص: ۴۴

الناحية الجنوبية، وهى لا تبعد أكثر من (۱۸) كم وبهذا فسوف يكون البريد ما بين علمى التنعيم وعلمى اضاءة لبين (لبن) متحققاً.

أمّا الجعرانة: (التى هى ميقات للإحرام من ناحية الشمال الشرقى).

وعرنة: (وهى حدود الحرم من الناحية الشرقية).

والحديبية: (وهى ميقات من ناحية الغرب).

فهى خارجة عن الحرم وهى تبعد ما بين ۲۰- ۲۳ كم.

وحينئذٍ لا يمكن تطبيق البريد فى البريد ما بين هذه الأماكن الثلاثة، ولكن لنا أن نقول: إن الفقهاء قد ذكروا استحباب الإحرام من الجعرانة والحديبية، وجوّزوا الإحرام من أدنى الحلّ، فإذا عرفنا أدنى الحلّ بصورة قطعية كما فيما بعد المزدلفة، جاز لنا الإحرام منه، وإذا شككنا فى حدود الحرم من جهة من الجهات، فالاحتياط يقتضى أن نحرم من منطقة تبعد عن الحرم كما فى الجعرانة والحديبية وأمثالهما.

وبهذا فسوف تكون حدود الحرم، التى هى بريد فى بريد، ليس على نسق واحد فى جميع الأطراف، كما توجد اشارة الى ذلك فى بعض الأخبار.

وعلى كلّ حال فإن تحديد الحرم بكونه بريداً فى بريد غير مثير للإشكال فى موضع التنعيم الحالى، فإن ما ذكر من كونه ميقاتاً بفعل الرسولصلى الله عليه و آله و سلم كالحديبية والجعرانة، إنما هو على نحو الاستحباب؛ للتأسى بفعل النبيصلى الله عليه و آله و سلم، ولما فيه من البعد عن مكة، وليست هى أقرب الأماكن إلى الحرم، وحينئذٍ ما قطعنا من كونه من الحرم تطبق عليه أحكام الحرم، وما لم نقطع فيه أنه من الحرم لا نطبق فيه أحكام الحرم، ولكن يلزمنا- أيضاً- الإحرام من المكان الذى نقطع فيه بأنه خارج عن حدود الحرم، واللَّه سبحانه هو الموفق.

نيّات الحجّ والعمرة

ص: ۴۵

الهوامش:

نيّات الحجّ والعمرة

تأليف الشيخ الشهيد السعيد زين الدين العاملى «الشهيد الثانى» تحقيق: فارس حسّون كريم

قال اللَّه- عزّ ذكره-: «وأتمّوا الحجَّ والعمرةَ للَّه ..» (۱).

الحـجُّ: القصـد فى اللغة، وخصّ فى الشـرع بالقصد الى بيت اللَّه الحرام؛ لأداء مناسك مخصوصة عنده، على وجهٍ مخصوصٍ، فى وقتٍ مخصوصٍ. وقـد أوجبه اللَّهُ فى طول العمر مرّة واحـدة، ووعـد عليها من الثواب الجنّـة، والعفو عن الذنوب، وسـمّى تاركه كافراً، ووُعِد بالنار- نعوذ باللَّه-.

والعمرة: الزيارة فى اللغـة، وخصّت فى الشـريعة بزيارة البيت الحرام؛ لأداء مناسك مخصوصـة عنـده، على وجهٍ مخصوصٍ. وكلاهما- الحجّ والعمرة- ضربان؛ مقضى لنفسه أو لغيره (۲).

وأوجب اللَّه- تعالى- بالآيـة المذكورة، حجّة الإسـلام، وعمرة الإسـلام؛ لأنّه تعالى أمر جميعَ من توجّه إليه وجوبُ الحجّ أن يتمّ الحجّ والعمرة- من المكلّفين-. ووجوبُ الإتمام يدلّ على أنّهما واجبان، بل هذا آكد فى الإيجاب من «حجّوا» أو «اعتمِروا».

ولمّا قرن- تعالى- العمرةَ بالحجّ، وأمر- بإتمامهما وفعلهما- أمراً واحداً، فهى فى الوجوب مرّة واحدة كالحجّ (۳).

وأمّا ما روى فى علّـة تسـمية الحـجّ حجّاً: ما رواه الصدوق بإسـناده عن أبى جعفر عليه السـلام، قيل له: لِمَ سـمّى الحجّ حجّاً؟ قال: حجّ فلان أى أفلح فلان (۴).

۱- ۱ البقرة: ۱۹۶.

۲- ۲ انظر الفقه المنسوب للإمام الرضا عليه السلام: ۲۱۴- الوسيلة إلى نيل الفضيلة: ۱۵۵.

۳- ۳ انظر فقه القرآن، ۱: ۲۶۳.

۴- ۴ علل الشرائع: ۴۱۱ ح ۱- معانى الأخبار: ۱۷۰ ح ۱- عنهما البحار، ۹۹: ۲ ح ۱ و ۲.

ص: ۴۶

وقد خصّصهما الشارع- عزّ وجلّ- بالفضل والثواب، ووعد الحاجّ- عنهما- عظيم الشفاعة، وحسنات لا تحصى، ولِمَ لا؟

فإنّ المتبادر الى الفهم عند أهل الشرع: أنّ الحجّ عبادة مركّبة من جملة عبادات؛ كالصلاة المؤلّفة من الأفعال، والأذكار المخصوصة.

وجاءت الروايات عن أهل بيت العصمة عليهم السلام متواترةً متكاثرة موضحةً فضله وأهميته، وقد أورد جملة منها الشيخ المفيد فى مقنعته (۱).

وأنواع الحجّ ثلاثة:

۱- التمتّع بالعمرة الى الحجّ: وهو فرضُ اللّه على كل ناءٍ عن المسجد الحرام فلا يجوز منه سواه (۲).

۲- الإقران فى الحجّ: وهو أن يهلّ من الميقات بالحجّ، ويقرن الى إحرامه سياق الهدى، وإنّما سمّى إقراناً لاقتران سياق الهدى بما يأتى به، وعليه طوافان بالبيت، وسعى واحد بين الصفا والمروة، ويجدّد التلبية عند كلّ طواف (۳).

۳- الإفراد للحجّ: وهو أن يحرم بالحجّ من الميقات مفرداً ذلك من سياق الهدى وليس عليه هدى، ولا تجديد التلبية عند كلّ طوافٍ، ومناسك المفرد والقارن متساوية (۴).

وحال الحجّ كحال سائر الفرائض الأُخرى، فقد خالفت الإماميّة غيرها من الفرق الإسلاميّة فى أحكامه وأفعاله، وأشار لمعظمها الشريف المرتضى «علم الهدى» فى كتابه الموسوم ب «الانتصار» (۵).

ترجمة المؤلّف (۶) اسمه ونسبه:

ذكر اسم ونسب الشهيد السعيد فى الكتب التى تناولت ترجمته، باختلاف من كتابٍ لآخر، فقد أورده ابن العودى (۷) فى رسالته هكذا: زين الدين بن نور الدين على بن أحمد بن جمال الدين بن تقىّ الدينصالح بن مشرف العاملى. وكذا ورد فى إجازة الشهيد قدس سره للشيخ حسين بن عبد الصمد الجبعى العاملى- والد الشيخ البهائى- على ما ورد فى البحار (۸)، إلّاأنّ فيها «شرف» بدل «مشرف». وذكر فى آخر الإجازة (۹): «وكتب هذه الأحرف بيده الفانية زين الدين بن على بن أحمد شُهر بابن الحاجة ...».

مولده قدس سره:

ولد لثلاث عشرة خلون من شوّال سنة إحدى عشرة وتسعمائة من الهجرة النبويّة.

قبس من خِصاله:

ذكر ابن العودى: أنّه لم يصرف لحظة من عمره إلّافى اكتساب فضيلة، ووزّع أوقاته على ما يعود نفعه فى اليوم والليلة. أمّا النهار ففى تدريس ومطالعة وتصنيف ومراجعة، وأمّا الليل فله فيه استعداد كامل لتحصيل ما يبتغيه من الفضائل، هذا مع غاية اجتهاده فى التوجّه الى مولاه، وقيامه بأوراد العبادة حتى تكلّ قدماه، وهو مع ذلك قائم بالنظر

۱- ۱ المقنعة: ۳۸۶- ۳۸۹.

۲- ۲ جمل العلم والعمل: ۱۰۴.

۳- ۳ نفس المصدر.

۴- ۴ نفس المصدر.

۵- ۵ الانتصار: ۸۹- ۱۰۶.

۶- ۶ تجد ترجمته مفصّلة فى: الدرّ المنثور، ۲: ۱۴۹- بغية المريد فى الكشف عن أحوال الشهيد- أمل الآمل، ۱: ۸۵- رياض العلماء، ۲: ۳۶۵- لؤلؤة البحرين: ۲۸- نقد الرجال: ۱۴۵- منتهى المقال: ۱۴۱- بهجة الآمال، ۴: ۲۵۴- روضات الجنّات، ۳: ۳۵۲- تنقيح المقال،

۱: ۴۷۲- سفينة البحار، ۱: ۷۲۳- الكنى والألقاب، ۲: ۳۴۴- هديّة الأحباب: ۱۶۷- الفوائد الرضويّة: ۱۸۶- أعيان الشيعة، ۷: ۱۴۳- الأعلام للزركلى، ۳: ۶۴- معجم رجال الحديث، ۷: ۳۷۲- معجم المؤلّفين، ۴: ۱۹۳.

۷- ۷ هو الشيخ الفاضل محمد بن على بن الحسن العودى الجزينى، كان تلميذ الشهيد الثانى، وأقرب الناس إليه، ترجم أستاذه فى رسالة مستقلّة سمّاها «بغيةالمريد فى الكشف عن أحوال الشهيد»، ولكنها فقدت- ككثير من عيون تراثنا- ولم يبق منها إلّاما وقع فى يد الفاضل حفيد شيخنا الشهيد: على بن محمد بن الحسن بن زين الدين «الشهيد الثانى» فأودعه فى كتابه «الدرّ المنثور».

۸- ۸ بحار الأنوار، ۱۰۸: ۱۴۷.

۹- ۹ بحار الأنوار، ۱۰۸: ۱۷۱.

ص: ۴۷

فی أحوال معیشته علی أحسن نظام، وقضاء حوائج المحتاجین بأتمّ قیام ....

وبالجملة فهو عالم الأوان ومصنّفه، ومقرّظ البیان ومشنّفه بتآلیف کأنّها الخرائد، وتصانیف أبهی من القلائد، وضعها فی فنون مختلفة وأنواع، وأقطعها ما شاء من الإتقان والإبداع، وسلک فیها مسلک المدقّقین، وهجر طریق المتشدّقین (۱).

شهادته:

لم یکن شیخنا بمنأی عن أعین حاسدیه مع أنّه کان یخفی حتی آثاره القیّمة، ولعلّ أشدّهم عداوة القاضی معروف. وکان سبب قتل شیخنا أنّه ترافع إلیه رجلان فحکم لأحدهما علی الآخر، فغضب المحکوم علیه وذهب إلی القاضی معروف، الذی ما إن سمع حتی غضب وأرسل من یطلبه، فسافر الشیخ فی محمل مغطّیً، وکتب القاضی إلی سلطان الروم: أنّه وجد ببلاد الشام رجلٌ مبدع خارج عن المذاهب الأربعة، فأرسل السلطان رجلًا فی طلب الشیخ وقال له: ائتنی به حیّاً، فلحقه فی طریق مکّة، فقال له الشیخ: تکون معی حتی نحجّ، ثم افعل ما ترید. فلمّا فرغ سافر معه إلی بلاد الروم، فلمّا وصلها رآه رجل فسأله عن الشیخ، فقال: رجل من علماء الامامیّة أراده السلطان، فقال:

أَوما تخاف أن یخبر السلطان بأنّک قد آذیته؟ بل الرأی أن تقتله وتأخذ برأسه، فقتله فی مکانه. ودفن من قبل جماعة من الترکمان وبنیت علیه قبّة. وأخذ الرجل رأسه إلی السلطان فأنکر علیه، وقال: أمرتک أن تأتینی به حیّاً فقتلته! ثم قتل ذلک الرجل (۲).

استشهد قدس سره سنة ۹۶۵ ه. ق عن عمرٍ یناهز ۵۵ سنة.

نسخة الکتاب:

لقد وفِّقت لنیلصورة لنسخة مخطوطة من کتاب الرجعة للمیرزا محمد مؤمن بن دوست الاسترابادی من خزانة مکتبة آیة اللّه العظمی المرعشی النجفی قدس سره مذکورة فی فهرس مخطوطات المکتبة: ۴/ ۲۸۲ رقم ۱۴۸۵، ومن ثمّ وفِّقت لإتمام تحقیقها، غیر أنّی وجدت ملحقاً بالنسخة المذکورة، نسخة مکتوبة بخطّ نسخ جیّد تقع فی ۸صفحات، کلّصفحة احتوت ۱۲ سطراً، والظاهر أنّ کاتبها هو کاتب نسخة الرجعة نفسه، وهو السیّد حسن بن علوان بن علی الشاعر الشاخوری الغریفی فی سنة ۱۲۲۴ ه.

ومن خلال متابعتی لمعرفة مؤلّف النسخة، ومراجعتی لکتاب الذریعة، وجدت أنّ الشیخ آقا بزرگ ذکر فی المجلّد ۲۴صفحة ۴۴۱ تحت الرقم ۲۳۱۱ ما هذا نصّه:

نیّة الحجّ والعمرة: أیضاً للشهید الثانی وهی غیر مناسکه، أوّلها: [الحمد للّهربّ العالمین، وصلواته علی محمّد وآله الطاهرین، إذا عزمت علی سبیل الحجّ، وقطعت العلائق (۳) فقف علی باب بیتک، وانو الحجّ والعمرة ...].

مختصرة تزید علی مائة بیت، رأیتها فی مکتبة (سیّدنا الشیرازی)، ونسخة مع مناسکه فی مکتبة (الشریعة). انتهی.

۱- ۱ الدرّ المنثور، ۲: ۱۵۳- ۱۵۴.

۲- ۲ أمل الآمل، ۱: ۹۰- ۹۱ بتصرّف.

۳- ۳ العوائق، هکذا وردت کتابتها فی الذریعة لآقا بزرگ الطهرانی.

ص: ۴۸

وكما يلاحظ فإنّ مطلع النسخة هو عين ما ذكره الشيخ الطهرانى رحمه الله.

وكان عملى بعد استنساخ النسخة الخطيّة، وتقويم النصّ، أن عمدتُ إلى مطابقة النيّات المذكورة فى هذه الرسالة؛ مع النيّات المذكورة فى (الرسالة الفخريّة فى معرفة النيّة) تأليف فخر المحقّقين محمد بن الحسن بن المطهّر الحلّى المولود سنة ۶۸۲ ه. ق، والمتوفّى سنة ۷۷۱ ه. ق مثبتاً ذلك فى الهامش.

وآخر دعوانا أن الحمد للّه ربّ العالمين.

-* محل الصورة*-

صورة الصفحة الاولى من النسخة الخطيّة

الحمد للّه ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على سيّد المرسلين محمّدٍ وآله الطاهرين.

وبعد:

إذا عزمتَ- أيّها الأخ- إلى الحجّ، وقطعتَ العلائق، فقف عليصورة الصفحة الأخيرة من النسخة الخطيّة

باب بيتك، وانو الحجَّ، والعمرة، وقل:

ص: ۴۹

أتوجّه إلى البيت الحرام، والمشاعر العظام؛ لَاعتمر عُمرة الإسلام، عمرةَ التمتّع، وأَحجّ حجّ الإسلام، حجّ التمتّع، لوجوبه قربةً إلى اللّه (۱).

فإذا وصلت إلى الميقات (۲)، يستحبّ أن تغتسل غسل الإحرام، والنيّة:

أغتسلُ غسل الإحرام لندبه قربةً إلى اللّه.

فإذا فرغت من الغسل، فالبس ثوبى الإحرام (۳)، تأتزرُ بأحدهما، وترتدى بالآخر (۴)، ثمّ تصلّى سنّة الإحرام استحباباً، وهى ستّ ركعات، وأقلّها ركعتان، والنيّة:

أُصلّى ركعتى سنّة الإحرام لندبه قربة إلى اللّه.

ثمّ إن كان الإحرام من ميقات المدينة فليدخل مسجد الشجرة، ويحرم بعمرة التمتّع من داخله، ونيّته:

أُحرم بالعمرة المتمتّع بها إلى الحجّ حجّ الإسلام حجّ التمتّع، وأُلبّى التلبيات الأربع لعقد هذا الإحرام؛ لوجوب الجميع قربة إلى اللّه (۵).

ويقارن بالنيّة التلبية، فيقول:

لبّيك اللّهمّ لبّيك لبّيك، إنّ الحمد والنعمة والملك لك، لا شريك لك لبّيك.

ثمّ يتوجّه إلى مكّة ويكرّر التلبية استحباباً، فإذا وصل إلى مكّة بدأ بالطواف حول الكعبة سبعة أشواطٍ، يبدأ بالحجر الأسود ويختم به.

والنيّة مقارنة لأوّل الطواف، عند محاذاة أوّل جزء منه لأوّل جزء من الحجر الأسود، علماً أو ظنّاً، مستقبلًا بوجهه الكعبة، أو جاعلها على اليسار، ونيّته:

أطوف بالبيت سبعة أشواطٍ فى عمرة الإسلام، عمرة التمتّع؛ لوجوبه قربة إلى اللّه (۶). ويقارن بالنيّة الحركة، ويختم الشوط السابع كما بدأ أوّلًا بمحاذاة الحجر.

وإذا فرغ من الطواف، مضى إلى مقام إبراهيم عليه السلام فصلّى ركعتى الطواف خلفه، أو إلى أحد جانبيه، ونيّتها:

أُصلّى ركعتى الطواف؛ طواف عمرة الإسلام، عمرة التمتّع أداءً؛ لوجوبه قربة إلى اللّه (۷).

فإذا فرغ منها مضى إلى السعى بين الصفا والمروة سبعة أشواطٍ، يحسب من الصفا حتى يرجع إليه شوطين، حتى يكمل سبعة أشواط خاتماً بالمروة، ونيّته وهو على الصفا:

أسعى سبعة أشواطٍ بين الصفا

۱- ۱ أورد هذه النيّة فخر المحقّقين فى الرسالة الفخريّة: ۷۳ هكذا: «أتوجّه إلى بيت اللّه الحرام، والمشاعر العظام؛ لأداء الحجّ والعمرة، وأفعالهما؛ لوجوبهما إلى اللّه، وإن كانا مستحبّين قال ... لندبهما قربة إلى اللّه».

۲- ۲ إنّ رسول اللّهصلى الله عليه و آله و سلم وقّت لكلّ قوم ميقاتاً يحرمون منه، لا يجوز لهم التقدّم فى الإحرام من قبل بلوغه، ولا التأخّر عنه، فوقّت لأهل المدينة مسجدَ الشجرةوهو ذو الحليفة ...، ووقّت لأهل العراق بطن العقيق، وأوّله المسلح، ووسطه غمرة، وآخره ذات عرق ...، ووقّت لأهل الشام الجحفة ...، ووقّت لأهل اليمن يَلَمْلَمْ ...، ووقّت لأهل الطائف قرن المنازل ... «المقنعة: ۳۹۴- ۳۹۵».

۳- ۳ قال فى الرسالة الفخريّة: ۷۴: ويلبس ثوبى الإحرام، فيقول: «ألبس ثوبى الإحرام؛ لوجوبه قربة إلى اللّه».

۴- ۴ فى النسخة: بالأُخرى.

۵- ۵ ذكر النيّة فى الرسالة الفخريّة: ۷۴ هكذا: «أُلبّى التلبيات الأربع؛ لأعقد بها إحرام العمرة المتمتّع بها إلى الحجّ، حجّ الإسلام؛

لوجوبه عليّ قربة إلى اللّه».

۶- ۶ أورد هـذه النيّة فى الرسالة الفخريّة: ۷۴ هكذا: «أطوف سبعة أشواط طواف العمرة المتمتّع بها إلى الحجّ عمرة الإسـلام؛ لوجوبه عليَّ قربة الى اللّه».

۷- ۷ أورد هـذه النيّـة فى الرسالة الفخريّة: ۷۴ هكـذا: «أُصـلّى ركعتى طواف العمرة المتمتّع بها عمرة الإسـلام؛ لوجوبها عليَّ قربة إلى اللّه».

ص: ۵۰

والمروة فى عمرة الإسلام، عمرة التمتّع؛ لوجوبه قربة الى اللّه (۱).

فإذا فرغ من السعى قصّر من شعره، أو ظفره بالمروة، ونيّته:

أُقصّر للإحلال من إحرام عمرة الإسلام، عمرة التمتّع؛ لوجوبه قربة إلى اللّه (۲).

والتقصيرُ آخر أفعال العمرة، فإذا فعله بقى على الإحلال من كلّ ما حرّمه اللّهُ إلى أن يحرم بالحجّ يوم الثامن.

ويستحبّ كونه بعد أن يصلّى الظهرين ذلك اليوم، فيحرم له من مكّة، وأفضلها المسجد الحرام، وخلاصته الحجر، والمقام. فينوى بعد الغسل، ولبس ثوبى الإحرام، وصلاة السنّة المتقدّمة، ونيّته:

أُحرم بحجّ الإسلام، حجّ التمتّع، وأُلبّى التلبيات الأربع لعقد هذا الإحرام؛ لوجوب الجميع قربةً إلى اللّه (۳). ثمّ يلبّى مقارناً بها النيّة:

لبّيك اللهمّ لبّيك لبّيك، إنّ الحمد والنعمة والملك لك، لا شريك لك لبّيك.

ثمّ يمضى إلى عرفات، فيقف بها يوم التاسع من الزوال إلى غروب الشمس بمعنى الكون بها، والنيّة عند تحقّق الزوال بلا فصلٍ:

أقِف بعرفات من وقتى هذا إلى غروب الشمس فى حجّ الإسلام، حجّ التمتّع؛ لوجوبه قربة إلى اللّه (۴).

فإذا غرَبت الشمس أفاض إلى المشعر، فإذا وصل إليه وجب عليه المبيت ناوياً عند وصوله:

أبيت هذه الليلة بالمشعر فى حجّ الإسلام، حجّ التمتّع؛ لوجوبه قربةً إلى اللّه.

فإذا أصبح وجب عليه الوقوف به إلى طلوع الشمس بمعنى الكون به، وتجب النيّة عند تحقّق الفجر، والنيّة:

أقف بالمشعر إلى طلوع الشمس فى حجّ الإسلام، حجّ التمتّع؛ لوجوبه قربة إلى اللّه (۵).

فإذا طلعت الشمس أفاض إلى منى، فإذا وصل إليها وجب عليه فيها ثلاثة أفعال: رمى جمرة العقبة بسبع حصيات، ثمّ ذبح الهدى، ثمّ حلق الرأس، أو التقصير. ونيّة الرمى:

أرمى جمرة هذه العقبة بسبع حصيات فى حجّ الإسلام، حجّ التمتّع؛ لوجوبه قربة إلى اللّه (۶)، مقارناً بالرمى لجمرة العقبة. ونيّة الذبح:

أذبحُ هذا الهدى فى حجّ الإسلام، حجّ التمتّع؛ لوجوبه قربة إلى اللّه (۷).

ويجب أن يأكل منه شيئاً، وأن يهدى ثلثه لإخوانه المؤمنين، ويتصدّق بثلثه على فقرائهم، والنيّة مقارنة للأكل:

آكل من لحم هدیی هذا فى حجّ

۱- ۱ أورد هذه النيّة فى الرسالة الفخريّة: ۷۴- ۷۵ هكذا: «أسعى سبعة أشواط سعىَ العمرة المتمتّع بها، عمرة الإسلام؛ لوجوبه علىَّ قربة إلى اللّه».

۲- ۲ أورد هذه النيّة فى الرسالة الفخريّة: ۷۵ هكذا: «أُقصّر للإحلال من عمرة المتمتّع بها عمرة الإسلام؛ لوجوبه علىَّ قربة إلى اللّه».

۳- ۳ فى الرسالة الفخريّة: ۷۵ هكذا: ثمّ يحرم بالحجّ من مكّة، وأفضلها تحت الميزاب، فيقول: «أُحرم بالحجّ حجّ الإسلام حجّ التمتّع؛ لوجوبه علىَّ قربة إلى اللّه».

۴- ۴ أورد هذه النيّة فى الرسالة الفخريّة: ۷۵ هكذا: «أقف بعرفات لحجّ الإسلام، حجّ التمتّع؛ لوجوبه علىَّ قربة الى اللّه».

۵- ۵ أورد هذه النيّة فى الرسالة الفخريّة: ۷۵ هكذا: «أقف بالمشعر لحجّ الإسلام، حجّ التمتّع؛ لوجوبه قربة إلى اللّه».

۶- ۶ أورد هذه النيّة فى الرسالة الفخريّة: ۷۵ هكذا: «أرمى جمرة العقبة لحجّ التمتّع، حجّ الإسلام؛ لوجوبه علىَّ قربة إلى اللّه».

۷- ۷ أورد هذه النيّة فى الرسالة الفخريّة: ۷۵ هكذا: «أذبح هذا الهدى لحجّ التمتّع، حجّ الإسلام؛ لوجوبه علىَّ قربة إلى اللّه».

ص: ۵۱

الإسلام، حجّ التمتّع؛ لوجوبه قربةً إلى اللَّه.

ونيّة الإهداء:

أهديتك يا فلان ثلث هديي هذا في حجّ الإسلام، حجّ التمتّع؛ لوجوبه قربةً إلى اللَّه.

ونيّة التصدّق:

أتصدّق بثلث هديي هذا في حجّ الإسلام، حجّ التمتّع؛ لوجوبه قربةً إلى اللَّه.

ثمّ يحلق رأسه، أو يقصّر من شعره، أو ظفره، ونيّته كما مرّ مقارنةً للفعل:

أحلق رأسي، أو أُقصّر في حجّ الإسلام، حجّ التمتّع؛ لوجوبه قربةً إلى اللَّه (۱).

فإذا فرغ من ذلك، مضى إلى مكّة للطواف والسعي. فإذا وصل إليها، بدأ بطواف الحجّ، وصفتُه كما مرّ، ونيّته:

أطوف بالبيت سبعة أشواطٍ في حجّ الإسلام، حجّ التمتّع؛ لوجوبه قربةً إلى اللَّه (۲).

ثمّ يصلّي ركعتيه خلف المقام، ونيّتها:

أُصلّي ركعتي طواف حجّ الإسلام، حجّ التمتّع؛ لوجوبه قربةً إلى اللَّه (۳).

ثمّ يسعى كما مرّ، ونيّته:

أسعى بين الصفا والمروة سبعة أشواطٍ في حجّ الإسلام، حجّ التمتّع، لوجوبه قربةً إلى اللَّه (۴).

ثمّ يطوف طواف النساء سبعة أشواطٍ، ونيّته:

أطوف طواف النساء سبعة أشواطٍ في حجّ الإسلام، حجّ التمتّع؛ لوجوبه قربةً إلى اللَّه (۵).

ثمّ يصلّي ركعتيه (۶)، ونيّتها:

أُصلّي ركعتي طواف النساء في حجّ الإسلام، حجّ التمتّع؛ لوجوبه قربةً إلى اللَّه (۷).

فإذا فرغ من هذه الأفعال رجع إلى منى للمبيت بها ليالي التشريق الثلاث وهي: ليلة الحادي عشر، والثاني عشر، والثالث عشر، ويجوز لمن اتّقى الصيد والنساء، ولم تغرب عليه الشمس ليلة الثالث عشر الاقتصار على مبيت الليلتين، وتجب النيّة عند الغروب:

أبيت هذه الليلة بمنى في حجّ الإسلام، حجّ التمتّع؛ لوجوبه قربةً إلى اللَّه (۸).

ويجب رمي الجمار الثلاث في كلّ يومٍ، بحسب مبيت ليلته، يبدأ بالأُولى، ثمّ الوسطى، ثمّ جمرة العقبة، ونيّة الرمي:

۱- ۱ أورد هذه النيّة في الرسالة الفخريّة: ۷۵ هكذا: «أحلق رأسي، أو أُقصّر لحجّ التمتّع، حجّ الإسلام؛ للإحلال؛ لوجوبه عليَّ قربةً إلى اللَّه».

۲- ۲ أورد هذه النيّة في الرسالة الفخريّة: ۷۵ هكذا: «أطوف بالبيت سبعة أشواط طواف الحجّ حجّ التمتّع حجّ الإسلام؛ لوجوبه عليَّ قربةً إلى اللَّه».

۳- ۳ أورد هذه النيّة في الرسالة الفخريّة: ۷۶ هكذا: «أُصلّي ركعتي طواف الحجّ حجّ التمتّع حجّ الإسلام؛ لوجوبه عليّ قربةً إلى اللَّه».

۴- ۴ أورد هذه النيّة في الرسالة الفخريّة: ۷۶ هكذا: «أسعى بين الصفا والمروة سبعة أشواطٍ سعي الحجّ حجّ التمتّع حجّ الإسلام؛ لوجوبه عليَّ قربةً إلى اللَّه».

۵- ۵ أورد هذه النيّة في الرسالة الفخريّة: ۷۶ هكذا: «أطوف طواف النساء سبعة أشواط لحجّ التمتّع حجّ الإسلام؛ لوجوبه عليَّ قربةً إلى اللَّه».

۶- ۶ وذلك بالمقام.

۷- ۷ أورد هذه النيّة فى الرسالة الفخريّة: ۷۶ هكذا: «أُصلّى ركعتى طواف النساء لحجّ التمتّع حجّ الإسلام؛ لوجوبهما قربة إلى اللّه».

۸- ۸ أورد هذه النيّة فى الرسالة الفخريّة: ۷۶ هكذا: «أبيت هذه الليلة فى منى لحجّ التمتّع حجّ الإسلام؛ لوجوبه علىَّ قربة إلى اللّه».

ص: ۵۲

أرمی هذه الجمرة بسبع حصياتٍ فی حجّ الإسلام، حجّ التمتّع؛ لوجوبه قربةً إلی اللّه (۱).

فإذا فرغ من أفعاله، ورجع إلی مكّة استحبّ له الإكثارُ من الطواف المندوب، ونيّته:

أطوف بالبيت سبعة أشواطٍ؛ لندبه قربة إلی اللّه.

ثمّ يصلّی ركعتی الطواف، ونيّتها:

أُصلّی ركعتی الطواف لندبه قربة إلی اللّه.

فإذا أراد الخروج من مكّة، استحبّ له طواف الوداع، ونيّته:

أطوف بالبيت سبعة أشواطٍ طواف الوداع؛ لندبه قربة إلی اللّه.

ويصلّی ركعتيه، ونيّتها:

أُصلّی ركعتی طواف الوداع؛ لندبه قربة إلی اللّه.

وإن كان الحاجّ نائباً عن غيره، فليضف إلی هذه النيّات النيابةَ عن فلان فی جميع الأعمال والأفعال عليه بالأصالة، وعلیّ بالنيابة؛ لوجوبه قربة إلی اللّه.

وكفی باللّه حسيباً، وحسبی اللّه ونعم الوكيل ونعم النصير، وصلّی اللّه علی سيّدنا محمّدٍ وآله الطاهرين، والحمد للّه ربّ العالمين.

***- محل الصورة-

مصادر التحقيق:

۱- ۱ أورد هذه النيّة فی الرسالة الفخريّة: ۷۶ هكذا: «أرمی هذه الجمرة لحجّ الإسلام حجّ التمتّع لوجوبه علیَّ قربة إلی اللّه».

ص: ۵۳

۱- القرآن الكريم.

۲- الأعلام لخير الدين الزركلى، نشر دار العلم للملايين، بيروت ۱۹۸۴ م.

۳- أعيان الشيعة للسيّد محسن الأمين، نشر دار التعارف للمطبوعات، بيروت ۱۴۰۳ ه. ق.

۴- أمل الآمل للشيخ الحرّ العاملى، تحقيق السيّد أحمد الحسينى، مطبعة الآداب فى النجف الأشرف.

۵- الانتصار للشريف المرتضى علم الهدى، نشر منشورات الشريف الرضى، قم.

۶- بحار الأنوار للشيخ محمد باقر المجلسى، نشر مؤسّسة الوفاء، بيروت ۱۴۰۳ ه. ق.

۷- بهجة الآمال فى شرح زبدة المقال للعلّامة ملّا على العلياری التبريزى، تحقيق جعفر الحائرى، نشر مؤسّسة الثقافة الإسلاميّة ۱۴۰۸ ه. ق.

۸- تنقيح المقال فى أحوال الرجال للشيخ عبد اللَّه المامقانى، نشر مكتبة جهان (الطبعة الحجريّة).

۹- جمل العلم والعمل للشريف المرتضى علم الهدى، تحقيق السيّد أحمد الحسينى، مطبعة الآداب فى النجف الأشرف ۱۳۸۷ ه. ق.

۱۰- الدرّ المنثور للفقيه على بن محمد بن الحسن بن زين الدين العاملى، نشر مكتبة آية اللَّه العظمى المرعشى النجفى قدس سره، قم ۱۳۹۸ ه. ق.

۱۱- الذريعة إلى تصانيف الشيعة للعلّامة الشيخ آقا بزرگ الطهرانى، نشر دار الأضواء، بيروت ۱۴۰۳ ه.

۱۲- الرسالة الفخريّة فى معرفة النيّة لفخر المحقّقين محمد بن الحسن بن المطهّر الحلّى، تحقيقصفاء الدين البصرى، نشر مجمع البحوث الإسلاميّة، مشهد ۱۴۱۱ ه. ق.

۱۳- روضات الجنّات فى أحوال العلماء والسادات للميرزا محمد باقر الموسوى الخوانسارى، نشر مكتبة اسماعيليان ۱۳۹۰ ه. ق.

۱۴- رياض العلماء وحياض الفضلاء للميرزا عبد اللَّه افندى الاصفهانى، تحقيق السيّد أحمد الحسينى، نشر مكتبة آية اللَّه العظمى المرعشى النجفى قدس سره، قم ۱۴۰۱ ه. ق.

۱۵- سفينة البحار ومدينة الحكم والآثار للشيخ عبّاس القمّى، مطبعة المهارة ۱۳۶۳ ه. ش (الطبعة الحجريّة).

۱۶- علل الشرائع للشيخ أبى جعفر الصدوق، نشر مكتبة الداورى، قم.

۱۷- فقه القرآن لقطب الدين أبى الحسين سعيد بن هبة اللَّه الراوندى، تحقيق السيّد أحمد الحسينى، نشر مكتبة آية اللَّه العظمى المرعشى النجفى قدس سره، قم ۱۳۹۷ ه. ق.

۱۸- الفقه المنسوب للإمام الرضا عليه السلام، تحقيق مؤسّسة آل البيت عليهم السلام

ص: ۵۴

لإحیاء التراث فی قم، نشر المؤتمر العالمی للإمام الرضا علیه السلام، مشهد ۱۴۰۶ ه. ق.

۱۹- الفوائد الرضویّة فی أحوال علماء المذهب الجعفریّة للشیخ عبّاس القمّی (الطبعة الفارسیّة).

۲۰- الکنی والألقاب للشیخ عبّاس القمّی، نشر مکتبة بیدار، قم.

۲۱- لؤلؤة البحرین للشیخ یوسف البحرانی، تحقیق السیّد محمدصادق بحر العلوم، نشر مؤسّسة آل البیت للطباعة والنشر، قم.

۲۲- معانی الأخبار للشیخ أبی جعفر الصدوق، تحقیق علی أکبر الغفّاری، نشر جماعة المدرّسین، قم ۱۳۶۱ ه. ش.

۲۳- معجم رجال الحدیث وتفصیل طبقات الرواة للسیّد أبی القاسم الموسوی الخوئی قدس سره، نشر مدینة العلم فی قم ۱۴۰۳ ه. ق.

۲۴- معجم المؤلّفین لعمر رضا کحّالة، نشر دار إحیاء التراث العربی، بیروت.

۲۵- المقنعة للشیخ محمد بن محمد المفید، تحقیق ونشر جماعة المدرّسین، قم ۱۴۱۰ ه. ق.

۲۶- منتهی المقال فی أحوال الرجال للشیخ أبی علی محمد بن إسماعیل (الطبعة الحجریّة).

۲۷- نقد الرجال للسیّد میر مصطفی التفریشی، نشر مکتبة الرسول المصطفیصلی الله علیه و آله و سلم، قم.

۲۸- هدیّة الأحباب فی ذکر المعروفین بالکنی والألقاب والأنساب، للشیخ عبّاس القمّی، نشر مکتبة الصدوق، طهران ۱۳۶۲ ه. ش.

۲۹- الوسیلة إلی نیل الفضیلة للفقیه أبی جعفر الطوسی المعروف بابن حمزة، تحقیق الشیخ محمد الحسّون، نشر مکتبة آیة اللّه العظمی المرعشی النجفی قدس سره، قم ۱۴۰۸ ه. ق.

الهوامش:

المنازل الثلاثة للرحمة فی السعی

ص: ۵۵

المنازل الثلاثة للرحمة فی السعی

محمد مهدی الآصفی

فی حیاة الإنسان ثلاثة منازل لرحمة اللَّه تعالی:

۱- الفقر والحاجة.

۲- الدعاء والسؤال.

۳- السعی والعمل.

وفیما یلی شرح موجز لهذه المنازل:

المنزل الأول: الفقر والحاجة:

وهما أولا منازل رحمة اللَّه- تعالی- فالفقر یستنزل رحمة اللَّه حتی من غیر أن یعیصاحب الفقر فقره إلی اللَّه.

وبین (الفقر إلی اللَّه) و (رحمة اللَّه) علاقة تکوینیة، کلّ منهما یطلب الآخر، فالفقر إلی اللَّه یستنزل رحمة اللَّه، ورحمة اللَّه تطلب مواقع الحاجة والفقر. وهی سنة عامة فی الکون، فی کلّ موضع للفقر والغنی، والضعف والقوة. فإنّ الضعف یطلب القوة، والقوة تطلب الضعف، والفقر یطلب الغنی، والغنی یطلب الفقر، والجهل یطلب العلم، والعلم یطلب الجهل، والمریض یطلب الطب، کما أن الطب یطلب المرض.

ولیست حاجة العالِم إلی الجاهل لیعلّمه بأقل من حاجة الجاهل إلی العالم، ولا حاجة الطبیب إلی المریض لیداویه بأقل من حاجة المریض إلی الطبیب، ولا حاجة الأمّ إلی الطفل لتسبغ علیه حنانها وعطفها بأقل من حاجة الطفل إلی الأُمّ لتتولّاه برعایتها وعطفها.

إنّها سنة اللَّه فی کل موضع للفقر والغنی، والضعف والقوة، وهی سنة اللَّه- تعالی- فی علاقته بفقر عباده

ص: ۵۶

وعجزهم وضعفهم وحاجتهم حتی من غیر سؤال وطلب ودعاء، ومن غیر وعی منهم لحاجتهم وفقرهم.

إن هـذه العلاقـة من أسـرار هـذا الـدین، وهی من أسـرار هـذا الکون وقوانینه، وما لم یفهم الإنسان هذا القانون فی الکون، وفی علاقة الإنسان باللَّه- تعالی- لا یستطیع أن یدرک طائفة واسعة من معارف هذا الدین وأسراره.

وکم من مریض تماثل للشـفاء برحمة اللَّه من غیر سؤال «وإذا مرضت فهو یشفین» (۱) وکم من فقیر جـائع رزقه اللَّه- تعالی-، وأطعمه من جوع من غیر سؤال ولاـ دعـاء. وکم من مضـطر فی لجـج البحـار، أو تحت الانقـاض، أو تحت طائل السـیوف أو فی وسط الحریق أدرکته رحمـة اللَّه- تعـالی- وانقـذته من غیر سؤال ولا دعاء. وکم من ظمآن بلغ به الظماء مبلغاً اسـتنفد مقاومته، فأدرکته رحمـة اللَّه- تعـالی- وأروته من غیر سؤال ولاـ طلب. وکم من إنسـان واجه الأخطـار، وکان قاب قوسـین منها وهو یعلم أولا یعلم، فجاءه (ستر اللَّه) فانقـذه منهـا. وکم من إنسان وصل إلی طریق مسـدود فی حیاته ففتـح اللَّه- تعالی- علیه ألف طریق وطریق، وکل ذلک من غیر سؤال ولاـ طلب ولاـ دعاء، بل دون أن یعرفصاحبُه اللَّه کثیراً، فضـلًا من أن یعرفه فلا یطلب منه، وکم من رضـیع تـدرکه رحمـة اللَّه- تعالی- دون أن یطلب من اللَّه، ودون أن یسأل اللَّه- تعالی- (۲).

وقـد ورد فی دعاء الافتتاح: «فکم یا إلهی من کربة قد فرجتها، وهموم قد کشـفتها، وعثرة قد أقلتها، ورحمة قد نشـرتها، وحلقة بلاء قد فککتها».

وورد فی دعاء أیام رجب: «یا من یعطی من سأله، یا من یعطی من لم یسأله، ومن لم یعرفه تحنّناً منه ورحمة».

وفی المناجاة الرّجبیّة: «ولکن عفوک قبل علمنا».

إذن الفقر والحاجة من منازل رحمة اللَّه- تعالی-، وحیث یکون الفقر وتکون الحاجة، تجد رحمته تعالی.

وللعارف الرومیّ الشهیر بیتٌ من الشعر فی هذا الباب، أذکر ترجمته هذه:

لا تطلب الماء واطلب الظماء حتّی یتفجّر الماء من کلّ أطرافک وجوانبک.

وقـد وردت الإشارة إلی هـذه العلاقة بین رحمة اللَّه- تعالی- وحاجة عباده وفقرهم فی مناجاة بلیغة ومؤثرة لأمیر المؤمنین علی بن أبی طالب علیه السلام، نورد فیما یلی طرفاً منها:

مولای یا مولای أنت المولی، وأنا العبد، وهل یرحم العبد إلا المولی.

مولای یا مولای، أنت المالک، وأنا المملوک، وهل یرحم المملوک إلا المالک؟

مولای یا مولای، أنت العزیز، وأنا الذلیل، وهل یرحم الذلیل إلا العزیز؟

مولای یا مولای، أنت الخالق، وأنا المخلوق، وهل یرحم المخلوق إلا الخالق؟

مولای یا مولای، أنت القوی، وأنا الضعیف، وهل یرحم الضعیف إلا القوی؟

مولای یا مولای، أنت الغنی، وأنا الفقیر، وهل یرحم الفقیر إلا الغنی؟

مولای یا مولای، أنت المعطی، وأنا السائل، وهل یرحم السائل إلا المعطی؟

مولای یا مولای، أنت الحی، وأنا المیت، وهل یرحم المیت إلا الحی؟

الفقر الواعی والفقر المضلّل:

۱- ۱ الشعراء: ۸۰.

۲- ۲ وهـذا لا یعنی أن الناس لا یموتون تحت الانقاض فی الزلازل، ولا یحترقون فی الحرایق، ولا یهلکون فی لجج البحار، ولا یموت إنسان من المرض والألم ولا یموت طفل رضیع. فقدصمّم اللَّه تعالی هذا الکون بموجب (الرحمة) و (الحکمة)، فاذا کانت حکمة اللَّه تقتضـی وقوع کارثـة فی إنسان أو حیوان أو نبات، فلا یعنی ذلک أن ننفی البعـد الآخر من فضل اللَّه- تعالی- وصـفاته الحسـنی، وهو الرحمة.

ص: ۵۷

ولكن علينا أن نشير هنا: أن هناك نوعين من الفقر؛ أحدهما يستنزل رحمة اللَّه، والآخر يحجبصاحبه عن رحمة اللَّه. أمّا الذى يستنزل رحمة اللَّه فهو «الفقر الواعى» الذى يشعرصاحبه بحاجته وفقره الى اللَّه تعالى، ويربطه بمسبب الأسباب مباشرة عبر الأسباب، دون أن يكون معنى ذلك اسقاط الأسباب عن الحساب.

والفقر المضلّل هو الفقر الذى يحبسصاحبه عند الأسباب، وتحجبه الأسباب عن الإحساس بفقره وحاجته الى مسبب الأسباب.

وليس معنى وعى الحاجة والفقر إلى اللَّه- تعالى- الغاء الأسباب، والإعراض والانصراف عنها، فهذا ما لا يصح، ولا يجوز، ولا يقول به أحد، حتّى الأشاعرة لا يذهبون هذا المذهب المتطرف من الأسباب.

ومع تثبيت هذه الحقيقة نقول: إنّ الفقر الواعى هو الفقر الذى يشعرصاحبه بفقره إلى اللَّه، ويثبّت ويركّز الإحساس بالفقر إلى اللَّه فى نفسه، ولا تعيقه الأسباب عن مسبّب الأسباب.

أما الفقر المضلّل فهو الفقر الذى يحبسصاحبه عند الأسباب، وتحجبه الأسباب عن الإحساس بالحاجة والفقر الى اللَّه تعالى، مبدإ الأسباب، ومسبّب الأسباب.

والفقر الأوّل هو المقصود من الرواية النبويّة الشريفة (الفقر مخزى) والفقر الثانى هو الذى (كاد أن يكون كفراً).

والفقر الأوّل هو الذى يستنزل رحمة اللَّه، والثانى يحجبصاحبه عن رحمة اللَّه.

وهذا الفقر هو الذى نجده فى كلمات أبى الأنبياءِ إبراهيم عليه السلام، كما يتلو علينا القرآن نبأه: «واتلُ عليهم نبأَ ابراهيم ... الذى خَلَقنى فهو يَهدين والذى هو يُطعمنى ويَسقين وإذا مَرِضتُ فهو يَشفين والذى يُميتنى ثم يُحيين والذى أَطمعُ أن يغفرَ لى خَطيئتى يومَ الدين» (۱).

فلا يريد إبراهيم عليه السلام فى هذا الخطاب أن يلغى الأسباب الطبيعية فى الإطعام والسقى والشفاء والموت والحياة من الحساب، وقد كان عليه السلام يتعامل مع كل ذلك إلّاأن هذه الأسباب لن تحجبه عن اللَّه- تعالى- مسبّب الأسباب ومبدإ الأسباب، وهذا هو الفرق بين الرؤية التوحيدية إلى الأسباب وبين الرؤية الأخرى المشوبة بالشرك.

المنزل الثانى: الدعاء والسؤال:

يستنزل الدعاء والسؤال من رحمة اللَّه ما لا يستنزله الفقر وذلك أنّ الدعاء فقر وطلب، وكل منهما عامل مستقل فى استنزال رحمة اللَّه- تعالى- فإنّ الطلب والسؤال يستنزل رحمة اللَّه، كما أنّ الفقر يستنزل رحمة اللَّه، والدعاء:

«فقر وطلب» ولذلك فهو يستنزل من رحمة اللَّه ما لا يستنزله الفقر وحده.

وكلما يكونصاحب الدعاء أكثر اضطراراً وفقراً يكون دعاؤه أقرب إلى الاستجابة، فإنّ الفقر يركّز الطلب، والطلب يعمق حالة الفقر ويدخله إلى دائرة الوعى.

ولكل (دعوة) (اجابة).

يقول تعالى: «... ادعونى استجب لكم، إنّ الذين يستكبرونَ عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين» (۲).

وهذا قانون عام لا يتخلف، والقرآن الكريم يقرّر هذه الحقيقة بكل وضوح (ادعونى أستجب لكم).

۱- ۱ الشعراء: ۶۹- ...- ۸۱.

۲- ۲ المؤمن: ۶۰.

ص: ۵۸

وإن (المانع) عن استجابة الدعاء إمّا أن يكون من ناحية المسؤول، أو من ناحية السائل، وليس من ثالث، ولا يمكن أن يكون هناك مانع من ناحية المسؤول فإن اللَّه- تعالى- مقتدر كريم، لا تنقص خزائنه، ولا ينفد ملكه.

«... وإذا قضى أمراً فانما يقول له كن فيكون» (۱).

«... والأرضُ جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطوياتٌ بيمينه» (۲).

«إنّ اللَّه على كل شيء قدير» (۳).

«وللَّه خزائنُ السموات والأرض» (۴).

ولا بخل ولا شحّ فى ساحته، ولا حدّ لجوده وكرمه.

«... ربنا وسِعتَ كلّ شيء رحمة وعلماً ...» (۵).

«فإن كذّبوك فقل ربُّكم ذو رحمة واسعة ...» (۶).

«... وما كان عطاءُ ربك محظوراً» (۷).

«ما يفتحِ اللَّهُ للناس من رحمة فلا ممسك لها، وما يُمسك فلا مرسلَ له من بعده ...» (۸).

فلا نفاد لملك اللَّه ورحمته وسلطانه حتى يعيق رحمته، ولا بخل ولا شحّ فى ساحته حتى يمنعه من الجود والعطاء.

فليس فى المسؤول- سبحانه وتعالى- ما يمنع من الاستجابة لدعاء عباده كلما دعوه وطلبوا منه شيئاً، وهو معنى قوله تعالى (ادعونى أستجب لكم) من دون قيد ولا شرط، هذا من ناحية المسؤول.

وأمّا من ناحية السائل فقد تضرّ الاستجابة بحال السائل، وهو لا يعلم، واللَّه- تعالى- يعلم، فلا يستجيب لدعائه، ولكن يعوضه عن ذلك بغيره من قضاء حاجاته الأخرى وغفران ذنوبه.

وقد يضرّه التعجيل بقضاء حاجته والاستجابة لدعائه، ويعلم اللَّه- تعالى- أن تأجيل الاستجابة أصلح لحاله.

التبديل والتأجيل:

فى الحالة الأولى يبدل اللَّه- تعالى- قضاء حاجة عبده بغيرها من حاجاته.

وفى الثانية يؤجل اللَّه- تعالى- الاستجابة لدعاء عبده إلى الوقت الصالح له.

ففى دعاء الافتتاح:

«فصرت أدعوك آمنا، وأسالك مستأنساً، لا خائفاً ولا وجلًا، مدلًا عليك فيما قصدتُ فيه اليك، فإن أبطأ عنى عتبت بجهلى عليك، ولعلّ الذى أبطأ عنى هو خير لى لعلمك بعاقبة الأمور».

وقد يؤخر اللَّه- تعالى- اجابة دعاء عبده، كى يطول قيامه وتضرعه بين يديه- تعالى- واللَّه يحب أن يطول وقوف عبده وتضرعه بين يديه، ففى الحديث القدسى:

«يا موسى! إنى لست بغافل عن خلقى، ولكنى أحبّ أن تسمع ملائكتى ضجيج الدعاء من عبادى» (۹).

وعن الصادق عليه السلام:

«إن العبد ليدعو فيقول اللَّه- عزّ وجلّ- للملكين قد استجبت له، ولكن احبسوه بحاجته، فإنى أُحبّ أن أسمعصوته، وإن العبد ليدعو، فيقول اللَّه- تبارك وتعالى- عجّلوا له حاجته فإنى أبغضصوته» (۱۰).

۱- ۱ البقرة: ۱۱۷.

۲- ۲ الزمر: ۶۷.

۳- ۳ آل عمران: ۱۶۵.

۴- ۴ المنافقون: ۷.

۵- ۵ غافر: ۷.

۶- ۶ الأنعام: ۱۴۷.

۷- ۷ الإسراء: ۲۰.

۸- ۸ فاطر: ۲.

۹- ۹ عدة الداعی.

۱۰- ۱۰ وسائل الشیعة، کتاب الصلاة، أبواب الدعاء، باب ۲۱، ح ۳.

ص: ۵۹

ولکن حتی لو کانت الإجابـة تضـرّه فإن اللّه- تعالی- لا یلغی الإجابـة، بشـکل مطلق، وإنما (یبـدله) إلی کفارة لذنوبه، وغفران لها، أو إلی رزق یرزقه إیاه فی الدنیا عاجلًا أو درجات رفیعة له فی الجنة.

وفی غیر هاتین الحالتین (حالة التبدیل وحالة التأجیل) لابد من الإجابة.

وهـذه الحتمیـة نابعـة من حکم الفطرة القطعی إذا کان السائل محتاجاً وفقیراً ومضـطراً إلی المسؤول، والمسؤول قادر علی إجابـة طلبه، ولا بخل ولا شحّ فی خلقه.

والقرآن الکریم یؤکد هذه العلاقة الحتمیة (۱) یقول تعالی:

۱- «أمّن یُجیب المضطر إذا دعاه ویکشف السوء ...» (۲).

فلا یحتاج المضطر فی الإجابة لاضطراره، وکشف السوء عنه إلّاإلی الدعاء (إذا دعاه)، فإذا دعاه سبحانه، استجاب لدعائه، وکشف عنه السوء.

۲- «وقال ربّکم ادعونی أَستجب لکم إنَّ الذین یَستکبرون عن عبادتی سَیدخُلون جهنمَ داخِرین» (۳).

والآیة الکریمة واضحة وصریحة فی الربط بین الدعاء والاستجابة (ادعونی استجب لکم).

۳- «... أُجیبُ دعوةَ الداعِ إذا دَعانِ ...» (۴).

والعلاقة القطعیة بین الدعاء والإجابة واضحة وصریحة فی هذه الطائفة من آیات کتاب اللّه، وهی تدفع کلّ شک وریب من النفس فی قطعیـة الإجابـة من اللّه لکل دعاء، ما لم تکن الإجابة مضـرة بالداعی أو بالنظام العام الذی یعتبر الداعی جزءاً منه، والاسـتجابة فی هذه الآیات غیر مشروطة ولا معلّقة بشیء.

وأمّا الشـروط التی سوف نتحدث عنها؛ ففی الحقیقة ترجع الی تحقیق الدعاء وتثبیته لمصـلحة الداعی نفسه، ومن دونها یضعف الدعاء أو ینتفی.

إذن فإنّ العلاقة بین الدعاء والاسـتجابة علاقةٌ حتمیة لا یمکن أن تتخلف، وعلاقة مطلقة لا یمکن أن تتعلق بشـرط، إلّاأن یکون الشرط مما یؤکد ویثبت حالة الدعاء نحو قوله تعالی: «... إذا دعاه ویکشف السوء ...».

وفی أحادیث رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم وأهل بیته ما یؤکد ویعمق هذه العلاقة بین الدعاء والإجابة.

ففی الحدیث القدسی:

«یا عیسی ... إنی أسمع السامعین، أستجیب للداعین إذا دعونی» (۵).

وعن رسول اللّهصـلی الله علیه و آله و سـلم: «ما من عبد یسـلک وادیاً فیبسط کفّیه، فیذکر اللّه ویدعو إلّاملأ اللّه ذلک الوادی حسنات فلیعظم ذلک الوادی أو لیصغر» (۶).

وعن أبی عبد اللّه الصادق علیه السلام فی حدیث: «لو أن عبداً سدّ فاه، ولم یسأل لم یعط شیئاً، فسل تعط» (۷).

وعن میسر بن عبد العزیز عن أبی عبد اللّه الصادق علیه السلام: «یا میسر! إنّه لیس من باب یقرع إلّا یوشک أن یفتح لصاحبه» (۸)

۱- ۱ لیس معنی القول بتحتیم هـذه العلاقـة فرض أمر علی اللّه- تعالی- فهو- سـبحانه- قد کتب علی نفسه الرحمة «فقل سـلامٌ علیکم کَتَبَ ربُّکم علی نفسهِ الرحمةَ ...». الأنعام: ۵۴

۲- ۲ النمل: ۶۲.

۳- ۳ المؤمن: ۶۰.

۴- ۴ البقرة: ۱۸۶.

۵- ۵ أصول الكافی.

۶- ۶ ثواب الأعمال: ۱۳۷.

۷- ۷ وسائل الشيعة، ۴: ۱۰۸۴، ح ۸۶۰۶.

۸- ۸ وسائل الشيعة، ۴: ۱۰۸۵، ح ۸۶۱۱.

ص: ۶۰

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «متى تكثر قرع الباب يفتح لك» (۱).

وفی وصايا رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم لعلیّ عليه السلام:

«يا علیّ! .. أوصيك بالدعاء فإن معه الإجابة» (۲).

وعن الصادق عليه السلام:

«إذا ألهم أحدكم الدعاء عند البلاء فاعلموا أن البلاء قصير» (۳).

وعن الصادق عليه السلام:

«لا واللَّه، لا يلح عبد على اللَّه- عزّ وجلّ- إلا استجاب له» (۴).

والنصوصُ الإسلاميّة تؤكد هذه الحتمية، والإطلاق فی العلاقة بين الدعاء والإجابة، وتبين بشكل واضح وصريح، أنّ اللَّه- تعالى- يستحيي أن يرد دعاء عبده إذا دعاه.

ففی الحديث القدسی:

«ما انصفنی عبدی يدعونی فاستحيی أن أرده، ويعصينی ولا يستحيی منی» (۵).

وعن الصادق عليه السلام:

«ما أبرز عبد يده إلى اللَّه العزيز الجبار إلّااستحيی اللَّه- عزّ وجلّ- أن يردها» (۶).

وفی الحديث القدسی:

«مَن توضأ وصلّی ودعانی فلم أجبه فيما يسأل عن أمر دينه ودنياه فقد جفوته، ولستُ برب جاف» (۷).

وعن أمير المؤمنين عليه السلام:

«ما كان اللَّه ليفتح باب الدعاء، ويغلق عليه باب الإجابة» (۸).

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً:

«مَن أعطی الدعاء لم يحرم الإجابة» (۹).

وفی النصّين الأخيرين التفاتة ذات مغزى ونكهة علوية. فإن اللَّه- تعالى- كريم ووفی، فإذا فتح باب الدعاء، فلا يمكن أن يغلق علی العبد باب الإجابة، وإذا رزق العبد توفيق الدعاء، فلا يمكن أن يحرمه الإجابة ..

عن رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم:

«ما فتح لأحد باب دعاء إلّا فتح اللَّه له فيه باب اجابة، فإذا فتح لأحدكم باب دعاء فليجهد فإنّ اللَّه لا يمل» (۱۰).

وهذا هو المنزل الثانی من منازل رحمة اللَّه. اللهمّ سمعنا، وشهدنا، وآمنا.

۱- ۱ وسائل الشيعة، ۴: ۱۰۸۵، ح ۸۶۱۳.

۲- ۲ وسائل الشيعة، كتاب الصلاة، أبواب الدعاء، باب ۲، ح ۱۸.

۳- ۳ اصول الكافی، كتاب الدعاء، باب الإلحاح بالدعاء، ح ۵.

۴- ۴ ارشاد القلوب للديلمی.

۵- ۵ عدة الداعی، وسائل الشيعة، كتاب الصلاة، أبواب الدعاء، باب ۱۴، ح ۱.

۶- ۶ ارشاد القلوب للدیلمی.

۷- ۷ وسائل الشیعة، کتاب الصلاة، أبواب الدعاء، باب ۲، ح ۱۲- وسائل الشیعة، ۴: ۱۰۸۶، ح ۸۶۲۱.

۸- ۸ وسائل الشیعة، ۴: ۱۰۸۶، أبواب الدعاء، باب ۲، ح ۸۶۲۲.

۹- ۹ نفس المصدر.

۱۰- ۱۰ وسائل الشیعة، ۴: ۱۰۸۷.

ص: ۶۱

المنزل الثالث: السعی والعمل:

قد جعل اللَّه- تعالی- (السعی) و (العمل) من منازل رحمته للدنیا والآخرة.

یقول تعالی: «من عملصالحاً من ذکر أو أنثی وهو مؤمن فلنُحییّنه حیاة طیبة ...» (۱).

ویقول تعالی: «فأمّا من تاب وآمن وعملصالحاً فعسی أن یکون من المفلحین» (۲).

فمن عملصالحاً آتاه اللَّه حیاةً طیبةً، وأفلحه.

فإذا کان الإنسان یبتغی دنیا أو آخرة فعلیه أن یسعی الیها ویعمل لها.

وقد کان علی علیه السلام یقول: «لا تکن ممن یرجو الآخرة بغیر العمل» (۳).

ولا یبلغ الإنسان منازل المؤمنین فی الجنة إلّا بالعمل.

«ومَن یعمل مِن الصالحات مِن ذکرٍ أو أنثی وهو مؤمنٌ فأولئک یَدخلون الجنّة ...» (۴).

ومهما کان العمل قلیلًا فانّ اللَّه- تعالی- یحصیه ویثیبه علیه «فمَن یعمل مثقالَ ذرّةٍ خیراً یره» (۵).

«یومَ تجدُ کلُّ نفسٍ ما عمِلت مِن خیرٍ محضراً ...» (۶).

فالعمل إذن، أحد أعظم منازل الرحمة، ولا ینال الإنسان کثیراً من الخیر والرحمة والتوفیق والرزق إلّا بالعمل.

ولا یبلغ الإنسان ما یطلبه من الخیر بالتمنی والترجی. وقد روی عن الإمام الصادق علیه السلام انّه کان یقول: «أبلغ شیعتنا، أنه لا ینال ما عند اللَّه إلّا بالعمل».

وهذه ثالث منازل رحمة اللَّه- تعالی-.

المنازل الثلاثة للرحمة، فی قصة إبراهیم وهاجر وإسماعیل علیهم السلام:

وفی قصة أبی الأنبیاء إبراهیم علیه السلام نلتقی مشهداً فریداً أو نادراً من نوعه، فی اجتماع المنازل الثلاثة للرحمة فی

۱- ۱ النحل: ۹۷.

۲- ۲ القصص: ۶۷.

۳- ۳ نهج البلاغة: حکمة ۱۵.

۴- ۴ النساء: ۱۲۴.

۵- ۵ الزلزلة: ۷.

۶- ۶ آل عمران: ۳۰.

ص: ۶۲

موضع واحد، فی قصة واحدة، وذلک عندما أودع أبو الأنبیاء ابراهیم علیه السلام زوجتَه هاجر فی واد غیر ذی زرع، وترک معها ابنهما إسماعیل علیه السلام وهو یومئذ طفل رضیع.

وقال: «ربنا إنی أَسکنتُ من ذُریتی بواد غیر ذی زرعٍ عند بیتکَ الُمحرّمِ، ربنا لِیُقیموا الصلاة. فاجعل أفئدةً من الناس تهوِی إلیهم؛ وارزقهم منَ الثمراتِ لعلهم یَشکرون» (۱).

وذهب إبراهیم خلیل اللَّه بعد ذلک إلی شأنه کما أمره اللَّه- تعالی-. وترک هذه المرأة والطفل الرضیع لوحدهما فی هذا الوادی القفر بأمر اللَّه- تعالی- فنفد ما کان لدیهما من الماء وعطش الطفل وغلب علیه الظمأ وأخذت المرأة تبحث عن الماء فلم تجد له أثراً، وأخذ الطفل یصرخ ویضرب بیدیه ورجلیه، والأم تهرول من هنا وهناک فتصعد علی الصفا تارةً تنظر إلی الأفق البعید بحثاً عن الماء ثم تهبط، وتهرول باحثة عن الماء إلی جانب جبل المروة، وتدعو اللَّه تعالی أن یرزقهما الماء فی هذا الوادی القفر، والطفل یصرخ ویبکی ویضرب بیدیه ورجلیه عند البیت الحرام.

ففجر اللَّه- تعالی- الأرض ماءً تحت قدمی الطفل، فأسرعت الأم إلی الماءِ، لتروی طفلها الرضیع، ولتلملم الماء لئلا یذهب هدراً، فتقول للماء وهی تصنع له حوضاً یجمعه زم .. زم ...

الروایة التاریخیة لقصة السعی الأول:

تقول الروایة التاریخیة: «إنّ اللَّه- تعالی- أمر عبده وخلیله إبراهیم أن یخرج بزوجته هاجر (أمّ إسماعیل) من الشام إلیصحراء الجزیرة، حیث یقع الحرم، فلما وافی إبراهیم منطقة الحرم، حیث تقع مکة الیوم نزل فیها فوجد شجراً، فألقت هاجر کساءً کان معها تستظل تحته فلما سرّحهم إبراهیم ووضعهم، وأراد الانصراف عنهم إلی سارة، قالت له هاجر: یا إبراهیم لِمَ تدعنا فی موضع لیس فیه أنیس ولا ماء ولا زرع؟ فقال إبراهیم: الّذی أمرنی أن أضعکم فی هذا المکان هو یکفیکم، ثمّ انصرف عنهم، فلمّا بلغ کدًی وهو جبل بذی طوی، التفت إلیهم إبراهیم فقال:

«ربّنا إنّی أسکنتُ من ذریّتی بوادٍ غیرِ ذی زرعٍ عند بیتک المحرّمِ ربّنا لِیقیموا الصلاةَ واجعل أفئدةً منَ النّاس تهوِی إلیهم وارزقهم منَ الثّمراتِ لعلّهم یشکرون».

ثمّ مضی وبقیت هاجر، فلمّا ارتفع النهار عطش اسماعیل وطلب الماء، فقامت هاجر فی الوادی فی موضع المسعی فنادت: هل فی الوادی من أنیس؟ فغاب إسماعیل عنها فصعدت علی الصفا، ولمع لها السراب فی الوادی وظنّت أنّه ماء، فنزلت فی بطن الوادی وسعت فلمّا بلغت المسعی غاب عنها إسماعیل، ثمّ لمع لها السراب فی ناحیة الصفا فهبطت إلی الوادی تطلب الماء، فلمّا غاب عنها إسماعیل عادت حتّی بلغت الصفا فنظرت حتّی فعلت ذلک سبع مرّات، فلمّا کان فی الشوط السابع وهی علی المروة نظرت إلی اسماعیل وقد ظهر الماء من تحت رجلیه، فعدت حتّی جمعت حوله رملًا فإنّه کان سائلًا فزّمته بما جعلته حوله فلذلک سمّیت زمزم».

اسرار الموقف:

إن هذا المشهد العجیب استنزل یومذاک رحمة اللَّه تعالی، ففجر اللَّه لهما زمزم فی واد غیر ذی زرع، وجعلها مصدراً ومبدأً لکثیر من البرکات علی هذه الأرض المبارکة، وجعل هذا المشهد جزءاً من أعمال الحجّ، وثبّته فی

۱- ۱ ابراهیم: ۳۷.

ص: ۶۳

واحد من أشرف فرائضه. فما هو السرّ الكامن فى هذا المشهد؟ ولماذا هذا الاهتمام به فى أصل الدين، وتثبيته فى الحج؟

وما هو السبب المؤثر والقوى الذى استنزل رحمة اللَّه- تعالى- بقوة فى هذا المشهد، وجعلها مبدءاً لبركات كثيرة فى تاريخ أجيال الموحّدين؟

فلابد من أن يكون هذا المشهد ينطوى على سرّ خاص استدعى نزول رحمته- تعالى- فى ذاك الوادى القفر، واستدعى دوام هذه الرحمة وثباتها، وجعل منها مصدراً ومبدأً لكثير من البركات، واستدعى أن يثبتها اللَّه تعالى فى حج أجيال الموحدين عند بيته الحرام.

اننى اعتقد، واللَّه- تعالى- أعلم بأسرار هذا المشهد- أن هذا المشهد النادر كان يجمع يومئذ بين ثلاثة منازل من منازل رحمة اللَّه- تعالى- كلّ منها يستنزل رحمته تعالى.

وأول هذه المنازل الحاجة التى كان يمثلها الظمأ الذى أضرَّ بالطفل الرضيع، والذى جعله أقرب من غيره إلى رحمة اللَّه تعالى.

ولذلك نرى أن الأطفال الرضّع إذا أضرّ بهم ألم أو جوع أو ظمأ أو برد أو حرّ كانوا أقرب إلى رحمة اللَّه- تعالى- من الكبار الذين يطيقون ذلك كلّه، ولأن الحاجة تضرّ بهم أكثر من الكبار.

وقد ورد فى الدعاء (اللهمّ أعطنى لفقرى)، والفقر إلى اللَّه لوحده يستنزل رحمته- تعالى-، وكلما كان الفقر إلى اللَّه أعظم كان أدعى لنزول رحمة اللَّه، فان الفقر إلى اللَّه يجعل الإنسان عند رحمة اللَّه، ويقرب الإنسان منه، سواء كان الإنسان يعى فقره إلى اللَّه أم لا يعى، وإن كان وعى الفقر إلى اللَّه يضاعف من قيمته وقدرته فى استنزال رحمته- تعالى-. ولكن بشرط ألّا يحرّف الإنسان الفقر عن موضعه، فيتصوّره أنّه من الفقر إلى المال أو إلى حطام الدنيا، أو إلى بعض عباد اللَّه بدل أن يعيه على واقعه من الفقر إلى اللَّه. وشتّان بين هذا الفقر وذاك الفقر. والذى يستنزل رحمة اللَّه- تعالى- هو الفقر إلى اللَّه، فإذا حرّف الانسان هذا الفقر من الفقر إلى اللَّه إلى الفقر إلى عباد اللَّه فقد الفقرُ قيمتَه فى استنزال رحمته- تعالى-، وأكثر فقر الناس من هذا النوع.

وفى هذا المشهد كانصراخ الطفل وضجيجه وبكاؤه من شدّة العطش مشهداً نافذاً مؤثراً فى استنزال رحمة اللَّه تعالى.

كما أنه ليس فى مشاهد الحاجة والفاقة إلى اللَّه مشهد مؤثر ورقيق يستنزل رحمته- تعالى- أكثر من مشهد طفل يتلظى من العطش، ولا تجد له أُمّه إلى الماء سبيلًا.

والمنزل الثانى لرحمة اللَّه فى هذا المشهد هو (السعى) وهو شرط للرزق، ولا رزق من دون سعى، وقد جعل اللَّه- تعالى- السعى والحركة فى حياة الإنسان مفتاحاً للرزق.

وإذا كان عامل الفقر يُكْسِب الإنسان حالة الاضطرار والفاقة والحاجة. فإنّ عامل السعى يُكْسِب الإنسان العزم والقوّة والإرادة، والحركة والنشاط، وعلى قدر حركة الإنسان وسعيه وعزمه يرزقه اللَّه- تعالى- من رحمته.

وقد تحركت أمّ إسماعيل- عندما نفد عندهما الماء، وغلب الظمأ على إسماعيل- للبحث عن الماء، وسعت تطلبه

ص: ۶۴

، تصعد إلى الصفا مرّة، تنظر فى الأفق البعيد باحثةً عن الماء، وتنزل من الصفا وتتّجه إلى المروة، تارةً أُخرى، لتصعد عليه وتنظر إلى الأفق البعيد تبحث عن الماء، ورغم أنها استعرضت فى هذه الحركة كلّ الأفق من على الصفا والمروة فلم تجد ماءً لم تيأس، وكرّرت هذه الحركة، والصعود والنزول، والهرولة من الصفا إلى المروة وبالعكس سبع مرات، ولولا هذا الأمل والرجاء لانقطع سعيها فى الشوط الأوّل، ولكن الأمل والرجاء الذين كانا يعمران قلبها كانا يدعوانها كلّ مرة إلى إعادة السعى مرة أخرى، حتى فرّج اللَّه عنهما وفجّر زمزم تحت قدمى إسماعيل، ولكن الأمل هنا فى اللَّه وليس فى الماء ولو كان أملها فى الماء لانقطع أملها فى المرة الأولى أو الثانية.

وقد جعل اللَّه- تعالى- هذا السعى وهذه الحركة شرطاً للرزق، ونزول رحمته على الإنسان، واللَّه تعالى يرزق عباده، وينزل عليهم رحمته، ولكنه- تعالى- شاء أن يكون السعى والحركة مفتاحاً لرزقه ورحمته.

والمنزل الثالث لرحمة اللَّه- تعالى- فى هذا المشهد: هو دعاء أمّ اسماعيل، وانقطاعها إلى اللَّه واضطرارها إليه- عزّ شأنه- فى طلب الماء فى هذا الوادى القفر غير ذى زرع، وكلّما انقطع الإنسان فى دعائه إلى اللَّه أكثر كان أقرب إلى رحمة اللَّه.

ولست أدرى فى أية حالة من حالات الانقطاع إلى اللَّه، كانت هذه المرأة الصالحة فى تلك اللحظات فى الوادى غير ذى زرع، وليس من انسان أو حيوان حولها، ووحيدها الرضيع يتلظى عطشاً، ويكاد أن يلفظ آخر أنفاسه.

لقد انقطعت المرأة إلى اللَّه فى تلك اللحظة انقطاعاً ضجّت له ملائكةُ اللَّه بالدعاء، وضموا أصواتهم إليصوتها، ودعاءهم الى دعائها.

ولو أن الناس كلهم انقطعوا إلى اللَّه بمثل هذا الانقطاع لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم وعمّتهم رحمة اللَّه تعالى.

عليكِ سلام اللَّه يا أُمنا أمّ اسماعيل! من أبنائك الذين آتاهم اللَّه النور والهدى والإيمان والنبوة، ومن المهتدين بهداهم ونورهم ... ولولا ذلك الانفراد فى ذلك الواد القفر غير ذى زرع فى هجير الحجاز، ولولا تلك المعاناة والمحنة لم تنقطعى إلى اللَّه- عزّ وجلّ- بمثل هذا الانقطاع، فى ذلك الموقف العسير على جبلى الصفا والمروة، ولولا ذلك الانقطاع إلى اللَّه، لم تنزل رحمة اللَّه تعالى عليكما، ولولا تلك الرحمة لم يكن انقطاعك إلى اللَّه وسعيك بين الصفا والمروة من شعائر اللَّه فى الحجّ.

«انّ الصفا والمروةَ من شعائر اللَّه فمَن حجّ البيت أوِ اعتمرَ فلا جُناح عليه أن يطوّف بهما، ومَن تطوع خيراً فإن اللَّه شاكر عليم» (۱).

لقد ثبت اللَّه- تعالى- يا أُمّنا؛ انقطاعك إليه فى ذلك الهجير، وسعيك إلى الماء، وصراخصغيرك إسماعيل فى ذاكرة التاريخ، ليعرف الأجيال من بعدك كيف يستنزلون رحمة اللَّه، وكيف يتعرضون لرحمة اللَّه.

إن رحمة اللَّه- تعالى- واسعة لا شحّ فيها ولا نقص، ولا عجز، ولكن الناس لا يعرفون مواضع هذه الرحمة ومنازلها، ولا يحسنون التعرّض لها والاستفادة منها.

ومنك تعلمنا يا أمّنا! كيف نطلب منازل رحمة اللَّه، وكيف نتعرض لرحمة اللَّه، ومنك يا أمنا أخذنا مفاتيح الرحمة.

۱- ۱ البقرة: ۱۵۸.

ص: ۶۵

وعـذراً یـا أمنا! إذا کنّا- نحن أبناؤک- لم نحفظ هـذه المفاتیـح التی سلّمتیها إلی إسـماعیل من بعـدک، وتوارثها أبناء إسـماعیل من إسـماعیل، وتوارثناها- نحن- من ابنک محمد المصـطفی رسول اللّهصـلی الله علیه و آله و سـلم فضیعناها فیما ضیعنا من تراث الأنبیاء ومواریثهم.

لقد تعلمنا من أبینا إبراهیم کیف نوحّد اللّه، وتعلمنا من أمّنا هاجر کیف نسأل اللّه، وفی متاهات الهوی والطاغوت ضیعنا هذا وذاک.

فأعنّا اللهمّ! علی تحصـیل ما ضـیعناه من تراث أبینا وأمنا (إبراهیم وهاجر) علیهما السـلام واجعلنا من أسـرتهم، ولا تطردنا ربنا! من هذا البیت من آل إبراهیم وآل عمران.

«إن اللّهَ اصطفی آدم ونوحاً وآلَ إبراهیم وآلَ عمران علی العالمین ذریهٔ بعضها من بعض واللّهُ سمیعٌ علیم» (۱).

«ربّنا واجعلنا مسلمین لکَ ومن ذریتنا أُمّهً مسلمهٔ لکَ وأرِنا مناسکنا وتُب علینا إنک أنت التوّاب الرحیم» (۲).

لقـد أخذت أمُّنا (أمّ إسـماعیل)- یومذاک فی ذلک الوادی القفر، وفی رمضاء هجیز ذلک الوادی- بأسـباب الخیر کلّها ... وذلک هو السعی والدعاء والفقر.

لقد کانت أُمّنا تسـعی إلی الماء، وتشرف علی الوادی تارهٔ من علی الصفا وأُخری من علی المروهٔ باحثهٔ عن الماء، واللّه- تعالی- یحبّ من عباده الحرکـهٔ والسـعی والعمل، وجعل ذلک من أهم شـروط الرزق. ولکنها فی سـعیها کانت منقطعـهٔ إلی اللّه، وتدعوه- تعالی-، وتسـأله فی حالـهٔ من الانقطـاع، یقـلّ نظیرهـا فی تاریـخ الإنسـان، فلاـ السـعی والتحرک، کانـا یحجبانهـا، ویقطعانها عنه- تعالی-، ولا الانقطاع إلی اللّه کان یعطل فیها حالهٔ الحرکهٔ، والسـعی إلی الماء بأقصـی ما تستطیعه امرأهٔ فی ذلک الوادی، وفی ذلک الهجیر ... فی أشواط سبعهٔ من الصفا إلی المروهٔ ومن المروهٔ إلی الصفا.

وإننا الیوم فی شـعائر حجّنا، نسعی هذه الأشواط بین هذین الجبلین، من غیر معاناهٔ، ولا عذاب ولا همّ، ولا قلق، فنکدح ونتعب ویرهقنا هذا السعی.

وقـد قـامت أمُّنـا هاجر بهـذا السـعی کلّه فی ذلک الوادی القفر، وفی رمضاء ذلک الهجیر، وهی ظمأی قـد اسـتنفذ العطش کلّ حولها وقوتها، ورضیعها الصغیر یکاد یلفظ آخر أنفاسه ... ولکنها مع ذلک قامت بهذا السعی إلی الماء بقوّهٔ وهمّهٔ وعزم وإرادهٔ.

ولم یمنعها هذا السـعی- ولو للحظهٔ واحدهٔ- عن الانقطاع إلی اللّه، ولم یحجبها ولو للحظهٔ واحدهٔ عنه تعالی. لقد کانت فی هذا السعی المریر کلّه علی اتصال باللّه، وانقطاع إلیه لا یشـغلها هـذا عن ذاک ولا یحجبها ذاک عن هـذا، فقرنت السـعی إلی الماء بالانقطاع إلی اللّه، وقرنت الانقطاع إلی اللّه بالسعی إلی الماء، ومَن منّا یقدر علی ذلک؟

والملائکـهٔ یومئذ ینظرون إلیها، ویتعجبون منها، کیف اسـتطاعت أن تنقطع إلی اللّه هذا الانقطاع؟ وکیف تمکنت أن تسـعی إلی الماء وهی مثقلهٔ بالمتاعب والمحن هذا السعی؟ وکیف استطاعت أن تجمع بین السعی والانقطاع إلی اللّه

۱- ۱ آل عمران: ۳۳- ۳۴.

۲- ۲ البقرهٔ: ۱۲۸.

ص: ۶۶

بمثل هذا الجمع؟

فيضجون إلى اللَّه- تعالى- أن يستجيب لدعائها وسعيها، وأن يستنزل سعيها ودعاؤها رحمةَ اللَّه- تعالى-، وتقرب رحمة اللَّه حتى تكاد أن تنطبق السماء على الأرض.

لقدصعد يومئذ عمود من الدعاء، والعمل الصالح من الأرض إلى السماء، ونزل عمود من الرحمة من السماء إلى الأرض واتّصلت الأرض بالسماء، والسماء بالأرض، وحشود الملائكة يشهدون هذا المشهد الفريد، ويضجون إلى اللَّه تعالى، ويتضرعون، فيحدث ما ليس بالبال ولا الخيال، وتنفجر الأرض تحت أقدام الرضيع ماءً بارداً زلالًا شفافاً هنياً.

وسبحان اللَّه، والحمد للَّه، لقد استجاب اللَّه لسعيها ودعائها، ولكن لا حيث سعت، وإنّما تحت أقدام الرضيع، الذى كان يضرب بيديه ورجليه ظمأً يومذاك، ليعلمها اللَّه أنه تعالى هو وحده الذى رزقها هذا البارد العذب فى هذه الرمضاء وفى هذا الهجير، وليست هى التى حققت ذلك بسعيها وحركتها ... وإن كان لابد لها من أن تسعى وتتحرك ليرزقها اللَّه تعالى زمزم.

ففجر اللَّه (زمزم) تحت أقدام الرضيع، وأقام اللَّه- تعالى- فى ذلك الوادى بيته المحرم، وبارك فى زمزم، وجعل منها سقاية الحاج مدى الأجيال، وثبت اللَّه هذا السعى والدعاء فى ذاكرة التاريخ، وجعل منه شعيرة من شعائر الحج، يحذو فيها حشود الحجاج كلّ عام حذوها، ويحيّون فيها من بُعد أمّهم هاجر وأباهم إبراهيم وإسماعيل.

لقد اجتمعت فى هذا الوادى- يومذاك- ثلاثة أسباب من أسباب نزول رحمة اللَّه تعالى: الفقر والسعى والدعاء ...

فقر فى أقصى درجات الضعف والفاقة، وسعى فى قوة وحزم وعزم، ودعاء فى تضرع وانقطاع واضطرار.

وفى الحجّ نحيى نحن كلّ عام هذا المشهد؛ لنتعلم من أمّنا أمّ اسماعيل عليها السلام كيف نطلب رحمة اللَّه- تعالى- وكيف نستنزل فضله ورحمته، وكيف نغرف من رحمته ونتعرض لها.

الهوامش:

ص: ۶۷

تحقیق حول شعب أبی طالب

علی قاضی عسکر

فی بدایة شارع الحجون شعب یُسمّی فی الجاهلیة وبعد الاسلام ب «شعب أبی دب» ویسمّیه أهل مکة الیوم ب «مقبرة المعلّاة» أو «جنة المعلّاة» (۱) ومعروف بین الایرانیین ب «مقبرة ابی طالب» وکان أهل الجاهلیة وفیصدر الاسلام یدفنون موتاهم فی شعب أبی دب (۲)من الحجون الی شعب الصفی،صفی السباب، وفی الشعب اللاصق بثنیة المدنیین الذی هو مقبرة أهل مکة الیوم (۳). ویسمّی هذا الشعب ایضاً، ب «شعب العفاریت» ویعرف الیوم بشعبة الجن وهو یتصل بالحجون الجاهلی (۴) وهذا مکان، یقصده الکثیر من حجاج بیت اللَّه الحرام فی کل عام، بعد اتمام العمرة أو الحج لزیارة المدفونین فیه، منهم خدیجة بنت خویلد زوجة رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم امّ المؤمنین، وأبو طالب عمّ رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم و ....

یسمّی بعض الناس هذا الشعب باسم «شعب أبی طالب» ویریدون بذلک المکان الذی حوصر فیه رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم وخدیجة وأبو طالب ومن کان معهم، لمدّة ثلاث سنوات من قبل المشرکین، وهی تسمیة غیرصحیحة من الوجهة التاریخیّة، لأنّ شعب أبی طالب مکان آخر بقرب المسجد الحرام.

نورد فیما یلی الأدلّة الواضحة، والقطعیّة علی هذا الادّعاء:

الشعب فی اللّغة:

قال الجوهری (م ۳۹۳ ه) فی الصحاح:

و «الشعب» بالکسر، الطریق فی الجبل والجمع «الشعاب» (۵).

قال ابن منظور (م ۷۱۱ ه) فی لسان العرب:

والشِّعْبُ: ما انْفَرَج بین جَبَلَین. والشِّعْب: مسیل الماء فی بطنٍ من الارض (۶)

وقال فخر الدین الطریحی (م ۱۰۸۵) فی مجمع البحرین:

... «الشِّعب» بالکسر، هو الطریق فی الجبل، والجمع «شِعاب» ککتاب (۷).

مکان شعب أبی طالب:

تقع مدینة مکة فی ارض جبلیة وبین شعابٍ کثیرة، ولهذا فهی فی موقع منیع من مخاطر السیول، وتبدو کأنّها تحتضن الدور الّتی فیها، بما یشبه الحصن الطبیعی، وقد کانت موطناً لسُکنی مختلف القبائل.

وفی جوار المسجد الحرام ثلاث شعاب متقاربة وهی:

۱- شعب أبی طالب.

۱- ۱ فقه العبادات الحج:ص ۲۰۵.

۲- ۲ ابو دب کنیة رجل من بنی سواءة بن عامر، سکنه فسمّی به، اخبار مکة للأزرقی، ۲: ۲۱۰- معجم معالم الحجاز:ص ۵۶.

۳- ۳ اخبار مکة للازرقی، ۲: ۲۰۹.

۴- ۴ نفس المصدر، ۲: ۲۷۲ فی هامشه.

۵- ۵ الصحاح، ۱: ۱۵۶.

۶- ۶ لسان العرب، ۷: ۱۲۶.

۷- ۷ مجمع البحرین، ۳: ۵۱۳.

ص: ۶۸

۲- شعب بنی هاشم.

۳- شعب بنی عامر.

وکان اجداد النبیصلی الله علیه و آله و سلم وقومه سکنوا فی هذه الشعاب الثلاثة.

- محلّ الخریطة-

(موضع هذه الشعاب الثلاثة موضّح فی الخارطة بشکل دقیق)

قال الطریحی بعد تعریفه لمعنی الشعب:

وشِعبُ أبی طالب بمکة، مکان مولد النبیصلی الله علیه و آله و سلم وشعب أبی دب أیضاً بمکة وأنت خارج إلی منی (۱).

وجاء فی معجم البلدان فی ذیل کلمة «شعب أبی یوسف»:

وهو الشعب الذی أوی إلیه رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم، وبنو هاشم لما تحالفت قریش علی بنی هاشم وکتبوا الصحیفة، وکان لعبد المطلب فقسّمه بین بنیه حین ضعف بصره، وکان النبیصلی الله علیه و آله و سلم أخذ حَظَّ أَبیه، وهو کان منزل بنی هاشم ومساکنهم فقال أبو طالب:

جَزی اللّه عنّا عبد شمس ونَوْفِلًا وتَیْماً ومخزوماً عقوقاً ومأثما

۱- ۱ مجمع البحرین، ۲: ۵۱۳.

ص: ۶۹

بتفریقهم من بعد وُدّ والْفَةٍ جماعتنا کیما یَنالوا المحارما

کذبتم وبیتِ اللَّه نبزی محمداً ولَمّا تَرَوْا یَوْماً لدی الشِّعب قائماً (۱) وقال العلامة المجلسی قدس سره:

والشعب بالکسر: ما انفرج بین جبلین، وشعب أبی طالب معروف بمکّة وهو الموضع الذی کان فیه رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم وأبو طالب وساير بنی هاشم عند اخراج قریش ایاهم من بینهم. وکتب الکتاب بینهم فی مهاجرتهم ومعاندتهم.

ثم یقول فی ذیل کلمة الکلینی رحمه الله: «فی دار محمد بن یوسف»: المشهور فی السّیر ان هذه الدار کانت للنّبیصلی الله علیه و آله و سلم بالمیراث، ووهبها عقیل بن أبی طالب، ثم باعها أولاد عقیل بعد أبیهم محمد بن یوسف أخا الحجاج فاشتهرت بدار محمد بن یوسف فأدخلها محمد فی قصره الذی یسمونه بالبیضاء ثم بعد انقضاء دولة بنی امیة حجّت خیزران امّ الهادی والرّشید من خلفاء بنی العباس فأفرزها عن القصر وجعلها مسجداً.- والقصوی مؤنث أقصی أی الأبعد- والمکان بهذا الوصف موجود الآن یزوره الناس (۲).

الدّار التی ولد فیها النبیصلی الله علیه و آله و سلم:

معرفة الموضع الذی ولد فیه النبیصلی الله علیه و آله و سلم والدیار التی کان یسکنها بنو هاشم فی مکة یساعدنا علی أن نعرف شعب أبی طالب.

قال الازرقی:

مولد النبیصلی الله علیه و آله و سلم أی البیت الذی ولد فیه النبیصلی الله علیه و آله و سلم وهو فی دار محمد بن یوسف أخی الحجاج بن یوسف، کان عقیل بن أبی طالب أخذه حین هاجر النبیصلی الله علیه و آله و سلم وفیه وفی غیره یقول رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم عام حجة الوداع حین قیل له أین ننزل یا رسول اللَّه؟ وهل ترک لنا عقیل من ظل؟ فلم یزل بیده وبید ولده حتی باعه ولده من محمد بن یوسف فأدخله فی داره التی یقال لها البیضاء وتعرف الیوم بابن یوسف، فلم یزل ذلک البیت فی الدار حتّی حجّت الخیزران امّ الخلیفتین موسی وهارون فجعلته مسجداً یصلی فیه وأخرجته من الدار وأشرعته فی الزقاق الذی فی اصل تلک الدّار یقال له: زقاق المولد (۳)، وهذا الشعب یُعرف الیوم بشعب بنی هاشم وشعب علی ویتّصل بالسّوق المسمّی بسوق اللیل (۴).

وذکر الفاکهی (م ۲۷۲، ۲۷۹ ه. ق):

ودار ابن یوسف لأبی طالب، والحق الذی یلیه بعضُ دارِ ابن یوسف من مولد النبیصلی الله علیه و آله و سلم وهو الشعب الذی حاصرت فیه قُرَیشٌ بنی هاشم، ورسول اللَّه مَعَهُم فی الشِّعب (۵).

۱- ۱ معجم البلدان، ۳: ۳۹۳.

۲- ۲ مرآة العقول، ۵:صص ۱۷۳ و ۱۷۴.

۳- ۳ اخبار مکة للازرقی، ۲: ۱۹۸.

۴- ۴ نفس المصدر فی هامشه.

۵- ۵ اخبار مکة للفاکهی، ۳: ۲۶۴.

ص: ۷۰

ثم اشار محقق هذا الکتاب فی هامشه بانّ هذا الشعب یعرف الیوم ب «شِعْب علی» (۱).

ثم قال الفاکهی بشأن دار أبی یوسف ما یلی:

وقال بعضُ الناس: انّ دارَ ابن یوسفَ کانت لعبدِ المطلب، فأمر الحجاجُ أخاه محمد بن یوسف فاشتراها بمائة درهم، فدفعها الحجاجُ إلیه، وأمر أخاه محمداً أن یبنیها، فبناها وکلاءُ محمد، فقال الناس: الدار لمحمد بن یوسف، فلما ولی الولید بن عبد الملک (۲) استعملَ خالداً، بن یوسف بن محمد بن یوسف علی مکة، فادّعی أنها لأبیه، فخاصمه الحجاج بن عبد الملک بن الحجاج بن یوسف، فنظروا فی الدواوین فوجدوا النفقةَ والثمَنَ من الحجاج، وکان الحجاج قد جعل الدارَ الخارجةَ وقفاً علی وُلْدِ الحکم بن أبی عقیل، والوُسْطی علی ولد محمد بن یوسف، والداخلةَ عَلی وَلَدِ الحجّاج. وذکر بعض أهل مکة أن محمد بن یوسف کان أودع عطاء بن أبی رباح المالَ الذی بناها به ثلاثین ألف دینار، فلمّا أراد وکلاؤه قبضَ ها، دعا النّاسَ لیشهدوا علی قبضها منه، فقال سفیان بن عیینة: قال عمرو بن‌دینار: فکنت فیمن دُعی لیَشْهد، فکانت رؤیتُها أحبَّ الَیَّ مِنْ دِرْهَمَین. ثمصارت هذه الدّارُ بعد ذلک لولد عبد الملک بنصالح. ثمصارت الیوم لأبی سهل محمد بن أحمد بن سهل.

الشاعر یذکر دار ابن یوسف هذه:

وموعِدُها دارُ ابن یوسفَ غُدْوةً کذا الْخَوخَةُ القُصْوی المُغَلَّقُ بابُها ویقال: انّ النبیصلی الله علیه و آله و سلم وهب حقّه من هذه الدار، والشِّعْبَ لعقیل بن أبی طالب وکان رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم سَخیّاً حَلیماً سَمْحاً کریماً (۳).

وقال الفاکهی فی موضع آخر:

وفی دار ابن یوسف بئرٌ جاهلیةٌ، حفرها عقیلُ ابن أبی طالب فلم تزل هذه الدار حتی باعها ولدُه من محمد بن یوسف، وفی هذه الدار (۴) البیتُ الذی وُلِد رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم وقد اتُّخِذَ مصلّیً یُصَلّی فیه، والذی یلیه حق العباس بن عبد المطلب رضی الله عنه حتی دار خالصة مولاة الخَیْزَران، ثم حق المقوّم بن عبد المطلب، وهی دارُ طلوب مولاة زبیدة، ثم حق أبی لهب بن عبد المطلب وهی دار أبی یزید اللهبی وفیها کان یسکُن الفضلُ بن العباس (۵).

قال الکلینی البغدادی (م ۳۲۹ ه) قدس سره فی ذکر مولد النبیصلی الله علیه و آله و سلم:

ولد النبیصلی الله علیه و آله و سلم لاثنتی عشرة لیلة مضت من شهر ربیع الاوّل فی عام الفیل یوم الجمعة مع الزّوال وروی ایضاً عند طلوع الفجر قبل أن یبعث، باربعین سنة وحملت به امّه فی ایّام التشریق عند الجمرة الوسطی (۶) وکانت فی منزل عبد اللَّه بن عبد المطلب وولدته فی شعب أبی طالب فی دار محمد بن یوسف (۷) فی الزاویة القصوی عن یسارک وأنت داخل الدار، وقد أخرجت الخیزران ذلک البیت فصیّرته مسجداً، یصلّی الناس فیه (۸).

وذکر أیضاً فی مکان آخر من انّه: وماتت خدیجة علیها السلام حین خرج رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم من الشِّعب.

وجاء فی اتحاف الوری باخبار امّ القری:

وکان الحَمْلُ برسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم فی شِعب أبی طالب فی لیلة الجمعة من شهر رجب وقیل فی ایّام التشریق (۹).

وذکر السید الأمین فی اعیان الشیعة:

۱- ۱ نفس المصدر.

۲- ۲ کذا فی الأصل وهو غریب، لأن الولید بن عبد الملک توفی سنة ۹۶ والحجاج توفی سنة ۹۵ وقد استعمل الولید خلال حکمه

رجلین علی مکة، أولهما خالدالقسری، والثانی عمر بن عبد العزیز، ولم یستعمل علی مکة سواهما. انظر شفاء الغرام، ۲: ۱۷۲.

۳- ۳ اخبار مکة للفاکهی، ۳: ۲۶۶.

۴- ۴ وکان الدار تقع علی یسار الداخل الی شعب علی، وبها مکتبة مکة المکرمة التابعة لوزارة الحج والأوقاف.

۵- ۵ نفس المصدر:ص ۲۶۹.

۶- ۶ أی فی بیت کان قریباً منها وکان البیت لعبد اللّه أو موضع نزوله إذ کانت لأهل مکة فی منی منازل وبیوت ینزلونها فی الموسم ویحتمل أن یکون المرادبالمنزل الخیمة المضروبة له هناک- مرآة العقول، ۵: ۱۷۳.

۷- ۷ کان محمد بن یوسف والیاً علی الیمن ومعروفاً بعدائه لآل علی علیه السلام توفّی فی الیمن فی سنة مائة للهجرة أو قبلها بقلیل- الوافی بالوفیات، ۵: ۲۴۲.

۸- ۸ الکافی، ۱: ۴۳۹.

۹- ۹ اتحاف الوری باخبار ام القری، ۱: ۱۵.

ص: ۷۱

ولدصلی الله علیه و آله و سلم بمکة یوم الجمعة أو یوم الاثنین ... وکانت ولادته فی الدار المعروفة بدار ابن یوسف وهو محمد بن یوسف أخو الحجاج وکانصلی الله علیه و آله و سلم وهبها لعقیل بن أبی طالب فلمّا توفی عقیل باعها ولده من محمد بن یوسف أخی الحجاج، فلمّا بنی داره المعروفة بدار ابن یوسف ادخل ذلک البیت فی الدار ثم أخذته الخیزران امّ الرشید فأخرجته وجعلته مسجداً یصلی فیه وهو معروف الی الآن یزار ویصلی فیه ویتبرک به ولما أخذ الوهابیون مکة فی عصرنا هذا هدموه ومنعوا من زیارته علی عادتهم فی المنع من التبرک بآثار الأنبیاء والصالحین وجعلوه مربطاً للدواب (۱).

وقال تقی الدین الفاسی المکی (م ۸۳۲ ه):

ولدصلی الله علیه و آله و سلم بمکة فی الدار التی کانت لمحمد بن یوسف أخی الحجاج بن یوسف. ویقال: بالشعب. ویقال بالرِدْم (۲). ویقال: بعسفان، قلت: قال السهیلی: ولد بالشعب. وقیل: بالدار التی عند الصفا. وکانت بعد: لمحمد بن یوسف أخی الحجاج. ثم بنتها زبیدة مسجداً حین حجت. انتهی. والدار التی عند الصفا: هی دار الخیزران، ودار ابن یوسف بسوق اللیل، وهی الموضع المعروف بمولده علیه الصلوة والسلام. وهذا الذی قاله السهیلی فی ولادته بالدار التی عند باب الصفا غریب واللّه أعلم. انتهی (۳).

وجاء فی السیرة الحلبیة ما یلی:

وکان مولدهصلی الله علیه و آله و سلم بمکة فی الدّار التیصارت تدعی لمحمد بن یوسف أخی الحجاج أی وکانت قبل ذلک لعقیل بن أبی طالب ولم تزل بید أولاده بعد وفاته إلی أن باعوها لمحمد بن یوسف أخی الحجاج بمائة ألف دینار قاله الفاکهی أی فأدخلها فی داره وسماها البیضاء أی لأنها بنیت بالجصّ ثم طلیت به فکانت کلها بیضاء وصارت تعرف بدار ابن یوسف لکن سیأتی فی فتح مکة أنه قیل لهصلی الله علیه و آله و سلم: یا رسول اللّه تنزل فی الدور؟ قال: هل ترک لنا عقیل من رباع أو دور. فان هذا السیاق یدل علی أن عقیلًا باع تلک الدار فلم یبق بیده ولا بید أولاده بعده الّا أن یقال المراد باع ما عدا هذه الدار التی هی مولدهصلی الله علیه و آله و سلم ... وأن عقیلًا باع دار رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم التی هی دار خدیجة أی التی یقال لها مولد فاطمة وهی الآن مسجد یصلی فیه بناه معاویة أیام خلافته، قیل وهو أفضل موضع بمکة بعد المسجد الحرام أی واشتهر بمولد فاطمة، لشرفها والّا فهو مولد بقیة اخواتها من خدیجة ولعل معاویة اشتری تلک الدار ممن اشتراها من عقیل ویدل لما قلناه قول بعضهم لم یتعرّضصلی الله علیه و آله و سلم عند فتح مکة لتلک الدار الّتی أبقاها فی ید عقیل أی التی هی دار خدیجة فانّه لم یزل بهاصلی الله علیه و آله و سلم حتی هاجر فأخذها عقیل. وفی کلام بعضهم لما فتح النبیصلی الله علیه و آله و سلم مکة ضرب مخیمة بالحجون فقیل له: ألا تنزل منزلک من الشعب؟ فقال: وهل ترک لنا عقیل منزلًا ... وهی أی تلک الدار التی ولد بهاصلی الله علیه و آله و سلم عند الصفا قد بنتها زبیدة زوجة الرشید أم الأمین مسجداً لما حجت. وفی کلام ابن دحیة أن الخیزران أم هارون الرشید لما حجت أخرجت تلک الدار من دار ابن یوسف وجعلتها مسجداً ویجوز أن تکون زبیة جددت ذلک المسجد الذی بنته الخیزران فنسب لکل منهما وأن الخیزران بنت دار الأرقم مسجده وهی عند الصفا ایضاً ولعلّ الأمر التبس علی بعض الرواة لأن کلا منهما عند الصفا وقیل ولدصلی الله علیه و آله و سلم فی شعب بنی هاشم.

ثم الحلبی یقول: قد یقال لا مخالفة لأنّه یجوز أن تکون تلک الدار من شعب بنی هاشم، ثم رأیت التصریح بذلک،

۱- ۱ اعیان الشیعة، ۱: ۲۱۹.

۲- ۲ قال البکری: ردم بنی جُمَح بمکة، کانت فیه حرب بینهم وبین بنی محارب بن فهر، فقتلت بنو محارب من بنی جمح أشدّ القتل.

فسُمّی ذلک الموضع بما رُدِمعلیه من القتلی- شفاء الغرام، ۱: ۴۳۲.

۳- ۳ العقد الثمین، ۱۸:صص ۲۱۹ و ۲۲۰.

ص: ۷۲

ولا ینافیه ما تقدم فی الکلام علی الحمل من أن شعب أبی طالب وهو من جملة بنی هاشم کان عند الحجون لانه یجوز أن یکون أبو طالب انفرد عنهم بذلک الشعب واللّه أعلم (۱). انتهی.

یتّضح من هذه الروایة التاریخیة أن «شعب أبی طالب» لم یکن فی منطقة الحجون، بل قرب المسجد الحرام وإلی جانب جبل الصفا وفی مکان فیه دار محمد بن یوسف ... ولا یوجد هنالک دلیل یثبت هذا الاحتمال بأن شعب أبی طالب کان فی منطقة الحجون، وربما یفهم من کلمة «واللّه أعلم» التی أوردها الحلبی أنه لم یکن متأکداً منصحة ما نقله.

وذکر المسعودی (م ۳۴۵ ه):

وکان مولده علیه الصلوة والسلام لثمان خلون من ربیع الأول من هذه السنة بمکة، فی دار ابن یوسف، ثم بعد ذلک بنتها الخیزران أم الهادی والرشید مسجداً (۲).

وذکر فی موضع آخر:

وفی سنة ست وأربعین کان حصار قریش للنبیصلی الله علیه و آله و سلم وبنی هاشم وبنی عبد المطلب فی الشعب (۳).

ونقل ابن الأثیر (م ۶۳۰ ه) عن ابن اسحاق بأن رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم وُلد یوم الاثنین لاثنتی عشرة لیلة مضت من ربیع الاوّل، وکان مولده بالدار التی تُعرف بدار ابن یوسف، قیل: ان رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم وهبها عَقِیل بن أبی طالب، فلم تزل فی یده حتی توفی، فباعها ولده من محمد بن یوسف أخی الحجاج، فبنی داره التی یقال لها: دار ابن یوسف وأدخل ذلک البیت فی الدار حتی أخرجته الخیزران فجعلته مسجداً یصلّی فیه (۴).

وذکر الطبری (م ۳۱۰ ه) فی تاریخه نحوه (۵).

وقال الفاسی المکی فی ذکر المواضع المبارکة بمکة المشرَّفة المعروفة بالمواید: فمنها المولد الذی یقال له، مولد النبیصلی الله علیه و آله و سلم بالموضع الذی یقال له سوق اللیل، وهو مشهورٌ عند اهل مکة. وذکر الازرقی أنّ عقیل بن أبی طالب أخذها لما هاجر النبیصلی الله علیه و آله و سلم الی المدینة، ولم یزل بیده ویید أولاده حتی باعه بعضهم من محمد بن یوسف أخی الحجاج بن یوسف الثقفی، فأدخله فی داره التی یقال لها دار البیضاء، ولم یزل هذا البیت فی هذه الدار حتی حجّت الخیزران أم الخلیفتین موسی وهارون، فجعلته مسجداً یصلّی فیه، وأخرجته من الدار وشرعته الی الزقاق الذی فی أصل تلک الدار، انتهی (۶).

وجاء فی کتاب التاریخ القویم لمکة وبیت اللّه الکریم:

کانت ولادة النبیصلی الله علیه و آله و سلم لمکة فی دار أبی طالب، بشعب بنی هاشم بقرب المسجد الحرام ویسمّی الآن بشعب علی أی علی بن أبی طالب ولا زال محل ولادتهصلی الله علیه و آله و سلم معروفاً الی الیوم (۷).

وقد ذکر اکثر المؤرّخین ان ولادة النبیصلی الله علیه و آله و سلم کانت فی شعب أبی طالب، أو فی دار قرب الصفا، أو فی الدار المعروفة بدار ابن یوسف وهی ثلاثة اسماء لمکان واحد (۸).

وورد فی کتاب سیرة ساکن الحجاز:

وکان مولدهصلی الله علیه و آله و سلم بالشِّعب وهو شعب بنی هاشم (مکان معروف عند أهل مکة یخرجون إلیه فی کل عام یحتفلون بذلک أکثر من احتفالهم یوم العید إلی یومنا هذا، فی الدار التی کانت لمحمد بن یوسف أخی الحجاج) (۹).

۱- ۱ السیرة الحلبیة، ۱:صص ۶۲ و ۶۳.

۲- ۲ مروج الذهب، ۲: ۲۷۴.

۳- ۳ نفس المصدر:ص ۲۸۷.

۴- ۴ الکامل فی التاریخ، ۱: ۲۹۴.

۵- ۵ تاریخ الأمم والملوک، ۲: ۱۲۴.

۶- ۶ شفاء الغرام، ۱: ۴۳۱.

۷- ۷ التاریخ القویم لمکة وبیت اللّه الکریم، ۱: ۶۷.

۸- ۸ السیرة النبویة، ۱: ۱۶۷.

۹- ۹ نهایة الایجاز فی سیرة ساکن الحجاز، ۱: ۶.

ص: ۷۳

وذکر محبّ الدین الطبری المکی فی کتابه «القری لقاصد أم القری»:

کان عقیل بن أبی طالب قد استولی علیه (بیت النبیصلی الله علیه و آله و سلم) زمن الهجرة، فلم یزل بیده ویدولده حتی باعوه لمحمد بن یوسف (أخی الحجاج) فأدخله فی داره التی یقال لها البیضاء، ثم عُرفت بدار ابن یوسف، ولم یزل ذلک، کذلک حتی حجّت الخیزران (جاریة المهدی) فجعلته مسجداً یصلّی فیه، وأخرجته من الدار إلی الزقاق الذی یقال له «زقاق المولد» ... وهو الآن مکتبة عامة (۱).

وقالصلاحُ الدّین الصَفَدی بعد بحث موسّع حول مکان ولادة النبیصلی الله علیه و آله و سلم: القول الأرجح هو ان رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم قد وُلد فی عام الفیل فی دار تقع فی الزقاق المعروف بزقاق المولد الذی کان بید عقیل بن أبی طالب (۲).

وذکر عاتق بن غیث البلادی:

مولد رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم من الناحیة التاریخیة ثابت أنه ولد عام الفیل ۵۳ ق. ه تقریباً، فی شعب أبی طالب المعروف الیوم بشعب علی وقد حول إلی مکتبة مکة، إبعاداً له عن زحام الناس وولعهم بالتبرک به (۳).

وقد کان موضع ولادة رسول اللّه، قبل تسلط الوهابیین علی الحرمین الشریفین موضعاً یزوره المؤمنون والمسلمون الذین یفدون الی مکة من کل ارجاء العالم (۴).

قال محمد بن علوی المالکی فی کتابه باسم «فی رحاب البیت الحرام»:

مولد النبیصلی الله علیه و آله و سلم وهو مکان معروف الی الآن بمکة فی سوق اللیل ... ولما هاجر رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم الی المدینة استولی علی هذا البیت عقیل بن أبی طالب ولم یزل بیده وبید أولاده حتی باعه بعضهم من محمد بن یوسف الثقفی، ثم لما حجّت الخیزران أم الخلیفتین أخرجته وجعلته مسجداً یصلّی فیه، قال ابن ظهیرة ما معناه: وجرت العادة بمکة فی لیلة مولد الرسول أن یتهیأ الکبار والعلماء وأعیان البلاد بالفوانس والشموع فیخرجون الی بیت مولد الرسول لزیارته واحیاء ذکر مولده ... قال: والمعروف المشهور فی مولده علیه الصلوة والسلام هو الذی بسوق اللیل ولا اختلاف فیه عند أهل مکة ثم قال: وکون هذا مولد الرسولصلی الله علیه و آله و سلم مشهور متوارث یأثر الخلف عن السلف (۵).

قال الفاسی المکی فیصفة مولد النبیصلی الله علیه و آله و سلم:

أما الصفة التی أدرکناه علیها، فإنه بیت مربع وفیه اسطوانة علیها عقدان، وفی رکنه الغربی مما یلی الجنوب زوایة کبیرة قبالة بابه الذی یلی الجبل، وله باب آخر فی جانبه الشرقی ایضاً، وفیه عشرة شبابیک، أربعة فی حائطه الشرقی، وهو الذی فیه باباه المتقدم ذکرهما، وفی حائطه الشمالی ثلاثة، وفی الغربی واحد، وفی الزاویة اثنان، واحد فی جانبها الشمالی وواحد فی جانبها الیمانی، وفیه محراب، وبقرب المحراب حُفرة علیها درابزین من خشب، وذرْع تربیع الحُفْرة من کل ناحیة ذراع وسُدس، الجمیع بذراع الحدید، وفی وسط الحُفرة رخامة خضراء، وکانت هذه الرخامة مطوَّقة بالفضّة علی ما ذکره ابن جبیر، وذکر انّ سعتها مع الفضة ثلثا شبر (۶). وهذا الموضعُ جُعل علامة للموضع الذی وُلد فیه النبیصلی الله علیه و آله و سلم من هذا المکان (۷)، وذرع هذا المکان طولًا أربعة وعشرون ذراعاً وربع ذراع. وذلک من الجدار الشمالی إلی الجدار المقابل له، وهو الجنوبی الذی یلی الجبل، وذرْعه عرضاً أحد عشر ذراعاً وثمن ذراع. وذلک

۱- ۱ القری لقاصد امّ القری:ص ۶۶۴.

۲- ۲ الوافی بالوفیات، ۵: ۲۴۲.

۳- ۳ فضائل مکة:ص ۲۳۲.

۴- ۴ السیرة الحلبیة، ۱: ۵۷.

۵- ۵ فی رحاب البیت الحرام:ص ۲۶۲.

۶- ۶ کذا فی الأصل، ولکن الذی عند ابن جبیر-ص ۱۴۱-: «فتکون سعتها مع الفضّة المتصلة بها شبراً».

۷- ۷ شفاء الغرام، ۱: ۴۳۳.

ص: ۷۴

من الشرقی الذی فیه بابه الی جداره الغربی المقابل له، وطولًا الزاویة المشار إلیها ثلاثة عشر ذراعاً ونصف ذراع وعرضها ثمانیة ونصف، الجمیع بذراع الحدید. وکان تحزیر ذلک بحضوری، ولم یذکر الازرقیصفة هذا المکان ولا ذرْعه، وقد خفی علینا کثیراً من خبر عمارته. والذی علمته من ذلک أن الناصر العباسی عمّره فی سنة ستّ وسبعین وخمسمائة. ثم الملک المظفرصاحب الیمن فی سنة ستّ وستین وستمائة، ثم حفیده المجاهد فی سنة أربعین وسبعمائة، وفی سنة ثمانٍ وخمسین وسبعمائة من قِبَل الأمیر شیخون أحد کبار الدولة بمصر (۱)، وفی دولة الملک الأشرف شعبانصاحب مصر بإشارة مدیر دولته «یلبغا الخاصکی» (۲) سنة ستّ وستین وسبعمائة، وفی آخر سنة إحدی وثمانمائة، أو فی التی بعدها، من المال الذی أنفذه الملک الظاهر برقوقصاحب مصر لعمارة المسجد الحرام وغیره بمکة. وکانت عمارة هذا المولد بعد موته (۳).

هذا وقد وصفه ابن جبیر فی رحلته بوصف غیر هذا مما یدلّ علی أنه لم یدم علیصفة واحدة بل کان یتغیرصفة وبناء بتغیر الزمن.

وأعاد بناء هذا البیت بعد أن تهدم وصار خرباً مهجوراً، الشیخ عباس قطان أمین العاصمة، ووضعت فیه مکتبة عامة عظیمة فَخمة، تسمّی بمکتبة مکة المکرمة مفتوحة للمطالعة والمراجعة.

وفی الأعوام الأخیرة هدم البنایات الّتی حول المکتبة لتوسیع أطراف المسجد الحرام، ویمکن ملاحظته الأبنیة التی شیّدت فی موضع ولادة النبیصلی الله علیه و آله و سلم من خلال التصاویر.

وجاء فی بحار الأنوار:

... ولد النبیصلی الله علیه و آله و سلم لاثنتی عشرة لیلة مضت من شهر ربیع الأوّل فی عام الفیل یوم الجمعة مع الزوال وروی ایضاً عند طلوع الفجر قبل أن یبعث بأربعین

سنة وحملت به أمّه فی أیام التشریق عند الجمرة الوسطی وکانت فی منزل عبد اللّه بن عبد المطلب وولدته فی شعب أبی

۱- ۱ توفی سنة ۷۵۸ ه. الدرر الکامنة، ۲: ۱۹۶ و ۱۹۷، رقم ۱۹۵۰.

۲- ۲ هو یلبغا بن عبد اللّه الخاصکی الناصری الأمیر الکبیر المشهور. قتل سنة ۷۶۸ ه. قال ابن حجر: کانت لیلبغاصدقات کثیرة علی طلبة العلم ومعروف کثیرفی بلاد الحجاز. الدرر الکامنة، ۴: ۴۳۸- ۴۴۰، رقم ۱۲۱۸.

۳- ۳ شفاء الغرام، ۱: ۴۳۲.

ص: ۷۵

طالب فی دار محمد بن یوسف فی الزاویة القصوی عن یسارک وأنت داخل وقد أخرجت الخیزران ذلک البیت فصیرته مسجداً یصلّی الناس فیه (۱).

وروی الزهرة عن ابی عبد اللّه الطرابلسی، البیت الذی ولد فیه رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم فی دار محمد بن یوسف (۲).

وقال الکلینی: [ولد] فی شعب أبی طالب فی دار محمد بن یوسف فی الزاویة القصوی عن یسارک وأنت داخل الدار (۳).

یظهر ممّا ذکرناه أوّلًا: انّ النبیصلی الله علیه و آله و سلم قد وُلد فی شعب أبی طالب. وثانیاً: انّ شعب أبی طالب موضع فی مکة، قرب المسجد الحرام، وبعیداً عن المکان الذی فی الحجون الذی یعرفه بعضٌ باسم هذا الشعب.

مقاطعة النبیصلی الله علیه و آله و سلم وأصحابه فی شعب أبی طالب:

فلما رأت قریشٌ أنّ اصحاب رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم قد نزلوا بلداً أصابوا به أمناً وقراراً، وأنّ النجاشی قد منع مَن لجأ إلیه منهم، وأنّ عمر قد أسْلم، فکان هو وحمزة مع رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم وجعل الإسلامُ یَفشو فی القبائل، اجتمعوا وائتمروا [بینهم] أن یکتبوا کتاباً یتعاقدون فیه علی بنی هاشم، وبنی المطّلب، علی أن لا یُنْکحوا إلیهم ولا یُنکحوهم، ولا یبیعوهم شیئاً، ولا یبتاعوا منهم، فلما اجتمعوا لذلک کتبوه فیصحیفة، ثم تعاهدوا وتواثقوا علی ذلک، ثم عَلَّقُوا الصحیفةَ فی جَوف الکعبة توکیداً علی أنفسهم، وکان کاتبَ الصحیفة منصورُ بن عِکرمة بن عامر بن هاشم بن عَبْد مناف بن عبد الدار بن قُصَیّ ....

فلما فعلت ذلک قریش انحازت بنو هاشم وبنو المطّلب الی أبی طالب بن عبد المطلب فدخلوا معه فی شِعْبه واجتمعوا إلیه، وخرج من بنی هاشم أبو لَهب، عبد العُزّی بن عبد المطّلب، إلی قریش فظاهرهم (۴).

وقال السید الأمین فی اعیان الشیعة:

... وحصروهم فی شعب أبی طالب أول المحرم سنة سبعة من البعثة فدخل بنو هاشم الشعب، مسلمهم وکافرهم عدا أبی لهب وأبی سفیان بن الحارث بن عبد المطلب لشدة عداوتهما للرسولصلی الله علیه و آله و سلم ... وانحاز الیهم بنو المطلب بن عبد مناف فکانوا أربعین رجلًا وحصن أبو طالب الشعب وکان یحرسه لیلًا ونهاراً ... وسمع اصواتصبیانهم من وراء الشعب وذلک اشدّ ما لقی رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم وأهل بیته بمکة، وکان هشام بن عمرو احد بنی عامر بن لؤی یأتی بالبعیر بعد البعیر قد أوقره طعاماً أو تمراً إلی فم الشِّعب فینزع عنه خطامه ویضربه علی جنبیه فیدخل الشعب فبقوا فی الشعب سنتین أو ثلاث سنین ... وخرج بنو هاشم من حصار الشعب فی السنة العاشرة أو التاسعة من النبوة الی مساکنهم ... (۵).

قال الکازرونی فی المنتقی وغیره:

... فعمد أبو طالب فأدخل الشعب ابن أخیه وبنی أبیه ومن اتبعهم، فدخلوا شعب أبی طالب وآذوا النبی والمؤمنین أذیً شدیداً وضربوهم فی کل طریق وحصروهم فی شعبهم وقطعوا عنهم المارّة من الأسواق ونادی منادی

۱- ۱ بحار الأنوار، ۱۵: ۲۵۱، روایة ۵ باب ۳.

۲- ۲ بحار الأنوار، ۱۵: ۲۷۶ روایة ۲۳.

۳- ۳ نفس المصدر.

۴- ۴ السیرة النبویة، ۱: ۳۷۵.

۵- ۵ اعیان الشیعة، ۱: ۳۳۵.

ص: ۷۶

الولید بن المغیرة فی قریش: أیّما رجل منهم وجدتموه عند طعام یشتریه فزیدوا علیه، فبقوا علی ذلک ثلاث سنین حتی بلغ القوم الجهد الشدید حتّی سمعوا أصواتصبیانهم یتضاغون- أی یصیحون من الجوع من وراء الشعب- ...

ویصبح قریش وقد سمعوا أصواتصبیان بنی هاشم من اللیل یتضاغون من الجوع ... (۱).

وجاء فی اتحاف الوری باخبار امّ القری:

دعا رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم علی کاتب الصحیفة فشُلَّت یده، ثم غدت قریش علی مَنْ اسْلَم فأوثقوهم وآذوهم، واشتد البلاءُ علیهم ... ولما فعلت قریش ذلک انحاز رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم وسائر بنی هاشم وبنی المُطَّلب،- خلا أبا لهب- وبنو المطلب وولده فی الشِّعْب، وخرج اللعین ابو لهب وولدُه الی قریش، فظاهرهم علی بنی هاشم وبنی المُطَّلب، وقطعوا عنهم المِیَرة والمادة، فکانوا لا یقدرون علی ذلک الّا من الموسم الی الموسم ولا یخرجون الّا من موسم الی موسم، حتی بلغ بهم الجهد، وسمع أصواتصبیانهم من وراء الشِّعب یَتَضاغَوْن من الجوع. فمن قریش من سَرَّهُ ذلک ومنهم من ساءَه، ولم یکن یصل الیهم شیء الّا سِرّاً، حتی ان المُطْعِمَ بن عَدِیّ أدخل علیهم فی بعض الأیام ثلاثة أوقار من الطعام وکان النبیصلی الله علیه و آله و سلم یَشکُرُ له ذلک، وکانت العیر تأتی من الشام وعلیها الحِنْطَة الی حکیم بن حِزَام بن خُوَیْلد فیوجهها نحو الشِّعب، ثم یَضرب أدبارها فتدخل علیهم، فیأخذون ما علیها من الحنطة، وکان هشام بن عمرو بن ربیعة أوْصَلَ قریش لبنی هاشم حین حُصِرُوا فی الشِّعْب، أدخل علیهم فی لیلة ثلاثة أحمال طعام، فعلمت بذلک قریش، فمشوا إلیه فکلَّمُوه فی ذلک فقال: انی غیر عائد لشیء تحالفتم علیه. ثم عاد الثانیة وادخل حِملًا أو حِمْلین، فغالظته قریش وهمّوا به، فقال ابو سفیان بن حرب: دَعُوه؛ رجلٌ وصَلَ رحمه، أما إنی أحلُفُ باللّه لو فعلنا مثل ما فعل کان أجمل (۲).

وقال فی موضع آخر: ... فلما رأی أبو طالب عملَ القوم جمع بنی عبد المطلب وأمرهم أن یُدخِلوا رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم شِعْبَهم، ویمنعوه ممن أراد قتله، فاجتمعوا علی ذلک مسلمهم وکافرهم ... (۳).

فلبث بنو هاشم فی شعبهم ثلاث سنین، واشتدّ علیهم البلاء والجَهْدُ، وقطعوا عنهم الأسواق، فلا یترکوا طعاماً یَقْدُم مکة ولا بیعاً إلا بادروهم فاشتروه، یریدون بذلک أن یُدْرِکُوا سَفْکَ دم رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم وکان أبو طالب اذا أخذ النّاسُ مضاجعهم أمر رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم فاضطجع علی فراشه، حتی یری ذلک من أراد مکراً به واغتیاله، فاذا نَوَمَ الناس أمر واحداً مِنْ بنیه، أو اخوته، أو بنی عمّه فاضطجع علی فراش رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم وأمر رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم أن یأتی بعض فرشهم فینام علیه (۴).

وقال ابن کثیر فی السیرة النبویة:

... فلما رأی أبو طالب عملَ القوم جمع بنی عبد المطلب، وأمرهم أن یُدْخلوا رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم شِعْبَهم وأمرهم أن یمنعوه ممن أرادوا قتله ... وحَصْرهم إیّاهم فی شِعب أبی طالب مدّة طویلة (۵).

وجاء فی کتاب التاریخ القویم لمکة وبیت اللّه الکریم:

فانحاز بنو هاشم بسبب ذلک فی شعب أبی طالب، وهو المعروف الیوم «بشعب علی» ودخل معهم بنو المطلب سواء فی ذلک مسلمهم وکافرهم ما عدا أبی لهب فانه کان مع قریش، فلما انفصلوا عن قریش بالشعب المذکور، جهد القوم، جهداً عظیماً وتعبوا تعباً شدیداً حتی أکلوا أوراق الأشجار، لأن قریشاً شددوا الحصار علیهم، وکان ذلک فی

۱- ۱ بحار الأنوار، ۱۹:صص ۱۸ و ۱۹.

۲- ۲ اتحاف الورى باخبار امّ القرى، الجزء الأول:ص ۲۸۳.

۳- ۳ نفس المصدر:ص ۲۸۴.

۴- ۴ اتحاف الورى باخبار ام القرى، الجزء الأول:ص ۲۸۴- دلائل النبوة، ۲: ۸۱- ۲: ۴۳- ۴۴- شرح المواهب، ۱: ۲۷۸- ۲۷۹.

۵- ۵ السيرة النبوية، ۲: ۴۳.

ص: ۷۷

السنة السابعة من البعثة، ومكثوا على هذا الحال من الضيق والتعب الشديد ثلاث سنوات (۱).

وقال ايضاً فی موضع آخر:

قال هذه القصيدة أبو طالب عم النبيصلی الله عليه و آله و سلم فی الشِّعب وهو شِعْبُ أبی طالب الّذی آوی إليه بنو المطلب وبنو هاشم مع رسول اللَّهصلی الله عليه و آله و سلم ثم يذكر ما قاله فی الشعب:

وأبيض يستسقی الغمام بوجهه ثمال اليتامی عصمة للأرامل

يلوذ به الهلاك من آل هاشم فهم عنده فی رحمة وفواضل

جزی اللَّه عنّا عبد شمس ونوفلا عقوبة شر عاجلًا غير آجل

بميزان قسط لا يخس شعيرة له شاهد من نفسه غير عائل

ونحن الصميم من ذؤابة هاشم وآل قصیٍّ فی الخطوب الأوائل (۲) وجاء فی بحار الأنوار:

من معجزاتهصلی الله عليه و آله و سلم ان قريشاً كلهم اجتمعوا واخرجوا بنی هاشم الی شعب أبی طالب ومكثوا فيه ثلاث سنين الّا شهراً ثم انفق ابو طالب وخديجة جميع مالهما ولا يقدرون علی الطعام الّا من موسم الی موسم فلقوا من الجوع والعری ما اللَّه أعلم به ... (۳).

وقال ابن سعد فی «الطبقات الكبری»:

... وحصروا بنی هاشم فی شعب أبی طالب ليلة هلال المحرم سنة سبع من حين تنبّی رسول اللَّهصلی الله عليه و آله و سلم وانحاز بنو المطلب بن عبد مناف إلی أبی طالب فی شعبه مع بنی هاشم ... (۴).

وجاء فی الكامل لابن اثير:

فلما فعلت قريش ذلك انحازت بنو هاشم وبنو المطّلب الی أبی طالب فدخلوا معه فی شعبه واجتمعوا ... وذكروا أن أبا جهل لقی حكيماً بن حِزام بن خُوَيْلد ومعه قمحٌ يريد به عمّته خديجة، وهی عند رسول اللَّهصلی الله عليه و آله و سلم فی الشِّعب متعلّق به وقال: واللَّه لا تبرح حتی أفضحك، فجاء أبو البختری بن هشام فقال: ما لك وله؟

عنده طعام لعمّته أفتمنعه أن يحمله إليها؟ خلّ سبيله، فأبی أبو جهل، فنال منه. فضربه ابو البختری بلَحی جمل فشجّه ووطأه وطأً شديداً، وحمزة ينظر اليهم، وهم يكرهون أن يبلغ النبيصلی الله عليه و آله و سلم ذلك فيشمت بهم هو والمسلمون.

ورسول اللَّهصلی الله عليه و آله و سلم يدعو الناس سراً وجهراً، والوحی متتابع إليه، فبقوا كذلك ثلاث سنين (۵).

۱- ۱ التاريخ القويم لمكة وبيت اللَّه الكريم، ۱:صص ۹۴- ۹۵.

۲- ۲ نفس المصدر:ص ۹۶.

۳- ۳ بحار الانوار، ۱۹: ۱۶.

۴- ۴ طبقات ابن سعد، ۱: ۲۰۹.

۵- ۵ الكامل فی التاريخ، ۱: ۵۰۴.

ص: ۷۸

وفی السیرة للذهبی:

فلبثت بنو هاشم فی شعبهم ثلاث سنین ... وقال محققه فی هامشه: قال الحافظ أبو الحسن أحمد بن یحیی البلاذری، عن المدائنی، عن أبی زید الأنصاری، عن أبی عمرو بن العلاء عن مجاهد عن ابن عباس قال: حصرنا فی الشعب ثلاث سنین، وقطعوا عنّا المیرة حتی إن الرجل لیخرج بالنفقة فلا یبتاع شیئاً حتی مات منّا قوم» (۱).

وجاء فی الصحیح من سیرة النبی الأعظمصلی الله علیه و آله و سلم:

ودخل بنو هاشم الشعب- شعب أبی طالب- ومعهم بنو المطلب بن عبد مناف، باستثناء أبی لهب لعنه اللّه وأخزاه، واستمروا فیه الی السنة العاشرة ... ووضعت قریش علیهم الرقباء حتی لا یأتیهم أحد بالطعام. وکانوا ینفقون من أموال خدیجة وأبی طالب حتی نفدت، حتی لقد اضطروا الی أن یقتاتوا بورق الشجر. وکانصبیتهم یتضاغون جوعاً ویسمعهم المشرکون من وراء الشعب، ویتذاکرون ذلک فیما بینهم ... ولم یکونوا یجسرون علی الخروج من شعب أبی طالب إلّا فی موسم العمرة فی رجب، وموسم الحج فی ذی الحجة، فکانوا یشترون حینئذٍ ویبیعون ضمن ظروفصعبة جداً ... وقد استمرّت هذه المحنة سنتین أو ثلاثاً ... وکان علی امیر المؤمنین علیه السلام اثناءها یأتیهم بالطعام سراً من مکة، من حیث یمکن، ولو أنهم ظفروا به لم یبقوا علیه کما یقول الاسکافی وغیره (۲).

وجاء فی أعلام الوری:

... فلما بلغ ذلک أبا طالب جمع بنی هاشم ودخل الشعب وکانوا أربعین رجلًا، فحلف لهم أبو طالب بالکعبة والحرم والرکن والمقام لئن شاکت محمّداً شوکة لأثبنَّ علیکم یا بنی هاشم وحصّن الشعب وکان یحرسه باللیل والنهار ... وکانت خدیجة لها مالٌ کثیرٌ فانفقته علی رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم فی الشِّعب (۳).

وکتب الیعقوبی (م ۲۹۳ ه) فی هذا الصدد:

ثم حصرت قریش رسول اللّه وأهل بیته من بنی هاشم وبنی المطلب ابن عبد مناف فی الشعب الذی یقال له شعب بنی هاشم بعد ستّ سنین من مبعثه فأقام ومعه جمیع بنی هاشم وبنی المطلب فی الشعب ثلاث سنین حتی أنفق رسول اللّه ماله وأنفق أبو طالب ماله وأنفقت خدیجة بنت خویلد مالها، ثم نزل جبرئیل علی رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم فقال:

انّ اللّه بعث الأرضة علیصحیفة قریش فأکلت کل ما فیها من قطیعة وظلم الّا المواضع التی فیها ذکر اللّه (۴).

إن الوضع المهلک الذی آل إلیه النبیصلی الله علیه و آله و سلم وأصحابه، حرّک نفراً من قریش لنقض الصحیفة التی کتبتها قریش علی بنی هاشم، فنهض هشام بن عمرو مع زهیر بن أبی امیّة، ومطعم بن عدی، وابو البختری، وزمعة بن أسود بن المطلب، فاتعدوا له خَطمَ الحجون الّتی بأعلی مکة فاجتمعوا هنالک وأجمعوا أمرهم وتعاهدوا علی القیام فی الصحیفة حتی ینقضوها (۵).

أقول: یقع شعب الحجون فی نفس الموضع الذی فیه الآن مقبرة أبیطالب، وکان قبل الاسلام مقبرة أیضاً، وبالنتیجة فلو کان الشعب هنا، وفیه تعرض النبیصلی الله علیه و آله و سلم وأتباعه للمقاطعة، فلا معنی لأن یجعله الأشخاص المذکورون موضعاً خفیّاً لاجتماعهم أو لیجتمعوا فی مکان معرّض للخطر الدائم فی أیّة لحظة!! إنّ الاستفادة من هذا المکان کموضع خفی تدل علی أن الحجون کان خارج مکة أو الی جوارها علی الأقل، بل إن بعض الروایات تصرّح بأن الحجون کان خارج مکة فیصدر الاسلام، ولهذا لا یمکن القول بأن النبیصلی الله علیه و آله و سلم واتباعه وقومه خرجوا کلّهم

۱- ۱ السیرة للذهبی:ص ۲۲۱.

۲- ۲ الصحیح من سیرة النبی الأعظم، ۲: ۱۰۸- شرح النهج للمعتزلی، ۱۳: ۲۵۶.

۳- ۳ اعلام الوری:صص ۵۹ و ۶۰.

۴- ۴ تاریخ الیعقوبی، ۱: ۳۸۹.

۵- ۵ تاریخ الأمم والملوک، ۲: ۲۲۸.

ص: ۷۹

من مکة واقاموا خارجها!!

وروی فی اصول الکافی عن أبی عبد اللّه علیه السلام قال: لمّا توفی أبو طالب نزل جبرئیل علی رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم فقال:

یا محمد، أخرج من مکة، فلیس لک فیها ناصرٌ وثارت قریش بالنبیصلی الله علیه و آله و سلم فخرج هارباً حتی جاء الی جبل بمکّة یقال له الحجون فصار الیه (۱)

نقض الصحیفة:

بعد ثلاث سنین تقریباً: أخبر النبیصلی الله علیه و آله و سلم عمّه أبا طالب بأنّ الأرضة قد أکلت کل ما فیصحیفتهم من ظلم وقطیعة رحم، ولم یبق فیها إلاـ ما کان اسماً للّه، فخرج أبو طالب من شعبه ومعه بنو هاشم إلی قریش، فقال المشرکون: الجوع أخرجهم ... وقالوا له: یا أبا طالب، قد آن لک أن تصالح قومک. قال: قد جئتکم بخیر، ابعثوا لیصحیفتکم، لعله أن یکون بیننا وبینکمصلح فیها. فبعثوا، فأتوا بها، فلما وضعت وعلیها أختامهم. قال لهم أبو طالب: هل تنکرون منها شیئاً؟ قالوا: لا. قال: ان ابن أخی حدّثنی ولم یکذبنی قط: أن اللّه قد بعث علی هذه الصحیفة الأرضة، فأکلت کل قطیعة وإثم، وترکت کل اسم هو للّه، فإن کانصادقاً اقلعتم عن ظلمنا، وإن یکن کاذباً ندفعه الیکم فقتلتموه. فصاح الناس: أنصفتنا یا أبا طالب ... ففتحت، ثم أخرجت فإذا هی کما قالصلی الله علیه و آله و سلم فکبّر المسلمون، وامتقعت وجوه المشرکین ... فقال أبو طالب:

أتبین لکم: أینا أولی بالسحر والکهانة؟ ...

فأسلم یومئذٍ عالم من الناس ... ولکن المشرکین لم یقنعوا بذلک بل استمروا علی العمل بمضمون الصحیفة، حتی قام جماعة منهم بالعمل علی نقضها، وخرج الهاشمیون حینئذٍ من شعب أبی طالب (۲).

وقال ابن أبی الحدید: ... انهم منعوا ایام الحصار فی شعب بنی هاشم من الماء العذب (۳).

أسماء بعض بنی هاشم الذین کانوا مع النبیصلی الله علیه و آله و سلم فی الشعب خلال مدّة المقاطعة:

۱- أبو طالب بن عبد المطلب.

۲- علی بن أبی طالب.

۳- حمزة بن عبد المطلب.

۴- عبیدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف.

(ورغم ان عبیدة لم یکن من بنی هاشم، الّا ان اتحاد بنی المطلب وبنی هاشم ومواقفهما المشترکة فی الجاهلیة والاسلام، یتیح لنا اعتباره من بنی هاشم).

۵- العباس بن عبد المطلب.

۶- عقیل بن أبی طالب.

۷- طالب بن أبی طالب.

۱- ۱ اصول الکافی، ۱: ۴۴۹.

۲- ۲ الصحیح من سیرة النبی الاعظم، ۲:صص ۱۲۰ و ۱۲۱.

۳- ۳ البحار، ۳۳: ۱۱۴ روایة ۴۰۸.

ص: ۸۰

۸- نوفل بن الحارث بن عبد المطلب.

۹- ابو سفیان بن الحارث بن عبد المطلب.

۱۰- الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب.

وکان شدیداً علی رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم یبغضه ویهجوه بالأشعار، الّا انه کان لا یرضی بقتله (۱).

۱۱- خدیجة بنت خویلد (۲).

قد ذکر المؤرخون وکتّاب السّیرة انَّ الموضع الّذی حُصر فیه رسول اللّه وأصحابه علی ید قریش، هو شعب أبی طالب، أشرنا الی بعضهم ونُشیر الی بعض آخر:

قال الطبرسی: فلما فعلت ذلک قریش انحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلی أبی طالب فدخلوا معه فی شِعْبه واجتمعوا إلیه فی شعبه ... (۳).

وقال الفاسی المکی (م ۸۳۲ ه):

فانحاز الهاشمیون غیر أبی لهب، والمطلبیون الی أبی طالب، فدخلوا معه فی شعبه، فأقاموا علی ذلک سنتین أو ثلاثاً (۴).

وجاء فی بحار الانوار: وحاصروا بنی هاشم فی الشعب، شعب عبد المطلب اربع سنین، فاصبح النبیصلی الله علیه و آله و سلم یوماً وقال لعمه ابی طالب انّ الصحیفة التی کتبتها قریش فی قطیعتها قد بعث اللّه علیها دابة فلحست کل ما فیها غیر اسم اللّه (۵).

وروی الواقدی:

دخل بنو هاشم فی لیلة الاول من المحرم من السنة السابعة للبعثة فی شعب أبی طالب، واجتمع الیهم بنو المطلب فی ذلک الشعب (۶).

وقال محمد ابراهیم آیتی رحمه الله:

ولما عزمت قریش علی فعلها اجتمع بنو هاشم وبنو المطلب بن عبد مناف الی أبی طالب وصاروا کلهم الی الشعب، سوی ابی لهب بن عبد المطلب الذی ناصر قریشاً (۷).

وقال رفاعة رافع الطهطاوی:

شعب أبی طالب هو الموضع الذیصارت فیه المقاطعة ثم یقول: فانحاز الهاشمیون الی أبی طالب ... فدخلوا معه فی شعبه وخرج من بنی هاشم أبو لهب ... وأقام بنو هاشم فی الشعب ومعهم رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم نحو ثلاث سنین، وکان بنو هاشم محصورین فی الشعب لا یخرجون الّا من موسم الی موسم ... واخرجوا بنی هاشم وبنی المطلب من الشعب وذلک فی السنة العاشرة من مبعثه (۸).

وکتب ابراهیم رفعت باشا فی مرآة الحرمین:

القشاشیة، فی شرق المسجد الحرام ویطل علیها جبل أبی قبیس، وفی الجهة الشرقیة منها شعب علی أو شعب بنی هاشم (۹).

وقال یاقوت الحموی:

۱- ۱ شرح نهج البلاغة لابن ابی الحدید، ۱۴: ۶۵.

۲- ۲ نفس المصدر:ص ۵۹.

۳- ۳ تاریخ الأمم والملوک، ۲: ۲۲۵.

۴- ۴ العقد الثمین، ۱: ۲۳۰.

۵- ۵ بحار الانوار، ۱۸: ۱۲۰ روایة ۱۶.

۶- ۶ الطبقات الکبری، ۱: ۲۰۹.

۷- ۷ تاریخ پیامبر اسلام تاریخ حیاة نبی الاسلام:ص ۱۵۴.

۸- ۸ سیرة ساکن الحجاز، الجزء الاول:ص ۱۱۵.

۹- ۹ مرآة الحرمین، ۱: ۱۸۰.

ص: ۸۱

شعب أبی یوسف، هو الشعب الذی أوی إلیه رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم وبنو هاشم لما تحالفت علیهم قریش علی بنی هاشم ...، وکان لعبد المطلب فقسمه بین بنیه حین ضعف بصره، وکان النبیصلی الله علیه و آله و سلم أخذ حظّ أبیه وهو کان منزل بنی هاشم ومساکنهم (۱). قال عاتق بن غیث البلادی بعد نقل هذا الموضوع فی کتابه معجم معالم الحجاز:

ثم عرف هذا الشعب فیما بعد بشعب أبیصالب (۲)، ثم شعب بنی هاشم ویُعرف الیوم بشعب علیّ، وهو الشعب الذی یسیل بطرف أبی قُبَیْس من الشمال بینه وبین الخندمة، فیه مولد رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم وهو الیوم مکتبة مکة أی المولد، یصب سیله علی سوق اللیل فوق المسجد الحرام بحوالی ثلاثمائة متر. کانت عند مصبّة بَّذر فهدمت سنة ۱۳۹۹ ه فی توسعة شارع الغزّة (۳).

وجبل أبی قبیس، هو أحد أشهر جبال مکة، ومنه یبدأ شعب علی أو شعب أبی طالب ویمتد الی خندمة وقد استودع فیه الحجر الأسود ایّام الطوفان وموضعه فی شعب علی، أی المکان الذی ولد فیه الرسولصلی الله علیه و آله و سلم وذکر عبد الملک بن هشام أنه سمّی بأبی قبیس بن شامخ، وهو رجل من جُرْهُم، کان قد وَشی بین عمرو بن مُضاض وبین ابنة عمّه مَیّة، فنذَرَتْ أن لا تکلّمه، وکان شدید الکَلَف بِها فحَلَف لأَقْتُلَنَّ أبا قبیس، فهرب منه فی الجبل المعروف به، وانقطع خَبَرُه، فإما مات وإما تردّی منه، فسُمّی الجبل أبا قبیس لذلک، فی خبر طویل ذکره ابن هشامصاحب السیرة فی غیر کتاب السیرة، وقال ابو المنذر هشام: أبو قبیس، الجبل الذی بمکة، کَناه آدم علیه السلام بذلک حین اقتبس منه هذه النار التی بأیدی الناس الی الیوم، من مَرْخَتَین نزَلَتا من السّماء علی أبی قبیس فاحتَکَّتا، فَاوْرَتا ناراً، فاقتبَسَ منها آدم، فلذلک المَرْخُ إذا حُکَّ احَدُها بالآخر، خرجتْ منه النار (۴).

بعض شعاب مکة:

کما ذکرنا سابقاً، یوجد فی الشّمال الشرقی للمسجد الحرام ثلاث شعاب، وهی:

۱- شعب علی أو شعب أبی طالب ویسمّی الیوم بالقشاشیة (۵) أیضاً.

۲- شعب بنی هاشم ویُسَمّی ایضاً ب «غزّة».

۳- شعب بنی عامر.

کان یسکن فی هذه الأماکن الثلاثة، منذ العصر الجاهلی فما تلاه، اجداد النبیصلی الله علیه و آله و سلم وابناء عبد المطلب وأبو طالب وبنی هاشم (۶).

وکذلک بعض البیوت فی شعب علی، وبعض دار ابن یوسف کانت لأبی طالب، وبعض دار ابن یوسف (مولد النبیصلی الله علیه و آله و سلم) وما حوله لأبی النبیصلی الله علیه و آله و سلم عبد اللّه بن عبد المطلب، وکذلک دار خالصة مولاة الخیزران، لعباس بن عبد المطلب ودار الطلوب مولاة زبیدة، حقّ المقوم بن عبد المطلب. وذکر غیر واحد من المکیین انّ الشعب الذی یقال له: شعب ابن یوسف- وهو شعب علی وبجانبه سوق اللیل، کان لهاشم بن عبد مناف دون الناس وکان عبد المطلب قد قسم حقه بین ولده ودفع الیهم ذلک فی حیاته فمن ثمّصار للنبیصلی الله علیه و آله و سلم حق أبیه عبداللّه بن عبد المطلب، وللعباس

۱- ۱ معجم البلدان، ۳: ۳۹۳.

۲- ۲ کذا فی المتن ویمکن أن یکون المراد شعب أبی طالب.

۳- ۳ معجم معالم الحجاز، ۵: ۵۶.

۴- ۴ معجم البلدان، ۱: ۱۰۳.

۵- ۵ لعل القشاشیة منسوبة الی الشیخ القشاشی وقد کان یسکن مکة حوالی القرن الحادی عشر «انظر الجزء الثانی من کتاب تاریخ مکة للسباعی، حوادث الشریف احمد بن عبد المطلب» من عهد الترک العثمانیین.

۶- ۶ مرآة الحرمین، ۱:صص ۱۸۰ و ۱۸۱.

ص: ۸۲

بن عبد المطلب أیضاً الدار التی بین الصفا والمروة التی بید ولد موسی بن عیسی التی الی جنب الدار التی بید جعفر بن سلیمان ودار العباس هی الدار المنقوشة التی عندها العلم الذی یسعی منه من جاء من المروة الی الصفا بأصلها ویزعمون أنها کانت لهاشم بن عبد مناف، ولهم أیضاً دار أم هانی بنت أبی طالب- کان بجانب الباب المعروف باسمها- التی کانت عند الحناطین عند المنارة فدخلت فی المسجد الحرام حین وسعه المهدی فی الهدم الآخر سنة سبع وسبعین ومائة (۱).

وقال احمد السباعی:

... عند سوق اللیل تصافحنا الدار التی کانوا یسمونها دار مال اللّه وکانوا ینفقون فیها علی المرضی ویطعمونهم، وبالقرب من الدار یلتوی شعب ابن یوسف وهو ما نسمیه شعب علی وفیه دور عبد المطلب بن هاشم ودور أخری لأبی طالب وأخری للعباس بن عبد المطلب وإذا عدنا الی استقامتنا فی شارعنا العام یصافحنا دار العاص فی فوهة شعب بنی عامر ثم یلتوی شعب بنی عامر فی دروب متعددة تقوم علیها دور لبنی بکر وأخری لبنی عبد المطلب بن عبد مناف ... ونمضی قلیلًا الی المعلاة لنجد الجزارین عن یمیننا فی شعب أبی دب، ثم مکان المقابر وهی بعد حدود شعب عامر ... (۲).

صفوة القول:

بالاضافة الی ما مرّ ذکره، فإن شعب علی وشعب بنی هاشم وشعب بنی عامر، قرب المسجد الحرام محددة بشکل دقیق علی الخرائط الموجودة عن الحجاز- قدیماً وحدیثاً- ولم یطلق احدٌ اسم شعب أبی طالب علی مقبرة أبی طالب الواقعة فی شعب أبی دب، ولهذا فإن وجود الشعب فی ذلک المکان رغم کل هذه الأدلّة والشواهد، یمکن تبریره بالنقاط التالیة:

اوّلًا: إنّ المنطقة کانت موضع سکن تلک العائلة.

وثانیاً: توفّر امکانیة الحیاة، والاستفادة من مخزون الطعام والاشیاء الأخری الموجودة فی الدور، والّا کیف یمکن البقاء علی قید الحیاة لمدّة ثلاث سنوات ومقاومة الظروف القاسیة فی تلک المنطقة القاحلة الخالیة من أی ظل یظلهم من الشمس المحرقة، أو یقیهم لهب الرمضاء القاتلة؟!

ثالثاً: انّ المنطقة المسماة الیوم بمقبرة أبی طالب، کانت فی العصر الجاهلی مقبرة ایضاً. ولیس من المعقول لرسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم ان یترک جمیع المناطق الموجودة فی مکة ویلتجئ الی مقبرة هو وأبو طالب ومجموعة من النساء والأطفال!

رابعاً: ان الحجون- کما أوضحنا سابقاً- تقع خارج مکّة، وهذا لا یتّسق والروایات القائلة بأنّ بکاء الاطفال کان یُسمع من خارج الشعب.

خامساً: جاء فی بعض النصوص التاریخیة ان الاوضاع کانت علی درجة شدیدة من القساوة، اضطر معها المحاصرون الی أکل أوراق الاشجار والخَبَطْ (۳) (۴) بینما لم تکن هناک أیّة اشجار أو نباتات فی المقبرة آنذاک حتی یتناولها المحاصرون.

سادساً: یتضح مما نقله الازرقی ان الحجون لم یسکنها أحد حتی العام العاشر للهجرة، وظلت هذه المنطقة

۱- ۱ اخبار مکة للازرقی، ج ۲:ص ۲۳۳.

۲- ۲ اخبار مکة للسباعی:ص ۳۱.

۳- ۳ الخَبَطْ: اسم الورق السّاقط. لسان العرب، ۴: ۱۶.

۴- ۴ الغدیر، ۷: ۳۶۳.

ص: ۸۳

خارج مدينة مكة لعدة قرون.

سابعاً: لم تكن هذه المنطقة من مكة مسكونة أساساً، وما كان فيها زرع أو دور، حتى ان رسول اللّهصلى الله عليه و آله و سلم كان يضرب الخيام عند النزول فيها لعدّة أيام.

قال ابو الوليد:

ان النبيصلى الله عليه و آله و سلم بعدما سكن المدينة كان لا يدخل بيوت مكة، وكان اذا طاف بالبيت انطلق الى أعلى مكة فاضطرب به الابنية، قال عطاء: فى حجته فعل ذلك أيضاً، ونزل أعلى مكة قبل التعريف وليلة النفر نزل أعلى الوادى (۱)، ثم يضيف الازرقى: قيل للنبيصلى الله عليه و آله و سلم يوم الفتح: ألا تنزل منزلك بالشعب؟ قال: وهل ترك لنا عقيل منزلًا؟ فقيل لهصلى الله عليه و آله و سلم: فانزل فى بعض بيوت مكة فى غير منزلك، فأبى وقال: لا أدخل البيوت، فلم يزل مضطرباً بالحجون لم يدخل بيتاً وكان يأتى المسجد من الحجون.

ونقل سعيد بن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن جده قال: رأيت رسول اللّهصلى الله عليه و آله و سلم مضطرباً بالحجون فى الفتح يأتى لكلصلوة (۲).

يتضح مما سبق ان شعب أبى طالب كان فى غير موضع مقبرة أبى طالب ولا يعرف متى حصل هذا الخلط وما سببه!!

والمورخ الوحيد الذى احتمل أن يكون موضع شعب ابى طالب فى منطقة الحجون هو الحلبى الذى قال بعد بيانه لموضع ولادة رسول اللّهصلى الله عليه و آله و سلم:

أقول: قد يقال لا مخالفة لانه يجوز أن تكون تلك الدار من شعب بنى هاشم، ثم رأيت التصريح بذلك، ولا ينافيه ما تقدم فى الكلام على الحمل من أن شعب أبى طالب وهو من جملة بنى هاشم كان عند الحجون لأنه يجوز أن يكون أبو طالب انفرد عنهم بذلك الشعب واللّه أعلم (۳).

ولكن لا يوجد هنالك دليل يثبتصحة هذا النقل. وربما يفهم من كلمة «واللّه اعلم» التى أوردها الحلبى أنه لم يكن متأكداً منصحة ما نقله.

وعلى هذا فقد كان المسار الطبيعى للأحداث بالشكل التالى انه حينما تعرّض أبو طالب وبنو هاشم وبنو المطلب للخطر الداهم من العدو التقوا حول أبى طالب لكونه شخصية معروفة ومهاب الجانب، واجتمعوا فى موضع يعرف بشعب أبى طالب وتولوا حراسته دفاعاً عن أنفسهم وعن النبيصلى الله عليه و آله و سلم ولما انتهت المقاطعة، خرج بنو هاشم وبنو المطلب من الشعب وعادوا الى منازلهم ولم يرجعوا الى الشعب مرة أخرى، والنصوص التاريخية تثبت هذا المعنى، إلا انّ البعض لم يلتفت إليها.

الهوامش:

عثمان بن مظعون

۱- ۱ اخبار مكة للازرقى، ۲: ۱۶۱.

۲- ۲ نفس المصدر.

۳- ۳ السيرة الحلبية، ۱: ۶۳.

ص: ۸۴

رجال من الحرمين الشريفين

(۱)

عثمان بن مظعون

فارس تبريزيان الحسّون

إنّ الذى حرّضنى على انتخاب هذا الموضوع والكتابة عنه جهات عديدة، أهمّها شُبهةٌ وُجّهت- ولا تزال توجّه- إلى الشيعة: بأنّهم لا يحترمونصحابة رسول اللّهصلى الله عليه و آله و سلم، ويقعون فيهم سبّاً وطعناً. وهذه الشبهة لا أساس لها من الصحة، فإنّ الشيعة تضع وافر احترامها فيصحابة رسول اللّهصلى الله عليه و آله و سلم وتعظّمهم، وتقتدى بهم، وتجعلهم مناراً تستنير به، أولئك الذين لم يرتدّوا ولم يبدّلوا ولم يبدعوا فى الدين وبقوا على منهج النبيّصلى الله عليه و آله و سلم.

فالشيعة تجرى قواعد الجرح والتعديل على الجميع حتّى الصحابة، فمن كان منهم على دين محمّدصلى الله عليه و آله و سلم ومات وهو على يقينٍ من أمره، ولم يشك فى دينه، فتجعله فى أعلى القمم، وتقتدى به، ومن أبدع وشكّ فى نبيّه ودينه وبدّل وغيّر، فالشيعة وكلّ حرّ جعل العقل إمامه يرفضه وينبذه ولا يقتدى به، لأنه إذا اقتدى به اقتدى ببدعته وضلاله وشكّه.

وأمّا ما روى من أحاديث عن النبيصلى الله عليه و آله و سلم أصحابى كالنجوم بأيّهم اقتديتم اهتديتم، واحفظونى فى أصحابى، ولا تسبّوا أصحابى. و ...

فهى أحاديث ضعيفة السند، غير قابلة للاعتماد عليها، ومع فرضصحّة سندها، فإنّها محمولة على الأصحاب الذين بقوا على الدين، والتزموا بشرائط الصحبة، لا أولئك الذين بدّلوا وغيّروا وأبدعوا ...، وحاشا لرسول اللّهصلى الله عليه و آله و سلم أن يأمر أمّته باتباع مَن أبدع وغيّر، وشكّ فى دينه، لمجرّد أنهصحابى.

والقرآن والحديث شاهدان

ص: ۸۵

على هذا المطلب، وهو ليس كلّصحابى وكلّ من لهصحبهٔ مع الرسولصلى الله عليه و آله و سلم يجب الاقتداء به واحترامه:

قال تعالى: «إنّ الـذين يبايعونك إنّما يُبايعون اللَّه يـدُ اللَّه فوق أيـديهم فمَن نكث فإنّما ينكث على نفسه ومَن أوفى بما عاهد عليهُ اللَّه فسيؤتيه أجراً عظيماً» (۱).

وقال تعالى: «.. ومن أهل المدينهٔ مَردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرّتين ثم يُردون إلى عذاب عظيم» (۲).

وقـال تعـالى: «إذا جـاءك المنافقون قالوا نشـهدُ إنك لرسول اللَّه واللَّهُ يعلم إنك لرسولهُ واللَّه يشـهد إنّ المنافقين لكاذبون* اتخـذوا أيمانهم جُنّهٔ فصدوا عن سبيل اللَّه إنهم ساء ما كانوا يعملون* ذلك بأنهم آمنوا ثمّ كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون» (۳).

إلى غير ذلك من الآيات الكريمهٔ، الدالهٔ على أنّ فى الأصحاب منافقين وغير مؤمنين باللَّه ولا برسوله.

وأما الأحاديث فكثيرهٔ جدّاً، منها:

قولهصلى الله عليه و آله و سلم فى خطبهٔ حجّهٔ الوداع: فلا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض (۴).

وقولهصـلى الله عليه و آله و سـلم: أنـا فرطكم على الحوض، ليرفعن إليّ رجال منكم، حتّى إذا أهويتُ لأناولهم اختلجوا دونى، فأقول: أى ربى أصحابى! يقول: لا تدرى ما أحدثوا بعدك (۵).

وقولهصـلى الله عليه و آله و سـلم: إنّى أيّهـا النـاس فرطكم على الحوض، فإذا جئت قام رجال، فقال هـذا: يا رسول اللَّه أنا فلان، وقال هذا: يا رسول اللَّه أنا فلان، وقال هذا: يا رسول اللَّه أنا فلان، فأقول: قد عرفتكم، ولكنّكم أحدثتم بعدى ورجعتم القهقرى (۶).

وقولهصلى الله عليه و آله و سلم لشهداء أحد:

هؤلاء أشهد عليهم، فقال أبو بكر:

ألسـنا يا رسول اللَّه إخوانهم، أسـلمنا كما أسـلموا وجاهـدنا كما جاهـدوا؟! فقال رسول اللَّهصـلى الله عليه و آله و سـلم: بلى، ولكن لا أدرى ما تحدثون بعدى!!! (۷)

فالشـيعهٔ تقتـدى بالصـحابهٔ الصـلحاء المتّقين، الـذين آمنوا بـاللَّه ورسوله وماتوا وهم على يقين مما هم عليه، كعثمان بن مظعون الـذى عقدنا لأجله هذه الرسالهٔ الوجيزهٔ، حتّى نتعرّف على جوانب من حياته، ونجعلها قدوهٔ نقتدى بها.

فإنّ الشيعهٔ مطبقهٔ على عدالته ووثاقته، وجعله فى أعلى مرتبهٔ الصالحين والمتقين، ومن الذين أبلوا

۱- ۱ الفتح ۴۸: ۱۰.

۲- ۲ التوبهٔ ۹: ۱۰۱.

۳- ۳ المنافقون ۶۳: ۱- ۳.

۴- ۴صحيح البخارى، ۹: ۹۱، كتاب الفتن، وذكر أحاديث كثيرهٔ بهذا المعنى.

۵- ۵صحيح البخارى، ۹: ۸۷، كتاب الفتن، وذكر أحاديث كثيرهٔ بهذا المعنى.

۶- ۶ المستدرك، ۴: ۷۴- ۷۵، وقال بعد ذكره للحديث: هذا حديثصحيح الإسناد ولم يخرجاه.

۷- ۷ الموطّأ، ۲: ۴۶۲، كتاب الجهاد، الحديث ۳۲.

ص: ۸۶

بلاءً حسناً فيصدر الإسلام، وجاهدوا بكلّ ما لديهم من قوّة لأجل إعلاء كلمة الإسلام، حتى قال الشيخ المامقانى: فالرجل فوق مرتبة الوثاقة والعدالة (۱).

وحاولت فى هذه الرسالة أن أعتمد على مصادر الفريقين، ليخرج البحث متكاملًا.

اسمه ونسبه وصفته:

عثمان بن مظعون- بالظاء المعجمة- بن حبيب بن وهب بن حذافة بن جمح بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤى بن غالب، الجُمحى القرشى، ويكنّى أبا السائب (۲).

وكان شديد الأدمة، ليس بالقصير ولا بالطويل، كبير اللحية، عريضها (۳).

وقيل: كان عثمان بن مظعون أخا النبيصلى الله عليه و آله و سلم من الرضاعة (۴).

ولادته:

ولد فى عصر ملؤه الجهل وانحطاط القيم الإنسانيّة، فى عصرٍ كان يسوده الظلم والجور، وعدم مراعاة حقوق الإنسان، لكنه- رضوان اللَّه عليه- لم ينخرط فى سلك أهل عصره، بل جعل عقله قائده وراشده، وسلك فى حياته مسلك العقلاء والحكماء، حتّى قيل:

إنه كان من حكماء العرب فى الجاهلية (۵).

تحريمه الخمر فى الجاهليّة:

وممّا يدلّ على حكمته قبل الإسلام، وسموّ عقله، ما اتفق عليه أصحاب السير والتاريخ من أنه حرّم الخمر على نفسه فى الجاهلية وقال:

لا أشرب شراباً يذهب عقلى، ويضحك بى مَن هو أدنى منّى، ويحملنى على أن أنكح كريمتى، أو:

ويحملنى على أن أُنكح كريمتى مَن لا أريد.

وقيل: إنه لمّا حرّمت الخمر، أتى وهو بالعوالى، فقيل له: يا عثمان قد حرّمت الخمر، فقال: تبّاً لها، قد كان بصرى فيها ثاقباً (۶).

وتنظّر البعض فى ذيل الكلام، وهو: وقيل إنه لمّا حرّمت الخمر أتى وهو بالعوالى ...، وذكروا وجه النظر بأنّ آية التحريم نزلت بعد وفاة عثمان.

وأقول: عند أكثر أهل السنة أن الآية الثالثة فى تحريم الخمر تدلّ على التحريم، والآية الأولى والثانية لا يستفاد منهما التحريم، وعند الشيعة أن الآية الأولى تدل على التحريم، والثانية والثالثة مؤكدتان للحكم، فلعلّ القول بأنه لما حرّمت الخمر قيل لعثمان: يا عثمان قد حرّمت الخمر فقال:

...، ناظر إلى الآية الأولى، واللَّه العالم.

۱- ۱ تنقيح المقال، ۲: ۲۴۹.

۲- ۲ أسد الغابة، ۳: ۵۹۸- الإصابة، ۲: ۴۶۴- الاستيعاب، ۳: ۱۰۵۳- العقد الثمين، ۶: ۴۹- تهذيب الأسماء واللغات، ۱: ۳۲۶- معجم الشعراء: ۲۵۴- المعرفة والتاريخ، ۱: ۲۷۲- التاريخ الكبير، ۶: ۲۱۰- سير أعلام النبلاء، ۱: ۱۵۳- المنتظم، ۳: ۱۹۰.

۳- ۳ سير أعلام النبلاء، ۱: ۱۶۰- الطبقات، ۳: ۴۰۰.

۴- ۴ تنقيح المقال، ۲: ۲۴۹، نقلًا عن المولى الوحيد.

۵- ۵ الأعلام، ۴: ۲۱۴.

۶- ۶ أسد الغابة، ۳: ۵۹۹- العقد الثمين، ۶: ۴۹- تهذيب الأسماء واللغات، ۱: ۳۲۶- سير أعلام النبلاء، ۱: ۱۵۵- الطبقات، ۳: ۳۹۳- ۳۹۴- غربال الزمان: ۱۳- شذرات الذهب، ۱: ۹- الاستيعاب، ۳: ۱۰۵۴- المنتظم، ۳: ۱۹۰.

ص: ۸۷

ومع اتفاق كلّ المصادر على أنّ عثمان بن مظعون حرّم على نفسه الخمر فى الجاهليـة، فقد أخرج ابن المنذر، عن سـعيد ابن جبير قال: لمّا نزلت:

«يسألونـك عن الخمر والميسـر قـل فيهمـا إثم كبير ومنـافع للنـاس ...» شـربها قوم لقوله: «منـافع للناس»، وتركها قوم لقوله: «إثم كبير»، منهم: عثمان بن مظعون ... وهذا افتراءصريح على هذا الصحابى الجليل، فإنه متى شربها حتّى تركها (۱)؟.

وهذا- أيضاً- يدلّ على أنّ أول آيهٔ فى الخمر- وهى:

«يسألونك عن الخمر والميسر ...»- نزلت فى حياهٔ عثمان، وهى دالّهٔ على التحريم فى نظر الشيعهٔ.

التسميهٔ بعثمان:

ولسموّ مرتبهٔ عثمان بن مظعون وقربه من اللَّه- تعالى- ونبيّهصلى الله عليه و آله و سلم، ومكانته العاليهٔ فى قلوب المؤمنين، سمّى الكثير من الأولياء والصلحاء أولادهم ب (عثمان)؛ لشدّهٔ تعلّقهم بعثمان بن مظعون ومحبتهم له وإحياءً لذكراه.

ذكر الثقفى فى تاريخه، عن هبيرهٔ بن مريم، قال: كنّا جلوساً عند على عليه السلام، فدعا ابنه عثمان، فقال له:

يا عثمان، ثمّ قال: إنى لم اسمّه باسم عثمان ...، إنّما سمّيته باسم عثمان بن مظعون (۲).

وفى زيارهٔ الناحيهٔ المقدسهٔ:

السلام على عثمان ابن أمير المؤمنين سمىّ عثمان بن مظعون (۳).

وروى- أيضاً- عن علىّ عليه السلام أنّه قال: إنّما سمّيته باسم أخى عثمان بن مظعون (۴).

اسرته:

أمّه: سُخيلهٔ بنت العنبس بن وهبان- أهبان- بن وهب بن حذافهٔ بن جمح.

وإخوته: عبد اللَّه بن مظعون، توفى سنهٔ ۳۰ ه، وقدامهٔ بن مظعون، مات سنهٔ ۳۶ ه.

وأولاده: السائب، وعبد الرحمن، أمّهما خولهٔ بنت حكيم.

وزوجته: خولهٔ بنت حكيم بن أميهٔ بن حارثهٔ الأوقص السُّلميّهٔ، ويقال لها: خُوَيلَهٔ.

وهى الّتى قالت لرسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم بعد وفاهٔ خديجهٔ: يا رسول اللَّه، ألا تتزوّج؟ قال: مَن؟ قالت:

إن شئت بكراً، وإن شئت ثيباً، قال:

فمن البكر؟ قالت: بنت أبى بكر، قال:

ومَن الثيّب؟ قالت: سودهٔ بنت زمعهٔ،

۱- ۱ راجع: الغدير، ۶: ۲۵۳.

۲- ۲ تقريب المعارف: ۵۲، نقلًا عن تاريخ الثقفى.

۳- ۳ البحار، ۱۰۱: ۲۷۰، نقلًا عن الاقبال ومزار المفيد والسيّد.

۴- ۴ مقاتل الطالبيين: ۵۸- وعنه فى البحار، ۴۵: ۳۸.

ص: ۸۸

قد آمنت بک واتبعتک علی ما تقول ...

قال: فاذهبی فاذکریهما علیّ، فذهبت إلی أبویهما وخطبتهما، فقبلا وتزوّجهما (۱).

وروت خولـة عدّة أحادیث عن رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم (۲)». وذکر أنها إحدی خالات النبیصلی الله علیه و آله و سلم (۳).

إسلامه:

وأسلم عثمان بن مظعون بعد ثلاثة عشر رجلًا، انطلق هو وجماعة حتّی أتوا رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم، فعرض علیهم الإسلام وأنبأهم بشرائعه، فأسلموا جمیعاً، وذلک قبل دخول رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم دار الأرقم وقبل أن یدعو فیها (۴).

وروی أنّ عثمان بن مظعون قال:

نزلت آیة: «إنّ اللّه یأمر بالعدل والإحسان ...» علی النبیّصلی الله علیه و آله و سلم وأنا عنده، وذکر أنّه شاهد رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم علی غیر حالته الطبیعیة، فلمّا سأله: یا رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم ما رأیتک فعلت الّذی فعلت الیوم، ما حالک؟

قال رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم: ولقد رأیتَه؟

فأجابه عثمان: نعم، قال رسول اللّه:

ذاک جبرئیل لم یکن لی همّة غیره، ثم تلا علیه رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم ما أنزل علیه.

قال عثمان: فقمت من عند رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم معجباً بالّذی رأیت، فأتیت أبا طالب وقرأتُ ما أوحی إلی النبیّ، فعجب أبو طالب، وقال: یا آل غالب اتبعوه ترشدوا وتفلحوا، فو اللّه ما یدعو إلّاإلی مکارم الأخلاق ...

وروی أیضاً: أن عثمان قال:

کان أول إسلامی حبّاً من رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم، ثمّ تحقق ذلک الیوم لمّا شاهدت الوحی إلیه، واستقرّ الإیمان فی قلبی (۵).

الآیات النازلة فی عثمان:

۱- «واستعینوا بالصبر والصلاة وإنها لکبیرة إلّاعلی الخاشعین الذین یظنون أنهم ملاقوا ربّهم وأنّهم إلیه راجعون» (۶).

قوله تعالی: «الذین یظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إلیه راجعون» نزلت فی علی علیه السلام وعثمان بن مظعون وعمار بن یاسر وأصحاب لهم رضی اللّه عنهم (۷).

۲- «یا أیّها الذین آمنوا لا تحرّموا طیّبات ما أحل اللّه لکم ...» (۸).

نزلت فی عدّة من الصحابة، منهم: عثمان بن مظعون وعمّار بن یاسر وسلمان، حرّموا علی أنفسهم الشهوات وهمّوا بالإخصاء (۹).

وروی: أنّ علیاً علیه السلام وعثمان بن مظعون ونفراً من أصحاب رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم تعاقدوا أن یصوموا النهار،

۱- ۱ الطبقات، ۳: ۳۹۳ و ۴۰۰- ۴۰۲- الاستیعاب، ۳: ۱۰۵۳- اسد الغابة، ۳: ۵۹۸- المنتقی فی مولود المصطفی للکازرونی: ۶۵- وعنه فی البحار، ۱۹: ۲۳- مسند أحمد، ۶: ۲۱۰- ۲۱۱.

۲- ۲ مسند احمد، ۶: ۴۰۹- ۴۱۰.

۳- ۳ مسند أحمد، ۶: ۴۰۹.

۴- ۴ أسد الغابة، ۳: ۵۹۸- الإصابة، ۲: ۴۶۴- الاستیعاب، ۳: ۱۰۵۳- سیر أعلام النبلاء، ۱: ۱۵۵- الطبقات، ۳: ۳۹۳- تهذیب الأسماء واللغات، ۱: ۳۲۶- العقد الثمین، ۶: ۴۹.

۵- ۵ مسند أحمد، ۱: ۳۱۸- سعد السعود: ۱۲۲- ۱۳۳- وعنه فی البحار، ۱۸: ۲۶۸- ۲۷۰- ونقله فی البحار أیضاً، ۲۲: ۱۱۲ عن قصص الأنبیاء- المنتظم، ۳: ۱۹۰.

۶- ۶ البقرة، ۲: ۴۵- ۴۶.

۷- ۷ تفسیر الحبری: ۲۳۹- شواهد التنزیل: ۱۱۵- المناقب لابن شهر آشوب، ۲: ۹، وقال فیه: رواه الفلکی فی إبانة ما فی التنزیل عن الکلبی عن أبیصالح عن ابن عباس.

۸- ۸ المائدة، ۵: ۸۷.

۹- ۹ شواهد التنزیل: ۲۳۹ و ۲۵۹- تفسیر فرات الکوفی: ۱۳۱- ۱۳۲- تفسیر الحبری: ۲۶۴.

ص: ۸۹

ويقوموا الليل، ولا يأتوا النساء، ولا يأكلوا اللحم، فبلغ ذلك رسول اللّه، فأنزل اللّه تعالى: ... (۱)

وروى عن أبى عبد اللّه عليه السلام:

نزلت فى على عليه السلام وبلال وعثمان بن مظعون، فأمّا على عليه السلام فإنّه حلف أن لا ينام بالليل أبداً إلّاما شاء اللّه، وأمّا بلال فإنه حلف أن لا يفطر بالنهار أبداً، وأمّا عثمان بن مظعون فانه حلف أن لا ينكح أبداً ...

ولمّا أخبر النبيصلى الله عليه و آله و سلم نادى الصلاة جامعة، فاجتمع الناس، فصعد المنبر فحمد اللّه وأثنى عليه ثمّ قال: ما بال أقوام يحرّمون على أنفسهم الطيبات، ألا أنّى أنام بالليل وأنكح وأفطر بالنهار، فمن رغب عن سنّتى فليس منّى، فقام هؤلاء فقالوا:

يا رسول اللّه فقد حلفنا على ذلك، فأنزل اللّه: «لا يؤاخذكم اللّه باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم» (۲). ورويت أحاديث كثيرة بهذا المعنى (۳)، نكتفى منها بهذا المقدار.

۳- «ليس على الّذين آمنوا وعملوا الصالحات جُناح فيما طَعِموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثمّ اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا واللّه يحبّ المحسنين» (۴).

نزلت فى عدّةٍ منهم عثمان بن مظعون، وكان عثمان قد همّ بطلاق زوجته وأن يختصى ويحرم اللحم والطيب، فردّ عليه النبى وانزل فى ذلك: ... (۵).

۴- «وضرَب اللّه مثلًا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شىء وهو كلّ على مولاه أينما يوجّهه لا يأت بخير هل يستوى هو ومَن يأمر بالعدل وهو عليصراط مستقيم» (۶).

قال الشيخ الطبرسى: ... وقيل إنّ الأبكم أبى بن خلف، ومن يأمر بالعدل حمزة وعثمان بن مظعون، عن عطاء (۷).

وصف أمير المؤمنين لعثمان:

قال أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب عليه السلام: كان لى فيما مضى أخ فى اللّه، وكان يُعظمه فى عينيصِ غرُ الدنيا فى عينه، وكان خارجاً من سلطان بطنه، فلا يشتهى ما لا يجد، ولا يكثر إذا وجد، وكان أكثر دهرهصامتاً، فإن قال بدّ القائلين ونقع غليل السائلين، وكان ضعيفاً مستضعفاً،

۱- ۱ شواهد التنزيل: ۲۶۰- كشف الغمة، ۱: ۳۱۹.

۲- ۲ المائدة، ۵: ۸۹- وانظر المناقب لابن شهر آشوب، ۲: ۱۰۰- ۱۰۱- تفسير على بن ابراهيم القمى: ۱۶۶- وعنه فى البحار، ۷۰: ۱۱۶- ۱۱۷- تفسيرمجمع البيان، ۳: ۲۳۶- وعنه فى البحار، ۶۵: ۱۱۳- وراجع البحار أيضاً، ۶۵: ۱۱۲ و ۱۱۳ و ۱۱۴.

۳- ۳ راجع: تفسير البرهان، ۱: ۴۹۴- والدرّ المنثور، ۲: ۳۰۱ و ۳۰۷ و ۳۰۸ و ۳۰۹ و ۳۱۰- وتفسير الطبرى، ۷: ۷ و ۸ و ۹- ومسند أحمد، ۶: ۱۰۶ و ۲۲۶.

۴- ۴ المائدة، ۵: ۹۳.

۵- ۵ الاستيعاب، ۳: ۱۰۵۴- العقد الثمين، ۶: ۴۹.

۶- ۶ النحل، ۱۶: ۷۶.

۷- ۷ مجمع البيان، ۶: ۵۷۸، وعنه فى البحار.

ص: ۹۰

فإن جاءَ الجِدّ فهو ليثُ غابٍ وصِلُّ وادٍ، لا يـدلى بحجّـة حتّى يأتى قاضـياً، وكان لا يلومُ أحداً على ما يجد العذر فى مثله حتّى يسـمع اعتـذارَه، وكـان لاـ يشكو وجعاً إلّاعنـد برئه، وكـان يفعـل مـا يقول ولاـ يقول مـا لاـ يفعل، وكان اذا غلب على الكلام لم يغلب على السـكوت، وكـان على مـا يسـمع أحرص منه على أن يتكلّم، وكـان إذا بـدهه أمران نظر أيّهما أقرب إلى الهوى فخالفه. فعليكم بهـذه الأخلاق فالزموها وتنافسُوا فيها، فإن لم تستطيعوها فاعلموا أنّ أخذ القليل خيرٌ من ترك الكثير (۱).

والمشار إليه ب (كان لى فيما مضى أخ فى اللَّه) عثمان بن مظعون على أحد الأقوال، وقيل: أبوذر، وقيل:

غيرهما (۲).

ويـدلّ على أن المراد بالأـخ هنـا عثمـان بن مظعون ما ورد من وصف أمير المؤمنين لعثمان بالأخ، كقوله عليه السـلام فى وجه تسـمية ولده بعثمان: إنّما سمّيته باسم أخى عثمان بن مظعون (۳).

وكان عثمان بن مظعون من الملازمين لأمير المؤمنين عليه السـلام، حتّى نشاهـد أنّ اكثر الآيات النازلة فى حقّ عثمان هى فى حقّ علىّ عليه السلام وسائر أصحابه.

ولو كـان من المقـدّر أن يبقى عثمـان بعـد وفاة رسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سـلم لكنت تراه يقف موقف سـلمان وأبى ذر وعمار والمقداد فى قِبال الأحداث، و لشاهدته من حوارى أميرالمؤمنين عليه السلام.

تعذيب قريش لعثمان وهجرته وزهده:

وبعد أن أسـلم عثمان (قدّس اللَّه روحه) وأعلن إسـلامه، واجهته قريش بالأذى والسطوة، كما هو ديدنها مع رسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم وأصحابه. وكانت بنو جُمح تؤذى عثمان وتضربه وهو فيهم ذو سطوة وقَدْر (۴).

ولمّا اشـتدّ أذى المشـركين على الذين أسلموا، وفتن منهم من فتن، أذن اللَّه سبحانه لهم بالهجرة الأولى إلى أرض الحبشة، التى كانت متجراً لقريش يجدون فيها رفقاً من الرزق وأماناً. فخرجوا متسـلّلين سرّاً، وأميرهم عثمان بن مظعون، فيسّـر اللَّه لهم ساعة وصولهم إلى الساحل سفينتين للتجار، فحملوهم فيها إلى أرض الحبشة، وخرجت قريش فى أثرهم، ولمّا وصلوا البحر لم يدركوا منهم أحداً.

ومكث عثمان بن مظعون وأصـحابه فى الحبشـة، حتّى بلغهم أنّ قريشاً قـد أسـلمت، فأقبلوا نحو مكة، وما إن اقتربوا منها حتّى عرفوا أنّ قريشاً لم تسلم، وأنها ما زالت على عدائها لرسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم فثقل عليهم

۱- ۱ نهج البلاغة، شرح محمد عبدة، ۴: ۶۹- ۷۰.

۲- ۲ شرح نهج البلاغة لكمال الدين ميثم بن على بن ميثم البحرانى، ۵: ۳۹۰.

۳- ۳ مقاتل الطالبيين: ۵۸- وعنه فى البحار، ۴۵: ۳۸.

۴- ۴ شرح نهج البلاغة، ۱۳: ۲۶۸.

ص: ۹۱

أن يرجعوا، وتخوّفوا أن يـدخلوا مكـة بغير جوار من بعض أهل مكـة، فمشكوا مكانهم حتّى دخل كلّ رجل منهم بجوارٍ من بعض أهل مكة، ودخل عثمان بن مظعون مكة بجوار الوليد بن المغيرة.

ولمّا رأى عثمان ما يلقى رسول اللَّهصـلى الله عليه و آله و سـلم وأصـحابه من الأذى والبلاء، وهو يغدو ويروح بأمان الوليد بن المغيرة، قال: واللَّه، إنّ غدوّى ورواحى آمناً بجوار رجلٍ من أهل الشرك، وأصحابى وأهل دينى يلقون من الأذى والبلاء فى اللَّه ما لا يصيبنى، لنقصٌ كبير فى نفسى.

فمضـى إلى الوليـد بن المغيرة، فقال له: يا أبا عبـد شـمس، وفَت ذمّتك، وقد كنتُ فى جوارك، وقد أحببت أن أخرج منه الى رسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم، فلى به وأصحابه أسوة.

فقال الوليد: فلعلك يا بن أخى أوذيتَ أو انتهكتَ؟

قال عثمان: لا، ولكن أرضى بجوار اللَّه ولا أريد أن استجير بغيره.

قال: فانطلق إلى المسجد فاردد علىّ جوارى علانيةً كما أجرتُك علانيةً.

فانطلقا، حتّى أتيا المسجد.

فقال لهم الوليد: هذا عثمان قد جاء يرد علىّ جوارى، فقال عثمان:

قدصدق، قد وجدته وفياً كريم الجوار، ولكنى أحببت أن لا أستجير بغير اللَّه، فقد رددت عليه جواره (۱).

ومرّ عثمان بن مظعون بمجلسٍ من قريش، ولبيد بن ربيعة بن مالك بن كلاب القيسى ينشدهم: «ألا كلّ شىءٍ ما خلا اللَّه باطل».

فقال عثمان:صدقت.

فقال لبيد: «وكلُّ نعيم لا محالة زائلُ».

فقال عثمان: كذبت، نعيم الجنة لا يزول أبداً.

فقال لبيد: يا معشر قريش، واللَّه ما كان يؤذى جليسكم، فمتى حدث هذا فيكم؟

فقال رجل: إنّ هذا سفيه من سفهائنا قد فارق ديننا، فلا تجدن فى نفسك من قوله.

فردّ عليه عثمان، فقام إليه ذلك الرجل، فلطم عينه فخضرها.

فقال الوليد بن المغيرة لعثمان:

إن كانت عينك لغنية عمّا أصابها، لِمَ رددت جوارى؟

فقال عثمان: بل واللَّه إن عينى الصحيحة لفقيرة لمثل ما أصاب أختها فى اللَّه، لا حاجة لى فى جوارك.

۱- ۱ معجم الشعراء: ۲۵۴- سير أعلام النبلاء، ۱: ۱۵۵- الطبقات، ۳: ۳۹۳- حلية الأولياء، ۱: ۱۰۳- ۱۰۵- الإصابة، ۲: ۴۶۴- أسد الغابة، ۳: ۵۹۸- زاد المعاد، ۳: ۲۳- ۲۶- تفسير مجمع البيان، ۳: ۲۳۳- ۲۳۴ وعنه فى البحار.

ص: ۹۲

وفی بعض المصادر:

فقال الولید: هل لک فی جوارى؟

فقال عثمان: لا أرَبَ لی فی جوار أحدٍ الّا فی جوار اللّه (۱).

ثم قال عثمان بن مظعون فیما أصیب من عینه:

فان تک عینی فی رضا الربّ نالها یدا ملحدٍ فی الدین لیس بمهتد

فقد عوض الرحمن منها ثوابه ومن یرضه الرحمن یا قوم یسعد

فإنّی وإن قلتم غویّ مضلّل سفیه علی دین الرسول محمد

أریـد بـذاک اللّه والحقّ دیننا علی رغم مَن یبغی علینا ویعتدی (۲) وقال أبو طالب رضـی الله عنه- وقد غضب لعثمان بن مظعون حین عذّبته قریش ونالت منه-:

أمَن تذکّر دهرَ غیر مأمون أصبحت مکتئباً تبکی کمحزون

أمَن تذکّر أقوامَ ذوی سفهٍ یغشون بالظلم مَن یدعو إلی الدین

ألا ترون- أذلّ اللّه جمعکم- أنّا غضبنا لعثمان بن مظعونِ ونمنع الضیمَ مَن یبغی مضامتنا بکلّ مطردٍ فی الکفّ مسنونِ

ومرهقات کأنّ الملح خالطها یشفی بها الدّاء من هام المجانین

حتّی تقرّ رجال لا حلوم لها بعد الصعوبة بالإسماح واللین

أو تؤمنوا بکتـاب منزل، عجب علی نـبیّ کموسـی أو کـذی النونِ (۳) وذکر مثل هـذه الأبیات أبو نعیم الاصـفهانی، منسوبـة إلی أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب علیه السلام، قالها فیما أصاب من عین عثمان بن مظعون:

أمن تذکر دهر غیر مأمون أصبحت مکتئباً تبکی کمحزون

أمن تذکر أقوام ذوی سفهٍ یغشون بالظلم مَن یدعو إلی الدین

لا ینتهون عن الفحشاء ما سلموا والغدر فیهم سبیل غیر مأمون

ألا ترون- أقلّ اللّه خیرهم- أنّا غضبنا لعثمان بن مظعونِ

إذ یلطمون ولا یخشون مقلته طعناً دراکاً وضرباً غیر مأفونِ

فسوف یجزیهم إن لم یمت عجلًا کیلًا بکیل جزاءً غیر مغبونِ (۴) واشـتدّ البلاء من قریش علی من قـدم من مهاجری الحبشة وغیرهم، وسـطت بهم عشـائرهم، ولقـوا منهـا تعنیفـاً شدیـداً، وصـعب علیهـا مـا بلغهـا عن النجاشـی من حسن جواره لهم، فـأذن لهم رسول اللّه بالخروج مرّةً ثانیة إلی أرض الحبشة.

وهل خرج معهم عثمان بن مظعون؟

صرّح بهجرته- مرّة ثانیة- إلی

۱- ۱ راجع: خزانـة الأدب، ۲: ۲۵۵- ۲۵۶- الإصابة، ۲: ۴۶۴- غربـال الزمان: ۱۳- شـذرات الذهب، ۱: ۱۰- حلیـة الأولیاء، ۱: ۱۰۳- ۱۰۴- أسد الغابة، ۳: ۵۹۸.

۲- ۲ حلیة الأولیاء، ۱: ۱۰۴.

۳- ۳ شرح نهج البلاغة، ۱۴: ۷۳.

۴- ۴ حلية الأولياء، ۱: ۱۰۴. وذكرت الأبيات مع زيادة فى الديوان المنسوب لأمير المؤمنين عليه السلامصفحة ۲۵۶ من المخطوطة.

ص: ۹۳

أرض الحبشة ابن سعد بالاعتماد على رواية محمد بن إسحاق، ومحمد بن عمر، والنووى (۱).

وفيه نظر، لأن الـذين هاجروا الهجرة الأولى رجعوا إلى مكة قبل الهجرة النبوية، والذين هاجروا الهجرة الثانية رجعوا عام خيبر، أى بعد وفاة عثمان بن مظعون الّذى اشترك فى حرب بدر، وهى قبل خيبر. ولعل منشأ الاشـتباه تصـريح البعض بمهاجرة عثمان الهجرتين (۲)، فحملوه على الأولى والثانية للحبشة، والظاهر أن الأولى إلى الحبشة، والثانية إلى المدينة.

وصـرّح ابن الأـثير الجزرى: أنّ عثمـان بن مظعون هـاجر إلى الحبشـة هو وابنه السائب الهجرةَ الأولى مع جماعـة من المسـلمين، وذكر كيفية رجوعه وما جرى له مع لبيد وقال: ثمّ هاجر عثمان إلى المدينة وشهد بدراً (۳).

وقال البعض: قد ذكر فى هذه الهجرة الثانية جماعة ممّن شـهد بدراً، فإمّا أن يكون هذا وهماً، وإمّا أن يكون لهم قدمة أخرى قبل بدر، فتكون لهم ثلاث قدمات: قدمة قبل الهجرة، وقدمة قبل بدر، وقدمة عام خيبر، ولذلك قال ابن سعد وغيره:

إنهم لمّا سـمعوا هجرة رسول اللّهصـلى الله عليه و آله و سـلم إلى المدينة رجع منهم ثلاثة وثلاثون رجلًا ومن النساء ثمان نسوة، فمات منهم رجلان بمكة، وحبس بمكة سبعة، وشهد بدراً منهم أربعة وعشرون رجلًا (۴).

وعلى أىّ حال، فهجرة عثمان بن مظعون من مكـة إلى المدينـة أمرٌ مقطوع به، فقـد هاجر هو وأخواه قدامة وعبد اللّه وابنه السائب إلى المدينة، ونزلوا على عبد اللّه بن سلمة العجلانى، وقيل: على خذام بن وديعة (۵).

قال الواقدى: آل مظعون ممن أوعب فى الخروج إلى الهجرة رجالهم ونساؤهم، وغلقت بيوتهم بمكة (۶).

وروى عن أمّ العلاء، قالت:

نزل رسول اللّهصـلى الله عليه و آله و سـلم والمهـاجرون معه المدينـة فى الهجرة، فتشاحت الأنصار فيهم أن ينزلوهم فى منازلهم، حتّى اقترعوا عليهم، فطار لنا عثمان بن مظعون على القرعة، تعنى: وقع فى سهمنا (۷).

وأما زهـده وقناعته بالشـىء القليل وتركه الدنيا فيدل عليه: ما روى من أنّه دخل يوماً المسـجد، وعليه نمرة قد تخلّلت فرقّعها بقطعة من فروة، فرقّ له رسول اللّهصلى الله عليه و آله و سلم، ورقّ أصحابه لرقته، فقال: كيف أنتم

۱- ۱ الطبقات، ۳: ۳۹۳- تهذيب الأسماء واللغات، ۱: ۳۳۶.

۲- ۲ سير أعلام النبلاء، ۱: ۱۵۵.

۳- ۳ أسد الغابة، ۳: ۵۹۸.

۴- ۴ زاد المعاد، ۳: ۲۵- ۲۶.

۵- ۵ سير أعلام النبلاء، ۱: ۱۵۸- تهذيب الأسماء واللغات، ۱: ۳۲۶- الطبقات، ۳: ۳۹۵- ۳۹۶.

۶- ۶ سير أعلام النبلاء، ۱: ۱۵۸- الطبقات، ۳: ۳۹۵- ۳۹۶.

۷- ۷ الطبقات، ۳: ۳۹۶-صحيح البخارى، ۲: ۷۱.

ص: ۹۴

یغدو أحدکم فی حلّة ویروح فی أخری، وتوضع بین یدیه قصعة وترفع أخری، وسترتم البیوت کما تستر الکعبة؟ قالوا: وددنا أنّ ذلک قد کان یا رسول اللّه فأصبنا الرخاء والعیش، قال: فإنّ ذلک لکائن، وأنتم الیوم خیر من اولئک (۱).

مؤاخاته واشتراکه فی بدر:

آخی رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم بین عثمان بن مظعون وبین أبی الهیثم بن التّیهان الأنصاری (۲).

وشهد عثمان بن مظعون بدراً باتفاق المؤرخین (۳). وأُسّر حنظلة بن قبیصة بن حذافة علی ید عثمان بن مظعون (۴). وقُتل أوس بن المغیرة بن لوذان علی ید علیّ علیه السلام وعثمان بن مظعون (۵).

عثمان والروایة:

کان عثمان بن مظعون من الأوائل الّذین أسلموا، ومن الأوائل الّذین لبّوا نداء ربّهم، وتوفی فی حیاة رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم فی بادئ الإسلام، ونال درجة عالیة بعد وفاته بصلاة رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم علیه، ولم یروِ عن رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم إلّاقلیلًا، وذلک لعدم درکه من زمان الإسلام إلّا أوائله.

فیروی عثمان بن مظعون عن رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم (۶)، ورواياته عن رسول اللّه قلیلة جدّاً.

ویروی عن عثمان بن مظعون:

عبد اللّه بن جابر (۷)، وسعد بن مسعود الکنانی (الکندی) (۸).

عبادته واجتهاده واعتزاله النساء وحیاؤه:

کان عثمان- رضوان اللّه علیه- من أشدّ الناس اجتهاداً فی العبادة، یصوم النهار ویقوم اللیل. ووصل به الحدّ فی العبادة أنه ترک وتجنّب الشهوات بالمرة، واعتزل النساء (۹). حتّی روی: أنّ زوجته دخلت علی نساء النبیصلی الله علیه و آله و سلم فرأینها سیئة الهیئة، فقلن لها: ما لکِ؟ فما فی قریش أغنی من بعلک! قالت: ما لنا منه شیء، أمّا لیله فقائم، وأمّا نهاره فصائم. فدخل النبیُّصلی الله علیه و آله و سلم، فذکرن ذلک له، فلقیه النبیّصلی الله علیه و آله و سلم، فقال: أما لک بی أسوة؟

قال: بأبی وأمّی وما ذاک؟ قال:

تصوم النهار وتقوم اللیل؟ قال: إنّی لأفعل، قال: لا- تفعل، إنّ لعینیک علیک حقّاً، وإنّ لجسدک حقّاً، وإنّ لأهلک حقّاً، فصلِّ ونمْ وصم وافطر.

وفی روایة أخری: یا عثمان لم یرسلنی اللّه بالرهبانیة، ولکن بعثنی بالحنیفیة السهلة السمحة، أصوم وأصلی وألمس أهلی، فمن أحبّ

۱- ۱ حلیة الأولیاء، ۱: ۱۰۵.

۲- ۲ الطبقات، ۳: ۳۹۶- تهذیب الأسماء واللغات، ۱: ۳۲۶.

۳- ۳ أسد الغابة، ۳: ۵۹۸- تهذیب الأسماء واللغات، ۱: ۳۲۶- الطبقات، ۳: ۳۹۶- التاریخ الصغیر، ۱: ۴۶- المنتظم، ۳: ۱۹۰- ومصادر أخری کثیرة جدّاً.

۴- ۴ شرح نهج البلاغة، ۱۴: ۲۰۴.

۵- ۵ شرح نهج البلاغة، ۱۴: ۲۱۲.

۶- ۶ ربیع الأبرار، ۲: ۲۶۵- تهذیب الأحکام، ۴: ۱۹۰، الحدیث ۵۴۱.

۷- ۷ تهذيب الأحكام، ۴: ۱۹۰، الحديث ۵۴۱.

۸- ۸ تهذيب الأحكام، ۶: ۱۲۲، الحديث ۲۱۰.

۹- ۹ الاستيعاب، ۳: ۱۰۵۴- تهذيب الأسماء واللغات، ۱: ۳۲۶- أسد الغابة، ۳: ۵۹۹- العقد الثمين، ۶: ۴۹- المنتظم، ۳: ۱۹۰.

ص: ۹۵

فطرتی فلیستن بسنّتی، ومن سنّتی النکاح.

وفی روایهٔ أخری قال النبیّصلی الله علیه و آله و سلم: إنّی آتی النساء وأفطر بالنهار وأنام اللیل، فمن رغب عن سنّتی فلیس منی، وأنزل اللّه- تعالی-: «یا أیّها الذین آمنوا لا تحرّموا طیّبات ما أحلّ اللّه لکم ولا تعتدوا إنّ اللّه لا یحبّ المعتدین وکلوا مما رزقکم اللّه حلالًا طیّباً واتقوا اللّه الذی أنتم به مؤمنون» (۱).

فأتتهن زوجهٔ عثمان بعد ذلک عطرهً کأنّها عروس، فقلن لها: مه؟

قالت: أصابنا ما أصاب الناس (۲).

وروی: أنّ عثمان قال: یا رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم! لا أحبّ أن تری امرأتی عورتی، قال: ولِمَ؟ قال:

استحیی من ذلک، قال: إنّ اللّه قد جعلها لک لباساً، وجعلک لباساً لها ...، فلمّا أدبر قال رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم: إنّ ابن مظعون لحییّ ستیر (۳).

الرهبانیهٔ والسیاحهٔ والتبتّل:

خلق اللّه- سبحانه وتعالی- الإنسان لیکون نواهٔصالحهٔ، وکائناً عاملًا فی کلّ نواحی الحیاهٔ الإنسانیهٔ، ولیس من حکمهٔ خلق اللّه للإنسان أن یترهّب ویعتزل المجتمع، ویعیش لوحده یعبد ربّه.

وفی بادئ الإسلام کانت فکرهٔ الرهبانیهٔ، وترک المجتمع والملذّات الدنیویهٔ، تدور فی خُلد بعض المتدیّنین، وذلک لشدّهٔ تدیّنهم وحرصهم علی العبادهٔ وترک الدنیا.

ومن الأوائل الذین فکّروا بالرهبانیهٔ والسیاحهٔ عثمان بن مظعون- رضوان اللّه علیه- فإنّه أول ما أقدم علیه من عمل هو: أنه کان یقوم اللیل ویصوم النهار، وترک زوجته بالمرّهٔ، وبعدها استأذن رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم فی الرهبانیهٔ والسیاحهٔ والتبتّل وطلاق زوجته والخصاء، فنهاه عن ذلک وردّه علیه (۴).

فعن ابن شهاب: أنّ عثمان بن مظعون أراد أن یختصی ویسیح فی الأرض، فقال له رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم:

أَلیس لک فیّ أسوهٔ حسنهٔ؟ فأنا آتی النساء وآکل اللحم وأصوم وأفطر، إنّ خصاء أمّتی الصیام، ولیس من أمّتی من خصی أو اختصی (۵).

وروی أیضاً عن عثمان أنه قال:

قلت لرسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم: یا رسول اللّه! أردت أن أسألک عن أشیاء، فقال:

وما هی یا عثمان؟ قال: قلت: إنّی أردتُ أن أترهب، قال: لا تفعل یا عثمان، فانّ ترهّب أمّتی القعود فی

۱- ۱ المائدهٔ: ۸۷- ۸۸.

۲- ۲ الطبقات، ۳: ۳۹۴- ۳۹۵- سیر أعلام النبلاء، ۱: ۱۵۷- ۱۵۸- حلیهٔ الأولیاء، ۱: ۱۰۶- تهذیب الأسماء واللغات، ۱: ۳۲۶- مسند أحمد، ۶: ۱۰۶ و ۲۲۶- سنن الدارمی، ۲: ۱۷۹، الحدیث ۲۱۶۹- تفسیر علی بن إبراهیم القمی: ۱۶۶- وعنه فی البحار، ۷۰: ۱۱۶- ۱۱۷- الکافی للکلینی، ۲: ۵۶ و ۵۷- وعنه فی البحار، ۲۲: ۲۶۴- تنقیح المقال، ۲: ۲۴۹.

۳- ۳ الطبقات، ۳: ۳۹۴- سیر أعلام النبلاء، ۱: ۱۵۷- تهذیب الأسماء واللغات، ۱: ۳۲۶- بحار الأنوار، ۹۳: ۷۳.

۴- ۴ أسد الغابهٔ، ۳: ۵۹۹- الاستیعاب، ۳: ۱۵۴- سیر أعلام النبلاء، ۱: ۱۵۵- الاصابهٔ، ۲: ۴۶۴- الطبقات، ۳: ۳۹۴- مسند أحمد، ۱:

۱۷۵ و ۱۷۶ و ۱۸۳-صحیح البخاری، ۶: ۱۱۸ و ۱۱۹- سنن ابن ماجة، ۱: ۵۹۳، الحدیث ۱۸۴۸-صحیح مسلم، ۹: ۱۷۶- ۱۷۷- سنن الترمذی، ۳: ۳۹۴، الحدیث ۱۰۸۳- سنن النسائی، ۶: ۵۸- سنن الدارمی، ۲: ۱۷۸، الحدیث ۲۱۶۷.

۵- ۵ الطبقات، ۳: ۳۹۴- سیر اعلام النبلاء، ۱: ۱۵۷.

ص: ۹۶

المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة.

قال: فإنى أردت يا رسول اللَّه! أن أختصى، قالصلى الله عليه و آله و سلم: لا تفعل يا عثمان، فإنّ اختصاء أمّتى الصيام (۱).

وروى أيضاً أنه قال لرسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم: إنّ نفسى تحدّثنى بالسياحة وأن ألحق الجبال، قال: يا عثمان لا تفعل، فإنّ سياحة أمّتى الغزو والجهاد (۲)

وروى: أنّه اتخذ بيتاً يتعبّد فيه، فأتاه النبيصلى الله عليه و آله و سلم، فأخذ بعضادتى البيت وقال: يا عثمان، إنّ اللَّه لم يبعثنى بالرهبانية- مرّتين أو ثلاثاً-، وإن خير الدين عند اللَّه الحنيفية السمحة (۳).

وروى عنه- أيضاً- أنّه قال:

يا رسول اللَّه! إنى رجل تشقّ علىّ العزبة فى المغازى، أفتأذن لى فى الخصاء؟ قال: لا، ولكن عليك بالصوم، فانه مَجْفَر (محصن) (۴).

وروى عنه- أيضاً-: أنه همّ بطلاق زوجته، وأن يختصى ويحرم اللحم والطيب، فردّ عليه النبيصلى الله عليه و آله و سلم، وانزل فى ذلك: «ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثمّ اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا واللَّه يحبّ المحسنين» (۵).

وروى أيضاً: أنه توفى ابن لعثمان بن مظعون، فاشتدّ حزنه عليه، حتّى اتخذ داره مسجداً يتعبّد فيه، فبلغ ذلك رسول اللَّه، فأتاه، فقال له: يا عثمان، إنّ اللَّه تبارك وتعالى لم يكتب علينا الرهبانيّة، إنّما رهبانية أمتى الجهاد فى سبيل اللَّه، يا عثمان بن مظعون! للجنة ثمانية أبواب، وللنار سبعة أبواب، فما يسرّك أن لا تأتى باباً منها إلّاوجدت ابنك إلى جنبك آخذاً بحجزتك يشفع لك الى ربك، قال: بلى ... (۶) شعره:

ولم يكن عثمان من الشعراء المعروفين، لكنه كان قادراً على نظم الشعر، والذى وصل إلينا شيء منه.

وقد مرّت منه عدّة أبيات فى فصل تعذيب قريش لعثمان وهجرته.

فمن شعره حينما هاجر إلى أرض الحبشة، وبلغه أنّ أمية ابن خلف شتمه، فقال:

أتيم بن عمرو الّذى فار ضغنه ومن دونه الشرمان والترك أجمع

أأخرجتنى من بطن مكّةَ آمناً وألحقتنى منصرح بيضاء تقدع؟

تريش نبالًا لا يؤاتيك ريشُها وتبرى نبالًا ريشها لك أجمع

فكيف إذا نابتك يوماً ملمةٌ وأسلمك الأوباش ما كنت تجمع؟ (۷)

۱- ۱ تهذيب الأحكام، ۴: ۱۹۰- ۱۹۱، الحديث ۵۴۱، وروى المقطع الأول فى مشكاة الأنوار: ۲۶۲- وعنه فى البحار، ۸۳: ۳۸۲.

۲- ۲ تهذيب الأحكام، ۶: ۱۲۲، حديث ۲۱۰.

۳- ۳ سير أعلام النبلاء، ۱: ۱۵۸- الطبقات، ۳: ۳۹۵.

۴- ۴ شرح نهج البلاغة، ۱۹: ۱۳۲- التاريخ الكبير، ۶: ۲۱۰- الاستيعاب، ۳: ۱۰۵۵- الطبقات، ۳: ۳۹۵- المعرفة والتاريخ، ۱: ۲۷۲- ۲۷۳.

۵- ۵ المائدة: ۹۳- وانظر الاستيعاب، ۳: ۱۰۵۴- العقد الثمين، ۶: ۴۹.

۶- ۶ أمالى الصدوق: ۴۰- وعنه فى البحار، ۸: ۱۷۰.

۷- ۷ معجم الشعراء: ۲۵۴- ربيع الأبرار، ۲: ۸۶۰.

ص: ۹۷

وفاته:

نصّ كثير من المؤرّخين: على أنّ عثمان بن مظعون أول من مات بالمدينة من المهاجرين (۱).

وأمّا تاريخ وفاته، فإنّه كان بعد أن شهد بدراً، وفي تحديد تاريخ وفاته عدّة أقوال:

(أ) في شعبان بعد سنتين ونصف من الهجرة (۲).

(ب) في السنة الثانية من الهجرة (۳).

(ج) بعد اثنين وعشرين شهراً من مقدم رسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم إلى المدينة (۴)، وهذا يدلّ على أنه توفي في أواخر سنة اثنتين.

(د) بعد مقدم رسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم إلى المدينة بستة أشهر (۵)، وهذا إنما يكون بعد مقدمه من غزوة بدر، لأنه لم يختلف أحد في أنه شهدها.

وذكرت أم العلاء أنّ عثمان بن مظعون اشتكى عندهم، وقالت:

مرّضناه، فلمّا توفي جعلناه في أثوابه.

فدخل عليه رسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم، فأكب عليه يقبّله ويقول: رحمك اللَّه يا عثمان، ما أصبت من الدنيا ولا أصابت منك شيئاً.

وحديث تقبيل رسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم لعثمان وهوميّت نقله الكل وبصور مختلفة، فبعض ذكر أنه قبله- بعد الغسل والتكفين- بين عينيه، والآخر ذكر أنه قبّله على خدّه. وبكى رسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم على عثمان بن مظعون طويلًا، ودموعه تسيل على خدّ عثمان بن مظعون (۶).

وأمّا ما روى من أنه لما مات عثمان دخل عليه النبيّصلى الله عليه و آله و سلم فأكبّ عليه، فرفع رأسه، فرأوا أثر البكاء، ثم جثا الثانية، ثمّ رفع رأسه، فرأوه يبكي، ثمّ جثا الثالثة، فرفع رأسه وله شهيق، فعرفوا أنّه يبكي، فبكى القوم، فقال: مه هذا من الشيطان، ثمّ قال:

أستغفر اللَّه، أبا السائب لقد خرجت منها ولم تلبّس منها بشيء (۷).

فغيرصحيح، لأنه فيه جعل البكاء من الشيطان، مع أنّه ثبت من طريق الفريقين أنّ النبيصلى الله عليه و آله و سلم بكى على ابنه ابراهيم، وفاضت عيناه على بنت بنته، وأنه بكى على عثمان بن مظعون كما ذكرنا قبل قليل وذكرنا مصادره.

ويؤيّده أيضاً ما روى عن ابن عباس: لمّا ماتت ابنة لرسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم، قال رسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم:

ألحقي بسلفنا الخيّر عثمان بن مظعون، فبكت النساء، فجعل عمر بن الخطاب يضربهنَّ بسوطه، فأخذ

۱- ۱ الإصابة، ۲: ۲۶۴- أسد الغابة، ۳: ۵۹۹- تهذيب الأسماء واللغات، ۱: ۳۲۶- الاستيعاب، ۳: ۱۰۵۳- غربال الزمان: ۳.

۲- ۲ تهذيب الأسماء واللغات، ۱: ۳۲۶- الاستيعاب، ۳: ۱۰۵۴ وفيه على رأس ثلاثين شهراً من الهجرة- العقد الثمين، ۶: ۴۹- الطبقات، ۳: ۳۹۶- سير أعلام النبلاء، ۱: ۱۵۹.

۳- ۳ الإصابة، ۲: ۴۶۴- أسد الغابة، ۳: ۵۹۹- الاستيعاب، ۳: ۱۰۵۴- غربال الزمان: ۳- العبر، ۱: ۱۴- المنتظم، ۳: ۱۹۱.

۴- ۴ الاستيعاب، ۳: ۱۰۵۴- العقد الثمين، ۶: ۴۹.

۵- ۵ الاستيعاب، ۳: ۱۰۵۴.

۶- ۶ الکافی، ۳: ۱۶۱، الحدیث ۶- حلیة الأولیاء، ۱: ۱۰۵- ۱۰۶- الاستیعاب، ۳: ۱۰۵۳- من لا یحضره الفقیه، ۱: ۹۸، الحدیث ۴۵۳- زاد المعاد، ۱: ۱۸۳ و ۵۰۲- غربال الزمان: ۳- مجمع الزوائد، ۹: ۳۰۲- ربیع الأبرار، ۴: ۱۸۷- أسد الغابة، ۳: ۶۰۰- مسند أحمد، ۶: ۴۳ و ۵۵- ۵۶ و ۲۰۶- الطبقات، ۳: ۱۹۰- المنتظم، ۳: ۱۹۱- سنن ابن ماجة، ۱: ۴۶۸، الحدیث ۱۴۵۶- سنن الترمذی، ۳: ۳۱۴، الحدیث ۹۸۹- سنن ابی داوُد، ۳: ۲۰۱، الحدیث ۳۱۶۳- تنقیح المقال، ۲: ۲۴۹.

۷- ۷ مجمع الزوائد، ۹: ۳۰۲- سیر أعلام النبلاء، ۱: ۱۵۶- الاستیعاب، ۳: ۱۰۵۵- حلیة الأولیاء، ۱: ۱۰۵.

ص: ۹۸

رسول اللَّه بيدهصلى الله عليه و آله و سلم وقال: مهلًا يا عمر، ثم قال رسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم:

ابكين، وإيّاكنّ ونعيق الشيطان، ثم قال رسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم: إنّه مهما كان من العين والقلب فمن اللَّه ومن الرحمة، وما كان من اليد واللسان فمن الشيطان (۱).

ومع ما كان عليه عثمان بن مظعون من عظيم الدرجة والسبق إلى الإيمان، فقد سمع رسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم امرأة تقول:

هنيئاً لك أبا السائب الجنة، أو:

أذهب عنك أبا السائب! شهادتى عليك لقد أكرمك اللَّه، أو طِبْ أبا السائب! نفساً إنّك فى الجنة.

فقال لها رسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم:

وما يدريك، أو ما علمك بذلك؟

فقالت: يا رسول اللَّه! أبو السائب، أو كان يا رسول اللَّه! يصوم النهار ويصلّى الليل، أو فارسك وصاحبك، أو: لا أدرى بأبى أنت وأمى يا رسول اللَّه، فمن.

فقال رسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم: واللَّه ما نعلم إلّاخيراً ثم قال: حسبك أن تقولى: كان يحب اللَّه- عزّ وجلّ- ورسوله، أو أجل ما رأينا إلّاخيراً أنا رسول اللَّه واللَّه ما أدرى ما يصنع بى، أو أمّا هو فقد جاءه اليقين. واللَّه، إنى لأرجو الخير، وإنى لرسول اللَّه، وما أدرى ما يفعل بى (۲).

واختلفت المصادر فى ذكر اسم المرأة التى قالت هذا القول لرسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم، فبعضها ذكرت أنها زوجته أم السائب، وفى بعضها أنها أم العلاء الأنصارية، وفى بعضها أنها أم خارجة بن زيد، وفى بعضها أنها عجوز.

وكذلك اختلفت المصادر فى كيفية وقوعها، ففى بعضها أنها قالت هذا القول وراء جنازته، وفى بعضها أنها قالت هذا القول لمّا وضع فى قبره، وفى بعضها لمّا قبر، وفى بعضها غير هذا.

وعلى كلّ حال فإن ما قاله رسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم لم يكن نقصاً فى درجة عثمان بن مظعون، أو تشكيكاً فيه، لأنه قرنه بنفسه، ووصفه بصفات المتقين، ولكن كان قولهصلى الله عليه و آله و سلم تعليماً لنا، بأنّ الإنسان مهما كثرت عبادته واتقى لابدّ من أن يبقى بين الخوف والرجاء، ولا يجزم بأنه من أهل الجنة ومن عباد اللَّه المقرّبين، ويدلّ على كراهية جزم الإنسان بأنه من أهل الجنة.

وروى عن رسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم أنه قال: لمّا مُرّ بجنازة عثمان بن مظعون:

ذهبت ولم تلبّس منها بشىء (۳).

وروى أنه لمّا رفع عثمان على السرير قال النبيّصلى الله عليه و آله و سلم: طوباك (طوبى لك) يا عثمان، لم تلبسك الدنيا ولم تلبسها (۴).

۱- ۱ سير أعلام النبلاء، ۱: ۱۵۶- ۱۵۷- الطبقات، ۳: ۳۹۸- ۳۹۹- مجمع الزوائد، ۳: ۱۷- الاستيعاب، ۳: ۱۰۵۵- ۱۰۵۶- مسند أحمد، ۱: ۲۳۷- الطبقات، ۳: ۱۹۰- مسند أبى داود الطيالسى: ۳۵۱.

۲- ۲ سير أعلام النبلاء، ۱: ۱۵۶- ۱۵۷ و ۱۵۹- ۱۶۰- الطبقات، ۳: ۳۹۸- ۳۹۹- مجمع الزوائد، ۳: ۱۷ و ۹: ۳۰۲- الاستيعاب، ۳: ۱۰۵۵- ۱۰۵۶- التاريخ الصغير، ۱: ۴۶- ۴۷- حلية الأولياء، ۱: ۱۰۴ و ۱۰۶- تهذيب الأسماء واللغات، ۱: ۳۲۶- أسد الغابة، ۳: ۶۰۰- الطبقات، ۳: ۳۹۹- الكافى، ۳: ۲۶۲، حديث ۴۵- مسند أحمد، ۱: ۲۳۷ و ۶: ۴۳۶- الطبقات، ۳: ۱۹۰- مسند أبى داوُد الطيالسى: ۳۵۱-

صحيح البخارى، ۲: ۷۱ و ۳: ۱۶۴.

۳- ۳ الموطّأ، ۱: ۲۴۲- الطبقات، ۳: ۳۹۶.

۴- ۴ المنتظم، ۳: ۱۹۱- ربيع الأبرار، ۴: ۱۸۷- كنز العمال، ۱۳: ۵۲۵.

ص: ۹۹

وتحدّث أم العلاء: بأنها رأت فی المنام لعثمان عیناً تجری، فأخبرت رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم، فقال: ذلک عمله (۱).

وحظی عثمان بن مظعون بصلاة رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم علیه (۲)، وبمشارکته فی تشییعه ودفنه، فقد کانصلی الله علیه و آله و سلم قائماً علی شفیر القبر الذی نزل فیه کلّ من عبد اللّه بن مظعون، والسائب بن عثمان بن مظعون، ومعمر بن الحارث.

ولمّا انتهی الدفن، قال النبیصلی الله علیه و آله و سلم لرجل: هلمّ تلک الصخرة فاجعلها عند قبر أخی أعرفه بها، أدفن إلیه مَن دفنت من أهلی (أهله)، فقام الرجل فلم یطقها، فاحتملها رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم حتّی شوهد بیاض ساعدیه، ووضعها عند قبره، وقال:

هذا قبر فرطنا، وکان الحجر بمثابة العلامة.

وکان رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم یزور قبر عثمان بن مظعون (۳).

واتفق أصحاب السیر والتاریخ أنّ أول من دفن بالبقیع عثمان بن مظعون، إلّانادراً ممّن ذکر أنّ أسعد بن زرارة أول من دفن بالبقیع.

ولم یکن البقیع قبل دفن عثمان مقبرة، وکان یقال له: بقیع الخبخبة، وکان أکثر نباته الغرقد (۴).

وروی أنهصلی الله علیه و آله و سلم أمر أن یبسط علی قبر عثمان بن مظعون ثوب، وهو أول قبر بسط علیه ثوب (۵).

وروی أیضاً أنهصلی الله علیه و آله و سلم رشّ قبر عثمان بن مظعون بالماء بعد أن سوّی علیه التراب (۶).

وقیل: إنّ أول مَن تبعه إبراهیم ابن النبیّصلی الله علیه و آله و سلم، فلمّا توفی قال رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم: الحق بسلفنا (بسلفک) الصالح عثمان بن مظعون، ودفن ابراهیم إلی جنب عثمان (۷).

ولمّا ماتت ابنة لرسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم قال رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم: الحقی بسلفنا الخیّر (الصالح) عثمان بن مظعون وأصحابه (۸).

وکان إذا مات میّت قال النبیصلی الله علیه و آله و سلم: قدموه علی فرطنا، نعم الفرط لأمّتی عثمان بن مظعون، فیدفن عند عثمان بن مظعون (۹).

ولمّا توفی عثمان بن مظعون قالت زوجته:

یا عین جودی بدمعٍ غیر ممنونِ علی رزیّة عثمان بن مظعونِ

علی امریءٍ بات فی رضوان خالقه طوبی له من فقید الشخص مدفونِ

طاب البقیعُ له سکنی وغرقده وأشرقت أرضُه من بعد تفتینِ

۱- ۱ أسد الغابة، ۳: ۶۰۱- سیر أعلام النبلاء، ۱: ۱۵۹- ۱۶۰- التاریخ الصغیر، ۱: ۴۶- ۴۷- حلیة الأولیاء، ۱: ۱۰۴- تهذیب الأسماء واللغات، ۱: ۳۲۶-صحیح البخاری، ۳: ۱۶۴ و ۸: ۷۴.

۲- ۲ تهذیب الأسماء واللغات، ۱: ۳۲۶- الطبقات، ۳: ۳۹۶- ۳۹۷ وفیه أنه کبر علیه أربع تکبیرات- سنن ابن ماجة، ۱: ۴۸۱، حدیث ۱۵۰۲ وفیه أیضاً أنه کبر علیه أربع تکبیرات، ومصادر أخری کثیرة جدّاً.

۳- ۳ الطبقات، ۳: ۳۹۹- ۴۰۰- سیر أعلام النبلاء، ۱: ۱۵۴ و ۱۵۵- العقد الثمین، ۶: ۴۹- تهذیب الأسماء واللغات، ۱: ۳۲۶- الاستیعاب، ۳: ۱۰۵۴- غربال الزمان: ۳- أسد الغابة، ۳: ۶۰۰- الطبقات، ۳: ۱۹۰- دعائم الاسلام، ۱: ۲۳۸- سنن ابن ماجة، ۱: ۴۹۸، الحدیث ۱۵۶۱- سنن الدارمی، ۳: ۲۱۲، الحدیث ۳۲۰۶.

۴- ۴ الإصابة، ۲: ۴۶۴- أسد الغابة، ۳: ۵۹۹- سیر أعلام النبلاء، ۱: ۱۵۴ و ۱۵۵- معجم الشعراء: ۲۵۴- العقد الثمین، ۶: ۴۹- تهذیب

الأسماء واللغات، ۱: ۳۲۶- الاستیعاب، ۳: ۱۰۵۴- ۱۰۵۵- الطبقات، ۳: ۳۹۷- المستدرک، ۳: ۱۹۰- المنتقی فی مولود المصطفی، الفصل الخامس- وعنه فی البحار، ۱۹: ۱۳۲- المنتظم، ۳: ۱۹۱.

۵- ۵ دعائم الاسلام، ۱: ۲۳۸- وعنه فی البحار، ۸۲: ۲۱.

۶- ۶ دعائم الاسلام، ۱: ۲۳۹- وعنه فی البحار، ۸۲: ۲۲.

۷- ۷ الاستیعاب، ۳: ۱۰۵۳- أسد الغابة، ۳: ۶۰۰- مجمع الزوائد، ۹: ۳۰۲- الإصابة، ۲: ۴۶۴- شذرات الذهب، ۱: ۹- الکافی، ۳: ۲۶۳، الحدیث ۴۵- مسند أحمد، ۱: ۲۳۷- تنقیح المقال، ۲: ۲۴۹ وفیه: ألحقک اللّه بخلفک الصالح عثمان بن مظعون.

۸- ۸ أسد الغابة، ۳: ۶۰۰- الاستیعاب، ۳: ۱۰۵۳- مجمع الزوائد، ۹: ۳۰۲- سیر أعلام النبلاء، ۱: ۱۵۶- ۱۵۷ و ۱۶۰- تهذیب الأسماء واللغات، ۱: ۳۲۶- الکافی، ۳: ۲۴۱، الحدیث ۱۸- الطبقات، ۳: ۱۹۰- تنقیح المقال، ۲: ۲۴۹.

۹- ۹ مجمع الزوائد، ۹: ۳۰۲- الطبقات، ۳: ۳۹۷- المستدرک، ۳: ۱۹۰.

ص: ۱۰۰

وأورث القلبَ حزناً لا انقطاع له حتّى الممات فما ترقى له شونِی (۱) المراجع:

۱- القرآن الكريم.

۲- الاستيعاب فی معرفة الأصحاب، ليوسف بن عبد اللَّه بن محمّد بن عبد البرّ، نشر مكتبة نهضة مصر ومطبعتها.

۳- أسد الغابة فی معرفة الصحابة، لابن الأثير علی بن محمد الجرزی.

۴- الإصابة فی تمييز الصحابة، لأحمد بن علی بن حجر العسقلانی، دارصادر، بيروت.

۵- الأعلام، لخير الدين الزركلی، دار العلم للملايين، بيروت ۱۹۸۹ م.

۶- أعلام الغدير، مراجعة وتنسيق فاضل الميلانی، دار الكتاب العربی، بيروت.

۷- بحار الأنوار، للعلامة المجلسی، دار الكتب الإسلامية، طهران.

۸- التاريخ الصغير، لأبی عبد اللَّه محمد بن إسماعيل البخاری، دار المعرفة، بيروت ۱۴۰۶ ه.

۹- التاريخ الكبير، لإسماعيل بن إبراهيم البخاری، دار الكتب العلمية، بيروت.

۱۰- تفسير الحبری، للحسين بن الحكم بن مسلم الحبری، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، بيروت.

۱۱- تفسير فرات الكوفی، لأبی القاسم فرات بن إبراهيم بن فرات الكوفی، وزارة الإرشاد، طهران.

۱۲- تقريب المعارف، للشيخ أبی الصلاح الحلبی، نسخة مخطوطة محفوظة فی المكتبة العامة لآية اللَّه المرعشی فی قم.

۱۳- تنقيح المقال، للشيخ عبد اللَّه المامقانی، نسخة مطبوعة علی الحجر.

۱۴- تهذيب الأحكام، للشيخ محمد بن الحسن الطوسی، دار الكتب الإسلامية، طهران.

۱۵- تهذيب الأسماء واللغات، لأبی زكريا محيی الدين بن شرف النووی، دار الكتب العلمية، بيروت.

۱۶- حلية الأولياء، لأحمد بن عبد اللَّه الأصبهانی، دار الكتاب العربی، بيروت.

۱۷- خزانة الأدب، لعبد القادر بن عمر البغدادی، مكتبة الخانجی، مصر.

۱۸- الديوان المنسوب لأمير المؤمنين عليه السلام، نسخة خطية بخط ياقوت المستعصمی.

۱۹- ربيع الأبرار، لمحمد بن عمر الزمخشری، منشورات الشريف الرضی قم ۱۴۱۰ ه.

۲۰- رجال حول الرسول، لخالد محمد خالد، دار الكتاب العربی، بيروت.

۲۱- زاد المعاد فی هدی خير العباد، لابن قيّم الجوزية، مكتبة المنار، الكويت ۱۴۱۲ ه.

۲۲- سنن ابن ماجة، للحافظ أبی عبد اللَّه محمد بن يزيد القزوينی، دار إحياء التراث العربی، بيروت.

۲۳- سنن أبی داود، للحافظ سليمان بن الأشعث السجستانی، دار الفكر، بيروت.

۲۴- سنن الترمذی، لأبی عيسی محمد بن عيسی بن سورة، دار إحياء التراث العربی، بيروت.

۱- ۱ الإصابة، ۲: ۴۶۴ وذكر البيت الأول فقط- أسد الغابة، ۳: ۶۰۰- حلية الأولياء، ۱: ۱۰۶- العقد الثمين، ۶: ۵۰- الاستيعاب، ۳: ۱۰۵۶.

ص: ۱۰۱

۲۵- سنن الدارمی، للحافظ عبد اللّه بن عبد الرحمن السمرقندی، دار الکتاب العربی، بیروت.

۲۶- سنن النسائی بشرح الحافظ جلال الدین السیوطی، دار الفکر، بیروت.

۲۷- سیر أعلام النبلاء، لمحمد بن أحمد الذهبی، مؤسسة الرسالة، بیروت.

۲۸- شذرات الذهب، لعبد الحیّ بن العماد الحنبلی، مکتبة القدسی، مصر.

۲۹- شرح نهج البلاغة، لابن أبی الحدید المعتزلی، دار إحیاء الکتب العربیة.

۳۰- شرح نهج البلاغة، لمیثم بن علی بن میثم البحرانی، الطبعة الثانیة ۱۴۰۴ ه.

۳۱- شواهد التنزیل لقواعد التفضیل، للحافظ عبید اللّه بن عبد اللّه بن أحمد المعروف بالحاکم الحسکانی، وزارة الإرشاد، طهران.

۳۲-صحیح البخاری، لأبی عبد اللّه محمد بن إسماعیل البخاری، دار الفکر، بیروت.

۳۳-صحیح مسلم بشرح النووی، دار احیاء التراث العربی، بیروت.

۳۴- الطبقات الکبری، لابن سعد، دار بیروت ودارصادر ۱۳۷۷ ه.

۳۵- العِبر فی خبر من غبر، للحافظ الذهبی، معهد المخطوطات، الکویت ۱۹۶۰ م.

۳۶- العقد الثمین فی تاریخ البلد الأمین، لمحمد بن أحمد الحسنی الفاسی، طبع القاهرة ۱۳۸۶ ه.

۳۷- الغدیر فی الکتاب والسنة والأدب، للعلامة عبد الحسین الأمینی، دار الکتب الإسلامیة، طهران.

۳۸- غربال الزمان فی وفیات الأعیان، لیحیی بن أبی بکر العامری الیمانی، دار الخیر ۱۴۰۵ ه.

۳۹- فهارس بحار الأنوار، مؤسسة البلاغ بیروت ۱۴۱۲ ه.

۴۰- فهارس شرح نهج البلاغة، وضعها أسداللّه اسماعیلیان، مکتبة اسماعیلیان، قم.

۴۱- الکافی، لأبی جعفر محمد بن یعقوب الکلینی، دار الکتب الإسلامیة، طهران.

۴۲- کنز العمال فی سنن الأقوال والأفعال، دار الکتاب الإسلامی، حلب.

۴۳- مجمع البیان فی تفسیر القرآن، للشیخ أبی علی الفضل بن الحسن الطبرسی، دار المعرفة، بیروت.

۴۴- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، لعلی بن أبی بکر الهیثمی، دار الکتاب، بیروت.

۴۵- المستدرک علی الصحیحین، للحافظ أبی عبد اللّه الحاکم، دار المعرفة، بیروت.

۴۶- مسند أبی داود الطیالسی، للحافظ سلیمان بن داود بن الجارود، دار المعرفة، بیروت.

۴۷- مسند أحمد بن حنبل، دارصادر، بیروت.

۴۸- معجم رجال الحدیث، للسید أبو القاسم الموسوی الخوئی، دار الزهراء، بیروت ۱۴۰۹ ه.

۴۹- معجم الشعراء، لمحمد بن عمران المرزبانی، دار الکتب العلمیة، بیروت.

۵۰- المعجم المفهرس لألفاظ الحدیث النبوی، دار الدعوة، استانبول ۱۹۸۸ م.

۵۱- المعرفة والتاریخ، لیعقوب بن سفیان البسوی، مطبعة الإرشاد، بغداد.

ص: ۱۰۲

۵۲- المناقب، لمحمد بن علی بن شهر آشوب، انتشارات علّامة، قم.

۵۳- المنتظم، لعبد الرحمن بن علی بن محمد بن الجوزی، دار الکتب العلمیة، بیروت.

۵۴- من لایحضره الفقیه، للشیخ محمد بن علی الصدوق، دار الکتب الإسلامیة، طهران.

۵۵- الموطّأ، لمالک بن أنس، دار احیاء التراث العربی، بیروت.

۵۶- نقد الرجال، للسید مصطفی الحسینی التفریشی، انتشارات الرسول المصطفی، قم.

۵۷- نهج البلاغة، للشریف الرضی، مع تعلیقات محمد عبده، مؤسسة الأعلمی، بیروت.

وراجع أیضاً من مصادر ترجمته ممّا لم ننقل عنها:

۱-صفة الصفوة.

۲- الشعر والشعراء.

۳- المحبر.

۴- التحفة اللطیفة.

۵- تاریخ الخمیس.

۶- طبقات خلیفة.

۷- تاریخ خلیفة.

۸- سیرة ابن هشام.

۹- نسب قریش.

۱۰- الکامل فی التاریخ.

۱۱- تاریخ الطبری.

۱۲- تفسیر الطبری.

۱۳- تفسیر ابن کثیر.

۱۴- سنن البیهقی.

۱۵- دیوان أبی طالب.

۱۶- مرآة العقول.

۱۷- التعلیقة للوحید.

وغیرها من مصادر الفریقین.

الهوامش:

ارجوزة فی فقه الحجِ

أُرجوزة فی فقه الحجِ

محمود البغدادی

المقدّمة:

فی فلسفة الحج

فى الحجِّ قد بانَتْ لنا الحقائقُ فى روضةٍ تفرِشُها الزنابقُ

مزهوة تحفل بالأثمارِ مبهجة الرّوادِ والسّمارِ الطير فيهاصادحٌ يُغنّى يبعث بالفن لأهل الفنِ

من حكمة اللّه العليم الهادى تقمعُ أهلَ الشرك والإلحادِ

ص: ۱۰۳

النفسُ فیها ترتقی وتنمو والروحُ للّه‌العلیّ یسمو

والحبُّ فیها قاطنٌ فی القلب لا خیر فی قلب بغیر حبِ

ویلتقی الإنسانُ والملائک فالحجُّ دربٌ للطهور سالک

إن کنت فی غاشیةٍ من شکِ فاقصد سریعاً للحریم المکّی

حتی تربّی فی سماءِ القلب لیس کمثل القلب من مُربّی

وتبصرُ الدنیا عیونُ الآخره لیس سواها من عیونٍ باصره

وترتوی ظامئة السیاسه من منهل الفکرة والکیاسه

ونلتقی الأطراف والمراکز کل علی سلم الجمیع حائز

والفقرُ فیها یخلع الثیابا قد کان شیئاً ماثلًا فقابا

من نعمةٍ للّه‌لیست تُنسی فاستشهد النقلَ وقاضی الحسا (۱)

وعن علیّ بن الحسین حجّوا تصح أبدانُکم وتَنجوا

تتسع الأرزاقُ والأموال ویغتنی المعیلُ والمعالُ

ومن یحجّ یغفرن منه الزلل مستأنفٌ له من اللّه العملْ (۲)

من ترک الحجَّ بلا غدرٍ نقی فذاک فی إیمانه العبد الشقی

یموت کالیهود والنصرانی نعوذ باللّه من الثوانی (۳)

ومن له مالٌ ولن یَؤْمّا یحشرُ فی یوم التنادِ أعمی (۴)

یأمن یوم الدین کلّ میّت إن مات فی الطریق نحو البیت (۵)

وقد تلقت آدمَ الملائکه فی فرحةٍ بحجّهِ مشارکه

إنّا حججنا قبل ألفی عام من نعمةٍ للّه‌ذی الإنعام (۶)

وقد روینا فی الحدیث المسند روایةً عن ابن عمّ أحمدِ

بنیّ! للبیت العتیق انظروا تقدموا لقصدهِ وأکثروا

إن أنتم- بنیّ!- لم تقاطرو الحجهِ هیهات أن تناظروا (۷)

وعن إمامٍ واجب تصدیقُه فی خبرصحَّ لنا طریقُه

عن آیةٍ فی الحجِّ لن تضیّعا قال: هما العمرةُ والحجُّ معا (۸)

وعن أتموا الحجَّ للعلام یعنی بهذا غایة الإتمام

أداءُ حجٍّ خالصٍ وعمره ویتقی المحرمُ کلَّ عشره

وعمرة للّه‌حجٌّ أصغرُور میُک الجمارَ حجٌّ أکبرُ

هذا إذا أحسنَ عبدٌ موقفه مؤدیاً لحجّه فی عرفه (۹)

۱- ۱ مثل النص عن رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم: «... وحجوا تستغنوا» الوسائل، کتاب الحج، أبواب وجوب الحجِّ وشرائطه،

الباب الأول، الحديث ۱۳. ومثل ما جاء عن على بن الحسين عليه السلام كما سيأتى قريباً. وفى الخصال ۱: ۳۱ بسندصحيح عن الصادق عليه السلام: «من حجّ حجتين لم يزل فى خير حتى يموت».

۲- ۲ عن أبى عبد اللَّه عليه السلام قال: قال على بن الحسين عليه السلام: «حجوا واعتمروا تصح أبدانكم، وتتسع أرزاقكم، وتكفون مؤونات عيالاتكم. وقال: الحاجّ مغفورٌ له، وموجوب له الجنة، ومستأنفٌ له العمل، ومحفوظٌ فى أهله وماله». الوسائل، أبواب وجوب الحج وشرائطه الحديث ۷.

۳- ۳ روى محمّد بن يعقوب، عن أبى على الأشعرى، عن محمد بن عبد الجبار، عنصفوان بن يحيى، عن ذريح المحاربى، عن أبى عبد اللَّه عليه السلام، قال: «من مات ولم يحجّ حجة الإسلام- لم تمنعه من ذلك حاجة تجحف به، أو مرض لا يطيق فيه الحجّ، أو سلطان يمنعه- فليمت يهودياً أو نصرانياً». المصدر السابق، ثبوت الكفر والارتداد بترك الحج وتسويفه، الحديث ۱.

۴- ۴ ورد ذلك فى عدّة روايات.

۵- ۵ انظر الفروع من الكافى، ۱: ۲۳۹- والمقنعة للمفيدص ۶۱.

۶- ۶ انظر الفروع من الكافى، ۱: ۲۱۸.

۷- ۷ عن أبى عبد اللَّه عليه السلام قال: «كان علىّ -صلوات اللَّه عليه- يقول لولده: يا بنىّ انظروا بيت ربكم فلا يخلون منكم فلا تناظروا» الفروع من الكافى، ۱: ۲۴۱. يُطلق الولد على المفرد والجمع وهنا يراد به الثانى.

۸- ۸ آل عمران: ۹۷ «... وللَّه على النّاس حجُّ البيتِ مَن استطاع إليه سبيلًا ومن كفر فإنَّ اللَّه غنىٌّ عن العالمين».

۹- ۹ المقصود الإمام أبو عبد اللَّه جعفر بن محمد الصّادق عليه السلام، والخبر هو ما رواه محمّد بن يعقوب، عن على بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبى عمير، عن عمر بن أذينة، قال: كتبتُ الى أبى عبد اللَّه عليه السلام بمسائلَ بعضها مع ابن بكير، وبعضها مع أبى العباس، فجاء الجواب بإملائه: سألتَ عن قول اللَّه عزّ وجلّ «... وللَّه على النّاس حجُّ البيت من استطاع اليه سبيلًا ...» يعنى به الحجَّ والعمرةَ جميعاً؛ لأنهما مفروضان. وسألتَ عن قول اللَّه عزّ وجلّ «وأتموا الحجَّ والعمرة للَّه» قال يعنى بتمامهما أداءَهما، واتقاء ما يتقى المحرم فيهما، وسألت عن قوله تعالى: «الحجّ الأكبر» ما يعنى بالحجّ الأكبر؟ فقال: الحجّ الأكبر: الوقوف بعرفة، ورمى الجمار، والحجُّ الأصغر العمرة. الوسائل كتاب الحجِّ، أبواب وجوب الحجّ وشرائطه، الباب الأول، الحديث ۲.

ص: ۱۰۴

وإن أردتَ الخيرَ فی الدارين فالحجُّ قد ضمَّ كلا الأمرينِ (۱)

إنّ سبيلَ الحجِّ أن تطيقا سيراً له لا تختشی الطريقا

وكنتَ ذا مالٍ فقد وُفِقتالوا جبٍ فی أن تحجَّ البيتا (۲)

ومن يكن ممتلكاً للمال لكن به الحاجة للعيالِ

فذالك المعذور عند اللبّ وفی الأحاديث بغير ريب (۳)

وقد روی محمّد بن يعقوب فی سند ليس به من مكذوب

الحجُّ قد قال الإمام الصّادق فرضٌ علی الجميع لا تفارقوا

كبارُهم طرّاً مع الصغارِ يا قدمنا حاشا ذوی الأعذارِ (۴)

الفورُ بالحجِّ طريق مالك وبعضهم نحو التراخی سالك

الفورُ فی الحجِّ بغير شكٍّ فيه عن الشيخ اتفاقٌ محكی (۵)

وكم به- يا سيدی!- من نصٍّ إن كنت ذا معرفةٍ فاقتصِّ (۶)

إن فاتَك الحجُّ ولم تستعجل فبادر الأمرَ بعامٍ مقبلِ

حتی تجيئنَّ بما ضيّعتا بأیِّ عذرٍ قد تركتَ البيتا

الناسُ فی الحجِّ علی أصنافِ وكلُّصنفٍ بالعطاء وافی

يُطلق بعضٌ من جحيم النار وبعضُهم من الذنوب عاری

وبعضُهم يحفظ فی الأهلينا ومالُهُ هيهات أن يشينا (۷)

يا ربَّنا فأحينا سنينا للحجِّ والعمرة ما بقينا (۸) شرائطُ الحجِ

شرائطُ الحجِّ لنا معلومه مرسومة فی الصحف الموسومه

أوّلُها العقلُ وهل ذو عقل يشكُّ فی العقل وأهل النقل؟ (۹)

والثانی البلوغ لا ترتاب فی شرطه الأخبارُ والألبابُ (۱۰) وثالث الشرائط الحريه (۱۱) والرابعُ استطاعةٌ شرعيه (۱۲)

ويستحبُّ للصبی المائز حجٌّ علی اذن الولی حائز

وذلك المشهور لكن ما اشتهر أوجبه التحقيق فی‌بعض الصور (۱۳)

وما علی البالغ من اذن الولی فی حجّه المندوب من أمر جلی

وقد أتی المحكی عن القواعد حكماً علی لزوم إذن الوالد

وإننی لابن هلالٍ نابذ هيهات أن تكنفه المآخذ (۱۴)

من واجبات البنت والغلام بعد البلوغ حجة الإسلام

فليس يغنی عنهما ما حجّا قبلُ وإن كان الثواب يُرجی (۱۵)

۱- ۱ شرح المهذب، ۷: ۳۸- ۳۹.

۲- ۲ المغنی لابن قدامة، ۳: ۲۵۲.

۳- ۳ الوسائل، أبواب وجوب الحج، الباب ۲۰، الحدیث الأول.

۴- ۴صحیح البخاری، ۱: ۳۱۹.

۵- ۵صحیح مسلم، بابصحة حج الصبی وأجر من حج به، ۴: ۱۰۱.

۶- ۶ سنن ابن ماجة.

۷- ۷ المغنی لابن قدامة، ۳: ۲۵۲.

۸- ۸ الوسائل، أبواب وجوب الحج، الباب ۲۰، الحدیث الأول.

۹- ۹صحیح البخاری، ۱: ۳۱۹.

۱۰- ۱۰صحیح مسلم، بابصحة حج الصبی وأجر من حج به، ۴: ۱۰۱.

۱۱- ۱۱ سنن ابن ماجة.

۱۲- ۱۲صحیح مسلم، بابصحة حج الصبی وأجر من حج به، ۴: ۱۰۱.

۱۳- ۱۳ سنن ابن ماجة.

۱۴- ۱۴ المغنی لابن قدامة، ۳: ۲۵۲.

۱۵- ۱۵ الوسائل، أبواب وجوب الحج، الباب ۲۰، الحدیث الأول.

ص: ۱۰۵

أَقسامُ الحجِ

إن لم تكن من مكّةٍ تمتّع بحجّةٍ وللكتابِ فاتبع

وإنما الإفرادُ والقران لأهلها أوجبه القرآنُ (۱)

أربعةُ شرائط التمتع احضر لها القلب الزكى واسمع

فتيّة وكونه فى الأشهر اشهر حجّ طيبات الجوهرِ

والحج والعمرة إن تأتيهما فى سنةٍ واحدةٍ تنهيهما

واحرم له أحرم له بالحجّ من بطن مكه بخير نهجِ (۲) شرائط الإفراد

وإنّما شرائط الإفراد أربعةٌ قامت على السدادِ

فتيّةٌ أوّلها وأن يقعْ فى أشهر الحجِّ الكريم المتَّبعْ (۳)

وعن أبى حنيفةٍ وأحمدِ جوازها من قبل ذاك الموعدِ

ويعقد الإحرام من ميقاتهِ وكلْ مجاهداً الى زلاته (۴)

شرائط القارن والأفعالُ قويمةٌ ليس بها اختلال

شبيهةُ الإفراد قد تحققا لكنَّ سوق الهدى عنه فرَّقا (۵) تكررُ الحجِّ الواجب

وربما فى غير مرةٍ وجب تكررُ الحجِّ بتكرار السبب

كالنذر والعهد وكاليمين فاصدق به إن كنتَ ذا يقينِ وإن تكن أفسدّت حجّاً أعدِ كم يُصلحُ العود فساد المفسدِ

وإن تكن نيابةً تُستأجرُ فإنما الوفاء طبعٌ خيِّرُ

وما سوى ذلك فهو مستحب تكررُ الحجّ إلى اللَّهِ سببْ (۶)صور لاستحباب الحجِ

ومن تكن شروطه تختلُّ فمستحبُّ حجُّه ونفلُ

يكن له بعد الأداء (۷) حجّ تطوعاً فيه الثوابَ يرجو

وفاقد للزاد أو للراحله سفينةً أو جملًا أو ناقله

ومثل مملوك له مولاه أجاز فى الحجّ وما نهاهُ

۱- ۱ الحـجُّ على أقسام: حجّ التمتع. حجّ الإفراد. حجّ القران. والحجُّ الأول لمن لم يكن من أهل مكّة وتوابعها، قال تعالى: «ذلك لمن لم يكن أهله حاضـرى المسجد الحرام» البقرة: ۱۹۶. وحـجّ الإفراد وكذا القران لأهل مكّة وتوابعها .... والروايات التى يسـتفاد منها فى المقام كثيرة، منها: ما رواه الحرّ العاملى فى الوسائل، كتاب الحجّ، أبواب أقسام الحجّ، الباب الأول، باب أن الحجّ ثلاثة أقسام.

۲- ۲ أربعة شروط حجّ التمتع الواجب منه والمستحب؛ أولًا: النيّة، ثانياً: أن يقع فى أشهر الحجّ وهى شوال وذو القعدة وذو الحجة، قال تعالى: «الحجُّ اشهرٌ معلومات ...» البقرة: الآية ۱۹۷. وقال ابن ابى عقيل والمرتضى وسلار: شوال وذو القعدة وعشر من ذى الحجة. ثالثاً: أن يكون الحـجُّ والعمرة فى سـنة واحـدة. وتـدل عليه عـدة نصوص. انظر الوسائـل، الباب ۲۲ من أبواب أقسـام الحـجِّ. رابعـاً: أن يحرم بالحـجّ من بطن مكـة مع الاختيار. وفى الجواهر، ۱۸: ۱۷ بلا خلاف أجـده فيه نصاً وفتوىً- وفى الحـدائق، ۱۴: ۳۶۰ لا يجزئ الإحرام بحـجّ التمتع من غير مكّـةَ ولو دخـل مكّـةَ بـإحرامه، بـل لابـد من استئنافه منها، كما هو المعروف من مـذهب الأصـحاب، وبه قطع فى

المعتبر من غير نقل خلاف، وأسنده العلّامة فى التذكرة والمنتهى الى علمائنا مؤذنا بدعوى الإجماع عليه، وربما اشعرت عبارة الشرائع بوقوع الخلاف فى ذلك، إلا أن شيخنا الشهيد الثانى قدس سره فى المسالك نقل عن شارح ترددات الكتاب أنّه أنكر ذلك. ولا فرق فى الإحرام بالحجِّ من بطن مكةَ، بين أن يكون من المسجد وهو أفضل وأفضله المقام وبين أن يكون من مكان آخر. قال عمرو بن حريث: قلت لأبى عبد اللَّه: من أين أهل بالحجِّ قال: إن شئت من رحلك، وإن شئت من الكعبة، وإن شئت من الطريق. الوسائل، باب ۲۱ من المواقيت.

۳- ۳ شرائط الإفراد: ۱- النيّة ۲- أن يقع فى أشهر الحجِّ، وقد تقدّم توضيحه ۳- أن يعقد الإحرام من الميقات إن كان أقرب الى منزله وإلّا أحرم من منزله.

۴- ۴ لخلافه فى ذلك وهو مجاهد بن جبر المكى ت ۱۰۴ من مشاهير المفسرين فى العصر الأموى، وقد رأيت تفسيره ويقع فى مجلدين.

۵- ۵ الفضيل بن يسار عن أبى عبد اللَّه عليه السلام: القارن الذى يسوق الهدى، عليه طوافات بالبيت وسعى بين الصفا والمروة. وينبغى له أن يشترط مع ربه، إن لم تكن حجّة فعمرة. الوسائل، الباب ۲ من ابواب اقسام الحجّ، الحديث ۲. وفى خبر منصور عن الصادق عليه السلام: لا يكون القارن قارناً الّا بسياق الهدى، وعليه طوافان بالبيت، وسعى بين الصفا والمروة كما يفعل المفرد، وليس بأفضل من المفرد إلّا بسياق الهدى. الوسائل، الباب ۲ من أبواب أقسام الحجِّ، وللتفصيل محل.

۶- ۶ هنا حالات عدّة لوجوب الحجِّ وإن حجَّ حجّةَ الإسلام، كوجوب الحجِّ لنذر أو عهدٍ أو يمين، وعلى من أفسد حجّه أن يعيده. وكذلك الحجّ نيابةً. وما سوى ذلك فإن ثمَّ حالات لاستحباب الحجِّ. إذ إنّ الحجَّ حبلٌ يتصل برضوان اللَّه تعالى وسلّمٌ الى مغفرته ورحمته الواسعة.

۷- ۷ مَن حجَّ حجّةَ الإسلام يستحب له أن يحجَّ مرة أخرى بل مرّات.

ص: ۱۰۶

الحجُّ ندباً لظهور العجز عن حجّةِ الإسلام ليس يجزى (۱)

والحجُّ عن غيرك ليس يجدى عن حجّةِ الإسلام فاستعدِ

إن أذن المولى بحجّ العبدِ نيابة عمّا سواه تجدى

يكفيك من أدلةٍ اطلاقها كالشمس قد بان لنا اشراقها

ومن يكن فى حقه الحجّ وجب ليس له عن غيره أن ينتدب

كلا ولا من حقه التطوع عن نفسه والشيخ لا يُتَّبع (۲)

لا تجب الحجةُ غير مرَّه واحدةٍ وهى أقل القدره

وأوجب الصدوق كلّ عام القصد للمشاعر العظامِ

على ذوى المكنةِ واليسار مستنداً لجملة الأخبارِ

ورودها عندى على الاستحباب قال به بالأمس جلُّ الأصحاب

من أجل أن لا يخلو بيت اللَّه من كلّ عبدٍ خاشعٍ أوّاه (۳) مواقيت الإحرام

إن كنتَ للفقه القويم حائزْ أحرم من الميقات لا تجاوزْ

يلملمٌ ميقات أهل اليمنِ وجحفة للشام عبر الزمنِ

وإنما العقيق للعراقِ نصاً وافتاءً على الوفاقِ

ومثله ميقات أهل نجدِ جاءت به الأخبار دون ردِّ

وحكم أهل العلم والأفاضلْ ميقات أهل الطائف المنازلْ

وذو حليفةٍ لأهل يثربِ جاءت به أخبارنا عن النبى

دويرة الأهل لأهل مكه حكم تغشاهم بغير ركَّه

كذا لكم حكمُ ذوى الأبيات ما بين مكّة إلى الميقات

جعرانةٌ عدت لمن يجاور بمكّةٍ حكم جميلٌ ظاهرْ

وفخُّ ميقات لقوم قول لثلةٍ وفيه جاء النقلُ

وإن تخف عليهم الضر احرم بهم من العرج بغير مأثم

أو إن تشأ يسراً بغير عسرِ من جحفةٍ فاحرم وبطن مرِّ

وكل من مرّ بأرض قوم فإنه مثيلهم فى الحكم (۴) كيفية الإحرام:

لا خير فى الإحرام دون نية زاكية طاهرة نقيَّة

وتلبيات أربعٍ فأتِ بها طيبة خالصةً لربِّها ولبسك الثوبين أمرٌ قد وجبْ عن احتياط ويقال مستحبْ الهوامش:

ما هی الاستطاعة، ومن هو المستطیع؟

۱- ۱ شرح المهذب، ۷: ۳۸- ۳۹.

۲- ۲ المغنی لابن قدامة، ۳: ۲۵۲.

۳- ۳ الوسائل، أبواب وجوب الحج، الباب ۲۰، الحدیث الأول.

۴- ۴صحیح البخاری، ۱: ۳۱۹.

ص: ۱۰۷

ما هی الاستطاعة، ومن هو المستطیع؟

جعفر شهیدی

یقول تعالی: «وللّه علی الناس حجّ البیت من استطاع إلیه سبیلًا» (۱).

یؤم مئات الآلاف من المسلمین مکّة سنویاً، استجابةً لهذه الدعوة الإلهیّة؛ فیقصدون بیت اللّه لأداء فریضة الحج.

ومن الواضح أنَّ هؤلاء الذین ینزلون جدّة، ومدینة الحاج- بعد أن یقطعوا المسافة بمختلف وسائط النقل، من طائرة وباخرة إلی السیارة- یعدّون أنفسهم من المستطیعین، الذین وجبت علیهم هذه الفریضة الإلهیة.

لقد بلغَ من سموّ هذه الفریضة، وأهمیّتها، أن لا یقتصر توکیدها فی حدود أداء التکلیف الواجب وحسب، وإنما امتد لیشمل حالات الاستحباب والندب.

فالحجُّ أمانة إلهیة، فهو- فی ثقافة المسلمین ووعیهم- الرکن الرابع من أرکان الدین، بعد الصلاة والزکاة والصوم.

فعن الامام أبی جعفر علیه السلام قال: «بنی الإسلام علی خمس: علی الصلاة والزکاة والصوم والحج ...» (۲) لذلک ن قرأ فی توکید الحجّ: «مَن ماتَ ولم یحجّ حجة الإسلام، ولم یمنعه عن ذلک حاجة تجحف به؛ أو مرض لا یطیق الحج من أجله؛ أو سلطان یمنعه، فلیمت إن شاء یهودیاً، وإن شاء نصرانیاً» (۳).

وفی «دعائم الإسلام» عن الإمام الصادق، أنّه علیه السلام سُئل عن رجلٍ له مال لم یحج حتی مات، قال: هو ممَّن قال

۱- ۱ آل عمران: ۹۷.

۲- ۲ أصول الکافی، ۲: ۱۵، باب «دعائم الإسلام»، منشورات المکتبة الإسلامیة، طهران سنة ۱۳۸۸ ه.

۳- ۳ سفینة البحار، ۱: ۲۱۱.

ص: ۱۰۸

اللَّه «... ونحشره یوم القیامة أعمی» (۱) فقال السائل: سبحان اللَّه أعمی؟ قال: أعماه اللَّه عن طریق الجنّة (۲).

ما هی الاستطاعة، ومن هو المستطیع؟

لقد أوضح فقهاء المذاهب الإسلامیّة فی رسائلهم العملیة وکُتب المناسک، الاستطاعة بما مؤدّاه: أن یکون للإنسان مالٌ یزید علی مؤونة عیاله، بحیث یکفیه للذهاب الی مکّة والإیاب، وأن تکون له ولعیاله فضلّة عند رجوعه من الحجّ.

مع مثل هذه الشروط السهلة، رأی الکثیر من المسلمین أنفسهم قادرین علی القیام بهذه الفریضة، والإتیان بهذا الواجب؛ ولهذا السبب بالذات ربّما یعود سبب کثافة المسلمین الذین یقصدون بیت اللَّه الحرام، حیث کانَ عددهم فیما مضی یبلغ مئات الآلاف سنویاً، أمّا الیوم فهو یزید علی المایون، یتوجهون من أرجاء الدنیا الی أحد مواقیت الحج.

ومن جهةٍ ثانیة قد تبدو أعمال الحجّ نفسها أیسر من شروط الاستطاعة؛ إذ هی لا تعدو- فی الظاهر- أن یحرم المسلم من أحد المواقیت، ثم یقصد مکّة، وحین یصلها یطوفُ بالبیت سَبعاً، ثم یصلّی رکعتین خلف مقام إبراهیم علیه السلام، فیمضی بعدهما نحو جَبَلَی «الصفا» و «المروة» لیسعی سبعة أشواط، ویقصّر بعدها شیئاً من شعره، أو من أظفاره؛ لیخرج من إحرامه، بعد أن یکون قد أنهی أعمال عمرة التمتع، انتظاراً لأداء مناسک الحج.

وحین یقترب من نهایة العشرة الأولی من ذی الحجّة الحرام، یُحرم من المسجد الحرام، أو من مکّة- عموماً- فی الیوم الثامن، أو التاسع من شهر ذی الحجّة؛ ویذهب الی عرفات لیقف فیها من الزوال حتی غروب الشمس من الیوم التاسع، ثم یفیضُ لیلًا نحو المشعر الحرام؛ لیمکث فیه حتی طلوع الشمس من الیوم العاشر، حیث یتحرکصبیحة الیوم العاشر نحو منی؛ فیرمی جمرة العقبة سبع حصیات، ثم ینحر ویحلق «أو یأخذ شیئاً من شعر رأسه بحسب الرأی الفقهی»، فیتحرک نحو البیت الحرام لیطوف طواف الزیارة، ویؤدیصلاة الطواف، ثم یسعی بین الصفا والمروة، ثم یطوف طواف النساء، ویؤدیصلاته، وبعد أن ینتهی من ذلک یعود الی منی؛ لیبیت فیها لیلة الحادی عشر، ویمضی نهارهُ فیها، ثم یبیب لیلة الثانی عشر ویمکث حتی منتصف النهار، علی أن یرمی الجمرات الثلاث کلّ واحدة سبع حصیات، فیُتم بذلک فریضة الحج المبارکة.

الذی یبدو من هذا الاستعراض الوجیز أنّ شروط الاستطاعة تتسم بالکثیر من الیسر والسهولة؛ وأیسر منها وأسهل أداءً نفس مناسک الحج. بید أنّا نسأل: إذا کانت الاستطاعة، وأعمال الحجّ بهذا المستوی من البساطة والیسر؛ فلماذا عُدّ الحجُّ کما فی روایة ابن عباس نوعاً من الجهاد؟ (۳)

فی الجواب یجب علینا أن ننتبه الی أنَّ ما تتحدَّث عنه کُتب الفقه، ومناسک الحجِّ، یقتصر علی بیان الأحکام الظاهریة للمکلّف؛ مما یجب أن یقوم به من خلال الحرکات والسکنات والألفاظ. أمّا حقیقة الحجِّ، وأبعاده المتکاملة فهو ما یجدر بنا أن نتقصّاه فی الکتب الأخلاقیّة، وفی التعالیم العملیة لأئمة أهل البیت علیهم السلام.

ونقطة البدایة هی أنّ المکلّف قبل أن یتعلق به تکلیف فریضة الحجّ، هو مسلم؛ وأنّ للمسلم فی السُنّة تعریفاً محدّداً واضحاً.

۱- ۱ طه: ۱۲۴.

۲- ۲ بحار الأنوار، ۹۹: ۹، الروایة ۶، مؤسسة الوفاء، بیروت.

۳- ۳ کنز العمال، کتاب الحج، حدیث رقم ۱۱۷۸۷، ۵: ۴ الطبعة الجدیدة.

ص: ۱۰۹

أما لماذا توكيد السّنّة بالذات فيما تَرسمهُ من حدودٍ واضحة للمسلم؟

فذاك يعود الى أنَّ تعريف المسلم فى كتاب اللَّه، وسنة رسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم وأخبار أهل البيت عليهم السلام يكشف عن علاقة تلازم بين الإجمال والتفصيل.

فالمسلم فى كتاب اللَّه يحملصفة المسلم لجهة مشاركته فى الحقوق السياسية، والاجتماعية الثابتة لمجتمع المسلمين.

أما فى السّنّة فهو عنوانٌ يحمِله لجهةِ ما يضطلع به من أهلية، وجدارة للارتقاء الى مستوى هذه الصفة السامية، بحيث يكون إنساناً مؤمناً، تتسق شخصيته مع المواصفات التى يتحدّث بها الإمام الصادق عليه السلام للإنسان المسلم.

فمثل هذا المسلم إذا أراد أن يؤدى فريضة الحج، فإنّ عليه أن يؤديها كما تتحدّث عنها، وعن فلسفتها كُتبُ الأخلاق الإسلاميّة، وهو حينئذٍ يُمارس عملًا جهادياً، يستلزم بذل الجهد وتقديم التضحية والفداء فى كلّ لحظة وآن.

وحين يتمخَّض الحجُّ عن بذلٍ وعطاءٍ، وعن ممارسةٍ جهاديةٍ واعيةٍ، يكون حجّاً واقعياً متطابقاً فى معالمه مع ما ورد فى سنة رسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم، وفى أخبار أهل البيت، فعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «إذا أردتَ الحجَّ فجرّد قلبك للَّه- عزّ وجلّ- من قَبل عزمك، من كلّ شاغل وحجاب حاجب، وفوّض أمورَك كُلَّها الى خالقك، وتوكّل عليه فى جميع ما يظهر من حركاتك وسكناتك، وسلّم لقضائه وحكمه وقدره، ودَعِ الدُنيا والراحة والخلق» (۱).

وفى الموسوعة الحديثية (مستدرك الوسائل) (۲) حديثٌ على شكل سؤال وجواب بين الإمام على بن الحسين السّجاد عليه السلام والشبلى، تصب دلالاته فى ضرورة احراز الشروط المعنوية للمناسك، ورعايتها الى جوار أداء الظواهر.

وقد يكون هناك كلام حول شخصية الشلبى وفيما إذا كان الشخصية الصوفية المعروفة التى عاشت فى الفترة بين ۲۴۷ ه. ق- ۳۳۴ ه. ق، وبالتالى لا يمكن أن يكون هذا الشخص هو المعنى؛ لتقدّم وفاة الإمام السّجاد عليه، أو أنَّ هناك شخصية أخرى عاشت فى المدينة، وعاصرت الإمام زين العابدين عليه السلام دون أن تحفل بها كتب التراجم والتأريخ ...؛ قد يكون ثمة كلام فى كلّ ذلك، بيد أنَّ ما يعنينا من الخبر هو مضمونه، الذى يؤكد حقيقة الحجّ من خلال رعاية شروطِه المعنوية فى مُوازاة الالتزام بظواهر المناسك.

مرّةً أخرى: ما معنى الاستطاعة؟

تحدّثنا فى مطلع البحث عن الاستطاعة، وذكرنا أنّ معاييرها فى البحث الفقهى ترتكز على إحراز القدرة المالية والبدنية اللازمتين، وضمن ما هو محدَّد فى الكتب الفقهية. بيد أنَّ ما نحتاج الى تحصيله قبل ذلك هو استطاعة من نوعٍ آخر لا تختصّ بزائرى بيت اللَّه، وإنما يتوجب على كلّ مسلم أن يحرزها فى شخصيته ووجوده.

هذه الاستطاعة التى نعنيها تتفرع الى:

۱- استطاعة علمية: ويمكن تلخيص مؤدّاها بالسؤال التالى: ماذا علىّ أن أعمل؟

۱- ۱ سفينة البحار، ۱: ۲۱۳.

۲- ۲ المستدرک، ۱۰: ۷۲- ۱۶۶، طبعة مؤسسة آل البيت، قم.

ص: ۱۱۰

۲- استطاعة أخلاقية: ويمكن تلخيص محتواها بالقول: ما هو السبيل لتطبيق ما أعرفه؟

إنَّ شريعةً ينطوى تُراثُها المعرفى فى الأخلاق العملية على كُتبٍ من قبيل: المحجة البيضاء، وإحياء علوم الدين، ومعراج السعادة، وكيمياء السعادة، والمقامات العلية، وعشرات الكتب الأخلاقية الأخرى؛ وإنَّ ديناً أوجب على المسلمين كافة طلب العلم؛ حريٌّ أن يدفع كلّ مسلم إلى التوافر على الاستطاعة فى بُعدَيْها العلمى والأخلاقى، فى فترة تسبق مرحلة البلوغ والتكليف الشرعى، أو أن يُحرز على الأقل مقدمات تحصيلهما تدريجياً فى فترةٍ زمنية لا تطول كثيراً. بيدَ أنَّ الذى يبعث على الأسف هو أنَّ الكثير من المسلمين لم يهتم بهذين البعدين.

فالإنسان المسلم الاعتيادى يبلغ فى العادة مرحلة الاستطاعة المالية حين يتجاوز أكثر من نصف عمره، أى فى عمرٍ يتعدى فى الأغلب الأربعين. وحينئذٍ يبدأ بالتفكير فى تعلّم أحكام الحجّ، ثم لا يقدم لذلك أكثر من ساعات معينة فى أيامٍ معدودة!

إننا نعرف جميعاً أنَّ التعلّم فى هذه السنّ المتأخرة يتّسم بصعوبة كبيرة، ومهما بذل السادة العلماء الذين يُرافقون قوافل الحجيج من جهد، فانَّ المسألة تبقى أقرب إلى المستحيل خصوصاً إذا أضفنا الى ذلك، أنَّ المهمة لا تقتصر على تعلّم مناسك الحجّ وحدها، وإنّما يتبعها- أيضاً- تعلّم القراءة والأجزاء الأخرى فى الصلاة الواجبة، وكأنَّ الصلاة أصبحت- الآن- واجبةً على أمثال هؤلاء، ولم تكن كذلك قبل إحراز الاستطاعة المالية للحج.

يجب أن نعى جيداً؛ أنَّ التجربة العملية، أثبتتصعوبة أن يتعلّم غيرِ العربى النطق بحروف العربية من مخارجها الصحيحة، حين تتصلب بشكل نهائى أوتارُ حنجرته الصوتية فى السنة الخامسة عشرة فما بعد؛ لذلك تذهب هباءً جهود العلماء الأفاضل، فى أن يتعلّم هذا المسلم- غير العربى- الذى مرَّ من عمره سبعون عاماً، على أداء معيّن للّغة، أداء الحروف بشكلها العربى الصحيح، بحيث ينطق- مثلًا- «أنَّ الحمد والنعمة» بصورة سليمة لا تستبدل الحاء بالهاء ولا تستبدل الضاد فى «ولا الضالين» بالزاء مثلًا.

أما لو كانت مهمة تعلّم القراءة الصحيحة، والأحكام الشرعية، قد بدأت مع مرحلة البلوغ الشرعى، وترافقت وإيّاها، فمن المستبعد أن تظهر نظائر هذه المصاعب فى المستقبل.

علينا أن نذعن أنَّ مدى اهتمامنا بأحكام وآداب ديننا الحنيف، هو دليل يكشف بوضوح مقدار ارتباطنا بهذا الدين، وصلتنا الحقيقية به. فما نراه من أعمال بعض الحجّاج وسلوكهم فى مكّة والمدينة، يكشف بوضوح ضآلة وعيهم الدينى، وسطحية ما يعرفونه من معارف دينهم، وأحكامه وآدابه. وهذه الحالة بدورها دالة على عدم اعتناء المجتمع الإسلامى بالإسلام، فيما ينطوى عليه نظامُه التشريعى من فقه وأحكام، بالإضافة إلى الجهل بنظامه الأخلاقى.

إنّ ما يبعث على الأسف أكثر، هو جهل الكثير من الحجاج بوضع البلد (الحجاز) وما تكتنف مجتمعه من تقاليد وآداب، وما تسوده من معايير وضوابط. بالإضافة إلى الجهل بالمواقع التى يجب أن تزار، والآداب الخاصة بهذه الأماكن.

أمّا أن يرتقى الوعى الى مستوى الإحاطة بالوضع الاقتصادى، والموقع الجغرافى للحجاز، والحرمين الشريفين، مقارنة بالبلدان الإسلاميّة الأخرى، فهذه لا تعدو أن تكون- بالنسبة لعامة الحجيج- سوى أمنية بعيدة المنال!

دو فصلنامه «میقات الحج»،ص: ۱۱۱

إنَّ ما يفضى اليه الجهل بالآداب السائدة فى المجتمع الحجازى؛ لا يقل فى آثاره السلبية، عن النتائج المترتبة على الجهل بأحكام الحجّ ومناسكه نفسها.

فلو افترضنا أن تاجراً أراد أن يبيع سلعاً لا يتجاوز ثمنها الكلّى قيمةَ ما يصرفه حاج واحد فى الحجاز، لقام أولًا باستطلاع السوق، والتعرف على حاجاته وأحاط بوضع السلعة وبسبيل انتاجها، وكيفية استهلاكها وهكذا! فلماذا لا يكون حال الحجّاج حال هذا التاجر؟

إنَّ سلوك الحجاج فى السنوات الأخيرة، الذى ينبغى أن يعكس مستوى وعيهم الدينى، ودرجة معرفتهم بأحكام الإسلام، ومدى

التزامهم باخلاقياته، كشف للأسف عن اهتمامٍ مميَّز بالسلع والبضائع، وبهذا افترق سلوكهم- الى حدٍ كبير- عن منهج أئمتنا وسلوكهم، وما يتوقعونه منّا خصوصاً فی سفر الحجّ!

لقد دأبت الصحف على أن تنشر أحياناً بعض مصاديق السلوكيات الخاطئة للحجاج، وتوجّه اللوم اليهم، بيد أنّی شخصياً لا أميل الى لومِ هؤلاء الحجاج، بقدر ما أميل الى تحميل نفسی وأمثالی مسؤوليّة التقصير عن تعليم هؤلاء.

وبعد، فإنَّ الصورة تبدو واسعة متعدّدة الجوانب والأبعاد، فبعض الحجّاج ذهب إلى الحجّ، وعاد دون أن يدرك شيئاً، بل إنَّ بعضهم يجهل- حقاً- الأماكن التی ذهب اليها، وبعضهم لا يستطيع أن يشير لك على مواقع مكّة والمدينة على الخريطة الجغرافية، فضلًا عن أن يحيط بأوضاع هاتين المدينتين قبل الإسلام، وما أصابهما من تغيرات بظهور الإسلام.

إن مقتضى كون الحجّ ركناً من أركان الإسلام، هو أن نبنی ممارستنا للفريضة على قواعد رؤية ثابتة مستقرة ..

وكونه عبادة، علينا فی ممارستها أن نحذر الوقوع فی المحظور، فمع المحظور يصعب التكليف. وما نلاحظه فی واقع الممارسة العملية هو أنّه لا تكاد تخلو سنة من السنين من ظهورصعوبات أمام الحجاج، وقد تتجاوز المسألة حدود الصعوبات الى ما هو أفدح من ذلك، كما حصل بالنسبة لبعض الفجائع المرعبة التی عاصرناها!

الهوامش:

ص: ۱۱۱

ص: ۱۱۲

دور علیّ فی فتح مکة

الشیخ عفیف النابلسی

مقدمة:

هل بإمکانک کتابة التاریخ الإسلامیّ، أو الفقه الإسلامیّ، أو أی شیء فی الإسلام دون علیّ علیه السلام؟ وهل باستطاعتک أن تسرد وقائع التاریخ دون المرور بعلی؟ وهل غنی السیف إلا فی یده، أو طرب القلم إلا من مداده؟

وهل یُحاصَر علیّ فی فتح مکة أو هوازن وحنین؟ وهل هناک شاردة أو واردة فی هذا الإسلام المدید المالئ الدنیا وشاغل الناس إلا کان علی أصل وجودها أو همزة وصلها؟

فهو فی المعارک ضیغمها، وللرایات قائدها، وفی الحملات فارسها المرتجی، وهو فی الشجاعة أوحدها، وفی الکلمة مبدعها، وفی اللیالی محییها وعابدها؛ فهو راهب الصومعة المتصوف بل المستغرق فی الصوفیة، وهو فی المعرکة الضارب بالسیفین الطاعن بالرمحین .. جمعت فیصفاتک الأضداد. وهو فی الحلبة لاعبها وأولها، وفی الفصاحة سحبانها، وأمّا فی البلاغة فهو ابن بجدتها وقطب رحاها؛ ویکفیک منه نهج بلاغته، وسماء فصاحته، وبعد أن انقطع الوحیُ وحلّق النبیّصلی الله علیه و آله و سلم إلی جنة الخلد، هطلت علیه وحده دیمُ المعرفة، وأصبح مصدرها الوحید- فقهاً علماً أدباً فضلًا زهداً وورعاً- فهو الاستاذ فی المسجد والامام فی المحراب، والخطیب علی المنبر یتکلم والحقّ فی لسانه، ویحارب والحقّ فی سنانه- کیفما مال کان الحقُّ معه وفیه- «علیٌّ مع الحقّ والحقُّ مع علی یدور معه کیفما دار».

وهل یمکننی بعدُ أن أتحدث عن علیّ فی غزوه أو حربه أو یختصر علی قضیة أو واقعة أو سانحة أو قصة تاریخیة أو قصیدة مدیح یضوع منها الأدب أو مآثره یفوح منها طیب ذاک النسب.

وإذا کان علی شامخاً شموخ الجبال، ومجنحاً تجنّح الصقور، وعالیاً کالقمر ومشرقاً کالشمس وکریماً کالریح الهبوب، وعطوفاً کالأم ورؤوفاً کالأب وصلباً کالصخر وکبیراً کالجبل، وإذا کان علی محور هذه الأمة وسمام أمانیها، ونجمها المضیء وشمسها المشعة، وإذا کان منهجه التواضع وملبسه الاقتصاد وطعامه الجشب، وطریقته الزهاده، یتفجر العلم بین یدیه وتحنو شأبیب البلاغة حوالیه.

إذاً ماذا تقول فی علی؟ وقد قال الکتّاب فی المتنبی: إنه مالئ الدنیا وشاغل الناس، وهل المتنبی إلا نقطة من ذلک البحر الخضم أو حصاة من ذلک الجبل الأشم؟

فیا سیدی عذراً عذراً إذا جفّ القلم، وحوصر الکلم وحَبا البیان وتلعثم اللسان، فعذرنا فیک أنک من لا یُنال

ص: ۱۱۳

كعب قداسته، ولا يلحق غبار سياسته، يكل فرسى عن الجرى فيك، ولسانى عن القول بقوافيك، غير أنى لا أعدم القارئ ولا أحرمه لمحةً من بهاك ولفتةً من سناك.

هذه من علاه إحدى المعالى وعلى هذه فقس ما سواها البداية:

أحداث الفتوحات مرتبط بعضها بالآخر، كلما اكتشفتَ فتحاً كلما هان عليك كشف الفتوحات الأخرى، حيث لا يمكنك أن تتحدث عن جانب دون التحدث عن جوانب أخرى. ومن هنا لا يمكننا الحديث عن فتح مكة دون الالتفات الى الأسباب والأحداث التى تهيأت وهيأت موسم الفتح، والأحداث التى كانت قبل الفتح بسنة أو سنتين. وقوة قريش وأوضاعها الاقتصادية، ومكانتها بين العرب. ومكة وأثرها أو البيت وأثره فى قوة قريش.

والارستقراطية القرشية. وأهمية مكة ومستقبل الدعوة.

إنّ مكة لم تغب لحظة واحدة عن قلب رسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم، وكم تمنى لو أتيح له الظرف ليفتحها ويجعلها قاعدته الكبرى، ولكن أنى له ذلك وقريش آخذة بالعناد، ويزيدها شرّاً بل ولوغاً فى الشرّ أن مكة بعيدة عن طرق المواصلات الدولية. والآخرون من الدول العظمى لا يهمهم ما يحدث ما دام لا تضر بمصالحهم.

ويرى الامتيازيون وبحسب التعبير القرآنى المترفون فى قريش: أن هذه البلدة واجتهم وتجارتهم ومزرعتهم، وليس منصالحهم أن يتنازلوا عنها لمحمد أو غيره من المصلحين. فمن مصالحهم الدفاع عنها وعن أمجادها ومحاربة أى دعوة تحاول أو تفكر فى السيطرة عليها.

والنبيُّصلى الله عليه و آله و سلم لا يريد لقريش أن تنكسر، ولا يريد لمكّة أن تندثر، وإنما يريد مكّةَ ليعيد لها اشراقتها، ويريد لقريش أن تدخل فى الإسلام وتعبد ربها؛ لتظهر عزتها بين العرب، ويريد للإنسانية أن تتجه اتجاهاً خالصاً نحو اللَّه.

من هنا كان يقتنص الفرص ليلعب هذا الدور. وصبر ما بوسعه من الصبر، وتجرع المرارة عقيب المرارة حتى تفتح مكة دون حرب، وانتظر اليوم المناسب يوم تقوى دولته، وتضعف شوكة قريش لتنهزم أمامه دون قتال، وتنتهى معركة الإسلام ضد أعدائه، ويدخل الناس فى دين اللَّه أفواجاً.

وظلّ رسولُ اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم مستمراً فى دعوته، جاداً بمتابعة قضيته، عاملًا غير عاطل، والإسلام يزداد رسوخاً والدين انتشاراً، وتشتد قوة المسلمين، ويبدأ النبيّصلى الله عليه و آله و سلم ببعث الرسائل الى ملك الفرس (كسرى) وملك الروم (قيصر) يدعوهما فيها الى الإسلام- أسلم تسلم- وتواصلت الغزوات المباركة والسرايا التى يقودها رسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم بنفسه حتى خضعت لسلطانه واحاتُ الحجاز وصحاريه، والقبائل العربية التى أخذت تترى اليه لتعلن إسلامها بين يديه إلا قريش التى لم ترجع عن عنادها وجبروتها، ولكن رسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم كان يأمل أن يأتى اليوم الذى تنضم فيه قريش اليصفوف المسلمين وأن الزمن كفيل بمساعدته.

وبدأت رحى الأيام تدور دورتها، وبدأ محمد يملك العقول والقلوب وإذا بالعرب الأعداء قد تركوا عداءهم له

ص: ۱۱۴

وتحولوا اليصفوف المسلمين، وإذا بهم من أكثر المدافعين عن سلطان الإسلام. وتسقط خيبر ويقوى ركن الإسلام ويخاف القرشيون ولكنهم ظلوا على عنادهم.

فتح مكّة:

إن الدخول الجماعى فى الإسلام الذى شهدته قبائل العرب المتاخمة لبلاد الشام بعد غزوة مؤتة لم يهز قريشاً وحلفاءها، ولم تفكر قريش بما قد تصير إليه الأحوال فى قاصِ الجزيرة وأدناها، فظلت على وهمها بأن المسلمين قد هزموا فى موقعة مؤتة هزيمةً نكراء، وأنهم باتوا فى حالةٍ يرثى لها، أقلها الضعف والهوان وهذا ما أعادها الى مراجعة حساباتها وردّها إلى التفكير بحرب محمدصلى الله عليه و آله و سلم، ونبذ مواقفها السابقة معه، وهى المواقف التى أجبرت فيها بعد الحديبية على التخلى عن السيطرة التى كانت لها. وقد أفقدتها تلك المواقف الهيبة التى كانت تتصف بها، وخسرت مكانتها الأولى بعد عمرة القضاء فما عليها إذن والحالة تلك إلا العمل لاستعادة تلك السيطرة كاملة، واسترداد الهيبة والمكانة اللتين كانتا لها غير منقوصتين، وهذا لن يكون إلا بمقاومة محمدصلى الله عليه و آله و سلم مقاومةً ضاريةً، والشروع فى قتال من دخلوا معه بحكم عهد الحديبية (۱).

صلح الحديبيّة:

كانصلح الحديبية بين رسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم وقريش قد قضى أنّه مَن أحبَّ أن يدخلَ فى عهد محمد وعقده فليدخل فيه، ومَن أَحب أن يدخل فى عهد قريش وعقدهم فليدخل فيه. وكانت خزاعة قد دخلت فى عهد محمدصلى الله عليه و آله و سلم، ودخلت بنو بكر فى عهد قريش، وكانت بين خزاعة وبنى بكر ثاراتٌ قديمةٌ سكنت بعدصلح الحديبية، وانحاز كلٌّ من القبيلتين الى فريق المتصالحين، فلما كانت مؤتة- وصل لقريش أن المسلمين قُضى عليهم- خُيّل الى بنى

۱- ۱ مجمع البيان الحديث، ۲: ۶۱۱.

ص: ۱۱۵

الـدِّیل من بنی بکر بن عبد مناة أن الفرصة سـنحت لهم، لیصـیبوا من خزاعةبثاراتهم القدیمة، وحرّضـهم علی ذلک جماعة من سادات قریش منهم عکرمة بن أبی جهل، وأمدوهم بالسلاح.

وقوع الحرب:

وبینما خزاعـة ذات لیلـة علی ماء لهم یـدعی الوتیر إذ فاجأتهم بنو بکر فقتلوا منهم جماعة، ففرت خزاعة الی مکّة ولجأوا الی دار بُدَیْل بن ورقـاء الخزاعی، وشـکوا له نقض قریش، ونقض بنیبکر عهـدهم مع رسولاللّهصـلی الله علیه و آله و سـلم، وسـارع عمرو بن سالم الخزاعی فغدا متوجهاً إلی المدینة حتی وقف بین یدی محمدصلی الله علیه و آله و سلم وهو جالس فی المسجد فقال:

لا هُمَّ إنّی ناشدٌ محمدا حلفَ أبینا وأبیک الاتلدا

إن قریشاً أخلفوک الموعدا ونقضوا میثاقک المؤکّدا

هم بیتونا بالعراء هجّدا فقتلونا رکعاً وسُجّدا فقال له النبیّصلی الله علیه و آله و سلم: نُصرت یا عمرو بن سالم!

ثم خرج بُدیل بن ورقاء فی نفر من خزاعة حتی قدموا المدینة فأخبروا النبیّصلی الله علیه و آله و سلم بما أصابهم، وبمظاهرة قریش بنی بکر علیهم، عند ذلک رأی النبیّصلی الله علیه و آله و سلم أن ما قامت به قریش من نقض عهده لا مقابل له إلا فتح مکّة.

وعـاد وفـد خزاعـة فرحـاً بمـا حظی من التأییـد، وظهرت مخـاوف قریش، واجتمع حکماؤهـا وقرروا بعث أبی سـفیان لتجدیـد العهـد، وتمدیده الی عشر سنوات.

أبو سفیان فی المدینة:

تـأهب أبو سـفیان، وسـار من وقته وسـاعته حتی وصـل المدینـة علی وجل خصوصاً بعـدما رأی بُـدیلًا ورفاقه علی بعض المیاه، وجعل وجهته ابنته أمَّ حبیبة زوجة النبیّصـلی الله علیه و آله و سـلم التی تزوجها النبیُّ بعدما ترکها زوجُها وتنصر فی أرض الحبشة فخطبها إلی النجاشی. وعادت بعد فتح خیبر مع جعفر بن أبی طالب علیه السلام وجماعته الذین کانوا مهاجرین إلی الحبشة.

وأمُّ حبیبـة کـانت قـد عرفت مـا حـدث، وعرفت مـا نوی علیه النبیُّصـلی الله علیه و آله و سـلم، فلم تهتم بأبیها المشـرک. ولما أراد أن یجلس علی فراش النبیّصلی الله علیه و آله و سلم طوته عنه فسألها أبوها: أطوته رغبةً بأبیها عن الفراش أم رغبةً بالفراش عن أبیها؟

فکـان جوابهـا: هـذا فراش رسـول اللّهصـلی الله علیه و آله و سـلم، وأنت رجـل مشـرک نجس، فلم أحبّ أن تجلس علیه. وفوجئ أبو سفیان بما لم یکن یتوقعه من ابنته التی وجهت إلیهصفعةً جعلته ذلیلًا مهیناً فقال لها: لقد أصابک بعدی شرٌّ، قالت:

بل هدانی اللّه تعالی للإسلام، وأنت تعبد حجراً لا یسمع ولا یبصر، وا عجباً منک وأنت سید قریش وکبیرها! قال:

أأترک ما یعبد آبائی وأتبع دین محمد؟

وخرج أبو سفیان بعد هذه الصفعة مکلوم الفؤاد مضعضع الفکر، مهزوز الجانب مهیض الجناح، لا یدری ماذا

ص: ۱۱۶

یفعل، أیرجع قبل أن یحقق شیئاً، أو یستمر فی محاولة یائسة. فذهب إلی المسجد لعلّه یری محمداًصلی الله علیه و آله و سلم ودخل علی الفور یکلمه فی توثیق المعاهدة وزیادة المدة، إلاـ أن الرسولصلی الله علیه و آله و سلم لم یرد علیه بشیء، وألح أبو سفیان والنبیصلی الله علیه و آله و سلم لا یجیب، وأصابته الحمی من هذه الصفعة الثانیة فخرج علی بعض مَن کان یعرف من الصحابة، فلم یر من یساعده علی مهمته، أو یتکلم مع النبیّصلی الله علیه و آله و سلم حوله.

دور علیّ علیه السلام:

الدور الأول:

وکان لابدّ لأبی سفیان- الذی یعرف مواقع القوة- من أن یلجأ الی بیت علیّ حیث دخل علی أمیر المؤمنین علیه السلام فوجده مع زوجته وعندهما ولداهما الحسن والحسین علیهم السلام.

فقال: یا علی! أنت أمسُّ القوم بی رحماً، قد جئتُ فی حاجة؛ فلا أرجعنّ کما جئتُ خائباً، اشفع لنا عند محمدصلی الله علیه و آله و سلم.

فقال علی علیه السلام: ویحک یا أبا سفیان! واللّه، لقد عزم رسولُ اللّهصلی الله علیه و آله و سلم علی أمر فلا نستطیع أن نکلّمه فیه.

وأدرک أبو سفیان حراجة الموقف فالتفت الی فاطمة علیها السلام قائلًا: وأنت یا بنت محمد! هل لکِ أن تأمری ابنک هذا- یعنی الحسن- فیجیر بین الناس، فیکون سید العرب الی آخر الدهر؟

قالت فاطمة علیها السلام: واللّه، ما بلغ ابنی هذا أن یجیر بین الناس، وما یجیر أحد علی رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم.

قال: یا أبا الحسن! إنی أری الأمور قد اشتدّت علیّ فانصحنی.

فقال: واللّه، ما أعلم شیئاً یُغنی عنک، ولکنک سید بنی کنانة، فقم فأجر بین الناس، ثم الحق بأرضک.

قال: أو تری مغنیاً عنی شیئاً؟!

قال أبو الحسن: لا واللّه، ما أظنّ؛ لکنی لا أری غیر ذلک.

وقام أبو سفیان فأتی المسجد، قائلًا: أیها الناس! إنی قد أجرتُ بین الناس، ولم یلبث أن خرج برکب بعیره، وینطلق عائداً الی مکة، خالی الوفاض، یجرّ أذیال الخیبة والهزیمة، إذ لم یستطع أن یحقق شیئاً مما جاء الیه.

وقدم أبو سفیان علی قومه، فسألوه ما وراءک یا أبا سفیان؟

قال: جئت محمداً فکلمته، فو اللّه، ما ردَّ علی شیئاً، ثم جئت بعض أصحابه فوجدتهم أعدی الناس إلیّ، ثم جئت علیّ بن أبی طالب فوجتُه ألینَ القوم، وقد أشار علیّ بشیءٍصنعته، فو اللّه، ما أدری هل یغنینی شیئاً أم لا؟

قالوا: وبما أمرک؟

قال: أمرنی أن أُجیر بین الناس ففعلت.

قالوا: فهل أجاز محمدٌ ذلک؟

قال: لا.

قالوا: ما زاد الرجل علی أن لعب بک، فما یغنی عنا ما قلت (۱).

أرأیت إلی علی الشاب النابغة الذی یزن الرجال بمیزان، ویعرف کیف یضرب ضربته الذکیة؟ فهو کمن یطعن

۱- ۱ خاتم النبیین، ۲: ۶۲۰- الطبری، ۲: ۱۶۳.

ص: ۱۱۷

خصمه فی المعرکة فیردیه بکلامه وموقفه ودرایته، ویجعل الخصم المجرب قائد القوم وکبیرهم ولداً وطفلًا لا یدری ماذا یفعل. أرأیت علیاً کیف طعن خصمه السیاسی دون أن یخرج السیف من غمده؟ أرأیت إلی العقل الموجه، کیف یفعل فعلته فیشوش علی خصومه ما یجعلهم حیری لا یدرون ما یفعلون؟

هکذا تعامل علی العبقری الشاب مع شیخ قریش وسید کنانة، وأرجعه طفلًا. وهکذا فهم أبو سفیان، وفهم معه قومه أن علیاً لعب بأبی سفیان، وضربه ضربةً موجعة بعد الضربتین اللتین تلقاهما من ابنته أمّ حبیبة ومن الرسولصلی الله علیه و آله و سلم هذا هو الدور الأول الذی لعبه علی لتسفیه أبی سفیان واذلاله وجعله کالطفل الصغیر.

الدور الثانی:

بدأ رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم یخطط لغزو مکة وفتحها، فأمر بشحذ السلاح وجمعه، وبعث إلی القبائل المحیطة بالمدینة أن یتأهبوا ویأتوا إلی المدینة، فکانت الوفود تأتی ولکنها لا تعرف وجهة المسیر، ووضع الحرس والعیون علی المدینة یراقبون کل خارج منها وداخل إلیها، ویفتشون من یمرّ لیلًا ونهاراً. وبینما هو یتهیأ للمسیر نحو مکة تسرّب الخبر الی أحد أصحابه وهو حاطب بن بلتعة الذی رأی أن رسول اللّه إذا ذهب بهذا الجیش الجرّار الی مکة ربما تکون نهایة قریش وعزّ علیه ذلک، وکان له فیها أرحام وأقارب، وقد تکون العاقبة لقریش فیکون له عندها ید. هکذا أصحاب النفوس الضعیفة یفکرون فی علاقات ذاتیة حتی فی أحرج الأوقات، ویتخذ لنفسه حصناً یأوی إلیه عند تقلبات الأحوال، وهکذا یقوم حاطب بن بلتعة بعملیة خیانیة لا عهد للمسلمین بها، وهی ایصال أخبار عسکریة سریة الی الأعداء.

وفکّر حاطب فی ایصال الخبر کثیراً؛ لأنّه خاف من تفشی الأسرار، وافتضاح أمره، فعمد الی امرأة قینة مغنیة أغراها بالمال، وکان هواها فی قریش، ولم تکن أسلمت بعدُ، واتفقا علی کیفیة وضع الکتاب فی ضفائرها لقاء أجر باهض ونسی حاطب أن اللّه مطلّع علی کلّ شیء، وأن الوحی یوصل الأخبار السریة بأقل من لمح البصر. وکان الکتاب یحتوی علی أسرار عسکریّة بالغة الخطورة عن أهمیة الجیش، وعدد الفرسان والرجالة، وکثرة السلاح والخیل والبغال والجمال. وخوفاً من التفتیش العسکری وضعت الکتاب مطویاً فی ضفائرها، بحیث لا یمکن لأحد حتی- لو فتشها- أن یهتدی إلی الکتاب، ثم خرجت تسلک طریقاً بعیداً عن عیون الحراس، توهمهم بالحشمة والحیاء، وتتستر بهذه المظاهر، لتخفی جاسوسیتها علی الدین وعلی الرسول.

وما إن غادرت المدینة حتی نزل الوحی المبارک یخبر النبیصلی الله علیه و آله و سلم بالکتاب، وأین موضعه، وما فعل حاطب، فدهش النبیّصلی الله علیه و آله و سلم لهذه المفاجأة، وهذه الخیانة من أحد أصحاب بدر، فدعا علیاً علی الفور، قائلًا له: إن أحدَ أصحابی کتب إلی أهل مکّة یطلعهم علی أخبارنا، وقد کنت سألتُ اللّه عزّ وجلّ أن یعمی أخبارنا عنهم، وقد حملت الکتاب امرأة سوداء فهیا أدرکها وانتزع منها الکتاب. ثم استدعی الزبیر وقال له: اذهب مع ابن عمتک وأعنه علی تخفیف مأربه، وخرج علی ومعه الزبیر فأدرکاها فی (الخُلیقة)، وتقدم منها الزبیر فسألها عن الکتاب فأنکرت علیه

ص: ۱۱۸

التعرض لها من جانب، والسؤال عما لا یعنیه من جانب آخر، کما أنکرت علیه هذه التهمة الشنیعة، مما جعل الزبیر یتردّد أولًا، ثم یعود الی علیّ یُقنعه بأنه لیس عندها شیء، بعدما بکت المرأة لهذا التعرض والإهانة، وبدأت دموع التماسیح علی خدیها، وأوشک قلب الزبیر أن یرقّ لها فارتد نحو علیّ یقول: لَم أرَ معها کتاباً یا أبا الحسن، ولم یلتفت الزبیر الی لازم قوله هذا، الذی یعنی تکذیب الوحی، وتکذیب الرسولصلی الله علیه و آله و سلم وما کاد علیّ یسمع هذا القول من الزبیر حتی غضب وصاح: ویحک یا زبیر! یخبرنی رسولُ اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم بأنها تحمل کتاباً، ویأمرنی بأخذه منها، ونأتی لذلک ثم تقول أنت: إنه لا یوجد معها کتاب!

وتظهر قدرة علی علیه السلام وفراسته، وتصدیقه المطلق الذی لا شک فیه، ویظهر ضعف الزبیر وأنه غیرصالح للقیام بهذا الدور إلا برفقة علی علیه السلام. ولم یلبث علیّ علیه السلام أن اخترط السیف، وتقدم من المرأة قائلًا وعیناه تقدحان شرراً قائلًا لها:

أَما واللَّه، لتخرجن الکتاب، أو لنکشفنک، ثم لاضربن عنقک بسیفی هذا، وحاولت المرأة أن تراوغ کما راوغت مع الزبیر، ولکنها رأت عناداً واصراراً، مما جعلها تتأکد بأن الرجل متأکد من وجود الکتاب الذی تحمله، وأنها إن لم ترضخ للطلب سوف تنال عقابها المناسب، وقد یکون هو الموت، وإزاء هذا التخوف علی حیاتها قالت له: أعرض بوجهک عنی، وأشاح علی بوجهه عن المرأة الماکرة فاذا بها تحل ضفائرها، وتخرج منها الکتاب، ثم تدفعه الی علیّ، فیأخذه علیٌّ علیه السلام دون أن یقول لها شیئاً، ثم یأتی الزبیر معه الی رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم یسلمانه الکتاب (۱).

أرأیت معی- أیها القارئ- موقف الزبیر الذی یعنی أنه لو اقتنع بکلام المرأة لکذب رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم الذی لا ینطق عن الهوی، ولکان یعنی أن تفشی الأسرار العسکریة الی الأعداء فیعرفون خطط الهجوم فیفشل.

ولکن الیقین الثابت فیصدر علی بصدق رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم هو الذی جعله یقف موقفاً مییزاً وحاداً، وأنه غیر مستعد لسماع کلامها، وقبول أی موقف آخر منها؛ لأنه علی یقین بأن الکتاب معها. أخبره بذلک من لا ینطق إلا عن وحی یوحی به إله السماء والأرض، والمطلع علی خفایا الأمور وظواهرها.

وعلیّ هو الحریص کلّ الحرص أن یبقی للجیش الفاتح هیبته حینما یباغت الآخرین، ویغزوهم فی عقر دارهم لتنهی معرکة الفتح دون إراقة دماء. وهیهات هیهات أنی لنا بمثل علیّ وهو النسخة الفریدة والشخصیة الوحیدة فی عالم الیقین والصدق والاخلاص.

الدور الثالث:

بعدما عثر الإمام علی علیه السلام علی الکتاب مع المرأة التی لا تعرف من مضمونه شیئاً، أعمی الأمر علی قریش، فلم تعرف شیئاً عن استعداد الرسولصلی الله علیه و آله و سلم لفتح مکة، وکان النبیصلی الله علیه و آله و سلم قد دعا ربّه أن یعمی أخبار جیشه عن قریش حتی یباغتها کی لا- تقع معرکة طاحنة فی مکة. فالنبیصلی الله علیه و آله و سلم یرید الحفاظ علی شرف الحرم، وإن کان أهله یستحقون الذبح، لمعاداتهم الشدیدة لرسول الهدایة، ولکنه محمدٌ رسولُ الإنسانیة، المحافظ علی القیم. فقد هیأ النبیّصلی الله علیه و آله و سلم کلّ مقدمات المعرکة، وأمر الجیوش بالزحف الهادئ، واستمر حتی وصل الی مر الظهران- وقیل إنه بالجحفة- وهناک أمر الجیش بالنزول، وکان الوقت عشیاً فطلب من الناس أن یوقدوا النار، کلّ واحد یشعل ناراً، وکان

۱- ۱ خاتم النبیین، ۲: ۶۲۷- البحار، ۲۱: ۹۴ وکل من ذکرها من المؤرخین.

ص: ۱۱۹

الغرض من هذا اظهار عظمة الجيش، وقوة العسكر بهذه النار التى ترى من بعيد، حتى تأخذهم الدهشة ولا يفكرون إلا بحماية أنفسهم إما بالإسلام أو بالهروب من المواجهة، ويكون بهذا قد حقّق الفتح الهادئ الذى يحافظ فيه على شرف الكعبة.

وهناك التحق به عمّه العباس، الذى كان بقاؤه بمكة بأمر النبىّ حيث كان يقدم المعلومات عن قريش، ومظاهرها العسكرية وقوتها الاقتصادية، وما كانت تكيد وتدبر لحرب الرسولصلى الله عليه و آله و سلم.

ولما رأى العباس عظمة هذا الجيش الفاتح وقوته تأكّد لديه أن الجيش إذا دخل بهذه القوة والعنجهية ستذهب قريش والى الأبد. فكان يحاول أن يساعد النبيصلى الله عليه و آله و سلم على الفتح الهادئ حتى لا تراق فى هذا الفتح محجمة دم.

وبينما هو غارق فى التفكير لاح بخاطره أن يجول على أطراف المعسكر، لعلّه يرى آتياً أو ذاهباً، يمكنه أن يوصل خبراً لقيادة قريش حتى تأتى وتستأمن لدمها وأموالها، فتحفظ قريش ويحفظ الحرم.

وبينا هو كذلك إذا بأبى سفيان ومعه نفر جاءوا يستمعون الأخبار، وقد أذهلهم ما رأوا من نيران حتى أن بعضهم قال: هذه نار خزاعة، قال أبو سفيان: خزاعة أقل وأذل. وينادى العباس أبا حنظلة! فيجيبه أبو سفيان فداك أبى وأمى بعدما عرفه، وهو مندهش من هول ما رأى عدةً وعدداً، ثم خاطبه ما ترى فى أمرنا؟ قال: الإسلام- التحق بى حتى لا يقتلك الناس، وأردفه خلفه مؤمناً له مانعاً قتله حتى وصل إلى الرسول الأكرمصلى الله عليه و آله و سلم، وعرض عليه الاسلام، ولكنه كانصلب الشكيمة، شديد السخيمة يعزّ عليه فقدان اللّات والعزى والهبل الأعلى، وقد حاول عمر بن الخطاب قتله عن طريق إثارة النبيّصلى الله عليه و آله و سلم، وأن اللَّه قد أمكن منه بلا عهد ولا عقد، ولكن العباس الحريص على الإسلام رأى الحكمة فى بقائه، ليرى عزّة الإسلام، وشرف النبى المطرود، وذلة قريش وصغار أبى سفيان، وطلب من أبى سفيان أن يسلم فتمهل، ولكن النبيّصلى الله عليه و آله و سلم قال لعمّه العباس: أبقه عندك الليلةَ، وآتنى بهصباحاً.

وفى الصباح أسلم بعد محاورة قصيرة، وقال العباس للنبى: إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً، فقال النبيصلى الله عليه و آله و سلم فى معرض توصياته لرؤساء الجند وقادة الكتائب: مَن ألقى سلاحه فهو آمن، ومَن دخل بيتَه وأغلق بابه فهو آمن، ومَن دخل الكعبة فهو آمن، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن. وكان الغرض من ذلك أن يذهب أبو سفيان، ويخذل الناس عن الحرب ويجلس فى بيته، لأنه رجل له قوة تحريضية هائلة على اثارة البلابل، فاسكته النبىّ بهذه المكانة المتساوية مع رجل أغلق بابه، ولا شىء غير ذلك.

وفرح أبو سفيان بهذه الرتبة الجديدة والشرف، وذهب مسرعاً إلى مكة يطلب إلى الناس أن يدخلوا داره، وهو لا يعنيه من الشعارات إلا- أمان داره، وهو قادر على تجير الجو لصالحه، فصار يدعو الى داره فقط ليوهم الناس أنه وحده قد حظى بهذا الشرف، وهذا ما جعل الآخرين إما يلتزمون بيوتهم، أو يهربون إلى الجبال المحيطة بمكة.

ويزحف الجيش الإسلامى المقدام، ويدخل مكّة من طرق أربعة يطوقها من كلّ مكان حتى لا يفكر أحد فى إراقة دم فى بيت اللَّه الحرام، وفى البلد الحرام.

وذكروا أن النبيّصلى الله عليه و آله و سلم كان داخلًا وقلبه خاشع للَّهعلى هذا التوفيق، ولسانه يردّد «إذا جاء نصر اللَّه والفتح

ص: ۱۲۰

ورأیت الناس یدخلون فی دین اللّه أفواجاً فسبح بحمد ربک واستغفره انه کان تواباً».

ومضت فرق الجیش تدخل مکة دون أدنی مقاومة، وقد أخذت الحمیةُ سعد بن عبادة الأنصاری وهو یمرّ أمام أبی سفیان بن حرب فقال له: الیوم یوم الملحمة، الیوم تسبی أو تستحل الحرمة. وتردّد قولُه بین المسلمین فنقلوه إلی النبیصلی الله علیه و آله و سلم وقالوا: یا رسولَ اللّه! ما نأمن أن یکون لسعد فی قریشصولة. وقیل: إن العباس سمع ذلک فقال للنبیّصلی الله علیه و آله و سلم: یا رسول اللّه! أما تسمع ما یقول سعد؟ فقال النبیصلی الله علیه و آله و سلم لأمیر المؤمنین علیه السلام: یا علی! أدرک سعداً، فخذ الرایة منه، وکن أنت الذی تدخل بها مکة. فأدرکه أمیر المؤمنین علیه السلام فأخذها منه، ولم یمتنع علیه سعد بل دفعها إلیه.

ولم یر رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم أحداً من المهاجرین والأنصار یصلح لأخذ الرایة من سید الأنصار سوی أمیر المؤمنین علی علیه السلام.

قال الشیخ المفید رضی الله عنه: واعلم أنه لو رام ذلک غیره، لامتنع علیه سعد، وکان فی امتناعه فسادُ التدبیر، واختلاف الکلمة بین الأنصار والمهاجرین، ولم یکن وجه الرأی تولی رسول اللّه أخذ الرایة بنفسه، وولی ذلک من یقوم مقامه، ولا یتمیز عنه، ولا یُعظم أحدٌ من المقرین بالملة عن الطاعة له، ولا یراه دونه فی الرتبة، وفی هذا من المفضل الذی تخصص به أمیر المؤمنین علیه السلام ما لم یشارکه فیه أحد، ولا ساواه فی نظیر له مساو، وکان علم اللّه تعالی ورسوله فی تمام المصلحة بانفاذ أمیر المؤمنین علیه السلام دون غیره ما کشف به عن اصطفائه لجسیم الأمور کما کان علم اللّه تعالی فیمن اختاره للنبوة وکمال المصلحة ببعثه کاشفاً عن کونهم أفضل الخلق أجمعین (۱).

وهذا الدور لا یحتاج الی تعلیق، لأن وضوح أخذ الرایة من سعد لا یتم الّا برسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم حیث لا یتنازل سعد زعیم الأنصار إلّاللنبیّصلی الله علیه و آله و سلم، ولما کان سعد یعرف أن علیاً هو الرجل الثانی فی الإسلام، وأنه سیصبح الرجل الأول سلم الأمر إلیه بلا تنازع.

الدور الرابع:

التفاف الجیش الإسلامی علی أطراف مکة المکرمة، مکّن النبیصلی الله علیه و آله و سلم من السیطرة العامة علی المدینة، حیث لم تحدث أیة مشکلة تذکر، وطبقت أوامر النبیّ بعدم سفک الدماء فی البلد الحرام.

وأسلم علی أثر الفتح سادةُ مکة، منهم حکیم بن حزام، وبدیل بن ورقاء، وجبیر بن مطعم، وأقبل أبو سفیان یرکض فاستقبلته قریش، وقالوا: ما وراءک وما هذا الغبار؟ قال: محمد فی خلق عظیم، ثمصاح وهو مذعور: یا آل غالب! البیوت البیوت! مَن دخل داری فهو آمن، فعرفت هند زوجته فجعلت تطردهم، ثم قالت: اقتلوا الشیخ الخبیث لعنه اللّه من وافد قوم، وطلیعة قوم. قال لها: ویلک إنی رأیتُ ذات القرون، ورأیت فارس أبناء الکرام، ورأیت ملوک کندة وفتیان حمیر یسلمن آخر النهار، ویلک اسکتی، فقد واللّه جاء الحقّ ودنت البلیة.

وکان رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم قد عهد إلی المسلمین أن لا یقتلوا بمکة إلا من قاتلهم سوی نفر کانوا یؤذون النبیّصلی الله علیه و آله و سلم منهم مقیس بنصبابة، وعبد اللّه بن أبی سرح، وعبد اللّه بن خطل، وقینتین کانتا تغنیان بهجاء رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم، وقال: اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقین بأستار الکعبة. فأدرک ابن خطل وهو متعلق بأستار الکعبة فاستبق

۱- ۱ الارشاد للشیخ المفید: ۷۱.

ص: ۱۲۱

إليه سعيد بن حريث، وعمار بن ياسر، فسبق سعيد عماراً فقتله وقتل مقيس بنصبابة فی السوق، وقتل علی علیه السلام إحدی القينتين وأفلتت الأخری، وقتل أيضاً الحويرت بن نفيل بن كعب.

وبلغ علياً علیه السلام أن أُخته امَّ هانی بنت أبی طالب قد أوت ناساً من بنی مخزوم، منهم الحارث بن هاشم، وقيس بن السائب، فقصد نحو دارها مقنعاً بالحديد فنادی: أخرجوا من آويتم، فجعلوا يذرقون كما تذرق الحبارى خوفاً منه، فخرجت إليه أمُّ هانی وهی لا تعرفه فقالت: يا عبد اللَّه أنا أمُّ هانی بنت عمّ رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم وأخت علیّ بن أبی طالب، انصرف عن دارى، فقال: أخرجوهم. فقالت: اللَّه! لأشكونّك الی رسول اللَّه. فنزع المغفر عن رأسه فعرفته فجاءت تشتد حتی التزمته فقالت: فديتك، حلفت لاشكونك الی رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم، فقال لها: اذهبی فبری قسمك فإنه بأعلی الوادی. قالت أمّ هانی: فجئت إلی النبیصلی الله علیه و آله و سلم وهو فی قبة يغتسل وفاطمة عليها السلام تستره، فلما سمع رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم كلامی، قال: مرحباً بك يا أمّ هانی، قلت: بأبی وأمی ما لقيت من علی اليوم، فقالصلی الله علیه و آله و سلم وقد فهم ما تريد: قد أجرتُ من أجرتِ، فقالت فاطمة عليها السلام تشكين علياً علیه السلام، لأنه أخاف أعداء اللَّه، واعداء رسوله، فقلت:

احتملينی فديتك، فقال رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم: قد شكر اللَّه سعيه وأجرتُ من أجارت أم هانی لمكانتها من علی بن أبی طالب (۱).

هل قرأت معی كيف نفذ الأوامر، وقتل الأعداء، ولاحقهم ولم يتراجع، ولم يراعِ بذلك بيوت أهله وأقاربه، ولا بيت أخته الوحيدة، التی لم يرها منذ زمن؟ ولكنه علیّ المعروف بفنائه بالحقّ، ومعاداته لأهل الباطل، وهو القائل: ما ترك لی الحقّصاحباً. فبينا ترى بعض الصحابة يخاف علی أهله لتصور شيطانی، أو يخاف علی مستقبل وضعه لظنه أو احتماله غلبة قريش، فإذا به يفشی الأسرار العسكرية، أو يتراجع حين البأس ويفرّ من المعركة، أما علی هو هو فی المسجد والمحراب وفی المعركة والمواقف مع الأهل والأخت والبنت والأولاد علی حدّ سواء، لا يقدم علی الحقّ أحداً.

الدور الخامس:

بعدما لوت مكة جيدها، وأذعنت لبيرق النبوة، وتحولت الی سلطة الرسولصلی الله علیه و آله و سلم، ودخل الناس فی دين اللَّه أفواجاً حيث خرجت الرجال من مخابئها، وأسلمت وخرجت النساء من خدورهن واسلمن، وانضوی الناس فی ظل الرسالة الإسلامية، وعادت مكة الی دورتها الأولی يوم خلق اللَّه السماوات والأرض، وعاد البلد الحرام حيث يحرم فيها سفك الدماء، وأصبحت واحة الأمان والراحة والاطمئنان، دخل النبیصلی الله علیه و آله و سلم فاتحاً لا كما يدخل الفاتحون عنوةً بل كما يدخل الرسل المتواضعون ذاكراً ربّه، ناظراً الی قربوس فرسه، لم يدخل مستعلياً ولا مستكبراً وإنما دخل ذاكراً شاكراً مسبحاً مستغفراً.

وبما أن مكةَ المكرمة كانت مجمع عبادة العرب، ومركز التجمع الصنمی أيضاً، وكان الغرض الأساس من الحرب الفكرية والنفسية والمادية إزالة دولة الصنمية، وتأسيس دولة الإله الواحد الحقّ مكانها، كان لابد من تركيز

۱- ۱ البحار، ۲۱: ۱۳۲ طبعة بيروت.

ص: ۱۲۲

الألوهیة فی أذهان الناس، وتحطیم المظاهر الصنمیة وقلعها من الأذهان، وتحطیم کل المظاهر الصنمیة الموجودة فی الکعبة وفی جوارها. قال الإمام الرضا علیه السلام- کما فی البحار- وکانت ثلاثمائة وستینصنماً حول الکعبة عندما فتح النبیّصلی الله علیه و آله و سلم مکة فمر بها وجعل یطعنها بمخصرة فی یده ویقول: جاء الحقُّ وزهق الباطل إن الباطل کان زهوقاً، فجعلت تکب لوجهها (۱).

وفی روایة ابن شهر آشوب: إن الإمام علیاً علیه السلامصعد علی أکتاف النبی وکسر الأصنام الموجودة علی ظهر الکعبة.

واذکر بعض الأبیات التی أرویها من حافظتی، وکنت قد حفظتها قبل أکثر من ثلاثین عاماً، والمصدر الآن غیر موجود فی مکتبتی التی أحرقها الظالمون.

وهذه هی الأبیات:

قیلَ لی قلْ فی علی مِدَحاً ذکرها یطفئ ناراً مؤصدهْ

قلت هل أمدح مَن فی فضله حار ذو اللب الی أن عبدهْ

والنبیّ المصطفی قال لنا لیلة المعراج لماصعَّدهْ

وضع اللَّه علی ظهری یداً فأحس القلب أن قد بَرَدَهْ کان هدف الإسلام محو الصنمیة من الوجود الخارجی، بل الوجود الذهنی أیضاً، والعقیدة الصنمیة حالة مستعصیة، مرکوزة فی الذهن والوجدان، وبعضهم رضع عقیدة الصنم وعبادة الصنم مع الحلیب فأنّی له أن یترک هذه العبادة ولو کانت خرافة فوقها خرافة؟ والذی عشق الخرافة ورضع الخرافة، لا یراها خرافةً وإنما یراهاصحیحة، وهذا هو الجهل المرکب. ومشکلة الرسالة کانت مع هذا الجهل المرکب، مع التعقید النفسی والذهنی. فهل کان الرسول بإمکانه غرس العقیدة الإلهیة دون إزالة العقیدة الصنمیة من الأذهان؟ وهل یمکن محوها من الذهن قبل محوها من الواقع؟ ومَن الذی یساعده علی هذه المهمة الصعبة إلّارجل الصعاب، رجل المواقف، إلا علیّ الذیصعد علی کتف النبیّ، وحمل فأس النبوة بیده القویة وزنده المتین، حتی کسرها تکسیراً؟ وبذلک تمّ الانتصار الحقیقی للإسلام بازالة کل آثار الصنمیة ومحوها من الوجود.

الدور السادس:

سدانة البیت العتیق فی الجاهلیة والإسلام مکانة مرموقة، وکان أولاد أبی طلحة قد ثبتوا هذا الشرف، ولا ینافسهم فیه غیرهم من قریش وظلوا علی ذلک زماناً، وکان رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم قد قال لعثمان بن أبی طلحة- یوماً من الأیام-: ربما یأتی زمان یکون هذا المفتاح فی یدی أضعه حیث أشاء، فهزع عثمان بهذا الکلام.

ومن الطبیعی بعد سقوط مکّة وفتحها بهذا الجیش الجرّار، أن یرکز فیها المواقع الأساسیة کالسدانة والسقایة والولایة وما إلیها، وأحسّ عثمان بأن أیامهم انتهت فأغلق الباب، وصعد بالمفتاح علی السطح، وکأنه أراد أن یختبئ وینجو بهذا العلو فوق سطح الکعبة قائلًا: لو أعلم أنه رسولُ اللَّه لم أمنعه- یعنی بقی علی عناده بعد أن دخل الناس فی دین اللَّه أفواجاً- وعندها أمر النبیّصلی الله علیه و آله و سلم علیّاً علیه السلام أن یصعد السطح، ویأخذ المفتاح منه، ولما وصل علیّ علیه السلام الی عثمان حاول التمنع، ولکن علیاً أمسکه فحاول الانفلات، ولکن هیهات فقد أمسکه ذو قوة لو اجتمع جیش عرمرم

۱- ۱ البحار، ۲۱: ۱۱۶.

ص: ۱۲۳

علی ازالته منه لما أمکنه ذلک، ثم لوی یده وأخذ المفتاح منه، وفتح باب الکعبة ودخل الرسولصلی الله علیه و آله و سلم إلی الکعبة فصلی رکعتین، فلما خرج سأله عمّه العباس أن یعطیه المفتاح فنزل قوله تعالی: «إن اللَّه یأمرکم أن تؤدوا الأمانات الی أهلها» فأمر النبیصلی الله علیه و آله و سلم علیاً أن یرد المفتاح الی عثمان، فقال: یا علی! أکرهت وأدیت ثم جئت برفق. قال لقد أنزل اللَّه عزّ وجلّ بشأنک قرآناً، وقرأ الآیة علیه، فأسلم عثمان فأقرّه النبیصلی الله علیه و آله و سلم فی یده (۱).

کل دعوة تحتاج- مهما کانت محقة- الی قوة تساندها، قوة المال، وقوة الزند والسیف، وقد کان رسول الهدایة محمدصلی الله علیه و آله و سلم یحتاج الی الاثنین معاً کغیره من أصحاب الدعوات الصالحة، وقد وفق اللَّه بمال خدیجة فانفقته حتی لم یبق منه شیءٌ، وبقی زند علی علیه السلام الذی رافق الدعوة حتی ثبّت أرکانه.

وفروسیة علی وقوته وشجاعته کانت لا تخفی علی أحد، وکانوا یهابونهصغیراً وکبیراً، وإذا تصدی علی علیه السلام لموقف کانوا یعرفونه لا یرجع حتی یفتح اللَّه علی یده.

من هنا لم یکن بإمکان عثمان بن طلحة ولا غیره أن یختبئ، أو یصعد علی سطح الکعبة هروباً فی وجود هذا الجیش، خصوصاً وجود الذراع التی تطوی الحدید. فهل بإمکانه مقاومة هذا الساعد الذی یحمل الفرس والفارس أو یضرب الفارس المقنع بالحدید فیقده نصفین؟

ظنَّ عثمان أنه بإمکانه أن یمتنع وهو بعد لم یعرف قدرة علی، وشدّة ساعده، کان یسمع فی علیّ وقوته، والآن تحقق له عندما أمسک علی بیده ماذا حلّ به. کیف استلم دون مقاومة کأنه کان أمام أمرین إما أن یقع بدون حرکة، أو یقدم المفتاح بدون ضجیج، فکان التسلیم للصاعقة الإلهیة لیسف علی وساعده؛ لیدخل النبی الکعبة ولیعلن موقفه واضحاً دون قتال فی هذا البیت العتیق.

الدور السابع: لا یکفی أن یفتح النبیّصلی الله علیه و آله و سلم مکة المکرمة ویترک ما حولها من جیوب، یترک المحیط بعیداً عنها عقائدیاً وأخلاقیاً، بل لابد من الدعوة الشاملة والخیر العمیم حتی تعود مکة بجوارها وقراها، لتعود أمّ القری بأولادها وأحفادها کما أراد لها ربّ العزة، تمشی فی الطریق السوی لیدخل الناس فی دین اللَّه أفواجاً.

ومن هنا عندما هدأت العاصفة، واستتبَّ الأمن فی البلد الحرام، وأمن من آمن، وقتل من قتل، وتحقق النصر الإلهی، ونصر اللَّه عبده وأعزّ جنده، وهزم الأحزاب وحده. بث السرایا إلی القری المجاورة تدعو الناس للإسلام، وکانت القری- التی سمعت بنصر اللَّه، وخذلان قریش- علی شیء من الاستعداد تنتظر هذه السرایا؛ لتعلن کلمة التوحید وتنضوی تحت لواء الدین الجدید.

وکان ممن بعث خالد بن الولید علی رأس سریة الی بنی جذیمة، وکانت بنو جذیمة قد أصابت فی زمن الجاهلیة عوف بن عوف أبا عبد الرحمن بن عوف والفاکه بن المغیرة، وکان من أقارب خالد، فلما وصل خالد إلی القبیلة حملوا السلاح فی وجهه، فطلب الیهم القاء السلاح فلم یقبلوا لخوف من أخذ الثأر منهم، قال رجل منهم یقال له جحدم:

۱- ۱ البحار، ۲۱: ۱۱۶.

ص: ۱۲۴

ویلکم یا بنی جذیمة! إنه خالد واللّه، ما بعد القاء السلاح إلا الأسر، وما بعد الأسر إلا القتل، فأخذه رجال من قومه، وقالوا یا جحدم ترید أن تسفک دماءنا؛ إن القوم قد أسلموا، ووضعت الحرب وأمن الناس وما زالوا به حتی نزعوا منه سلاحه، ووضع القوم السلاح امتثالًا لطلب خالد، فلما وضعوا السلاح أمر بهم فکتفوا، ثم عرضهم علی السیف فقتل من قتل منهم، فلما انتهی الخبر الی رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم رفع یدیه إلی السماء، ثم قال: اللهم انی أبرأ إلیک مماصنع خالد (۱).

ثم دعا علیاً علیه السلام فقال: یا علی أخرج الی هؤلاء القوم فانظر فی أمرهم، واجعل أمر الجاهلیة تحت قدمیک، فخرج حتی جاءهم، ومعه مال قد بعثه رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم فودَی لهم الدماء، وما أصیب من الأموال حتی إنه لَیدِی مِیلغَةَ الکلب، حتی إذا لم یبق شیء من دم ولا مال إلا وداه، بقیت معه بقیة من المال. فقال لهم علی علیه السلام حین فرغ منهم: هل بقی لکم دمٌ أو مالٌ لم یود إلیکم؟ قالوا: لا، قال: فإنی أعطیکم هذا المال الباقی احتیاطاً لرسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم مما لا یعلم ولا تعلمون، ففعل ووافقوا شاکرین، ثم رجع الی رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم فأخبره الخبر. فقال: أصبت وأحسنت، ثم قام رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم فاستقبل القبلة قائماً شاهراً یدیه حتی إنه لیُری بیاض ما تحت منکبیه وهو یقول:

اللهم انی أبرأ الیک مماصنع خالد بن الولید، ثلاث مرات (۲).

إنَّ تثبیت الدولة یکون بإرخاء رواسی العدل والمساواة بین الناس، والإسلام جاء لیمحو أوضاع الجاهلیة وما علیها من شنآن ویمشی فی الناس بالحق والعدل ولا تزر وازرة وزر أخری. وما قام به خالد لا علاقة له بالإسلام، بل هو الراسب الجاهلی المتحکم فی عقل هذا الرجل الذی أسلم متأخراً ولا تزال رواسب الجاهلیة فی کیانه، فهو لم یستطع أن یترفع عنها مع أن النبی قال فی خطبته البلیغة أمام أهالی مکة: کل دم فی الجاهلیة فهو تحت قدمیَّ هاتین.

وکأن خالد لم یسمع أو لم یعِ ما قاله المصلح الکبیر، ولهذا تبرأ منه النبیصلی الله علیه و آله و سلم ومن أفعاله، وتأثر لهذه الحادثة النکراء، وبعث علیاً الذی هو نفسه لیمثله فی رأب الصدع واستنکار الجریمة ودفع الدیات وتعویض الخسائر المادیة، حتی میلغة الکلب- أی الجرن الذی یشرب منه الکلب، وهو وعاء من حجر أو خشب لا- قیمة له- حتی یثبت الحق ویرسی دعائم العدل، ومن أولی من علی الأعلم الأقضی بفک الخصومات، وحلّ المشاکل وإرضاء الناس، وإعادة الأمور إلی نصابها. علی الحکیم فی القضاء، والحکیم فی المواقف ومداراة عواطف الناس حتی رجع والقوم مطمئنون کأنه لم یصبهم شیء، فبورک علی وبورک هذا اللطف الرسالی الذی یحمله بین حنایاه، عالماً وقاضیاً ومدافعاً عن الإسلام الحقّ.

وقفة عتاب خفیفة مع محمد حسین هیکل:

بلغ کتاب هیکل مجده، حیث وزع علی أکثر الدول العالمیة المهتمة بالتراث، خصوصاً أن هیکل کتب کتابه وفق الأنظمة الحدیثة للکتابة، حتی یجعله مرجعاً سهلًا للباحثین الغربیین والشرقیین علی السواء، ولکل من أراد أن یدرس حیاة محمدصلی الله علیه و آله و سلم. والحق أن الکتاب اختصر التاریخ وأجاد کاتبه فی کثیر من المناسبات، بل حلق فی بعض المواقف. والکتاب موفق کماً ونوعاً ومنهجاً واسلوباً.

غیر أننا ونحن نعتز بأحد أهم کتاب العصر الحدیث، نأسف لکاتب من هذا النوع- وهو یسبر أغوار التاریخ

۱- ۱ الطبری، ۲: ۱۶۴.

۲- ۲ نفس المصدر.

ص: ۱۲۵

ویشهد الحقائق بکل نصاعتها- أن یبقی فی ذهنه شیء من رواسب الماضی العفن حیث الحزبیة والطائفیة المقیتة ونربأ به أن یکون فی ذهنه شیء علی علیّ إمام المتقین وقائد الغر المحجلین، خصوصاً أن له موقفاً مميزاً فی کتابة الطبعة الأولی من کتابه المطبوع فی مصر عندما یتحدث عن یوم الدار، ویثبت فیه الوصیة لأمیر المؤمنین علیه السلام ویثور علیه المتعصبون أتباع بنی أمیة، ویقولون له: هذا عین ما تقوله الشیعة، فیقول لهم: هذا عین ما یقوله التاریخ، ثم یمحو ویحذف هذا الکلام من الکتاب عندما یتفق معه علی شراء ۵۰۰ خمسمائة نسخة فی الطبعة الثانیة، فیهدم بهذا هیکل کل ما بناه من تحقیق علمی نزیه وبحث موضوعی مجرد.

وهنا فی هذا الموضوع عندما یتعرض لموضوع فتح مکة المکرمة یجرد علیاً عن أی مکرمة بحذف مقصودٍ واهمال مقصود، وإذا اضطرته حقائق التاریخ التی یکتبها الطبری وابن الأثیر والیعقوبی وابن هشام وغیرهم ممن تعرضوا لأکثر تفاصیل الفتوحات المبارکة، یختصرها اختصاراً یکاد معه یمحو ذکر الحادثة. فهو مثلًا فی مسألة الرایة لا یذکر العباس ولا یذکر علیاً علیه السلام، وفی مسألة أم هانی لا یذکر علیاً وفی مسألة هدور دم الأعداء الألداء فی العداوة الذین أمر النبیصلی الله علیه و آله و سلم علیاً بقتلهم لا یذکر علیاً، وفی مسألة تکسیر الأصنام یتجاهل علیاً تماماً، وهکذا یبدو هیکل وکأنه فی حرب مع علی علیه السلام غیر معلنة بل معلنة.

من هنا نوصی القراء الکرام أن یعودوا الی قراءة علی وفق ما أرسله الآخرون علی الأقل إرسال المسلمات رغم الظروف الصعبة التی مرّت علی المؤرخین وملاحقتهم وتفتیش دفاترهم، وعرض مؤلفاتهم علی أجهزة المخابرات، حتی لا یذکر فیها علی بخیر. ورغم مراقبة الشاردة والواردة، ورغم المتعصبین الکثیرین ورغم هذا کله کانوا أکثر إنصافاً لعلی علیه السلام الذی وردت فیه الآیات والروایات الکثیرة. «عنوانصحیفة المرء حبّ علی بن أبی طالب» (۱).

الهوامش:

حجّ الصبیان

۱- ۱ کنز العمال.

ص: ۱۲۶

فقه الحجّ فی دراسة استدلالیّة مقارنة

حجّ الصبیان

محسن الأراکی

لا خلاف بین فقهاء الإسلام فی عدم وجوب الحجّ علی غیر البالغ؛ لرفع قلم التکلیف عن الصبی علی ما رواه أصحاب السنن- کابن داود وابن ماجة والترمذی، ورواه الإمامیة- مع اختلاف یسیر فی اللفظ- عن أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب علیه السلام قال:

قال رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم: «رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتی یستیقظ، وعن الصبیّ حتی یشب، وعن المعتوه حتی یعقل. وفی لفظ الدارمی عن عائشة: وعن الصغیر حتی یحتلم، وفی روایات الامامیة: عن الصبی حتی یحتلم» (۱).

ویدل علی ذلک- أیضاً- ما دلّ علی عدم إجزاء حجّ الصبی عن حجّة الإسلام. روی البیهقی عن ابن عباس قال: قال رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم: «أیماصبیّ حجّ ثم بلغ فعلیه حجّة أخری، وأیما عبد حجّ ثم اعتق فعلیه حجّة أخری».

وقد رویت فی ذلک عن طرق الإمامیة أحادیث متعددة منها ما رواه الصدوق بسندصحیح عن اسحاق بن عمار قال: سألت أبا الحسن علیه السلام عن ابن عشر سنین یحج؟ قال: علیه حجّة الإسلام إذا احتلم، وکذلک الجاریة علیها الحجّ إذا طمثت» (۲).

فوجوب الحجّ بعد البلوغ مع کون الصبی قد أتی به قبله، وعدم احتساب ما أتی به دلیل علی اشتراط وجوب الحجّ بالبلوغ؛ لوضوح عدم

۱- ۱ سنن الدارمی، ۲: ۱۷۱- والوسائل، أبواب مقدمة العبادات، الباب ۴، الحدیث ۱۱.

۲- ۲ الوسائل، الباب ۱۲ من أبواب وجوب الحج، الحدیث ۱.

ص: ۱۲۷

وجوب الحجّ أكثر من مرة واحدة.

صحّةُ حجِّ الصّبيِّ:

ذهب فقهاء المسلمين عامة- ما عدا أبا حنيفة- إليصحّة حجّ الصّبى، بل نسب إلى ابن المنذر والقاضى عياض دعوى الإجماع عليها (۱)، وذهب أبو حنيفة إلى عدمصحّته وقال: لا ينعقد إحرام الصّبى، ولا يصير محرماً بإحرام وليّه (۲).

والدليل عليصحّة حجّ الصّبىّ أُمور:

الأوّل: «ما رواه الشيخ الطوسى بسندصحيح عن عبد اللّه بن سنان عن الصادق عليه السلام قال: سمعته يقول: مرّ رسول اللّهصلى الله عليه و آله و سلم برويثة وهو حاجّ إليه امرأة ومعهاصبيّ لها، فقالت: يا رسول اللّه أيحجّ عن مثل هذا؟ قال: نعم، ولكِ أجره» (۳).

الثانى: ما رواه البخارى فى باب حجّ الصّبيان عن السائب بن يزيد قال: «حُجّ بى مع رسول اللّهصلى الله عليه و آله و سلم وأنا ابن سبع سنين» (۴).

فإنّ ظاهر التّعبير أنّ ذلك قد تمّ على مرآى ومسمع من رسولاللّهصلى الله عليه و آله و سلم ولم ينكر، فيدلّ على تقريرهصلى الله عليه و آله و سلم لحجّ الصّبى الكاشف عنصحّته.

الثالث: ما رواه مسلم فيصحيحه عن ابنعباس عن النبيّصلى الله عليه و آله و سلم قال: «رفعت امرأةٌصبيّاً لها فقالت:

يا رسول اللّه ألهذا حجّ؟ قال: نعم، ولكِ أجر» (۵).

الرابع: ما رواه ابن ماجة عن جابر قال: «حججنا مع رسول اللّهصلى الله عليه و آله و سلم معنا النساء والصبيان فلبينا عن الصبيان ورمينا عنهم» (۶).

ودلالته عليصحة حجّ الصّبىّ من حيث ظهوره فى أنهم إنما فعلوا ذلك عن أمر رسول اللّهصلى الله عليه و آله و سلم.

الخامس: الروايات الّتى دلّت على عدم إجزاء حجّ الصّبى، وأنّ عليه حجّة الإسلام إذا بلغ، فانها ظاهرة فيصحّة أصل الحجّ؛ لأنه لو كان باطلًا من أصله لم يصل الدور إلى بيان حكم عدم إجزائه عن حجّة الإسلام، إذن فالتعرض لبيان عدم اجزائه عن حجة الإسلام يدلّ على كونصحته مفروغاً منها.

والروايات التى دلّت على عدم الإجزاء كثيرة من طرق الإماميّة وغيرها، سوف نشير اليها فى البحث الآتى.

وأمّا الذى ذهب اليه أبو حنيفة من عدمصحّة حجّ الصّبى فقد استدلّ عليه بما يلى:

الأوّل: حديث رفع القلم عن

۱- ۱ شرح المهذب، ۷: ۳۸- ۳۹.

۲- ۲ المغنى لابن قدامة، ۳: ۲۵۲.

۳- ۳ الوسائل، أبواب وجوب الحج، الباب ۲۰، الحديث الأول.

۴- ۴صحيح البخارى، ۱: ۳۱۹.

۵- ۵صحيح مسلم، بابصحة حج الصبى وأجر من حج به، ۴: ۱۰۱.

۶- ۶ سنن ابن ماجة.

ص: ۱۲۸

الصبی وقد سبق التعرض له.

والجواب عنه: أنّ الظّاهر من الروایـة إرادة قلم الوجوب والتکلیف؛ لأنّ المراد بالقلم الکتابـة، والکتابة تعنی الوجوب، فمعنی رفع القلم عن الصبی أنه لم یکتب فی حقه شیء، أی لم یجب علیه، وعدم الوجوب لا یلازم عدم الصحّة.

ویمکـن- أیضـاً- أن یکـون المراد به قلم العقـاب، أی: لم یکتب فی حقّه المؤاخـذة والعقـاب، وهـو- أیضـاً- یفیـد بالتـالی معنی رفع الوجوب، فلا یدلّ علی نفی الصحّة.

الثانی: قیاس إحرام الحجّ بالنذر، فکما لا یصحّ نذر الصبیّ؛ لأنّه سـبب یلزم به حکم، کذلک إحرام الصبی فإنّه سبب یلزم به حکم فلا یصح کذلک.

والجواب عنه: بناءً علیصحّة العمل بالقیاس بوجوه:

الوجه الأول: أنّ السبب لیس فعل الصبی منفرداً بل هو مع إذن الولیّ، فافترق المقیس عن المقیس علیه.

الوجه الثانی: أن هنا قیاساً معارضاً وهو قیاس إحرام الصبی بمعاملاته، فقد ذهب أبو حنیفة إلی أن الصبی العاقل المأذون له فی التجارة إذا باع أو اشتری أو آجر أو استأجر ینفذ تصرفه (۱). فنقیس علی ذلک أحرامه بالحجّ فیکونصحیحاً بإذن ولیّه کما تصحّ معاملاته.

الوجه الثـالث: أنّ النـذر التزام یلتزمه الصّبی علی نفسه، فقـد یلتزم ما لا یوافق مصـلحته فتنفیـذه یوجب الإخلال بمصالحه، أمّا ما یحرم بالإحرام فإنه إلزام مشـرّع من قبل اللّه- سـبحانه وتعالی- وتشـریع اللّه- سـبحانه وتعالی- لا یکون إلّاوفق ما تقتضیه مصلحة العبد، فبین الموردین فرق لا یصحّ قیاس أحدهما بالآخر.

الوجه الرابع: أن الحکم الّـذی ینشـأ من إحرام الصّبی حکم علی الولیّ، فـإنّ علی الولیّ أنْ یجنّب الصّبی محرمـات الإـحرام، فلو قصّـر فارتکب الصّبی شـیئاً من ذلک تحمّل الولیّ تبعات ذلک کما یعود إلیه أجر حجّه، بخلاف نـذر الصّبی فإنه لا معنی لأن یتحمل الولی تبعات نذر الصّبی، فبین الموردین فرق موضوعاً وحکماً فیبطل قیاس أحدهما بالآخر.

الثالث: أن الحجّ عبادة بدنیّة فلا یصحّ أن ینوب الکبیر فیها عن الصغیر کالصّوم والصّلاة.

والجواب عنه: أن الصـحیح فی حـجّ الصّبی- کمـا سوف نبیّنه فی محلّه- أنّه فعـل یتلبّس به الصّبی بسـبب الولیّ، فلیس الولیّ نائبـاً عن الصبی فی حجّه بل الفعل فعل الصّبی، ولا ینکر أبو حنیفةصحّةصلاة الصّبی ووضوئه وصومه، فکذلک لا مانع من أن تصح

۱- ۱ طریقة الخلاف بین الأسلاف:ص ۴۸۹.

ص: ۱۲۹

منه عبادة الحجّ كغيرها من العبادات.

الرابع: أن الحجّ لوصحّ من الصبىّ لوجب عليه قضاؤه إذا أفسده.

والجواب عنه: نحن نلتزم بأن الصبى إذا أفسد حجّه فيجب عليه القضاء بعد البلوغ.

عدم إجزاء حجّ الصّبىّ عن حجّة الإسلام:

أجمع الفقهاء على أنّ الصبى إذا حجّ فيصباه لم يجزه ذلك عن حجّة الإسلام، فعليه أن يحجّ إذا بلغ عندما تتوفر فيه سائر شرايط الوجوب.

ويدلّ عليه- بعد الإجماع-:

أولًا آية الحجّ: «... ولله على الناس حجّ البيت من استطاع إليه سبيلًا ...» فإنها لا تشمل الصّبى، فلا يكون فعله قبل البلوغ امتثالًا للفريضة التى شرّعتها هذه الآية، حتى إذا بلغ شملَه التكليف الوارد فى الآية، فوجب عليه الخروج عن عهدته بالإتيان بحجّة أخرى، والإكتفاء بما أتى به- سابقاً- فى زمنصباه عن التكليف الّذى توجه إليه بعد البلوغ بحاجة إلى دليل خاص، وهو مفقود.

ص: ۱۳۰

ثانیاً: ما رواه الصدوق بإسناده عنصفوان عن اسحاق بن عمار، قال: سألتُ أبا الحسن علیه السلام عن ابن عشر سنین، یحجّ؟ قال: «علیه حجّة الإسلام إذا احتلم، وکذلک الجاریة علیها الحجّ إذا طمثت» (۱). وروی مثله الکلینی بإسناده عن شهاب عن أبی عبد اللّه علیه السلام.

ثالثاً: ما رواه الکلینی بإسناده عن مسمع بن عبد الملک عن أبی عبد اللّه علیه السلام- فی حدیث- قال: «لو أنّ غلاماً حجّ عشر حجج ثم احتلم، کانت علیه فریضة الإسلام» (۲).

رابعاً: ما رواه البیهقی بإسناد جید عن ابن عبّاس قال: قال رسول اللّهصلی الله علیه و آله و سلم: «أیّماصبی حجّ ثم بلغ فعلیه حجّة أخری ...» الحدیث (۳).

خامساً: ما رواه أحمد بن حنبل مرسلًا عن محمد بن کعب القرظی عن النبیّصلی الله علیه و آله و سلم قال: «أیّماصبی حجّ به أهلُه فمات أجزأت عنه فإن أدرک فعلیه الحجّ ...» الحدیث (۴).

استحباب حجّ الصّبیّ، وفیه مسائل:

المسألة الأولی:

فی استحباب حجّ الصّبیّ لنفسه

وتدل علیه الأدلّة کافة الدالّة علیصحة حجه ومشروعیته وخاصة ما ورد فیه التعبیر ب «أجزأت عنه» کما جاء فی روایة أحمد بن حنبل الماضیة، أو التعبیر ب «قضی حجة الإسلام» الوارد فی روایة أبان بن الحکم عن الصادق علیه السلام قال: سمعته یقول:

«الصّبیّ إذا حجّ به فقد قضی حجة الإسلام حتی یکبر» (۵).

والحاصل أن لازم القول بصحّة عبادة الصّبی وشرعیتها هو استحبابها فی حقّه، بمعنی محبوبیتها شرعاً المستتبع لثبوت استحقاق الثواب علی فعله.

ولهذا فالدلیل علی استحباب عبادة الصبی- ومنها حجّه- هو نفس الدلیل الدالّ علی شرعیّتها وصحّتها.

ثم إنّ استحقاق الصّبیّ للثواب فرعصدق امتثال الأمر أو الانقیاد فی حقّه، وصدق الامتثال أو الانقیاد فی حقّ الصّبیّ متوقف علی تحقق الإرادة والاختیار، وتحقق الإرادة والاختیار لدی الصّبی یتوقف علی درجة من الوعی والتمییز، وبها یصحّ استناد الفعل إلی اختیار الصّبی وإرادته، فإن الاختیار والإرادة فرع العلم برجحان الفعل، وهو یتوقف علی درجة من الوعی والتمییز.

وعلی هذا فلا نتصوّر فی الطفل الصغیر الفاقد للوعی والتمییز، والعدیم الإرادة التی یتوقف علیهاصدق استناد الفعل الاختیاری إلیه أن یترتب علی فعله الثواب لنفسه، اللهم

۱- ۱ الوسائل، أبواب وجوب الحج، الباب ۱۲، الحدیث الأول.

۲- ۲ الوسائل، أبواب وجوب الحج، الباب ۱۳، الحدیث ۲.

۳- ۳ شرح المهذب، ۷: ۴۵ نقلًا عن البیهقی.

۴- ۴ نیل الأوطار للشوکانی، ۴: ۲۹۳.

۵- ۵ الوسائل، أبواب وجوب الحج، الباب ۱۳، الحدیث الأول.

ص: ۱۳۱

إلّا فی الآثار الوضعیّة، التی لا یدور ترتبها مدار الإرادة والاختیار، فإنها تترتب علی فعل الصّبی من غیر تردید. نعم یستحق الولی ثواب الإحجاج به، والثواب هنا علی فعل الولی نفسه، ولیس الصبی إلا آلة مجرّدة.

إذن فالحقّ أن الصّبی الذی بلغ درجة من الوعی تجعله متمکناً من إرادة الفعل، أی قادراً علی معرفة وجه رجحان الفعل، وترجیحه علی النقیض، بحیث یصحّح العرف العقلائی فی استناد الفعل إلی اختیار الصبی وإرادته- وإن کان بإیجاد الداعی فی نفس الطفل من قبل الولی أو غیره- یستحق الثواب علی فعله؛ أمّا الصبی الفاقد للوعی والتمییز نهائیاً فإنّما یستحق الولی الثواب علی فعله؛ لأنّ الفعل حینئذٍ فعل الولی ولیس الصّبی إلّامجرّد وسیلة.

المسألة الثّانیة:

فی استحباب الحجّ بالصبی لولیّه

قال ابن عبد البر فی التمهید:

صحّح حجّ الصّبی مالک والشافعی وسائر فقهاء الحجاز، والثوری وسائر فقهاء الکوفة، والأوزاعی واللیث ومَن سلک سبیلهما من أهل الشام ومصر، قال: وکلّ من ذکرناه یقول:

یستحبّ الحجّ بالصبیان. ویأمر به (۱)

وقال المحقّق النجفی فی جواهر الکلام: «یصح أن یحرم عن غیر الممیّز ولیه ندباً، وکذا المجنون، فیستحق الثواب حینئذٍ علیه، وتلزمه الکفارة والأفعال والتروک علی الوجه الّذی ستعرفه بلا خلاف أجده فی أصل مشروعیّة ذلک للولی، بل یمکن تحصیل الإجماع علیه» (۲).

والظّاهر أنّ استحباب الحجّ بالصبی لولیّه متفق علیه بین القائلین بصحّة حجّ الصبی، وتدل علیه الروایات الکثیرة التی ورد فیها أمر الولی بإعانة الصبی فی إتمام عمل الحجّ، وما یلزم الولی فعله بالصبی من مناسک الحجّ وأفعاله وتروکه، ونذکر فیما یلی نبذة من الروایات الدالّة علی استحباب الحجّ بالصبی لولیّه، واستحقاقه بذلک الأجر والثواب:

۱- روی مسلم فیصحیحه عن ابن عباس عن النبیصلی الله علیه و آله و سلم قال:

رفعت امرأةصبیّاً لها فقالت: یا رسولَ اللّه ألهذا حجّ؟ قال: «نعم ولکِ أجر» (۳).

وروی قریباً من هذا المضمون شیخنا الطوسی بسندصحیح عن عبد اللّه بن سنان عن الصادق علیه السلام جاء

۱- ۱ شرح المهذب، ۷: ۳۹.

۲- ۲ جواهر الکلام، ۱۷: ۲۳۵.

۳- ۳صحیح مسلم، بابصحة حج الصبی وأجر من حج به، ۴: ۱۰۱.

ص: ۱۳۲

فيه: قالت: يا رسول اللّه أيحجّ عن مثل هذا؟ قال: «نعم، ولكِ أجره» (۱).

۲- روى ابن ماجة عن جابر قال: حججنا مع رسول اللّهصلى الله عليه و آله و سلم، ومعنا النساء والصبيان، فلبينا عن الصبيان ورمينا عنهم (۲).

وهو يدل على مشروعيّة احجاج الولى بصبيّه، وشرعيّة العمل هنا تكشف عن المحبوبيّة، وهى تلازم الاستحباب واستحقاق الثواب.

۳- روى الصدوق بإسناده عن معاوية بن عمّار عن أبى عبد اللّه عليه السلام، قال: «أُنظروا من كان معكم من الصبيان فقدموه إلى الجحفة، أو إلى بطن مرّ، ويصنع بهم ما يصنع بالمحرم، ويطاف بهم ويرمى عنهم، ومن لا يجد الهدى منهم فليصم وليّه عنه» (۳).

فالأمر المتوجّه إلى الولى فى الإحجاج بصبيّه فى هذه الرواية دليل على استحبابه عليه، بعد وضوح عدم إرادة الوجوب منه للقرائن وللإجماع.

وهناك روايات أخرى دالّة على استحباب الحجّ بالصبى لوليّه نكتفى منها بما ذكرناه.

المسألة الثّالثة:

فى عدم الفرق بين الصبى

والصبيّة فى الاستحباب

القائلون باستحباب حجّ الصبى، واستحباب الإحجاج به لوليّه لم يفرّقوا بين الصّبىّ والصّبيّة فى ذلك، ولم نعهد فى ذلك خلافاً إلّاما ذهب اليه النراقى فى المستند من عدم استحباب الإحجاج بالصبيّة للولى؛ لعدم الدليل عليه، وإن كان حجّ الصبيّة بنفسها كحج الصّبى مستحبّاً (۴).

ولكن الحق اتحاد الصبيّة مع الصّبى فى حكم استحباب الحج به، كاتحادها معه فى استحباب الحج بنفسه لأمرين:

الأول: عدم احتمال الفرق عرفاً لظهور الأدلّة الدالّة على استحباب الحجّ بالصبى فى عموم الاستحباب للصبيّة أيضاً.

الثانى: القرينة الخارجيّة المستفادة من أحكام الشارع فى العبادات والمعاملات، الدالّة على اشتراك الذكر والأنثى فى أصل مشروعية الأعمال وعدمها، والاختلاف الواقع بين أحكام الذكر والانثى إنما هو فى بعض التفاصيل والكيفيّات، لا فى أصل الشرعيّة وعدمها، ولعلّ ذلك يستفاد أيضاً من قوله تعالى: «فاستجاب لهم ربّهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أُنثى ...» (۵).

اشتراط حجّ الصّبى بإذن وليّه:

أكثر الفقهاء على اختلاف

۱- ۱ الوسائل، أبواب وجوب الحج، الباب ۲۰، الحديث الأول.

۲- ۲ سنن ابن ماجة.

۳- ۳ الوسائل، أبواب اقسام الحج، الباب ۱۷، الحديث ۳.

۴- ۴ المستند، ۲: ۱۵۵.

۵- ۵ آل عمران: ۱۹۵.

ص: ۱۳۳

مـذاهبهم، ومشـهور فقهاء الإماميـة، على اشتراط حـج الصّبى المميّز بإذن وليّه، وذهب جمع من فقهاء الإماميـة وغيرهم من فقهاء ساير المذاهب كأبى اسحاق المروزى إلى عدم اشتراطه بإذن الولى.

قال الفقيه اليزدى فى العروة الوثقى: «يسـتحب للصّبىّ المميز أن يحجّ، وإن لم يكن مجزياً عن حجّة الإسـلام، ولكن هل متوقف ذلك على اذن الولى أو لا؟ المشهور بل قيل:

لاخلاف فيه: أنّه مشروط بإذنه» (۱).

وقال النووى فى شرح المهذب:

ثم إن كـان- أى الصبى- مميزاً أحرم بنفسه بـإذن وليّه ويصـحّ بلاـ خلاف، فإن اسـتقل وأحرم بنفسه بغير إذن وليّه فوجهان مشـهوران ذكر المصـنف دليليهما، أحدهما: يصحّ وبه قال أبو اسـحاق المروزى، وأصحهما لا يصح، وبه قال أكثر أصحابنا المتقدمين كما ذكره المصنف، وكذا نقله- أيضاً- ابن الصباغ والبغوى وآخرون (۲).

والحقّ أنّ حجّ الصّبيصحيح من غير توقّف على إذن الولى، لإطلاق الأدلّة الدّالّة عليصحّة حجّه.

ثم إن القائلين بالاشتراط استدلوا بدليلين:

الأوّل: أن الحجّ عبادة توقيفية متلقاة من الشرع ومخالف للأصل، فيجب الاقتصار فيه على المتيقن وهو الحجّ بإذن الولى فيما نحن فيه.

الثانى: أنّ الحجّ يستلزم بعض التصرفات الماليّة كالهدى والكفارة فى بعض الأحيان وهو متوقف على إذن الولى.

والجواب عن الأوّل: ما أشرنا اليه من إطلاق الأدلّة الدّالّة عليصحّة حج الصّبى، فلا تضر مخالفة الأصل أو الخروج عن القدر المتيقن.

وعن الثـانى: أن الحـجّ غير متقوم بالتصـرفات الماليّـة وإن وجبت فى بعض الأحيان، ويمكن القول فى الصّبى بتوقف خصوص تصـرفه المالى فى الحجّ على إذن الولى، فإن أذن فهو، وإن لم يأذن ثبت له حكم العاجز، ويصحّ حجّه على كلّ حال.

كيفية حجّ الصّبى:

يحـجّ الصّبى إذا كان مميّزاً بنفسه، ولا تختلف كيفيّـة حجّه عن حـجّ البالغ إلّا فى توقّفه على الاستيـذان بناءً على القول به، وأمّا الصّبى غير المميّز فلا خلاف بين الفقهاء فى أنّ طريقة الحجّ به إجمالًا: هى أن يحمله الولى على الإتيان بأفعال الحجّ الّتى يقدر على مباشرتها بنفسه، وأن ينوب عنه فيما

۱- ۱ العروة الوثقى، حج الصّبى، المسألة الأولى.

۲- ۲ شرح المهذب، ۷: ۲۵.

ص: ۱۳۴

لا يقدر عليه، وإنما وقع الكلام فى مواضع:

الموضع الأول: فى إحرام الصبىّ المميّز، وأنّه هل يصحّ منه استقلاله بالإحرام، أو يشترط ذلك بإذن الولى؟

والكلام هنا نفس الكلام فى أصل حجّ الصّبى المميّز، فمن قال بصحّة حجّ الصّبى المميّز استقلالًا وبدون إذن الولى، قال هنا باستقلاله بالإحرام وعدم توقفه على إذن الولى، ومَن قال هناك باشتراط حجّه بإذن الولى قال هنا بتوقف إحرامه على إذنه.

وقد ذكرنا فى البحث السابق أن مقتضى الإطلاقات الدّالّة عليصحّة حجّ الصّبىّ عدم توقفه على إذن الولى، ونقول فى إحرام الصّبى الكلام نفسه، فلا دليل على توقّف إحرامه على إذن الولى بعد دلالة الإطلاقات عليصحّة أفعال الحجّ منه، ومنها الإحرام.

الموضع الثانى: فى إحرام الصبىّ غير المميّز.

يظهر من بعض الفتاوى أنّ معنى إحرام الولى عن الصّبى نيابة الولى عن الصّبى فى الإحرام، وبناءً على ذلك فقد اشترط فيمن يُحرم عن الصّبى أن لا يكون مُحرماً بنفسه، وجوّز أن يحرم الولىّ عن الصّبى وهو غائب.

والحقّ أنّ معنى الإحرام عن الصّبى عقد الإحرام للصّبى، فالصّبى هو الّذى يتلبّس بالإحرام، غير أنه باعتبار عدم تمييزه، وعدم تأتّى النيّة وقصد الإحرام منه يتولّى القائم بأمره عقد الإحرام له، بأن ينوى الإحرام به وأن يلبّى عنه إن عجز عن التلفّظ بالتلبية بنفسه.

قال ابن قدامة المقدسى:

«ومعنى إحرامه عنه: أن يعقد له الإحرام، فيصحّ للصّبىّ دون الولى كما يعقد النكاح له» (۱).

وقال المحقق النجفى: «ظاهر النّصّ والفتوى كون الإحرام بالصّبى على معنى جعله محرماً بفعله لا أنّه ينوب عنه فى الإحرام، ومن هناصرّح غير واحد بأنّه لا فرق فى الولى بين كونه محلًا أو محرماً، فما عن الشافعيّة فى وجه من كون الإحرام عنه واضح الضعف» (۲)

دليلنا على ذلك: أن مقتضى ظهور الأدلة الدّالّة عليصحّة حجّ الصّبى مباشرته لأفعال الحجّ كلّها، خرج من ذلك خصوص ما يعجز عنه الصّبى، وبقى ما سواه داخلًا فى ظهور الدّليل المقتضى للمباشرة، والصّبى غير المميّز إنما يعجز عن النيّة وليس عاجزاً عن ساير واجبات الإحرام وتروكه، فلا ينوب الولى عنه غير النيّة، وبما أنّ الإحرام فعل الصّبىّ،

۱- ۱ المغنى، ۳: ۲۵۳.

۲- ۲ جواهر الكلام، ۱۷: ۲۳۶.

ص: ۱۳۵

فعليه أن ينوى الإحرام بالصّبى.

بل الظّاهر عرفاً من أدلّةصحّة الإحجاج بالصّبىّ هو جعله محرماً، لا النيابة عنه فى الإحرام، وكذا فى غيره من أفعال الحج إلّاما دلّ الدليل الخاص عليه.

ويدل على ذلك- سوى ما قلناه- الروايات الكثيرة الواردة بطرق الإمامية عن المعصومين عليهم السلام.

منها: ما رواه الكلينى بسندصحيح عن معاوية بن عمار عن أبى عبد اللّه عليه السلام، قال: «أُنظروا مَن كان معكم من الصبيان فقدّموه إلى الجحفة، أو إلى بطن مرّ، ويصنع بهم ما يصنع بالمحرم، ويطاف بهم ويرمى عنهم، ومن لا يجد الهدى منهم فليصم عنه وليّه» (۱).

ومنها: ما رواه الصدوق بإسناده الصحيح عن زرارة عن أحدهما عليهما السلام، قال: «إذا حجّ الرجل بابنه وهوصغير فإنه يأمره أن يلبّى ويفرض الحجّ، فإن لم يحسن أن يلبّى لبّوا عنه، ويطاف به، ويصلّى عنه ...» الحديث (۲).

ومنها: مارواه الصدوق- أيضاً- بسندصحيح عن على بن مهزيار، عن محمد بن الفضيل، قال: «سألت أبا جعفر الثانى عليه السلام عن الصّبى متى يُحرَم به؟ قال: إذا أثغر» (۳).

ودلالة هذه الروايات على أنّ الإحرام فعل يتلبّس به الصّبىّ بدلالة الولىّ أو فعله واضحة.

الموضع الثالث: فى سايرأفعاله.

لا بحث فى أنّ الصّبىّ المميّز يفعل واجبات الحجّ كما يفعلها البالغ، فيطوف بنفسه ويصلّى ويسعى ويرمى ويقف الموقفين وغير ذلك.

أمّا الصّبىّ غير المميّز فلا كلام فى أنّه إذا عجز عن الطواف والسعى والرمى بنفسه، فإن الولى يطوف به ويسعى به ويرمى عنه، وأمّا الصلاة فيصلّى عنه الولىّ بالنيابة.

ووقع الكلام فى الطهارة الّتى لابدّ منها فى الطّواف كما عليه علماء الإماميّة والشافعى ومالك والمشهور عن أحمد- وخالف فى الاشتراط أبو حنيفة، وفى نقل غير مشهور عن أحمد-.

فهل يشترط طهارة الولى لطوافه بالصبى؟ وهل يشترط ايقاعصورة الوضوء بالطفل علاوة على طهارة الولى؟

ذهب بعض الفقهاء إلى ذلك.

والّذى نرجّحه عدم اشتراط طهارة الولى ولا طهارة الصّبىّ للأصل، وعدم شمول عمومات اشتراط الطهارة لهذا

۱- ۱ الوسائل، أبواب أقسام الحجّ، الباب ۱۷، الحديث ۳.

۲- ۲ الوسائل، الباب نفسه، الحديث ۵.

۳- ۳ نفس المصدر، الحديث ۸.

ص: ۱۳۶

المورد، أما الصبى فلعدم قدرته على الطهارة الصحيحة، وعدم الامر بالطهارة الصّوريّة، وأما الولى فلأنّ الطهارة شرط الطائف لا الطواف، وليس الولى طائفاً بنفسه وإنما يطوف بالصبىّ.

أمّا الرّمى فلا خلاف فى أنّ الولىّ يرمى عن الصّبىّ غير المميّز، وإنما الكلام فى أنّه هل يشترط فى الولىّ الّذى يرمى عن الصّبىّ أن يكون قد رمى لنفسه أو لا يشترط؟

ذهب الإمامية إلى أنه لا يشترط وذهب بعض الفقهاء إلى انه يشترط أن يكون قد رمى عن نفسه.

دليلنا: عدم الدليل على الاشتراط، ودلالة إطلاقات الرمى عن الصّبىّ على عدم الاشتراط.

فرع: إذا كان الصّبى غير المميّز راكباً لزم أن يكون الولى هو القائد أو السائق قال المحقق النجفى فى جواهر الكلام: «ولو أركبه دابة فيه- أى الطواف- أو فى السعى ففى التذكرة والدروس وجب كونه سايقاً أو قائداً، إذ لا قصد لغير المميّز، وهو حسن.

وفى المدارك أنه ينبغى القطع بجواز الاستنابة فى الطواف؛ لإطلاق الأمر بالطواف به، ولقول حميدة فيصحيح ابن الحجاج «مرى الجارية» إلى آخره ...» (۱).

والحقّ كما حكاه عن المدارك جواز الاستنابة فى الطواف بأن ينوب عن الولى غيره، فيطوف بالصبى نيابة عن وليّه، ويكفى ما ذكره دليلًا على ذلك.

فرع آخر:

قال المحقّق النجفى: «لا يبعد جواز الاستنابة فى غيره- أى الطواف- أيضاً كما عساه يلوح من النّصّ والفتوى، وأمّا الصلاة فقد سمعت ما فى خبر زرارة- أى الخبر السابق عن زرارة- والذى جاء فيه: ويصلّى عنه.

لكن فى الدروس: «وعلى ما قاله الأصحاب من أمر ابن ست سنين بالصلاة يشترط نقصه عنها، ولو قيل يأتى بصورة الصلاة كما يأتى بصورة الطواف أمكن» وكأنه اجتهاد فى مقابلة النص» (۲).

أقول: دلت الروايات الصحيحة على جواز الاستنابة فى الطواف بالصبى والسعى به والرمى عنه والصلاة، وكذا الهدى.

ففيصحيحة ابن الحجاج: فإذا كان يوم النحر فارموا عنه واحلقوا رأسه، ثمّ زوروا به البيت، ومرى الجارية أن تطوف به بين الصفا والمروة» (۳).

وفيصحيحة اسحاق بن عمار:

«واذبحوا عنهم كما تذبحون عن أنفسكم» (۴).

وفيصحيحة زرارة السابقة:

۱- ۱ جواهر الكلام، ۱۷: ۲۳۷.

۲- ۲ نفس المصدر.

۳- ۳ الوسائل، ۱۱: أبواب أقسام الحج، الباب ۱۷، الحديث الأول.

۴- ۴ نفس المصدر، الحديث ۲.

ص: ۱۳۷

«ويطاف به ويصلّى عنه» (۱).

فالإتيان بصيغة المجهول كما فى الأخيرة، أو بصيغة خطاب الجمع كما فى التى قبلها دليل على جواز أن ينوب عن الولى غيره فى الطواف بالصبى والسعى به والصلاة والرمى عنه وكذا الهدى.

بل إن مقتضيصحيحة ابن الحجاج جواز الاستنابة فى الإحرام بالصبى- أيضاً- بأن ينوب عن الولى غيره فيُحرم بالصّبى فقد جاء فيها: فقالت- أى حميدة-: «إذا كان يوم التروية فاحرموا عنه وجرّدوه وغسّلوه كما يجرد المحرم ...» الحديث (۲). فإن مقتضى خطاب الجمع فى الرواية جواز أن ينوب عن الولى غيره فى الإحرام بالصّبى.

وقال ابن قدامة المقدسى: قال الإمام أحمد فى رواية حنبل: يحرم عنه أبوه أو وليه، واختاره ابن عقيل- إلى أن قال-: وقال القاضى: ظاهر كلام أحمد أنه لا يحرم عنه إلّاوليّه؛ لأنّه لا ولاية للأمّ على ماله، والإحرام يتعلق به إلزام مال، فلا يصحّ من غير ذى ولاية كشراء شيءٍ له، فأما غير الأمّ والولى من الأقارب كالأخ والعم وابنه فيخرج فيهم وجهان بناءً على القول فى الأمّ، أما الأجانب: فلا يصحّ إحرامهم عنه وجهاً واحداً (۳).

أقول: إن كان المانع من جواز إحرام غير الأب بالصبى أنّ الإحرام يتعلق به إلزام مال، فلا يصح من غير ذى ولاية، فالجواب عنه أنّ الفدية لا تلزم الصبى فى ماله بل تلزم فى مال من يحجّ بالصّبى- أو فى مال أبيه خاصة أن كان بأذنه- كما ورد فيصحيحة زرارة فى الرجل يحجّ بابنه وهوصغير:

فإنه يأمره أن يلبّى ويفرض الحجّ- إلى أن قال- وإن قتلصيداً فعلى أبيه (۴). وإن كان المانع غيره كان عليه أن يدلّ عليه، فيما رواه أحمد والنسائى ومسلم وأبو داود عن ابن عباس دلالة على جواز احرام الأم بالصبّى، فقد روى مسلم وغيره عن ابن عباس: قال: رفعت امرأةصبيّاً لها فقالت: يا رسول اللّه ألهذا حجّ؟

قال: «نعم، ولكِ أجر» (۵).

فإن اثبات الأجر للمرأة ظاهر فى أن المرأة هى التى تحجّ بالصّبىّ، فتكون هى الّتى تحرم به، فيدل الحديث عليصحّة إحرام الامّ بالصّبىّ، وبذلك يثبتصحّة إحرام غير الأبوين أيضاً بالصّبى؛ لعدم الخصوصيّة فى الامّ، فإذا جاز فيها جاز فى غيرها.

أما غير الإحرام من أفعال الحجّ فقد روى عن أحمد فى الرمى أنه

۱- ۱ نفس المصدر، الحديث ۵.

۲- ۲ الوسائل، أبواب أقسام الحج، الباب ۱۷، الحديث الأول.

۳- ۳ المغنى، ۳: ۲۵۳.

۴- ۴ الوسائل، أبواب أقسام الحج، الباب ۱۷، الحديث ۵.

۵- ۵صحيح مسلم، ۱۴: ۱۰۱.

ص: ۱۳۸

قال: يرمى عن الصّبى أبواه أو وليّه.

وقال ابن المنـذر: كل من حفظت عنه من أهل العلم يرى الرمى عن الصّبى الّـذى لا يقدر على الرّمى، وكان ابن عمر يفعل ذلك، وبه قال عطاء والزهرى ومالك والشافعى واسحاق (۱).

وأما الطواف فقـد ذكر ابن قدامة: «إن أمكنه المشـى مشـى وإلّا طيف به محمولًا أو راكباً، فإن أبا بكر طاف بابن الزبير فى خرقة، ولأنّ الطواف بالكبير محمولًا لعذر يجوز، فالصغير أولى» (۲).

أقول: لا وجه لاختصاص جواز النيابـة فى الرمى عن الصبى بوليه أووالـديه؛ لما ذكرنا من الدليل على جواز النيابة عن الصّبى مطلقاً فى كل ما لا يقدر على مباشرته، وعدم الدليل على الاختصاص.

حكم مخالفات الصّبى فى عمل الحجّ:

فى ذلك مسائل ثلاث:

المسألة الأولى:

فى ارتكابه لما يوجب إفساد الحجّ

قال الشـيخ الطوسى فى المبسوط: «أما الوطء فى الفرج فإن كان- أى الصبى- ناسياً لا شىء عليه، ولا يفسد حجه مثل البالغ سواء، وان كـان عامـداً فعلى مـا قلنـاه: من أنّ عمـده وخطأه سواء لا يتعلق به أيضاً فسادُ الحـجّ، وإن قلنا: إنّ عمـده عمـدٌ لعموم الأخبار فيمن وطَأ عامـداً فى الفرج من أنّه يفسـد حجّه، فقد فسد حجّه ويلزمه القضاء، والأقوى الأوّل، لأن ايجاب القضاء يتوجّه إلى المكلّف وهذا ليس بمكلّف» (۳).

والصـحيح أن يقـال: يفسـد حجّه ولاـ يجب عليه القضـاء، أما فساد الحـج فلعموم ما دلّ على كون الوطء عن عمـد مفسـداً للحـجّ؛ ولا يخصّصه مـا جـاء من (أنّ عمـد الصبى خطـأ)؛ لاختصـاصه بالجنايـات، أو للقطع بعـدم شـموله للعبادات، كما هو المتفق عليه فى مثل الصلاة والوضوء إذا تعمّد ارتكاب المنافى.

وأمّا عدم وجوب القضاء عليه، فلحديث رفع القلم عن الصّبى، وقد تقدّم البحث عنه.

وقال ابن قدامة: «وإن وطئ أفسد حجّه، ويمضى فى فاسده، وفى القضاء عليه وجهان: أحدهما: لا يجب لئلا تجب عبادة بدنيّة على من ليس من أهل التكليف. والثانى: يجب لأنه إفساد موجب للفدية، فأوجب القضاء كوطء البالغ» (۴).

وقد اتضح مما ذكرناه آنفاً بطلان القول بوجوب القضاء لحديث رفع القلم، وأمّا ما نقله من استدلال

۱- ۱ المغنى لابن قدامة، ۳: ۲۵۴.

۲- ۲ نفس المصدر.

۳- ۳ المبسوط، ۱: ۳۲۹.

۴- ۴ المغنى، ۳: ۲۵۵.

ص: ۱۳۹

القائل بوجوب القضاء؛ لأنه افساد موجب للفديـة فيرد عليه: أنّ ايجابه للفدية أوّل الكلام، فنحن لا نقبل كونه موجباً للفدية فى الصّبى؛ لحديث رفع القلم ولغيره مما دلّ على عدم جريان قلم التكليف بحق غير البالغ، فلا يمكن قياس ذلك بوطئ البالغ.

المسألة الثانية:

فى حكم ارتكابه لما يوجب الكفارة

فى حالتى العمد والخطأ وهو

الصيد

اختار مشهور الإمامية عدم وجوب كفارة الصّيد على الصّبى، قال المحقّق النجفى فى جواهر الكلام:

«إن قتلَصيداً فعلى أبيه وبه افتى الأكثر فى كل ما لا فرق فى لزومه للمكلّف فى حالتى العمد والخطأ» (۱).

وحكى عن ابن إدريس انه ذهب إلى «عدم وجوب كفارةصيد الصبى لا فى ماله ولا فى مال أبيه» (۲).

وحكى عن العلامة فى التذكرة:

أنه ذهب إلى «وجوب كفارة الصيد فى مال الصبى» (۳).

قال ابن قدامـة: قال ابن المنـذر أجمع أهلُ العلم على أنّ جنايات الصبيان لازمـة لهم فى أموالهم، وذكر أصـحابنا فى الفدية التى تجب بفعل الصّبى وجهين، أحدهما: هى فى ماله؛ لأنها وجبت بجناية أشـبهت الجناية على الآدمى، والثانى: على الولى وهو قول مالك؛ لأنه حصل بعقده أو إذنه فكان عليه كنفقة حجه (۴).

والحقّ أنّ كفارة الصيد لا تجب فى مال الصبى وتجب فى مال وليّه، فهنا دعويان:

الأولى: أنهـا لاـ تجب فى مـال الصبى، والـدليل على ذلـك مـا دلّ على رفع قلم التكليف عن الصبّى، وليست الكفـارة حكمـاً وضـعيّاً كالضـمان؛ ليقـال بثبوته فى عهـدة الصّبى، وعـدم شـمول دليـل رفع القلم له. فـإنّ هناك فرقاً أساسـياً بين باب الجنايات على المال أو النفس وبين مـا نحن فيه، وأقل ما يوجـد من الفرق بين الموردين، ورود الضـرر بفعل الصّبى على مَن له حرمـة فى نفسه وماله فى باب الجنايـات، وبمـا أن حـديث رفع القلم وارد مورد الامتنان والإحسان، فلا يشـمل المورد الـذى يخالف الامتنان والإحسان، وهو المورد الّذى يلزم من رفع القلم فيه نقصـان نفس محترمـة أو مـال محترم، بخلاف ما نحن فيه إذ لا يلزم من رفع وجوب الكفارة نقصان نفس محترمة أو مال محترم.

الثانية: ثبوت كفارةصيد

۱- ۱ جواهر الكلام، ۱۷: ۲۳۹.

۲- ۲ المعتمد فى شرح العروة الوثقى، ۱: ۳۹.

۳- ۳ نفس المصدر.

۴- ۴ المغنى، ۳: ۲۵۵.

ص: ۱۴۰

الصبی فی مال ولیّه. هـذا الحکم خلاف القاعدة الّتی دلّ علیها حدیث رفع القلم، ولو لا النصّ الخاص لم یکن وجه للقول به، لکن قد ورد به النصّ الصّریح، فقد روی الصدوق بإسناده عن زرارة عن أحدهما علیهما السلام قال:

«إذا حجّ الرجل بابنه وهوصغیر فإنه یأمره أن یلبّی ویفرض الحجّ- إلی أن قال- وإن قتلصیداً فعلی أبیه» (۱).

والروایةصحیحة السند تامة الدلالة، ولا یحتمل خصوصیّة الأب بل الظّاهر إرادة مطلق الولی، فیثبت بذلک وجوب الکفارة فی مال الولی الّذی قام بأمر حج الصبی مطلقاً وإن لم یکن أباه.

المسألة الثالثة:

فی حکم ارتکابه لما یوجب الکفارة

فی حال العمد

(وهو سایر موجبات الکفارة)

قال الفقیه الیزدی فی العروة الوثقی:

«وأما الکفارات الأخر المختصة بالعمد، فهل هی أیضاً علی الولی، أو فی مال الصّبی، أو لا تجب الکفارة فی غیر الصید لأنّ عمد الصّبی خطأ.

والمفروض أن تلک الکفارات لا تثبت فیصورة الخطأ وجوه، لا یبعد قوة الأخیر إما لذلک، وإما لانصراف أدلّتها عن الصّبی، لکن الأحوط تکفّل الولی، بل لا یترک هذا الاحتیاط، بل هو الأقوی؛ لأن قوله علیه السلام: «عمد الصّبی خطأ» مختص بالدیات، والانصراف ممنوع وإلّا فیلزم الالتزام به فی الصید أیضاً» (۲).

وقال النووی فی شرح المهذّب:

«قد سبق أنه یجب علی الولی منع الصّبی من محظورات الإحرام، فلو تطیّب أو لبس ناسیاً فلا فدیة قطعاً، وإن تعمد، قال أصحابنا: فیبنی ذلک علی القولین المشهورین فی کتاب الجنایات: أنّ عمد الصبی عمد أم خطأ؟ الأصح أنه عمد، فإن قلنا خطأ فلا فدیة، وإلّا وجبت. قال إمام الحرمین: وبهذا قطع المحقّقون، لأنّ عمده فی العبادات کعمد البالغ، ولهذا لو تعمّد فیصلاته کلاماً أو فیصومه أکلًا بطلا، وحکی الدارمی قولًا غریباً: أنه إن کان الصّبی ممن یلتذ بالطیب واللباس وجبت وإلّا فلا» (۳).

والصحیح کما تبین مما ذکرناه فی المسألة السابقة عدم وجوب سایر الکفارات علی الصّبی مطلقاً؛ لا فی ماله ولا فی مال ولیّه؛ لحدیث رفع القلم ولغیره مما دلّ علی رفع قلم التکلیف عن الصّبی، وأمّا الکلام الّذی ذکره المحقق الیزدی فیرد علیه:

أولًا: لا مانع من دعوی انصراف أدلّة ثبوت الکفارة عن الصّبی علی أساس أنّ الطّبع الأوّلی

۱- ۱ الوسائل، أبواب أقسام الحج، الباب ۱۷، الحدیث ۵.

۲- ۲ العروة الوثقی، المسألة السابعة من شرائط وجوب حجّة الإسلام.

۳- ۳ شرح المهذب، ۷: ۳۲.

ص: ۱۴۱

للكفارات يقتضى كونها للعقوبة والتأديب، ولا عقوبة للصبى على مخالفته، وما ذكره من لزوم الالتزام به فى الصيد أيضاً فجوابه: أنّه لو لا النصّ الصحيح الخاص الذى أشرنا اليه، لكنّا نلتزم به فى الصيد أيضاً، فالنقض بالصيد غير وارد.

وثانياً: لو غضضنا النظر عن دعوى انصراف أدلّة ثبوت الكفارة عن الصّبى، كفى فى الحكم بعدم ثبوت كفارة الصيد عليه أدلّة رفع القلم فإنها حاكمة على مطلق أدلّة التكاليف.

وأمّا ما جاء فى كلام النووى فيرد عليه:

أولًا: بأنّ جناية الصبى فى حال الإحرام تختلف فى حقيقتها عن الجناية على المال أو النفس، بأنّ الأُولى تجاوز على حقّ من حقوق اللَّه وحرمةٍ من حُرماته، أمّا الثانية فإنها تجاوز على حقوق النّاس وحرماتهم، فقد يعفى عن الأُولى ولا يُعفى عن الأخيرة، فلا يصحّ قياس أحدهما على الآخر، ولا تعميم حكم الأخيرة على الأولى.

وثانياً: ما ذكرناه سابقاً من عدم جريان الرفع الامتنانى فى مثل الجناية على نفس محترمة أو مال محترم، بخلاف غيرها من المحرّمات والتكاليف، التى لا يلزم من رفعها اعتداء على حقوق الآخرين.

وثالثاً: مبنى القول بأنّ عمد الصّبى خطأ فى باب الجنايات، ما ورد فى الحديث من أنّ عمد الصّبى خطأ، لكن هذا النصّ لا معنى لشموله لمورد المحرّمات الّتى يشترط فى ثبوت الكفارة فيهاصدورها عن عمد، ولا حكم لارتكابها خطأ، بل هى مختصة بالموارد الّتى يكون لها حكمان: حكم خاص بحال العمد، وحكم خاص بحال الخطأ كما فى الجناية على النفس مثلًا، فيكون معنى (عمد الصبى خطأ) أن حكم عمد الصبى هو الحكم الثابت لحال الخطأ فى غيره، قال المحقّق السيد الخوئى حسبما جاء فى تقرير بحثه:

«وبالجملة قوله عليه السلام (عمد الصبى خطأ) يشمل المورد الّذى له سنخان من الحكم حكم ثابت لصورة العمد، وحكم ثابت لصورة الخطأ، وهذا النحو من الأحكام إنما هو فى باب الجنايات والديات، فإذا جنى الصّبى عمداً يترتب على فعله أحكام الخطأ، وإذا ارتكب القتل عمداً، يعامل معه معاملة القاتل خطأ، وأما المورد الّذى ليس له إلّاحكم واحد مترتب عليصورة العمد خاصّة كأكثر الأحكام، فغير مشمول لهذه

ص: ۱۴۲

الجملة» (۱).

نفقات حجّ الصّبی:

وفیها مسائل ثلاث:

الأولی:

فی نفقته التی لا تزید علی

نفقة الحضر

المشهور بین الإمامیّة وعلیه أکثر فقهاء المذاهب أنّ نفقة الصبی التی لا تزید علی نفقة الحضر تکون من مال الصّبی؛ لأنّها مصلحة ضروریّة له فلابدّ من القیام بها والصرف علیها من ماله، ولا خلاف یعتد به فی هذه المسألة.

الثانیة:

فی نفقته التی تزید علی

نفقة الحضر

المشهور بین الإمامیة بل ادعی علیه عدم الخلاف بینهم، وعلیه أکثر فقهاء المذاهب أنّ الزائد من نفقة الحجّ علی نفقة الحضر تکون من مال الولیّ، لأنّه هو السبب، ویعود نفع حجّ الصّبی إلیه لما فیه من الثواب، وعدم ضرورته للصّبی. إلّاإذا توقفت مصلحة الصّبی علی اصطحابه فی سفر الحجّ، کما إذا توقفت تربیته أو المحافظة علیه علی ذلک فیصرف علی سفره من ماله لکون السفر حینئذٍ حاجة من حوائج الصّبی ومصلحة من مصالحه.

وذهب بعض فقهاء الشافعیّة إلی أن نفقة حجّ الصّبی مطلقاً من مال الصّبی؛ «لأنّ فیه مصلحة له بتحصیل الثواب له ویتمرّن علیه فصار کأجر المعلم والطبیب» (۲).

ویرد علیه: أن هناک فرقاً بین أجر المعلم والطبیب ونفقة سفر الحج، فإن فی تعلیمه فیصغره وکذا علاجه من المرض مصلحة لازمة له، تفوت بتأجیلها إلی زمان کبره، بخلاف الحجّ فلیس فیه مصلحة لازمة له لا یمکن تدارکها بعد البلوغ، فالصحیح أن ما یزید من نفقة حجّ الصّبی علی نفقة حضره تثبت فی مال الولی، ولا یجوز أخذها من مال الصبی.

الثالثة:

فی ثمن الهدی

ذهب فقهاءُ الإمامیّة إلی أن ثمن الهدی علی الولی، ولا یجوز الصرف علیه من مال الصّبی؛ لعدم مصلحة للصّبیّ فی الاحجاج به، حتی إذا کان السفر به ذا مصلحة له، إذ یمکن اصطحابه من دون الإحجاج به، فإذا أحجّ به الولی، وترتب علیه لزومصرف المال لثمن الهدی کان ذلک فی مال الولی. ولما ورد فیصحیح زرارة «یذبح عن الصغار ویصوم الکبار» الظّاهر فی أن القائم بأمر الصّبی هو المکلّف بالذبح عنه، فیکون فی ماله.

۱- ۱ المعتمد، فی شرح العروة الوثقی، ۱: ۴۱- ۴۲.

۲- ۲ المغنی لابن قدامة، ۳: ۲۵۵.

ص: ۱۴۳

قال المحقّق النجفى فى جواهر الكلام:

«وأمّا الهدى الّذى يترتّب عليه بسبب الحجّ فكأنّه لا خلاف بينهم فى وجوبه على الولى الّذى هو السبب فى حجّه، وقدصرح به فيصحيح زرارة» (۱).

وذهب بعض فقهاء الشافعيّة إلى أنّ ثمن الهدى فى مال الصّبى، ويرد عليه نفس‌ما أوردناه على قولهم بثبوت نفقة السفر الزائدة على الحضر فى ماله، من عدم ضرورة الإحجاج به له، وعدم ثبوت مصلحة لازمة تعود إليه فى ذلك، وكون الولى هو السبب فى لزوم هذه النفقة فتكون فى ماله.

الهوامش:

اليهود فى الجزيرة العربية

اليهود فى الجزيرة العربية

أحمد الواسطى

كان المسلمون وما زالوا فى تعاملهم مع اليهود يبتعدون عن إثارة النزعة العدائية وروح الكراهية، معبّرين بذلك عنصدق نواياهم ومواقفهم السليمة تجاه اليهود. بينما نجد فى المقابل أن اليهود كانوا يعبّرون عمّا يختلج فيصدورهم من كيد وبغى وسفك دماء إزاء المسلمين وغيرهم وفى مختلف أدوار حياتهم القديمة والمعاصرة. كما أعلنوا جهاراً عن نظراتهم التوسعية، يقول اليهودى اللندنى (د. أوسكار ليفى):

«نحن معشر اليهودصنعنا الحرب العالمية، نحن اليهود لسنا إلّا مضلّلى العالم وحارقيه وقاتليه، وإنّ ثورتنا الأخيرة لم تقُمْ بعد. ونحن وضعنا اسطورة (الشعب المختار)» (۲).

۱- ۱ جواهر الكلام، ۱۷: ۲۳۹.

۲- ۲ شيريب سبيريد وفيتش: حكومة العالم الخفية، سلسلة اليهود والعالم: ۱۰۰.

ص: ۱۴۴

هـذا فى الوقت الـذى يحـاول فيه الإعلام الاسـتكبارى إظهـار اليهود فى هـذه الأيام. يمظهر الحمْل الوديع، وكأنهم المسالمون الـذين يوفون بالعهد؛ ليخلط فى ذلك الحقائق بالأوهام.

يتضمن البحث المطالب التالية:

۱- خصائص النفسية اليهودية.

۲- علاقة اليهود بالجزيرة العربية.

۳- الأوضاع الاقتصادية لليهود.

۴- التجمع اليهودى فى عصر البعثة المحمّديّة.

۱- خصائص النفسية اليهوديّة:

ظهرت تسـمية اليهود بعـد السبى، لأنّ كلمـة (يهودى) تعنى بالأصل أفراد قبيلـة أو مملكـة (يهودا)، أُطلقت بعد ذلك على أىّ فرد من أفراد اليهود، وشملت أخيراً كل أفراد اليهود فى العالم (۱).

ولفظـة «يهود» مشـتقة من (هادوا)، أى: (تابوا، والهود: التوبـة، هاد يهود هوداً، أو تهوّد: أى تاب ورجع إلى الحق، وفى القرآن الكريم: «إنّا هُدنا اليكَ» أى: تبنا إليك، وهاد وتهوّد: إذاصار يهودياً) (۲).

وعلى أى حـال، فإنّ اليهود يـدّعون أنّ نسـبهم يرقى إلى النبىّ إبراهيم الخليل عليه السـلام، الـذى نزح من «أور» فى بلاد (الكلـدانيين) جنوبى العراق، حوالى سنة ۱۸۰۰ (ق. م)، وعبر نهر الفرات إلى أرض كنعان، حيث قومُه ونسـلُه من زوجه (سارة)، وسمّوا فيما بعد ب (العبرانيين)، وهو مشـتق- على الرأى الأرجـح- من الجـذر (عابَر) المعروف فى كلّ اللغات الساميّة بمعنى «اجتاز من جهة إلى أخرى»، ومنه اشتقاق العِبْر «بكسر العين وتسكين الباء» أى الضفة الأخرى (۳).

ولكنّ الاسـتعمال الحـديث لكلمـة «عبرى» أصـبح يرتبـط بالمقـدّسات التراثيـة القديمـة، والجوانب الثقافيـة لليهود. فيقولون مثلًا «اللغة العبريّة» و «الأدب العبرىّ» و «الجامعة العبريّة» ... الخ (۴).

ومما يجدر ذكره هنا: أن اليهود عرفوا خلال تاريخهم الطويل بأسـماء أخرى منها (الإسـرائيليون) نسـبة إلى (إسرائيل)، وهو لقب للنبىّ يعقوب بن إسـحاق بن إبراهيم الخليل عليه السـلام. وقد اختلفت الروايات فى أصل كلمة «إسـرائيل»، وهو على الأصح اسم مركب من لفظتين ساميتين قديمتين هما (أسر) بمعنى القوة والغلبة و (ايل) أى اللّه، فيكون معنى الكلمة «قوة اللّه» (۵).

وقـد اقترنت لفظـة (اليهود) دائمـاً بـذكر الجوانب السـيئة فى خُلُق «بنى إسـرائيل) نحو قوله تعـالى: «وقـالت اليهود يـد اللّه مغلولـة غلّت أيديهم ولُعنوا بما قالوا ...» (۶).

ويحمل اليهود فى أعماقهم خصائص نفسية بالغة التعقيد، وتنطوى على أخلاق غاية فى العوج والالتواء؛ ولذلك تموجصدورهم بحقد طافح على النـاس جميعـاً، فيسـعون فى الأرض فساداً، ولا يرون لأنفسـهم راحـةً أو سـعادةً إلّا على أنقاض الآخرين، ولا يستريحون إلا بالدّسِّ والكيد والتآمر والبغى، والتخريب والانتقام.

۱- ۱ قاموس «الكتاب المقدس»: لفظة يهود.

۲- ۲ ابن منظور، لسان العرب: مادة هود.

۳- ۳ دائرة المعارف، المعلم بطريس البستانى، ۱۱: ۶۵۹، دار المعرفة بيروت- وراجع أيضاً د. حسن ظاظا، الشخصية الإسرائيلية: ۲۵.

۴- ۴ نفس المصدر: ۲۴.

۵- ۵ نفس المصدر: ۱۶- المعجم الحديث عبرى- عربى: د. ربحى كمال.

۶- ۶ المائدة: ۶۴.

ص: ۱۴۵

ويكاد العقل ينكر- للوهلة الأولى- وجود سلسلة واحدة عبر الأزمنة والأمكنة، تتأصّل فى أجيالها جميعاً كلّ أخلاق السوء الى هذا الحدّ الرهيب! ولا يصدق استمرار هذا السُّعار النفسى فى الجيل بعد الجيل، على امتداد أكثر من ثلاثة آلاف سنة، ولكنّ هذا هو واقع اليهود وديدنهم، بل هو دينهم الذيصنعوه لأنفسهم، وأشربته قلوبهم على تعاقب القرون والأجيال. فالحقد اليهودى موجّه الى الناس جميعاً من قديم، ولم تفلت منه أمّة قط، وهذه حقيقة تأريخية معروفة ومؤكدة.

ويمكن القول: إن تعاليم «التلمود» (۱) تُعدّ أوفقصورة لنفسية اليهود، فهى ترجمةصريحة لهذه الشخصية الموغلة فى الخبث والأحقاد. بل (التلمود) تجسيد مكتوب لأخبث ما فى النفسية اليهودية من ضلال وكيد!

فقد وضعت تعاليم (التلمود) فى عصور الشتات، والقومُ سمّاعون للكذب وخاصة إذاصدر من أحبار السوء.

أضف الى ذلك أنّ هذه التعاليم جاءت بعد انقطاع النبوّة من بنى اسرائيل وتحويلها عنهم لمّا كفروا بآخر أنبيائهم، وقالوا فيه وفى أُمّه بهتاناً عظيماً.

ومن هنا نفهم كيف امتزجت هذه التعاليم بالكيان اليهودى، وسرت فيه مسرى الدماء فى العروق؛ ولذلك آمنت الجمهرة الكبرى من اليهود بهذه التعاليم الفاحشة، وقدّستها وأطاعتها عن رضا، وفضلتها على «التوراة»، والتزمت بها فوق التزامها بسائر ما لديها من وصايا وأسفار (۲). ولا تزال كذلك الى يومنا هذا، وهيصاحبة الكلمة والسلطان على اليهود جميعاً، ومن يعارض «التلمود» منهم- على قلته- تعدّه ضالًا، ولا تأثير له.

فالشخصية الصهيونية المتولّدة من تعاليم «التلمود» شخصية شيطانية بكل معنى الكلمة: منشأً، ومنزعاً، وفكراً، وسلوكاً، وإلحاداً، وعناداً، واحترافاً للتضليل والإفساد.

۲- علاقة اليهود بالجزيرة العربية:

انتشر اليهود- على إثر خراب «الهيكل»- فى البلاد الواقعة بين آسيا الصغرى ومصر، والبعض منهم كان موجوداً فى هذه المناطق قبل خراب الهيكل أيضاً (۳).

وقد توزعوا أواخر القرن الأوّل الميلادى فى أرجاء شبه الجزيرة، وفى اليمن والعراق والشام ومصر وتركيا، ويبدو أنهم لاقوا الاضطهاد فى المناطق التى كانت تخضع لحكم المسيحيين فى هذه البلدان، مثل: سوريا وتركيا ومصر.

يقول الدكتور (إسرائيل ولفنسون): «بعد حرب اليهود والرومان سنة (۷۰ م)، التى انتهت بخراب فلسطين، وتدمير (هيكل بيت المقدس)، وتشتّت اليهود فى أصقاع العالم، قصدت جموعٌ غفيرة من اليهود بلادَ العرب، كما حدّثنا عن ذلك المؤرخ اليهودى (يوسيفوس)، الذى شهد تلك الحروب، وكان قائداً لبعض وحداتها.

۱- ۱ التلمود: كتاب عقدى يفسّر ويبسّط كل معارف اليهود وتعاليمهم، وينقسم الى جزأين رئيسين: ۱- المِشْناه، وهو الأصل المتن، ويعد أول لائحة قانونية وضعها اليهود لأنفسهم بعد التوراة، جمعها يهوذا هاناسى فيما بين ۱۹۰ و ۲۰۰ م، أى بعد قرن تقريباً من تدمير تيطس الرومانى الهيكل. ۲- جِمارا، شرح للمِشناه كتاب التلمود بكامله.

۲- ۲ الكنز المرصود فى قواعد التلمود: ۴۳- ۴۴، د. يوسف نصر اللّه.

۳- ۳.- ۱۹۷۲- ۱۶۶۰.

ص: ۱۴۶

أما اليهود الـذين توجّهوا إلى المناطق التى تسـكنها قبائل وثنية، مثل: الحجاز، فقد تمتعوا بحريتهم الكاملة، وإن كانوا قد واجهوا معاناة فى بعض الأحيان.

وبشـكل عام فإنّ يهود الحجاز تمتعوا بحريـة دينية كاملة قبل ظهور الإسـلام؛ لأن القبائل العربية التى جاوروها فى تلك المنطقة كانت وثنيـة فى معظمهـا. لـذا فـإنّ الجزيرة العربيـة تمثّـل المحطـة الأـولى لهجرة اليهود بعـد فتـك الرومـانيين بهم، حيث انتشـروا جماعـاتٍ جماعـات، اسـتقرت فى مواضع الميـاه والعيون من وادى القرى، وتَيمـاء، وفـدك، وخيبر الى يثرب، وبنوا فيهـا الآطام لحمايـة أنفسـهم وأرضهم وزرعهم من اعتداء الأعراب عليهم.

كما انتشرت اليهودية فى جنوبى الجزيرة العربية حيث اعتنقها كثير من القبائل فى اليمن. ومن أشهر المتهودين (ذونواس) ملك اليمن، الذى عرف عنه اضطهاده لنصارى (نجران).

وقد عمل اليهود على نشر تعاليم «التوراة»، وتفسيراتها فى مناطق سكناهم فى شبه جزيرة العرب (۱).

وتجدر الإشارة- هنا- إلى أن هجرة المسـلمين من مكّة الى يثرب سنة ۶۲۰ م تعتبر بداية تحوّل كبير فى مسار الدعوة الإسـلاميّة، لأنّها كانت- فى الوقت نفسه- بدايةصراع من نوع آخر، غير الصراع مع مشركى قريش، أعنى بذلكصراعهم مع القبائل اليهودية، التى كانت قد توطّنت يثرب؛ وما حولها منذ زمن بعيد، ومكّنت لنفسها فى الأرض.

وكـانت (يثرب) فى أيـدى اليهود قبل هجرة (الأوس والخزرج) إليها (۲). ويبـدو أن هاتين القبيلتين قدمتا من الجنوب، إذ يرجع نسـب (الأوس والخزرج) الى قبيلة (الأزد) اليمنيّة، التى تفرّعت عن (شعب كهلان)، وهو من نسل (قحطان) أبى اليمنيين جميعاً (۳).

ولقـد وجـد اليهود أنفسـهم مضـطرين للتعايش مع (الأوس والخزرج)؛ فأنشأوا معهم علاقات سياسـيّة على قـدم المساواة (۴)، وجمعت بينهم مصالـح الجوار، مع رجحان المصالح الاقتصاديّة اليهوديّة فى المنطقة بشـكل ملحوظ، ولم يكن ذلك كافياً للهدوء والسـلام بين القبيلتين القادمتين من الجنوب، بل كان الصراع سمة دائمة بينهما اصطبغ بلون الدم، وسجّل التاريخ مواقع كثيرة سفكت فيها الدماء من الفريقين، وأدّى بهما هذا النزاع الى فتنة مستمرة قسمت يثرب الى معسكرين متنابذين.

وفيما عاش يهود (بنى النضير)، و (بنى قريظة) مع الأوس. نرى (بنى قينقاع) يحتفظون بمساكنهم المجتمعة المنعزلة (۵).

ولم يكن يهود الحجـاز بعيـدين عن مسـببات الصـراع بين الأـوس والخزرج، ففى وقت من الأوقات خضع (الأوس) للخزرج، وخسـروا أرضـهم. بَيْـد أن (الأـوس) مـا لبثوا أن تحـالفوا مع يهود (بنى قريظـة) و (بنى النضـير)، ومن ثمّ تغلبوا على (الخزرج) فى معركـة كبيرة حاسمة جرت فى (بعاث)، ولم يعرف الفريقان السلام بينهما بعد هذه المعركة، بل استمرّ النزاع عنيفاً مميتاً (۶).

ويتمثل يهود الحجاز بالقبائل والعشائر والبطون التالية:

بنو النضـير، وبنو قريظة، وبنو قينقاع، وبنو عكرمة، وبنو عمر، وبنو زعورا، وبنو زيد، وبنو جشم، وبنو بهدل، وبنو عوف، وبنو العصـيص، وبنو ثعلبة وغيرهم (۷).

۱- ۱ أحمد أمين، فجر الإسلام: ۲۴.

۲- ۲ كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية: ۴۲.

۳- ۳ احمد أمين، فجر الاسلام: ۷.

۴- ۴ كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الاسلامية: ۴۳.

۵- ۵ نفس المصدر.

۶- ۶ نفس المصدر.

۷- ۷ نفس المصدر.

ص: ۱۴۷

غير أنهم لم يكونوا أعراباً، أى بدواً يتنقلون من مكان الى مكان، بل كانوا حضراً استقروا فى الأماكن التى نزلوا فيها.

والمستشرق (أوليرى) كغيره من المستشرقين يرجع أصل (بنى قريظة)، و (بنى النضير) إلى اليهود، ويرى أنهم غادروا ديارهم، وجاءوا الى هذه المنطقة فى الفترة الواقعة ما بين خراب الهيكل فى عام (۷۰ م) وتنكيل (هدريان) باليهود فى عام (۱۳۲ م).

وتتضح خارطة التوزيع الاستراتيجى لليهود فى شبه الجزيرة على النحو التالى:

۱- يثرب (المدينة):

سكن اليهود يثرب، وكان يسكن معهم من غير «بنى اسرائيل» بطون من العرب، وظل اليهود أصحاب يثرب حتى جاء (الأوس والخزرج)، فنزلوها واستغلوا الخلافات التى كانت قد وقعت بين اليهود فتغلّبوا عليهم، وسيطروا على يثرب، وقسموها فيما بينهم فلم يبق لليهود أىّ سلطان عليها (۱).

وتمركز (بنو قينقاع) وعددهم حوالى (۱۰۰۰ شخص) فى قلب يثرب، وتمركز (بنو قريظة) وعددهم حوالى (۱۵۰۰ شخص) فى ضواحى يثرب، باتجاه الجنوب الشرقى، بمنطقة مهزور على بعد بضعة أميال من يثرب، وتمركز (بنو النضير) وعددهم حوالى (۱۵۰۰ شخص) فى ضواحى يثرب، فى اتجاه الغرب، بمنطقة بُطحان بالعالية على بُعد ميلين أو ثلاثة من يثرب، وكانت عامرة بالنخيل والزروع (۲).

ومن بين اليهود الذين سكنوا يثرب وضواحيها بطونصغيرة أخرى كبنى عكرمة وبنى ثعلبة، وبنى محمر، وبنى زعورا، وبنى عوف، وغيرهم، إلّاأنّ هذه البطون الصغيرة كانت تابعة فى سياستها للبطون الكبيرة! كبنى قينقاع والنضير وقريظة.

۲- خيبر:

تمركز (بنو خيبر) وعددهم حوالى (۳۰۰۰ شخص) على بعد مئة ميل شمال المدينة، وهم أشد اليهود قوة، وأوسعهم ثراءً لخصوبة أرضهم، وكثرة مزارعهم وبساتينهم، وضخامة حصونهم ومتانتها.

وخيبر موضع غزير المياه، عرف واشتهر بزراعته، وبكثرة ما به من نخيل.

وعند إجلاء اليهود عن خيبر تفرّقوا، فذهب بعض منهم إلى العراق، وبعض آخر إلى الشام، وبعض منهم الى مصر، وقد بقوا- فى كلّ هذه المواضع- متعصبين (لخيبر) (۳).

۳- فدك وتيماء:

تمركزت فيهما تجمعاتصغيرة تقدّر بحوالى (۱۰۰۰) شخص.

وفدك موضع غلب عليه اليهود. وسكانهُ مثل أغلب يهود الحجاز، مزارعون عاشوا على الزراعة، كما اشتغلوا بالتجارة، وببعض الحرف التى تخصص فيها اليهود مثل: الصياغة والحدادة والنجارة.

أما (تيماء): فهى من المواضع القديمة، وتعتبر ملتقى طرق هامة يسلكها التجار. وقد استبدّ بها اليهود، فأقاموا

۱- ۱ أبو الفرج الاصفهانى، الأغانى، ۱۹: ۹۵- أحمد أمين، فجر الإسلام: ۷، ۲۴، ۲۵.

۲- ۲ نفس المصدر.

۳- ۳ تاريخ الطبرى، ۳: ۱۵، ۹۸.

ص: ۱۴۸

بها، وجعلوها من أهم مستوطناتهم فى الحجاز (وقد نعتت تيماء فى بعض الأشعار بتيماء اليهود) (۱).

۴- وادى القرى:

وادى القرى من المواضع التى غصّت باليهود، فكان أكثر أهله منهم، وقد حفروا به الآبار، وتحالفوا وعاشوا مع الأعراب يعملون بالزرع (۲).

والتوزيع الاستراتيجى لليهود فى شبه الجزيرة العربية حقّق لهم الأهداف التالية:

۱- السيطرة على شمال الحجاز من المدينة حتى حدود الشام (تقدر المسافة بحوالى ۴۰۰ كم)، وينطوى هذا الهدف على السيطرة الاقتصادية، وامتلاك زمام الثروة- بكل مصادرها- فى هذه المنطقة الغنية بمواردها الطبيعية، التى عمل اليهود على استغلالها واستثمارها.

۲- تأمين التجمعات اليهودية من التهديد، أو الغارات، أو الغزو، فان انتشار التجمعات الفرعية من حول منطقة التجمع الرئيسية فى المدينة وخيبر فى اتجاه الشمال والشرق والغرب، يتيح الفرصة للحصول على معلومات مبكرة عن أى تهديد، أضف الى ذلك ما يتيحه أسلوبهم- فى بناء مستعمراتهم وتحصينها، وتحصين منازلها، وتخزين السلاح والمؤن بها- من أسباب الأمن والوقاية والمقدرة الدفاعية.

۱- ۱ ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، ۲: ۹۳.

۲- ۲ نفس المصدر.

ص: ۱۴۹

۳- تجنب الاحتكاك بقريش التى كانت تمثل أكبر قوة اقتصاديـة وسياسـية وتجارية عربية؛ وذلك بالابتعاد عن مكّة، وتجنب التمركز فيها، وخاصة أن بها الكعبة التى يقدّسها العرب، كأثر من آثار أبيهم إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

هذا فضلًا عن أن بيئة مكّة الطبيعية لم تكن تناسب اليهود، وكان اقتصادها قائماً على الرحلات والتنقل، واليهود ليسوا من الصنف الذى يجمع الثروة بمثل هذا الطريق الشاق، ولا ممن يستريحون لأولاد إسـماعيل، والمقدسات التى يقدسها العرب الأمّيّون، والمسلمون فيما بعد.

ويمكن القول: إنه لو لم يكن للعرب القرشـيين فى جنوب الحجاز من المقام الأدبى، والنفوذ الاقتصادى، والقدرة العسـكرية؛ لكان من الممكن للنفوذ اليهودى أن يمتد ويتسع.

۴- استغلال ظروف المنطقة، والصراعات للإثراء وتأمين الاستيطان. فقد استغل اليهود ما كان بين الأوس والخزرج منصراعات وحروب وثارات فى الجاهلية بما يلى، على سبيل المثال:

أ- إقراض الأموال والتعامل بالربا.

ب- بيع السلاح لكلّ من الطرفين.

ج- العمل على اسـتمرار الصـراع بين الأوس والخزرج، فتنشغل القبيلتان به عن مواجهة اليهود، وفى هذا تأمين لاستيطانهم فى المنطقة، علاوة على ما فيه من استنزاف لقوى العرب باستمرار، وقد بلغ مخطط اليهود لتحقيق هذا الهدف حدّ التحالف مع طرفى الصراع، فكان بنو قينقاع يحالفون الخزرج، وبنو النضـير يحالفون الأوس، وهـذا التحالف لم يحقق لهم ما كانوا يحرصون عليه، وهو ألّا يجتمع الأوس والخزرج على اليهود فحسب، بـل حقّق لهم جانبـاً كبيراً من الأمن، إذ إن كـل فريق من الأوس والخزرج كان حريصاً على حلفائه من اليهود (۱).

۳- الأوضاع الاقتصادية لليهود:

من أهم الأعمال التى اشتغل بها اليهود التجارة، حتيصار لبعضهم فيها شهرة كبيرة ك (أبى رافع)، و (سلام بن أبى الحقيق) الذى ينعت بتاجر أهل الحجاز. ويمكن أن يقال: إن تجارة التمر والشـعير والقمح والخمر تكاد تكون وقفاً عليهم فى شمال الحجاز. كذلك اشتغل اليهود بالزراعة، التى هى المهنة الرئيسـية لسـكان القرى منهم، وعملوا بتربية الماشـية والدواجن، وفى جهات (مقنا) كانت مهنتهمصـيد الأسـماك، وأما نساؤهم فقـد اشـتغلن بنسـج الأقمشـة. ومن الصـناعات التى كان يهود الجزيرة العربية يزاولونها،صـياغة (الذهب)، وقد اشتهر بها بنو قينقاع (۲).

وكان لهم أيضاً باع فيصناعة السلاح، حتى أصبح تقليداً خاصاً بهم، توارثوه منذ أيام داود عليه السلام الذى يعزى إليه الفضل فيصناعة الأسلحة من معدن الحديد (۳).

وقد ترتب على سيطرة اليهود على الجوانب الاقتصاديّة فى المدينة وضواحيها، أن قوى نفوذهم المالى، وصاروا يتحكّمون فى الأسواق تحكّماً فاحشاً، ويحتكرونها لمصـلحتهم ومنفعتهم، فكرههم السواد الأعظم من الناس، بسـبب أنانيتهم واشـتطاطهم فى أخـذ الربا، ولأنّ معظم معاملاتهم- مع غيرهم- تقوم على المراهنات، وتعاطى الربا.

۱- ۱ نفس المصدر.

۲- ۲ غازى محمد فريج، النشاط السرى اليهودى: ۷۶، ط ۱ ۱۹۹۰.

۳- ۳ نفس المصدر.

ص: ۱۵۰

وكان لهم من طبيعة منطقة المدينة الزراعية فرصة الى ذلك، لأن الزراع- عادة- يحتاجون الى اقتراض الأموال لحين الحصاد.

وقد وبخهم القرآن الكريم على أخذهم الربا، الذى نهاهم اللّه عن أخذه، فقال تعالى: «فبظُلم من الذين هادوا حرّمنا عليهم طيبات أحلّت لهم وبصدّهم عن سبيل اللّه كثيراً وأخذِهم الربا وقد نُهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً» (۱).

ويصف الدكتور (جواد على) ما كان عليه اليهود من ضعف وذلّة، فيقول: «ولكن اليهود- مع ما كان لهم من حصون وآطام وقرى عاشوا فيها متكتلين مستقلين- لم يتمكنوا من بسط نفوذهم وسلطانهم على الأرض التى أنشأوا مستوطناتهم فيها، ولم يتمكنوا من إنشاء ممالك وحكومات يحكمها يهود، بل كانوا مستقلين فى حماية سادات القبائل ورؤسائها، يؤدّون لهم إتاوة فى كلّ عام مقابل حمايتهم لهم، ودفاعهم عنهم، ومنع الأعراب من التعدّى عليهم، وقد لجأوا الى عقد المحالفات معهم فكان لكل زعيم يهودى حليف من الأعراب ومن رؤساء العرب».

وقد أشار القرآن الكريم الى انضمام بعض اليهود الى الأوس، وبعضهم إلى الخزرج عند القتال: «وإذ أَخذنا ميثاقكم لا تَسفكون دماءكم ولا تُخرجون أنفسَكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون ثم أنتم هؤلاء تَقتلون أنفسَكم وتُخرجون فريقاً منكم من ديارهم تَظاهرون عليهم بالإثم والعُدوان وإن يأتوكم أسارى تُفادوهم وهو محرم عليكم إخراجُهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاءُ من يفعل ذلك منكم إلّا خزىٌ فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردّون الى أشدّ العذاب وما اللّه بغافل عمّا تعملون» (۲).

فاللّه تعالى أخذ عهداً موثوقاً على (بنى اسرائيل) ألّا يقتل بعضهم بعضاً، وألّا يخرج بعضهم بعضاً من داره، وقد أقرّوا بذلك، واعترفوا، ولكنهم بعد أخذ الميثاق عليهم، قتل بعضهم بعضاً، وأخرج بعضهم بعضاً من داره؛ وذلك أنهم كانوا إذا حصل قتل بين (الأوس والخزرج) انضمّت طائفة منهم إلى الأوس وطائفة منهم إلى الخزرج، وقاتلوا معهم. فكان يترتب على ذلك أن يقاتل اليهودُ بعضهم بعضاً، فاذا وضعت الحرب أوزارها، بذل اليهود جميعاً أموالهم، لافتداء أسراهم، الذين وقعوا فى أيدى (الأوس والخزرج)، فكان العرب يعيّرونهم ويقولون لهم: كيف تقاتلونهم ثم تفدونهم بأموالكم؟ ..

فكان اليهود يقولون: قد حرم علينا قتالهم ولكنّا نستحى أن نخذل حلفاءنا، وقد أُمرنا أن نفتدى أسرانا، فوبّخهم اللّه تعالى بقوله: «أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلّا خزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب وما اللّه بغافل عمّا تعملون» (۳).

لذا يتضح أن علاقة اليهود ب (الأوس والخزرج) كانت خاضعة للمنفعة الشخصية، والمكاسب المادية، فهم يعملون على إثارة الحرب بين الفريقين متى وجدوا فى إثارتها فائدة لهم، كما حصل فى كثير من الحروب التى انهكت (الأوس والخزرج)، فكان كلّ همّهم أن تكون لهم السيطرة المالية على المدينة، وقد استمرت علاقتهم ب (الأوس والخزرج) تسير على هذا المنوال الى أن هاجر النبيّصلى الله عليه و آله و سلم إلى المدينة.

۴- التجمّع اليهودى فى عصر البعثة المحمدية:

۱- ۱ النساء: ۱۶۰- ۱۶۱.

۲- ۲ البقرة: ۸۴- ۸۵.

۳- ۳ البقرة: ۸۵.

ص: ۱۵۱

فى بـدء دعـوة الإسـلام كـانت منطقـة الحجـاز مقسّـمة قسـمة عجيبـة، بين نفوذ العرب ونفوذ اليهود وسـيطرتهم، ففى بـدء بعثـة النـبىّ محمدصـلى الله عليه و آله و سـلم كانت قوة اليهود الاقتصادية والسياسـية كبيرة ومزعجة فى شـمال الحجاز، حيث بلغت قوتهم فيه قوة قريش فى جنوبه، التى امتـد نفوذهـا من منطقـة يثرب (المدينـة) حتى الطـائف، فيمـا راح نفوذ اليهود يمتـدّ فى شـمال الحجاز الى حدٍّ يمكن معه القول: إنّ هذا النفوذ كان يمتد من المدينة حتى تيماء فى أقصـى حدود الحجاز الشمالية، ملتقياً بحدود سوريا لمسافة تقدر الآن بحوالى ۴۵۰ كم.

لذا فإن نفوذ اليهود الاقتصادى إبّان عصـر البعثة يشـكل أسـس حركة السـيطرة اليهودية، التى كان يمكن أن تصعد وتتّسع، فقد كانت أوضاع توزيع الوجود اليهودى فى شمال الحجاز فى منتهى الدقة، والحرص على نيات التوسع والسيطرة.

وذلك أن يهود (بنى قينقاع) الـذين ورد ذكرهم فى روايـة ابن خلـدون كانوا يقيمون فى منطقـة يثرب (المدينـة)، وكانت معهم قبائل (بنى عوف) و (بنى النجار) وتقيم حولها قبائل (الأوس والخزرج) وتنزل فى المناطق الزراعية التى كانت تهتم بها.

و (بنو قريظة) كانوا ينزلون فى ضاحية يثرب (المدينة) من جهة الجنوب الشـرقى، وبنو النضـير كانوا ينزلون فى ضاحية يثرب (المدينة) من جهة الغرب.

أما منطقة (خيبر) ففيها أعظم مركز لتجمع اليهود فى شـمالِ الحجاز، وتقع ما بين المدينة ومنطقة تيماء الملاصقة لأقصى حدود الشمال عن سوريا (۱).

وكـان هـذا التوزيع لمراكز القوة اليهوديـة يكفل لليهود- وقتها- القـدرة على الانتشار، ووضع أيـديهم على مساحـة كبيرة من الأرض، يعملون على اسـتغلالها واسـتثمارها، والقيام بتحصين أماكن تجمعهم، وامدادها بالقوة العسكريّة، وتخزين كميات من السلاح، وإعداد مجموعات منهم للقتال، بغية الحفاظ على ما اكتسبوه، حتى يمكن لهم دوام السيطرة والبقاء.

ولكن ما إن أحسّ اليهود أنّ القرشـيّين أخذوا يباشرون أسلوب عمل فى النظام الجديد، المرتبط بعقيدة الإسلام وآدابه وتعاليمه، حتى أدركوا تماماً أن هـذه البدايـة الدينيـة بما تقرره، وتصـنعه من إعـداد قوة بشـرية ودينيـة، تصـطدم مع واقع الوجود اليهودى فى الأرض العربية، وآماله ومصالحه. وما لبثوا أن أعلنوها حرباً قاسية ومريرة ضد الرسول الأكرم، والإسلام والمسلمين.

ولم تفتر حدة الردّ إلّابعد أن تمكّن المسـلمون من تصـفية مراكز القوى وإنهاء مواقع التجمّع اليهودى فى أرض الإسـلام، وأبقوا عليهم أفراداً وجماعات دون أن يتركوهم يشكّلون خطراً يُعين الجماعات الطامعة المتوسعة.

وكان الأمل كبيراً فى قلوب المسلمين أن تسير العلاقة بين اليهود والمسلمين سيرة حسنة، وأن يتعاون الطرفان إلا أنّ العداوة والمضايقة والتربّص من جانب اليهود لم ينته أبداً. فكانت الحرب من جانب اليهود ضد المسلمين، وإعلان هذه الحرب ومداومة القيام عليها حتى مرحلة التآمر على النبيِّصلى الله عليه و آله و سلم، ومحاولات التخلص منه نهائياً

۱- ۱ أمين سعيد، تاريخ الإسلام السياسى: ۹۸.

ص: ۱۵۲

باعتباره رمزاً لسيادة المسلمين فى المدينة، الموطن الجديد لهم، الموطن الذى ضايق اليهود بوجود المسلمين فيه، ومواصلتهم نشر الإسلام منه.

وأخذت الحرب الصامتة تَقْوى وتشتد من جانب اليهود ضد المسلمين وعلى مراحل، وفى كل مرحلة كان موقف اليهود فيها يكشف عن طبيعة وجودهم وعقائدهم فى أىّ موقع يسيطرون فيه، ويبرز نوع تعاملهم مع أى أمّة يعيشون معها أو بينها (۱). فلقد كان اليهود يعبّرون عمّا تنطوى عليه نفوسُهم وقلوبُهم من غِلٍّ وحقد وحسد للمسلمين، ويفصحون عن إحساسهم بالخطر مما يمكن أن يطرأ على حال المسلمين من اطّراد القوة والمنعة والسيادة.

ومع كل هذا كان المسلمون يتجنّبون تصعيد حالات العداء، إلا أنّ اليهود كانوا يدركون أن الوقت ليس فيصالحهم، فإذا لم يكسروا شوكة المسلمين من الآن- خاصة بعد بدر- فإن خطر المسلمين سيتضاعف، ومع أنّ المسلمين كانوا يعيشون انتصار بدر وصداه العظيم فى كلّ أرض الحجاز، فإنّهم كانوا يدركون أن خطر قريش لا يزال قائماً، وأنّه ربما تكون الجولة القادمة من جانب قريش طلباً للثأر من المسلمين.

ثم إنّ بداية المضايقات وتصاعدها، وبلوغها حالات الصِّدام فى الموطن الجديد، كانت تتمثل فى قطاع هائل من اليهود وهم «بنو قينقاع» الذين توجّه إليهم رسولُ اللَّه بنفسه فى سوقهم، فرفضوا دعوته، ثم هدّدوه إن قامت الحرب بينه وبينهم (۲).

ثم ساروا على طريق الهُزء بالمسلمين والاستخفاف بهم وبحرماتهم، إلا أن المسلمين لم يبالوا بكل الظروف المحيطة بهم، وقاموا بمحاصرة يهود «بنى قينقاع» فى بطولة فدائية عظيمة، فقد كان عدد اليهود من (بنى قينقاع) أكثر من عدد المسلمين بكثير، فهم عند بعض المؤرخين (۷۰۰) مقاتل و (۳۰۰) دارع و (۴۰۰) حاسر؛ لذا أدرك اليهود الذين ينتشرون فى شمال الحجاز أنه لابدّ لهم من العمل ضد الإسلام والمسلمين، وهذا هو ما ساروا عليه، وخططوا له على المدى البعيد.

ومن هنا يتضح أن اليهود (ومن ورائهم الصهيونية) يدركون أن الإسلام هو العدو والخصم اللدود لهم، فعلى المسلمين والعرب أن يستبعدوا أى تفكير بقبول (الكيان الغاصب) والاعتراف به مهما كان المقابل؛ ذلك أن الصهيونية منذ البداية الأولى لها كانت قائمة على أساس التفسير التوراتى للتاريخ الإنسانى، وللميثاق الإلهى مع الإنسان ولمستقبل الإنسان فوق الأرض. كما أن نزعة العنصرية الحاقدة، ونزعة احتقار الأمم الأخرى فى العقلية الصهيونية إنما هى مستوحاة من الرؤية التوراتية المزوّرة التى تقول حكاية عن الرب: «أنا قلت: إنكم آلهة وكلكم بنو العلى» (۳).

لذا يرتكز الكيان الغاصب فى سياساته العدوانية والتوسعية والعنصرية على رؤية (دينية توراتية تلمودية)، بل إن قيام هذا الكيان على أرض شعب فلسطين مدين فى وجوده لتلك (الرؤية التوراتية) المحرّفة، التى كتبتها وأملتها أحقاد أحبار اليهود على الأمم.

ومن هنا تعتبر الصهيونية التطبيق العملى لليهودية، واليهود أنفسهم يعتبرون تاريخ اليهودية والصهيونية شيئاً واحداً، كما أن تاريخ الصهونية يؤكد تفنن اليهود فى ابتداع وابتكار الأساليب والطرق التى تخدم أهدافهم بطرق غير مباشرة (۴). نعم يصح التفريق بين اليهودية والصهيونية إذا كان المقصود باليهودية الرسالة السماوية الصحيحة التى

۱- ۱ نفس المصدر.

۲- ۲ نفس المصدر.

۳- ۳ سفر المزامير، ۸۲: ۶- الأصل العبرى: ۱۰۱۰.

۴- ۴ فتحى يگن، العالم الإسلامى والمكائد الدولية: ۷۲- سهيل ديب، التوراة تاريخها وغاياتها: ۵.

ص: ۱۵۳

جاء بها موسى عليه السلام.

وينبغى على الأمّة الإسلاميّة أن تسلك طريق الجهاد فى سبيل اللّه، حتى تستعيد حقوقها وأرضها وعزتها وكرامتها، وتضع حدّاً للعدوان الصهيونى الذى يهدّد السلام والأمن فى العالم، ويهدّد المكتسبات المادية والأخلاقية للحضارة المعاصرة. فالصراع الذى تخوضه الشعوب الإسلامية والشعب الفلسطينى بشكل خاص ضدّ الاستكبار العالمى يشهد اليوم اختراقاً خطيراً له ولعالمنا الإسلامى من قبل الصهيونية العالمية واليهودية المنحرفة لم يسبق له مثيل. فقد مهدت قوى الاستكبار لهذا الاختراق منذ وقت ليس ببعيد تحت مظلة ما يسمى بالحكم الذاتى، والذى أطلق عليه اتفاق (غزة- أريحا)، حيث يشكل طوقاً يحاصر التحرك الإسلامى والفلسطينى، وقد أريد له أن يكون أداةً ناجحةً لتحجيم (ثورة الحجارة الفلسطينية) وتدميرها، بعد أن أربكت القوة العسكرية والأمنية والاقتصادية للكيان الغاصب.

ومن هنا فالمشروع الصهيونى يمثّل أخطر تحدٍّ حضارى تتعرض له الأمة الإسلامية جمعاء عبر تاريخها الطويل؛ لأن الصهيونية تخشى الإسلام الذى استوعب الدرس التاريخى المتمثل بسر انتصار المسلمين ووحدتهم، فلابدّ من إنهاء الوجود الصهيونى الشرير الذى يسعى للسيطرة على العالم واستعباد البشر ونهب ثروات الشعوب وإذلال العباد.

الهوامش:

النواحى العمرانية لمكة المكرّمة على مرّ العصور

النواحى العمرانية لمكة المكرّمة على مرّ العصور

عباس المهاجر

أولًا: الناحية العمرانية فى عهد قريش:

إن العمران فى مكّة لم يزد عن مضارب من الشعر، كانت تتلاصق أو تتباعد فى حواشى الوادى، وبين ليات جباله، وما إن أَطلّ العهد الذى ندرسه- عهد حكومة قريش- حتى كانت المضارب من الشعر قد حلّت محلّها البيوت المرصوصة بالحجر، أو المبنيّة بالطين والحجر فيما يحاذى المسجد، أو بالطين التىء وحده على حوافى الأباطح فى أعلى مكة، أو على شواطئ المسيل فى أسفلها.

ص: ۱۵۴

وکان سعید بن عمرو السهمی أوّل مَن بنی بیتاً بمکّة، وقد قیل فیه:

وأوّل من بوّا بمکّة بیتَه وسوّر فیها مسکناً بأثافی (۱) وکانوا یبنونها بحیث لا تستوی علی سقوف مربعة کما نفعل الیوم.

وأول من بنی بیتاً مربعاً حمید بن زهیر، وأستهولت قریش عاقبة التربع فی هندسة البیت، فقالت:

«ربع حمید بیتاً- اما حیاة أو موتاً» (۲).

وأول مَن بوّب فی مکّة «حاطب بن أبی بلتعة» (۳).

وکانوا یجعلون بین یدیها العرصات ینزل الحجاج فیها والمعتمرون. ولما شرعوا یصنعون لبعض الدور أبواباً کانوا یقصرون ذلک علی بعض غرفها، ویترکون مداخلها شارعة علی عرصاتها دون أبواب، وقد قیل إن هند بنت سهیل عندما استأذنت عمر بن الخطاب فی أن تجعل علی دارها بابین أبی وقال لها:

إنما تریدون أن تغلقوا دورکم دون الحجاج والمعتمرین، قالت: تاللّه ما أرید إلا أن أحفظ علی الحجاج متاعهم؛ فأغلقها علیهم من اللصوص فأذن لها فبوبتها.

ویستطیع الباحث أن یستنتج: أن العمران فی مکّة- فی عهدنا الذی ندرسه- نشط نشاطاً کبیراً، بعد أن ترکنا المضارب تتباعد علی حوافی وادی إبراهیم من أعلی مکّة إلی أسفلها، ثم تعرج فی ناحیة منها إلی مداخل الشامیة الیوم نحو قعیقعان؛ نجدها الآن وقد اتصلت وتکاثفت واتخذت کلُّ قبیلة منزلها من الوادی وشعابه، ولم یزحف عمرانهم إلی مرتفعات الجبال وأکتافها کما نفعل الیوم ... بل ظل مستویاً باستواء سطح الوادی.

وقد ذکروا أن قصیاً خطّ للکعبة ساحة توازیصحن المسجد الیوم، وأباح للناس أن یبنوا دون ذلک حول مدارها من الجهات الأربع، وکانوا لا یبیحون لأنفسهم قبل «قُصیّ» السکنی، أو المبیت بجوار الکعبة. ثم أمرهم أن یجعلوا بین بیوتهم مسالک یفضون منها إلی ساحة الکعبة، وأهم هذه المسالک مسلک شیبة وهو فی مکان بنی شیبة الیوم، ولم یبوّب ساحة الکعبة أو یسورها، کما أمر بأن لا یرفعوا بیوتهم عن الکعبة لتظل مشرفة علیها؛ وکانوا یتخذون مجالسهم العامة فی أفنیائها، کما بنی دار الندوة لاجتماعاتهم الخاصة (۴).

وفی استطاعتنا أن نرسم خطوطاً تقریبیة لخریطة مکّة، نبین فیها باختصار مواقع البطون فی مکّة یومها، وسیر العمران بین شعابها، اعتماداً علی ما ذکره الأزرقی فی تخطیطه مواقع القبائل فی کتابه أخبار مکّة (۵).

ولتوضیح ذلک فی الأذهان؛ نستطیع أن نجعل من باب بنی شیبة نقطة ابتداء لتخطیطاتهم، فقد کان موضع ارتکاز الحرکة العمرانیة فی أمّ القری، کما کان أهم مداخل المسجد الحرام، وکانت البیوت تتکاثف حوله متجهة فی الشرق إلی «حصوة» باب علیّ، وفی الشمال قلیلًا إلی «حصوة» باب السلام، تنزلها بطون غساسنة الشام وبعض السفیانیین، وتتخللها متاجر للعطارین، فإذا مضی بنا الخطّ مستقیماً إلی جهة باب النبیّ واجهنا بیت العباس، ودار جبیر بن مطعم، ودور لبنی عامر بن لؤی، واستقام أمامنا زقاق أصحاب الشیرق، وهو إلی جانب زقاق الحجر حیث تقوم دار لابن علقمة، ودور أخری لآل عدی من ثقیف. فإذا نفذنا من ذلک إلی شارعنا العام فی القشاشیة (۶)، متوجهین إلی أعلی مکة استقام أمامنا سوق کانوا یُسمونه سوق الفاکهة، ثم سوق الرطب، ثم رباع کانت لبعض بنی عامر، وعند سوق اللیل تصافحنا الدار التی کانوا یسمونها دار مال اللّه، وکانوا ینفقون فیها علی المرضی ویطعمونهم.

۱- ۱ شفاء الغرام للفاسی، ۱: ۳۶ ط الأولی ۱۹۸۵.

۲- ۲ الجامع اللطیف لابن ظهیرة: ۲۶.

۳- ۳ تاریخ القطبی: ۲۳.

۴- ۴ تاریخ مکة، ۱: ۳۰ ط السادسة ۱۹۸۴.

۵- ۵ الأزرقی، ۲: ۱۳۱ بتصرف.

۶- ۶ لعل القشاشیة منسوبة إلی الشیخ القشاشی، وقد کان یسکن مکّة حوالی القرن الحادی عشر «أُنظر فی الجزء الثانی من کتاب تاریخ مکّة للسباعی فی‌حوادث الشریف أحمد بن عبد المطلب فی عهد الترک العثمانیین».

ص: ۱۵۵

وبالقرب من الدار يلتوى شعب ابن يوسف، وهو ما نسمّيه اليوم شعب علىّ، وفيه دور عبد المطلب بن هاشم، ودور أخرى لأبى طالب، وأخرى للعباس بن عبد المطلب، وإذا عدنا إلى استقامتنا فى شارعنا العام يصافحنا دار العاص فى فوهة شعب بنى عامر، ثم يلتوى شعب بنى عامر فى دروب متعددة تقوم عليها دور لبنى بكر، وأخرى لبنى عبد المطلب بن عبد المناف، ونستقيم مرة أخرى فى شارعنا العام فيواجهنا ردم آل عبد اللَّه، وكانوا يعارضون به مجرى السيل ويسمونه الردم، وعنده يقف الحمارون، ونمضى قليلًا إلى المعلاة لنجد الجزّارين عن يميننا فى شعب أبى دب، ثم مكان المقابر وهى بعد حدود شعب عامر، ثم بعض بساتين تنتهى منها إلى شعبة الجن، ثم ثنية الحجون، ثم بساتين أخرى نصل بعدها إلى شعب الصفى وهو ما نسميه اليوم المعابدة، وفيه دور لبنى كنانة وآل عتبة بن أبى معيط، ودور لربيعة من بنى عبد شمس.

وإذا بدأنا خطّاً آخر من باب بنى شيبة، متوجّهين إلى الشمال الشرقى فى المسعيصادفتنا دورٌ لبنى عدى، قائمة بين باب بنى شيبة ورواق باب السلام، وفى المسعى يتوجّه درب إلى يميننا كانوا يسمونه الخرامية، وكان فيه مكان للبانين، وفيه سقيفة، ودار الحكم بن حزام، ودور تتخللها عرصات لبنى سهم، ويمضى بنا الدرب إلى بيت خديجة، حتى يخرج إلى مكان المدعى اليوم.

وإلى يسارنا- ونحن فى المسعى- طريق الساعين إلى المروة، وفى المروة دور لآل عتبة بن فرقد، ودار كبيرة لآل ياسر، فى واجهتها الحجامون والحلاقون، وإذا مضينا فى المسعى مصعدين فى طريق المدعى انتهينا إلى رحبة واسعة، كانت تحط فيها عير الحنطة والسمن والعسل والحبوب؛ لتباع فيها، وهى ما نسميها اليوم المحناطة، وفيها دور لبنى عبد الشمس، ودار أبى سفيان وهى فى مكان «القبان» اليوم، وقد أشار النبيُّصلى الله عليه و آله و سلم إليها عندما قال يوم الفتح: «مَن دخل دار أبى سفيان كان آمناً» ثم دور لأولاد العباس تصل إلى قريب من المدعى، ثم دور لأولاد الحارث، ثم طريق إلى يسارنا يمضى إلى جبل الديلم، وهو يشرف على القرارة اليوم. ثم نمضى فى استقامتنا إلى طريق المعلاة لنمرّ على دور لبنى غزوان، وأخرى لأولاد الحارث بن عبد المطلب.

ونبدأ خطاً ثالثاً من باب بنى شيبة متوجهين غرباً إلى دار الندوة؛ لنجد البيوت تتكاثف قبل الرواق، إلى جانبها دار لشيبة بن عثمان، ودار لخزانة الكعبة، ودار لصاحب البريد، ودار لبيت المال، ودار للخطاب بن نفيل، ثم نصعد شمالًا إلى جهة الرواق، الذى فيه باب الزيادة، إلى باب الدريبة، فتصادفنا دور لبنى خزاعة، بينها زقاق الحذائين، نسلك منه إلى سويقة، ثم ننعطف منه إلى المروة، ومن جهة أخرى دور لآل زرارة من تميم، ثم يمضى بنا الشعب إلى قعيقعان فى مداخل ما نسميه الشامية- اليوم- فإذا توجهت إلى يمينك توجه بك درب إلى ناحية الديلم، بالقرب من القرارة- اليوم-، ثم تصعد إذا شئت على تلال فى مكان الفلق كانوا يصعدونها؛ لينزلوا منها إلى مكان سوق المعلاة- اليوم- ولم يفلق هذا الطريق إلا ابن الزبير فى عصره.

وإذا أردنا أن ننتقل من شقّ مكة الأعلى إلى شقها الأسفل، تعيّن علينا أن نجعل نقطة ابتداء تخطيطنا ما بعدصحن المسجد أمام باب أجياد، متوجهين إلى الشرق ثم إلى الجنوب الشرقى.

ص: ۱۵۶

كانت منازل بنى عائذ تبتدئ منصحن المسجد فيما يوازى ركن الكعبة اليمانى، ممتدة غرباً إلى ما يحاذى بئر زمزم، ثم تصعد فى الشرق نحو باب علىّ. وكانت دور بعض كبارهم شارعة على مكان المسعى، على يسار القادم من الصفا يريد المروة، أى فيما يحاذى باب على اليوم تقريباً. وكانت منازل عدى بن كعب تبتدئ منصحن المسجد متوجهة إلى الصفا من ناحية، وإلى أجياد من ناحية أخرى قبل أن ينقلوا إلى أسفل مكّة.

وفى الطريق الذى يبدأ من باب الصفا متوجهاً جنوباً إلى باب أجياد كانت سقيفة لبنى عائذة، وسوق للبزازين «القماشين» وبالقرب من ذلك كان البيت الذى اتخذه النبيّصلى الله عليه و آله و سلم لتجارته قبل البعثة مع شريكه السايب بن السايب.

وإذا انتهيت إلى باب أجياد، ووقفت حيث تكون القبلة فى ظهرك، ومداخل أجياد فى وجهك امتد أمامك شعبان:

أحدهما عن يمينك إلى ما نسميه- اليوم- بئر بليلة، وكانوا يسمونه أجياد الكبير، وامتد الشعب الثانى على يسارك إلى ما نسميه- اليوم- السد، وكانوا يسمونه أجياد الصغير، ولست أعنى بالامتداد ما يتبادر إلى ذهنك من نفاد الجادة واستقامتها بامتداد الشعوب، فقد كان العمران يتخلل الجادة ويعرقل استقامتها ... وكان بنو تميم ينزلون حوالى باب أجياد، وتمتد بيوتهم من جهة الغرب إلى قبيل حدود المسجد يومها، وهى حدودصحن الكعبة اليوم، وكان بنو مخزوم ينزلون فى فوهة أجياد الكبير مكان الرواق الجديد اليوم .... وكان جماعة من الأزد ينزلون خلف ذلك مما يتصل بمكان الصحة العامة، وخلفها كان منزل أبى جهل بن هشام لا يبعد عن ذلك كثيراً، وفى أجياد الصغير إلى الجادة المتصلة بالسد كانت منازل لآل عدى بن عبد شمس، وفى أجياد مكان للحواتين، ودار لعبد اللّه بن جدعان التى كان فيها حلف الفضول الذى تعاقدت فيه القبائل متفقة بأن لا يقرّ فى مكة ظالم. وفيها دور لآل سلمة ابن هشام، وفيها بئر يجمع بين أجيادين احتفرها آل سلمة مع جماعة من جيرانهم، وكان يردها السكان فى فوهة الشعب باجيادين، وأكاد اعتقد أنها البئر الموجودة اليوم قبيل عمارة المستشفى؛ لأنها تجمع بين طرفى أجيادين.

واذا تركت أجيادين، ماضياً فى الشارع العام إلى الجنوب نحو المسفلة، بدأت بسوق الحزورة بجوار باب الوداع، ورأيت الدروب تمضى على يمينك إلى قرب المسجد عند حدود المطاف ومن أشهرها درب الحناطين، واعتقد أنه كان سوقاً للحنطة، فالحائط فى اللغة هو كثير الحنطة، وموقع هذا الدربصالح لبيع منتجات الجنوب من الحنطة فى مكة، وفى هذه الجهة كانت تنزل بطن من آلصيفى، وفيها دور لآل عبد الدار، وأخرى لجماعة لبنى اسد بن عبد العزى.

ولعلنا إلى هذا الحد استطعنا أن نرسم خطوطاً تقريبية لمكة فى الجاهلية، ولا يفوتنا- فى أذيال هذا البحث- أن نشير الى الضواحى التى كان يحلو للمكيين أن ينتجعوها فى الأصائل من شهور القيظ، وهى عادة ترى آثراها إلى اليوم فى المتنزهين من أبناء مكة فى أطراف الضواحى، وكأنما هم يمثلون بذلك عادة عرفها أجدادهم من نحو (۱۵۰۰) سنة تقريباً. ومن أشهر متنزهات مكة فى الجاهلية (۱) الليط ... والليط فى رأى بعض المؤرخين (۲) هو أسفل مكة فيما يقرب من بركة ماجل متنزهاً فى مكة اليوم، ويقول الأستاذ رشدى الصالح ملحس فى حاشيته على تاريخ الأزرقى: إنه يرجح أن يكون خلف القشلاق العسكرى، أى فيما يلى جرول الخلفية، ولست بالذى يستبعدصحة القولين، وكأن الوادى بعد بركة ماجل يتصل بالجادة التى تنتهى خلف القشلاق، فلِمَ لا يكون الليط عبارة عن امتداد من جرول الخلفية إلى أطراف المسفلة؟ وكانت فى الليط أُقحوانة (۳) يجلس أهل مكة حولها فى العشى، يلبسون الثياب المحمرة

۱- ۱ يرى بعضهم أن الجاهلية كلمة يراد بها نقيض العلم، كما يرى بعضهم أنها تعنى الأخلاق السفيهة- أُنظر فجر الإسلام:ص ۶۹.

۲- ۲ أخبار مكة للأزرقى، ۲: ۲۷۹ أنظر حاشية رشدى الصالح ملحى- ط الرابعة ۱۹۸۳.

۳- ۳ أى عباد الشمس.

ص: ۱۵۷

والموردة والمطيبة وفى هذا يقول الحارث بن خالد:

مَن ذا يسايل عنّا أين منزلنا فالأقحوانة منا منزل قمن

إذ نلبس العيشصفواً ما يكدره طعن الوشاة ولا ينبو بنا الزمن (۱) ومن متنزهاتهم شعب خم، وهو يتصل بالمسفلة اليوم، وكان مزروعاً فيه عدة بساتين تتصل بالليط ثم تتصل بجرول.

وكانوا يخرجون إلى حائط الحمام بجوار المعلاة، فقد كان لهم هناك نخيل وزروع، وكانت بساتين تمتد إلى الخرمانية بقرب ما نسميه المعابدة، ثم تمضى إلى المحصب فى الطريق المؤدى إلى منى.

وكان لهم فى المحصب دكة يجتمع المتنزهون فيها أصيل كل يوم، وكانت تشرف على نخيل باسق وبساتين تحتضنها شعاب الوادى الممتدة إلى منى.

كما كانت لهم بساتين فى وادى فخ ونسميه الشهداء (۲)- اليوم- وأخرى بوادى طوى فى امتداده من الحجون إلى ريع الكحل وبساتين غير هذه فى ضواحى مكة العليا إلى مزدلفة فعرفة، وكانت المنازل فى المناطق التى ذكرناها لا تتكاثف على قاعدة المدن الحاضرة بل تتفرق، وتفصل بينها مساحات خالية على عادة العرب فى بناء قراهم ومدنهم، أما الناحية المتصلة بالمسجد فكانت تضيق بنزلائها؛ لتنافسهم فى مجاورة الكعبة. وقد بنى القرشيون فى أواخر عهدهم ما يشبه السور فى أعلى المدعى وبوّبوه، ولم يثبت أنهم بنوا مثله من ناحية أخرى منها (۳).

ثانياً: الناحية العمرانية فى عهد الراشدين:

تتزاحم البيوت فى هذا العهد حول المسجد؛ لأن الأغلبية من مهاجرى الآفاق كانوا يفضلون قربه، فأخذ وسط أمّ القرى شكل المدينة المكتظة، وتركت الأطراف للقبائل التى تنزلها تؤدى معانى الضواحى للبلدة.

ولم يزد الاكتظاظ فى طول البلدة عن «المدعى» من الناحية الشمالية، وعن أوائل الهجلة، وقبل الشبيكة من الناحية الجنوبية. أما شرقها إلى غربها فقد كان تكاثف السكان فيها من أوائل مدخل أجيادين إلى القشاشية، إلى النواحى القريبة من سوق الليل وشعب الهواشم، ومن سويقة إلى قرارة المدحا إلى الجزء القريب مما نسميه الشامية.

وبدأت الثروات فى عهد عثمان تزيد أرقامها فى مكة عما عهدناها فى عهد الشيخين؛ لأنه أضيف إلى نشاط مكة التجارى مصدر جديد من مصادر الثراء ذلك هو عطاء عثمان، وليس غريباً أن يكون عطاء عثمان مصدراً للثراء، فقد كان قبل خلافته من أجواد العرب الممتازين، ونوادره فى هذا معروفة ومشهورة (۴)، فلما انقادت إليه الخلافة، وكانت الفتوحات قد اتسعت، وغنائم الأمصار قد انهمرت على المدينة كان لابدّ لجود عثمان من أن يتسع مداه، ولابد لجلة قريش وكبار أهليها من ذويه وأقاربه من أن ينالهم جوده الواسع. فقد ذكر أنه أعطى الزبير ستمائة ألف، وأعطى طلحة مائتى ألف، وأعطى غيرهم مثل ذلك، فتدفقت الأموال على مكة إلى جانب ما تدفق إليها من غنائم الحروب، وجلب الرقيق إليها من أطراف الأرض المفتوحة شراءً أو اهداءً، فأينعت الحضارة، وكثرت الأيدى العاملة فى

۱- ۱ أخبار مكة للأزرقى، ۲: ۲۷۹ وما بعدها- ط الرابعة ۱۹۸۳.

۲- ۲ راجع أخبار مكة للأزرقى، ۲: ۲۳۰ حاشية رشديصالح؟؟؟.

۳- ۳ تاريخ مكة، السباعى، ۱: ۸۲.

۴- ۴ نفس المصدر: ۷۴.

ص: ۱۵۸

المزارع المحیطة بمکة، وأنشئت الجنات فی بعض ضواحیها، وحفرت الآبار، واتخذت السدود من میاه الأمطار، ووجدت الأقطاعات الفخمة فی أراضی الطائف، وأکثرها ملک للقریشیین، وانتقل إلی هذه الأقطاعات کثیر من قریش، یسهرون علی غلاتها، وقد ظل کثیر من بطونهم یعیش إلی الیوم فی بعض ضواحی الطائف.

وماجت مکة علی أثر هذه الحرکة بسکانها من القبائل النازحة إلیها، والموالی المجلوبین من الفرس والروم، وبدأت تستقبل فی عهد عثمان کثیراً من الذین نزحوا عنها فی عهد الشیخین؛ للالتحاق بالجیوش الفاتحة ... عاد إلیها البعض بما کسبه من غنائم، کما عاد البعض الآخر بما فیصدورهم من العلوم، فحفلت مکة بحلقات المعلمین، کما حفلت أسواقها بمتاجر أهل الثراء، ولم تشترک مکة فی فتنة عثمان، التی اشترکت فیها أهم أمصار الإسلام. وإذا کان بعض المهاجرین من أهلها فی المدینة اتصلوا بالفتنة من بعض أطرافها. فذلک بحکم بقائهم فیها واشتغالهم بالسیاسة العلیا فی حکومتها. ولعلنا لسنا بحاجة الی استقصاء الأسباب التی عصمت مکة من مزالق الفتنة، وعندما نادت عائشة بثورتها لم یتبعها من مکة إلا الأقلون، واکثرهم من أشیاع بنی أمیة واتباعهم، وبعض المشتغلین بالسیاسة العلیا، وهؤلاء لا یکونون الرأی العام فی البلاد (۱).

وکما تعاونت مکة مع ولاة عثمان مدة خلافته، وساعدت فی تنشیط الحرکة العمرانیة لعهده رضیت بولاة علی علیه السلام وأخلصت الود لهم. ولما أراد قثم بن العباس أن یحارب الترف الذی بدرت بوادره کنتیجة لتضخم الثروات التی أشرنا إلیها، کادت أن تسلس له القیاد وتستجیب إلی دعوته.

ثالثاً: الناحیة العمرانیة فی العهد الأموی:

ینقل القطبی فی الأعلام عن الفاکهی أن من آثار النبیّ مسجداً بأعلی مکة عند بئر جبیر بن مطعم بن عدی بن نوفل، ثم یقول: وکان الناس لا یتجاوزون فی منازلهم- فی قدیم الزمان- هذا البئر، وما فوق ذلک خال من الناس، وفی ذلک یقول عمر بن أبی ربیعة:

نزلت بمکةَ من قبائل نوفل ونزلت خلف البئر أبعد منزل

حذراً علیها من مقالة کاشح ذرب اللسان یقول ما لم یفعل ونستطیع أن نفهم من هذا أن قدیم الزمان الذی یشیر إلیه الفاکهی، هو عهد بنی أمیة، وفی شعر ابن أبی ربیعة وهو من معاصری الأمویین ما یؤید ذلک، فقد نزل خلف البئر أبعد منزل. إذاً فقد کان العمران فی هذا العهد لا یتجاوز البئر والمسجد المذکورین، وقد أدرکت العامة وهم یسمون المسجد الموجود الآن أمام الحلقة مسجد الرایة، وکنت لا أستبعد أن یکون البئر المذکور هو بئر الکمالیة الموجود الیوم علی بعض أمتار منه، ولکنی علمت أن الأستاذ عبد القدوس الأنصاری حقّق مکان البئر والمسجد، وانتهی فی ذلک إلی أن مسجد الرایة هو المسجد الموجود فی الجودریة، وتقع عمارة شرکة الکهرباء الآن خلفه، وبجواره مباشرة بئر جبیر بن مطعم. وأجدنی الیوم أمیل إلی متابعة رأیه لأسباب أذکرها، وقد یکون ذکر غیرها:

۱- بعد أن ذکر القطبی فی کتابه الأعلام أن العمران کان لا یتجاوز البئر، قال: أما فی زماننا «وزمانه أوائل العهد العثمانی» فقد تجاوز العمران کثیراًصوب المعلاة، فإشارته إلی تجاوز العمران کثیراًصوب المعلاة فیه ما یدل

۱- ۱ تاریخ مکة، السباعی، ۱: ۸۳.

ص: ۱۵۹

على أن مسجد الراية كان بعيداً عن المعلاة، فإذا أفترضنا أن مسجد الراية الموجود أمام الحلقة كان المدى بينه وبين المعلاة مدًى يسير، وأن أقل العمران يصله بالمعلاة مباشرة.

أما إذا جعلنا مسجد الراية فى «الجودرية» (۱) فإن جملة العلامة القطبى تستقيم تماماً؛ لأن المدى بينه وبين المعلاة يحتمل قول أن العمران تجاوز كثيراًصوب المعلاة.

۲- يذكر مؤرخو مكّة أن ابن الزبير عندما فلق الطريق الذى نسميه اليوم «الفلق»، وكان غرضه أن تتصل بيوته فى نواحى سويقة ببساتينه من ذلك الطريق؛ فتعين لدينا أن بساتينه لا تبعد عن الفلق كثيراً، وأن المتوقع أن يكون موقعها فى الحلقة، أو بالقرب من ذلك؛ لأن الحلقة كانت موقع بساتين ولا يزال آثار ذلك بجانبها إلى اليوم، فإذاصحّ أن بساتينه فى الحلقة، أو ما يقرب منها فإننا نستبعد أن يكون عمران مكة ينتهى إلى ما يسامت البساتين؛ لأن المعروف فى تخطيط المدن العربية فى العادة أن تقع بساتينها فى ضواحيها، ولما كان عهد ابن الزبير متصلًا بعهد الأمويين، وكان المظنون أن بساتينه كانت تقع فى ضاحية مكة، وأن العمران ينتهى بعيداً عن بساتينه بنحو مائة متر، وهو ما يتفق مع موقع المسجد الموجود خلف عمارة شركة الكهرباء اليوم، لهذا فالأوفق أن يكون مسجد الراية وبئر مطعم هما الموجودان اليوم أمام شركة الكهرباء فى الجودرية، حيث كان ينتهى عمران مكة فى عهد الأمويين.

ولا نعتقد أن العمران تجاوز من الجهة الأخرى الشبيكة، لأن حدود حارة الباب لم تعمر إلا بعد هذا العهد، ولم يكن لمكّة فى هذا العهد سور؛ لأن المفهوم من سياق ما ذكره التقى الفاسى: أن العمران فى هذا العهد تجاوز السور الذى عرفناه فى العهد الجاهلى بالقرب من المدعاة، فهدم السور وظلت مكة على ذلك إلى أن سورت فى المعلاة فى عهد قتادة كما سيأتى.

على أننا لا نعنى بتحديد العمران- فى مكّة فى هذا العهد- التحديد المتبادر إلى الذهن؛ لأن المعروف أن كثيراً من السكان كانوا يسكنون إلى مسافات تتجاوز هذه الحدود؛ فشعب عامر كان مسكوناً فى العهد الجاهلى، وكذلك كانت الحجون والمعابدة، وإذن فالمراد بالتحديد هو العمران المتصل، وهو لا يمنع وجود الساكن فى الضواحى القريبة أو البعيدة.

رابعاً: النواحى العمرانية فى العهد العباسى:

لا يستنتج الباحث مما كتب عن مكة، أن عمرانها اتسع فى هذا العهد عما عرفناه فى عهد الأمويين، أو أن مساحة المأهول فيها توسعت عما كانت، بل يجد أن الأمر على عكسه، وأن السكان قل تعدادهم جداً، فقد تفرق أبناء مكة فى الآفاق، واستوطنوا الأراضى الخصبة، واتخذوا لهم أملاكاً فى مصر والمغرب والشام والعراق حتى لم يبق فى مكة من أهلها إلا أقل من القليل، مع من جاورهم من مسلمى الآفاق؛ للتشرف بالجوار، وكان من عادة حكام مكّة أن ينادى مناديهم بعد أداء الحجّ «يا غريب بلادك» تقليداً لابن الخطاب، لئلا يستأثر المجاورون بثروات البلاد.

عنى الرشيد بالعيون التى طمرت بعد عهد معاوية فأحياها، وصرف مياهها فى عين واحدة، يقال لها

۱- ۱ الجدر بفتح الجيم وكسرها هو نبات رملى، ولعله كان ينبت بجوار ما نسميه مسجد الراية؛ لقلة البيوت فيه فسميت الجودرية بالتصغير.

ص: ۱۶۰

(الرشا) (۱)، واتخذ البرك لها فى أعلى مكة وأسفلها، تصب فيها المياه فيسقى منها الناس، وتلك كانت عادتهم قبل إنشاء موارد الماء فى القرون المتأخّرة. ولما لم يف ذلك بالغرض نشطت زبيدة زوجته للأمر فاشترت أرض حنين، وكان فيها نخيل وزرع فألغته، وبنت للماء قنوات يصب فيها إلى أطراف مكة، ثم اشترت أرضاً أخرى فى وادى نعمان فوق عرفات، وبنت قنواته؛ ليصب فى عرفة، ثم أصلحت البرك الموجودة فى مكة، وبنت بركة غيرها، ليصب الماء فيها ويستقى الناس، وقدّرت نفقات ذلك بنحو ألف وسبعمائة ألف مثقال من الذهب وهو يعادل مليون وسبعمائة ألف دينار ذهبى (۲).

وأمر المأمون بانشاء خمس برك فى مكة، تتسلط عليه عين زبيدة فجعل احداها عند شعب ابن يوسف (شعب علىّ)، والثانية عند الصفا والثالثة عند الخياطين بجوار ما نسميه «باب إبراهيم» عند فوهة سكة الثنية (۳) والرابعة عند سوق الحطب فى «الهجلة»، والخامسة فى ماجل أبيصلاية (۴)، وجعل المسارب بين البرك يجرى فيها الماء من بركة زبيدة.

وبنى الرشيد له داراً بين الصفا والمروة شارعة على المسعى كان يقال لها دار القوارير (۵)، وفيها بئر هاشم وكانوا يسمونها «سحلة»، أو بئر جبير بن مطعم؛ لأنه استوهبها من هاشم وهى موجودة إلى اليوم فى باب قايتباى، وقيل: إن عبد المطلب وهبها لمطعم عندما استغنى عنها بحفر زمزم.

وأنشأ ياسر- خادم زبيدة- بأمرها ميضات على باب أجياد الكبير، وأدخل فيها بئر الحفر وقد دخل كل هذا فى رواق باب أجياد فى التوسعة الجديدة.

واشترت زبيدة دوراً أوقفتها فى مكة، ومنها دار الأرقم، وهى الدار التى كان يختبئ النبيُّصلى الله عليه و آله و سلم فيها قبل البعثة، وتقع فى زقاق على يسار الصاعد إلى الصفا، ويسميها بعضهم دار الخيزران، وهى غير دار الأرقم التى بجوارها.

وأنشأ الرشيد على رؤوس الجبال منائر تشرف على فجاج مكة، ورتب المؤذنين لها؛ لأن بعضهم كان لا يبلغهصوت المسجد، فبنى على أبى قبيس أربع منائر، وعلى رأس الأحمر المقابل منارة، وعلى الجبل المشرف على شعب عامر منارة أخرى تشرف على المجزرة، ومنارة على جبل كرى وغيرها. وبنى مولاه (بغا) غير ذلك على جبال أخرى فى الفلق والمعلّاة والشبيكة وأجياد وبئر ميمون فى أعلى الأبطح ومسجد الكبش بمنى.

وكان بعض المؤذنين يسهرون فوق المآذن التى بناها الرشيد فى الجبال؛ ليؤذنوا فيها، ولعله أذان السحر الذى كان مستعملًا، وقد أهملت هذه المنائر بتقادم الأجيال وخربت ولم يبق منها أثر (۶).

وفكّر الرشيد فى أن يعنى بموصلات مكّة البحرية فينشئ قناة ما بين البحر الأحمر والأبيض، فأشير عليه بترك ذلك مخافة أن تتصل سفن الروم بأرض العرب، وتهدد الحرمين بأخطارها فعدل عن ذلك، وما عدل عنه الرشيد نفذه الخذيوى سعيد فى مصر بفتح قناة السويس عام ۱۲۸۶ ه.

خامساً: النواحى العمرانية فى عهد الفاطميين:

۱- ۱ راجع أخبار مكة للأزرقى، ۲: ۲۳۰.

۲- ۲ نفس المصدر.

۳- ۳ ذكر الأزرقى أن درب الثنية هو درب الشبيكة.

۴- ۴ الماجل فى اللغة كل ماء فى أصل جبل أو واد، وبركة المسفلة كانت ماجلًا لأبيصلاية، ثم سميت بركة الماجل وحرفها الناس

وقالوا: برکة ماجن أو ماجد.

۵- ۵ نفس المصدر، ۲: ۲۰۲.

۶- ۶ شفاء الغرام للفاسی، ۱: ۳۸۸.

ص: ۱۶۱

وعنى الفاطميون بإصلاح كثير من الخراب الذى كان يطرأ على المسجد الحرام، وجددوا بعض الاسطوانات، وأصلحوا بعض المواضع من سقفه، إلا أن عناية العباسيين كانت أكثر وضوحاً، فقد قاموا بإصلاحات كثيرة فى الكعبة فعمروا سقفها سنة ۵۴۲ وأصلحوا رخامها عام ۵۵۰ وشدّوا ركنها اليمانى عندما تضعضع عام ۵۵۹. وأهدى المطيع العباسى للكعبة قنديلًا من الذهب زنته ۶۰۰ مثقال، وعدة قناديل من الفضة فى العام نفسه (۱).

وأهدى الخليفة العباسى المكتفى فى عام ۵۵۱ باباً للكعبة بديع الصنع منقوشاً عليه اسمه، كما أهداها ميزاباً جميل النقش فى عام ۵۴۱، كما أمر وزيرصاحب الموصل محمد الجواد الإصفهانى بعمل إصلاحات كثيرة فى المسجد، أهمها تعمير منارة الباب وقبة العباس بجوار زمزم. وأنشأ مزولة فيصحن المسجد لمعرفة أوقات النهار، وكان مكانها على بعد ۴۳ ذراعاً من ركن الكعبة العراقى بذراع الحديد عمّا يلى المنبر، وقد أزيلت بعد ذلك ولم يبق لها أثر (۲).

وممن عنى بالمسجد فى هذا العهد أحد أعيان المسلمين المعروف بالشيخ رامشت واسمه أبو القاسم إبراهيم بن الحسين الفارسى، فقد بنى رباطاً بجوار باب إبراهيم لسكنى فقراء الصوفية من أصحاب المرقعات، وأهدى للكعبة ميزاباً فى سنة ۵۴۱ وكساها بالحبرات فى عام ۵۳۲ كسوة كلفته ۱۸ ألف دينار مغربية، وكذلك كساها أبو النصر الأسترآبادى كسوة بيضاء من عمل الهند فى عام ۴۴۶.

وكان الفاطميون يكسونها بالديباج الأبيض كما كان بعض العباسيون يكسونها بالسواد شعار العباسيين، واستمرت تكسى بالسواد إلى الآن (۳).

ويذكر الشيخ باسلامة فى كتابه عمارة المسجد (۴): أنه يظن أن المقامات الأربعة الموجودة بالمسجد أنشئت بين القرن الرابع والخامس، أى فى هذا العهد الذى ندرسه الآن، وذلك لأن المؤرخين والرحالين الذين وصفوا المسجد قبل هذا العهد، وآخرهمصاحب العقد الفريد لم يذكروا عنها شيئاً، بينما يذكرها ابن جبير فى رحلته عام ۵۷۸ فدل ذلك على أنها حدثت قبيل ذلك العهد.

والذى نحسبه أن ما ذكره الشيخ باسلامة لا يعدو الحقيقة لأننا نعتقد أنها أحدثت فى العهد الفاطمى مع ما أحدثت من مزايا جديدة.

وكان فى جوانب حجرة زمزم أحواض يصبّ فيها الماء، ويتوضأ الناس به، وأمام بئر زمزم من ناحية الشرق بناء آخر عليه قبة يسمى سقاية الحاج وضع به أزيار يشرب منها الحجاج، وبعد هذا البناء فى ناحية الشرق، بناء آخر مستطيل عليه ثلاث قباب يسمى خزانة الزيت به الشمع والزيت والقناديل، وحول الكعبة أعمدة قامت بينها عوارض من الخشب عليها زخارف ونقوش من الفضة، وقد أنيطت بها المصابيح معلقة فى الحلق والطّابات ويفصلها عن الكعبة ۱۵۰ ذراعاً وهى مسافة المطاف (۵).

سادساً: النواحى العمرانية فى عهد المماليك الأتراك والشراكسة:

۱- ۱ تاج تواريخ البشر للشيخ سعيد الحضراوى.

۲- ۲ نفس المصدر.

۳- ۳ نفس المصدر.

۴- ۴ عمارة المسجد: ۱۲۵.

۵- ۵ إفادة الأنام للشيخ عبد اللّه غازى.

ص: ۱۶۲

لم يبذل المماليك الأتراك الجهود التى بذلها مماليك الشراكسة بعدهم فى سبيل الإصلاح، ومع هذا فقد كانت لهم اصلاحات منها: أنهم فى عام ۷۳۶ ه عمروا الأساطين التى حول المطاف وقد جعل بعضها من الحجارة المنحوتة الدقيقة، والباقى كان آجراً مجصصاً، وجعل بين كل اسطوانتين خشبة تعلق فيها القناديل عوض الأخشاب التى كانت تعلق فيها (۱). وفى عام ۷۴۹ عنى الأمير فارس الدين من مماليك الأتراك بإصلاح المسجد، وجدد الأعمدة حول المطاف (۲) وفى سنة ۷۲۰ عمّر الناصر محمد بن قلاوون رخام الحجر ثم عمّره من بعده المنصور على بن الأشرف سنة ۷۸۱ وصنع باباً للكعبة، وصنع ولده الناصر حسن باباً للكعبة سنة ۸۷۱ (۳) ووقف الصالح إسماعيل الناصر فى عام ۷۴۳ قرية من نواحى القاهرة يقال لها «بيسوس» (۴) بجوار القليوبية، وظل ينفق من غلتها على الكسوة. وقد ذكر ابن بطوطة فى رحلته إلى الحجّ سنة ۷۲۸: أن الملك الناصر كان يتول كسوتها وكانت سوداء مبطنة بالكتان، وأنشأ الناصر بن قلاوون متوضَّأً مقابل باب على.

وعنى الشراكسة بالإصلاحات فى مكة والمسجد الحرام، فجدّد (برقوق) فى عام ۸۰۱ عقد المروة وأصلح درجاتها، وعمر فى عام ۸۴۲ ناظر الجيش الشركسى ومدير الحرم (سودون) كثيراً من المواضع المأثورة فى منى والمزدلفة وعرفات، وأزال أشجار الشوك والصخور الكبيرة فى طريق عرفات؛ لأن اللصوص كانوا يختفون وراءها (۵).

وكانت العين من نعمان إلى عرفات خربة، انقطع ماؤها من عهد المماليك الأتراك فأصلحوا مجراها فى عام ۸۷۴ إلى أن عاد ماؤها يروى الحجيج (۶).

وأمر السلطان قايتباى بهدم المتوضأ الذى ذكرنا أن المماليك الأتراك أنشؤه أمام باب على، ثم بنى مكانها رباطاً للفقراء، وأدخل فى مساحة الرباط نحو ثلاثة أذرع من المسعى، وعندما عارض قاضى مكة فى إضافة الأذرع من أرض المسعى إلى الرباط ومنع البناء، أصدر قايتباى أمره إلى أمير الحجّ بتنفيذ البناء بقوة العسكر فتم ذلك، وأنشأ إلى جانب الرباط متوضأًصغيراً وجعل له باباً يشرف على سوق الليل- القشاشية- كما أُنشئ بجواره مطبخ تطبخ فيه الدشيشة وتوزع على الفقراء، كما عمّر قايتباى مسجد الخيف فى منى ومسجد نمرة فى عرفات (۷).

وفى عهد الشراكسة شبت النار فى رباط رامشت بين باب ابراهيم وباب الوداع فى شوال سنة ۸۰۲ فاتصل لهيبها بسقف المسجد ثم التهمت النار جميع الأروقة إلى باب الباسطية فندب الشراكسة أمير الحج المصرى عام ۸۰۳ لإصلاح ما تهدم، وقد احتاج العمل إلى تغيير بعض الأسطوانات الرخامية فنحتوا من الجبل المعروف بجبل مكة حجارة بشكل نصف دائرة أقاموا منها الأسطوانات الثخينة، ثم زخرف المسجد بالألوان ونيطت السلاسل بالسقف لتعليق القناديل كما كانت فى العهد العباسى، وعمرت المقامات الأربعة على هيآتها القديمة، وتمت أعمال البناء فى سنة ۸۰۷ ه وفى عهد أبى السعادات بن الطاهر برقوق ثانى ملوك الشراكسة (۸).

وفى هذا العهد عام ۸۰۷ سد باب الخلوة إلى جانب زمزم، التى كان فيها مجلس ابن عباس وجعل فى موضع الخلوة بركة مقبوبة، وفى جدارها الذى يلى باب الصفا «بزابيز» من نحاس يتوضأ الناس منها على أحجار نصبت للجلوس، وفوق البركة المقبوة خلوة فيها شباك إلى الكعبة، وشباك إلى الصفا وطابقصغير إلى البركة.

وعمرّ الشراكسة حجر إسماعيل بالرخام، وأرسلوا له كسوة من الحرير الأسود كسوا به دائرة من الداخل

۱- ۱ إتحاف الورى لابن فهد.

۲- ۲ نفس المصدر.

۳- ۳ تاریخ الکعبة للشیخ حسین باسلامة: ۱۹۹.

۴- ۴ الأعلام للقطبی علی هامش خلاصة الکلام: ۱۴۴.

۵- ۵ نفس المصدر: ۱۴۶.

۶- ۶ نفس المصدر: ۱۵۱.

۷- ۷ نفس المصدر.

۸- ۸ شفاء الغرام لتقی الدین الفاسی، ۲: ۳۸۶.

ص: ۱۶۳

والخارج، وکانت أول کسوة من نوعها لحجر إسماعیل وآخرها أیضاً (۱).

وأمر (قانصوه) فی عام ۹۱۷ بنقض جدار الحجر مرة أخری، وأرسل لاصلاحه رخاماً جدیداً من مصر.

وأنشأ الشراکسة فوق مصلی إبراهیم قبة عام ۸۸۱، کما أرسلوا منبراً من الخشب فی عام ۸۱۵، وأرسلوا غیره فی عام ۸۶۶ ثم غیره فی عام ۸۷۷.

وعنوا بکسوة الکعبة طوال مدة حکمهم فی مصر، وفی عام ۸۱۰ احدثوا فی جانبها الشرقی جامات منقوشة بالحریر. وفی سنة ۸۱۹ جعلوا لبابها ستارة أجمل مما کانت، وکانوا یکتبون فی طرازها اسمصاحب مصر الشرکسی (۲).

وکسی (جقمق) الجانب الشرقی والشمالی من الکعبة دیباجاً أبیض بخامات سود فی عام ۸۶۵، وکساها قایتبای من الداخل فی عام ۸۸۳ (۳)، ولا تکسی الکعبة من الداخل إلا إذا بلیت کسوتها، أو أراد أحد الخلفاء تجدیدها.

وفی عام ۸۱۷ عمّر (الفوری) فی زیادة باب إبراهیم، وبنی فوقه قصراً مرتفعاً مع مرافقه، وجعل حول القصر- من خارج المسجد- معازل ومساکن وبنی خارج ذلک متوضَّأً تشتمل علی مراحیض وبرکة ماء، ووقف القصر والمساکن علی بعض أعمال الخیر، وبنی علی یمین الداخل إلی باب إبراهیم من الداخل حاصلًا فی أرض المسجد، وعلی الیسار مثله، وقرر فیهما بعض المستحقین، وجعل فی الجانب الیمانی حاصلًا یشتمل علی سبیل ماء وصهریج.

وخربت المظلة القائمة فوق بئر زمزم فی عام ۸۱۸ فنقضت وبنیت مرة أخری، ثم عمّر الشراکسة کثیراً من الخرائب فی أماکن متعددة من المسجد، وعمّروا باب النبیّ کما عمّروا ثمانیة عقود من جهة باب الزیادة، ونقضوا منارة باب السلام، ثم أعادوها فی عام ۸۱۶ کما نقضوا بعد ذلک منارة باب الزیادة ثم أعادوها فی عام ۸۲۳، وأصلحوا فی سطح الکعبة. وتراکمت فی هذا العهد طبقات من التراب فی المسجد فاستعان المسؤولون بالثیران لجرفه ثم نقلوه إلی المسفلة، ثم بطح مکانه بطحاً مغربلًا نقلوه من ذی طوی ووادی الطندباوی (۴).

سابعاً: النواحی العمرانیة فی العهد العثمانی الأول:

لم یتسع عمران مکة فی أوائل العهد العثمانی کثیراً عمّا کان فی عهد الشراکسة، فإن القطبی الذی عاش ردحاً منصدر العهد العثمانی الأول ومات فی عام ۹۸۸، قد ذکر فی کتابه الأعلام: «أن مکة کان مبدؤها المعلّاة ومنتهاها من جهة المسفلة قرب مولد سیدنا حمزة عند مجری العین حیث تنزل الیه من درج ویقال له «بازان» (۵). ونهایتها الشبیکة من جهة جدة وعرضها من وجه جبل یقال له الآن «فی عهده» جبل جزل بکسر الجیم وفتح الزای وتشدید اللام وقد سماه الأزرقی جبل الأحمر، وهو یشرف علی قعیقعان (۶) وقد سُمی جزلًا نسبة لطائفة من الجند کانت تلعب فیه بالطبل، ویظهر أن السور الذی بناه (قتادة) حوالی القرن السادس لم یعد له وجود فی هذا العهد؛ لأن القطبی یذکر أن مکة فی عهده لم تکن مسورة، ثم یشیر إلی أنها فی عهده أصبحت عامرةً بالسکان بعد أن کان فیصباه یری الحرم

۱- ۱ الأعلام للقطبی علی هامش خلاصة الکلام: ۱۴۷.

۲- ۲ الأرج المسکی لعلی الطبری، مخطوط.

۳- ۳ منائع الکرم.

۴- ۴ اتحاف الوری لابن فهد القرشی.

۵- ۵ لعل مورد العين سمى «بازان» نسبةً إلى مهندس الموارد أو منشئها واسمه بازان.

۶- ۶ يقول ياقوت: إنّ جبل الأحمر هو جبل قعيقعان يعنى الجبل الذى بنيت عليه قلعة الهندى.

ص: ۱۶۴

الشريف والمطاف خالياً من الناس، ولابدّ من أنصباه كان فى عهد سليم الفاتح، ثم يقول: إن شيخاً معمراً من أهل مكةصدوقاً عنده أخبره بأنه «شهد الظباء تنزل من جبل أبى قبيس إلى الصفا وتدخل إلى المسجد، ثم تعود لخلو المسجد من الناس، وأنه كان يرى سوق المسعى وقت الضحى خالياً من الباعة، ويرى أهل القوافل يأتون باجمالهم من بجيلة فلا يجدون من يشترى منهم جميع ما جلبوه، وأن الأسعار كانت رخيصة جداً لقلة الناس وعزة الدراهم» انتهى ما يقوله القطبى عن شيخه المعمر، ولا أستبعد أن يكون المعمر عاش فى أواخر عهد الشراكسة، ثم يقول القطبى:

أما الآن فالناس كثيرون والرزق واسع.

ثامناً: النواحى العمرانية فى العهد العثمانى الثانى:

واتسع العمران فى مكة فى هذا العهد، وتأسس أول مجلس للبلدية فى عام ۱۳۲۶؛ ليقوم مقام المحتسب الذى كان يحكم السوق ويشرف على تنظيم العمران.

واطرد بازدياد عدد السكان كنتيجة لمجاورة موظفى الأتراك وعائلاتهم، ومجاورة موظفى المصريين الذين تخلفوا فى مكة بعد ترحيل جيش محمد على منها، والذى نحسبه أن أطماع أوربا التى ترتبت على ضعف العثمانيين فى هذا العهد كان له أثر فى مضاعفة السكان، كذلك فقد شنّ الروس حروبهم فى أجزاء من آسيا، وكذلك فعل الإنكليز وفعلت فرنسا، فاشتدّ الضغط على كثير من بلاد الإسلام، وزادت الفتن والحروب ففرّ كثيرٌ من بلاد الإسلام بدينهم، والقليل بدنياهم إلى مكّة والمدينة وجدة لبعد هذه البلاد من ضغط الأوربيين واستقلالها بأحكام الدين. وقد بدأ أثر ذلك فى أكثر العائلات التى تسكن الحجاز اليوم، فإن أبرز من فيها ينحدر من أصل مصرى أو تركى أو مغربى أو شامى أوصينى، ولما اشتدت الكروب فى الهند والأفغان وجاوى اشتد تدفقهم على البلاد، واتخذ الجميع من أجزائها فى مكة والمدينة وجدة مناطق خاصة سميت بأسمائهم، ففى مكة اليوم من آثار ذلك جبل الترك وجبل الهندى وحارة السليمانية (۱)، وزقاق المغاربة وزقاق البخارية، وفى المدينة وجدة كثير من هذه المسميات.

وشوهدت مكة فى هذا العهد تنقسم باعتبار الاجناس إلى أقسام تشبه المستعمرات، فمنطقة تحتلها جاليات الترك، وثانية يحتلها أهل بنغالة والهند، وثالثة يحتلها أهالى غرب أفريقيا «التكارنة» وغيرها يحتلها الجاويون وأهل بخارى وأهل السند والشام واليمن وحضر موت، ونقلت هذه الجاليات معها إلى مكة عاداتها كاملة وتقاليدها وأخلاقها، وكثيراً منصناعاتها، وبذلك انتفعت مكة بهذا الخليط.

وعنى العثمانيون فى هذا العهد ببعض الإصلاحات فأسس الوالى التركى (عثمان نورى) فى مطلع القرن الرابع عشر الهجرى داراً للحكومة والبوليس أمام المسجد، وفى أجياد التى سمّاها (الحميدية) أسس نقطة للبوليس بجوار الصفا وقد بقى الى أن هدم فى توسعة الشوارع فى عام ۱۳۷۰، وأنشأ داراً للصحة فى أجياد كان مكانها نقطة عسكرية للمدفعية، وهى اليوم إدارة للصحة العامة ومستشفى كما أنشأ مطبعة للحكومة، وهى باقية إلى اليوم بعد أن نقلت إلى داخل أجياد بجوار مقر المالية، وأهداه الشريف الحسين بن على داراً له بجوار باب الوداع ليتخذه إدارة للبريد، وقد ظل على ذلك إلى عهد طويل من الحكم السعودى الثانى، ثم نقل البريد منه وجعل مقراً لإدارة الأسعاف ثم أزيل فى توسعة المسجد.

---

۱ - ۱ تطلق كلمة السليمانية فى مكة على أهالى الأفغان وحارة السليمانية، وتنسب إلى رجل من العلماء كان اسمه الشيخ سلمان المغربى وهو الذى بنى قبور السليمانية وبابها.

ص: ۱۶۵

وأنشأ عثمان نورى داراً لضيافة الحجاج فى جرول ثم أحيل إلى قشلاق عسكرى، وهو كذلك إلى اليوم كما أنشأ قشلاقاً فى أجياد وهو اليوم داراً لبعض الدوائر الرسمية.

واصلح العثمانيون كثيراً من مجارى عين زبيدة، وبنوا لها خزانات وموارد فى كثير من أنحاء مكة، كما أصلحوا بعض الميضآت القديمة بجوار المسجد ورتبوا لها البوابين.

الهوامش:

غزوة بدر الكبرى

غزوة بدر الكبرى

حسن أبو أمجد

المقدمة:

هذه الدراسة لا ترتدى الطابع الأكاديمى، إذ إنها لا تهدف إلى كشف جوانب خفية من هذه الغزوة لمّا يتمكن علماء التاريخ من كشفها.

ولكنها دراسة هادفة لاستخلاص بعض الدروس التى تعين العاملين فى حقل الدعوة إلى اللّه، وكذلك لمعرفة السنن الإلهية عليصعيد المجتمع، التى تمكن الدعاة إلى سبيل اللّه من العمل

ص: ۱۶۶

باتجاه تغيير المجتمع فى المنحنى الصحيح الذى يحقّق العدل لجميع أبنائه. وذلك إذعاناً لأمر اللَّه تبارك وتعالى ونبيه المصطفيصلى الله عليه و آله و سلم بإقامة دار الإسلام.

ودراسة تاريخ الأمم والشعوب أمر هام لاستخلاص الدروس والعبر حتى لا نقع فى الزلل. كما أن هذه الدراسة أمر حثّ عليه القرآن الكريم فى العديد من آياته الكريمة: يقول اللَّه تبارك وتعالى: «أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبةُ الذين من قبلهم كانوا أَكثَر منهم وأشدَّ قوةً وآثاراً فى الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون فلمّا جاءتهم رسلُهم بالبيّنات فرحوا بما عندَهم من العِلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون فلمّا رأوا بأسَنا قالوا آمنّا باللَّه وحدَهُ وكفرنا بما كُنّا به مشركين فلم يكُ ينفعُهم إيمانُهم لمّا رَأوا بأسنا سنةَ اللَّه التى قد خلت فى عباده وخَسِر هنالِك الكافرون» (۱).

كما أنّ دراسة التاريخ أمر يشترك فيه جميع الناس، ولا يختص به المسلمون. أما ما اختص به المسلمون- من حيث إنهم إذا تركوه أو تجاوزوا عنه، أصبحوا آثمين- هو موضوع التأسى برسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم.

يقول تبارك وتعالى: «لقد كان لكم فى رسول اللَّه أسوة حسنة».

من هنا كانت دراستنا لغزوة بدر أمر لابدّ منه إذعاناً لأمره تعالى؛ ذلك لمعرفة كيفية طاعة الرسول المصطفى عليصعيد بناء المجتمع ومجابهة الأعداء، وتحديد الأولويّات فى العمل السياسى من جميع جوانبه.

بدايات بدر:

۱- المستوى الفكرى والنظرى:

أمضى الرسول الكريم أكثر من عشر سنوات فى مكّة بعد بعثته يربى أصحابه على الإسلام، وكان القرآن الكريم ينزل عليه. والمسلمون يدرسونه ويتدبرونه. وهذه الفترة وما تلاها فى المدينة المنورة يمكننا تسميتها البدايات النظرية للمعركة مع المشركين. يقول تبارك وتعالى: «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن اللَّه واللَّهُ مع الصابرين» (۲)، فالنصر ليس حكراً على الكثرة، ويمكن للقلة إذن أن تكسب النصر فى شروط معينة، وهذا واضح تاريخياً. والقرآن الكريم زاخر بالأمثلة. فتجارب الأنبياء مع أقوامهم كانت الغذاء الروحى للمسلمين فى مكة. وكان النصر من نصيب المؤمنين مع أنهم كانوا قلة.

ما نقدم لا يعنى بالضرورة أن شروط النصر للقلة على الكثرة هى قيادة أحد الأنبياء لها أو إيمانها بالتوحيد، لأنّ اعتماد هذين الشرطين

۱- ۱ غافر: ۸۱- ۸۵.

۲- ۲ البقرة: ۲۴۹.

ص: ۱۶۷

یجعلنا قاصرین عن تفسیر إمکانیهٔ انتصار فئات کافرهٔ علی فئات کافرهٔ مثلها. إذن هناک سنن إلهیهٔ للنصر، من یلتزم بها یحرز الانتصار ومن یتجاوز عنها أو یهملها یکون نصیبه الهزیمهٔ.

فالنصر والهزیمهٔ حدثان سیاسیان أو عسکریان. حدثان تاریخیان تنطبق علیهما قوانین التاریخ والقوانین العسکریهٔ وجمیع السنن الإلهیهٔ لتطور المجتمعات، ومن ضمنها العلاقات السیاسیهٔ والاقتصادیهٔ والعسکریهٔ. والمؤمن علیه اکتشاف هذه القوانین والسنن، یقول تبارک وتعالی: «... وتلک الأیام نداولها بین النّاس ...» (۱).

أیام تتداول بین الناس یعیش الناس فی مذاهب مختلفهٔ علی أرض واحدهٔ. منهم المؤمن ومنهم الکافر والمنافق والفاجر. ولکل مجتمع لابدّ من مهیمن. ولکن الهیمنهٔ لیست مطلقهٔ، وکذلک التداول، ولکنهما محدودان وموقوفان علی: «ولیعلمَ اللَّهُ الذین آمنوا ویتخذ منکم شهداء ...» (۲). إذن التداول سیظل حتی یتسلم المؤمنون قیادهٔ هذه المجتمعات، المؤمنون الذین یستوعبون الدروس الإلهیهٔ الموجودهٔ فی کتاب اللَّه:

یقول تعالی: «أَولم یسیروا فی الأرض فینظروا کیف کان عاقبهُٔ الذین من قبلهم وکانوا أشدَّ منهم قوّهٔ وما کان اللَّه لیعجزَهُ من شیء فی السماوات ولا فی الأرض، إنّه کان علیماً قدیراً» (۳).

ویقول تعالی: «أوَلم یسیروا فی الأرض فینظروا کیف کان عاقبهُٔ الذین من قبلهم کانوا أشدَّ منهم قوهًٔ وأثاروا الأرضَ وعمروها أکثر مما عمروها وجاءتهم رسلُهم بالبیّنات فما کان اللَّهُ لیظلمَهم ولکن کانوا أنفسهم یظلمون» (۴).

ویقول تعالی: «ظهر الفسادُ فی البر والبحر بما کسبت أیدی الناس لِیُذیقَهم بعض الذی عملوا لعلهم یرجعون قل سیروا فی الأرض فانظروا کیف کان عاقبهُٔ الذین من قبلُ، کان أکثرهم مشرکین» (۵).

ویقول تعالی: «وما منع الناس أن یؤمنوا إذ جاءَهم الهُدی ویستغفروا ربَّهم إلا أن تأتیهم سنّهُٔ الأوّلین أو یأتیهم العذابُ قُبُلًا» (۶).

ویقول تعالی: «قد خلت من قبلکم سنن فسیروا فی الأرض فانظروا کیف کان عاقبهُٔ المکذبین هذا بیانٌ للناس وهدًی وموعظهٌٔ للمتقین» (۷).

۱- ۱ آل عمران: ۱۴۰.

۲- ۲ نفس المصدر.

۳- ۳ فاطر: ۴۴.

۴- ۴ الروم: ۸- ۹.

۵- ۵ الروم: ۴۱- ۴۲.

۶- ۶ الکهف: ۵۵.

۷- ۷ آل عمران: ۱۳۷- ۱۳۸.

ص: ۱۶۸

لا بيان أوضح مما رأينا. إن اللَّه- عزّ وجلّ- يحث قارئى القرآن على دراسة تاريخ الأمم الخالية حتى يتمكنوا من استيعاب الدروس والعبر والقوانين التى تمكنهم من النصر. إن معرفة الأخطاء التى وقع فيها الأولون تمكن المؤمنين من تجنبها لأن المؤمن لا يلدغ من جحر واحد مرّتين. كما أن استيعاب هذه الأخطاء فى أسبابها لا يعفو المؤمن عن تفتيش السنن التى تمكنه من تسخير ما منَّ اللَّه عليه. ذلك أن السنن التى خلت من قبل هى هدًى وموعظةٌ للمتقين، كما أنها بيان للناس أيضاً. وهذا يعنى أن للكافر حظاً فى الاستفادة من هذه السنن إن أراد ذلك.

فإن سنن النصر نجدها فى كتاب اللَّه وسنة نبيّه المصطفى وفى تاريخ الأمم السالفة، وما تقدم يجعلنا نقول بأن المسلمين عندما مضوا إلى يوم الفرقان، يوم بدر، كانوا مفعمين بالإيمان وبالوعى النظرى بإمكانيّة النصر، أو على الأصح بأرجحية النصر. إذ إنهم كانوا قد استوعبوا دروس الأمم التى خلت من خلال القرآن الكريم ومن خلال قيادة الرسولصلى الله عليه و آله و سلم.

۲- المستوى العملى:

بدايات بدر على المستوى العملى تبدأ حسب رأينا منذ مدّة بعيدة، منذ بيعة العقبة الثانية، بيعة القتال.

أ- بيعة العقبة الثانية: كانت بيعة العقبة الأولى لا تتضمن أىّ كلام عن القتال. بينما بايع الأوس والخزرج النبىَّ فى العقبة الثانية على القتال. قال النبيُّصلى الله عليه و آله و سلم: «أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون نساءكم وأبناءكم».

فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال:

«نعم، والذى بعثك بالحق نبياً لنمنعنّك مما نمنع منه أُزُرَنا، فبايعْنا يا رسولَ اللَّه، فنحن واللَّه أبناء الحروب وأهل الحلقة ورثناها كابراً عن كابر». ثم قال رسول اللَّه بعد كلام للأنصار: «بل الدّم الدم والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم منّى، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم» (۱).

هذه البيعة بحقيقتها تجميع لقوى الإيمان ضد قوى الشرك. ويوم بدر هو يوم الفرقان.

ب- الهجرة: الهجرة فى حقيقتها هى الخطوة الأولى على طريق إقامة دار الإسلام فى المدينة: القاعدة الآمنة التى ينطلق منها المؤمنون لقتال المشركين. وقد أحسّ مشركو قريش إحساساً حاداً خطورة الهجرة. يقول تعالى: «وإذ يمكر بك الذين كفروا ليُثبتوك أو يقتلوك أو يُخرجوك ويمكرون ويمكر اللَّهُ، واللَّهُ خير الماكرين» (۲). أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس أن نفراً من قريش ومن أشراف كل قبيلة اجتمعوا

۱- ۱ البوطى: ۱۲۰.

۲- ۲ الأنفال: ۳۰.

ص: ۱۶۹

ليدخلوا دار الندوة فاعترضهم ابليس فيصورة شيخ جليل فلمّا رأوه قالوا:

من أنت؟ قال: شيخ من أهل نجد سمعت بما اجتمعتم له فأردت أن احضركم ولن يعدمكم منّى رأى أو نصح، قالوا: أجل فادخل. فدخل معهم فقال: انظروا فى شأن هذا الرجل (محمد)، فقال قائل احبسوه فى وثائق ثم تربصوا به المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء زهير ونابغة، فإنما هو كأحدهم، فقال عدو اللَّه الشيخ النجدى: لا واللَّه، ما هذا لكم برأى، واللَّه، ليخرجنّ رائد من محبسه إلى أصحابه فليوشكنّ أن يثبوا عليه حتى يأخذوه من أيديكم، ثم يمنعوه منكم، فما آمن عليكم أن يخرجوكم من بلادكم، فانظروا فى غير هذا الرأى. فقال قائل: أخرجوه من بين أظهركم واستريحوا منه فإنه إذا خرج لن يضركم ماصنع، فقال الشيخ النجدى: واللَّه، ما هذا لكم برأى، ألم تروا حلاوة قوله وطلاقة لسانه وأخذه للقلوب بما يستمع من حديثه؟ واللَّه، لئن فعلتم، ثم استعرض العرب ليجتمعن عليه ثم ليسيرن إليكم حتى يخرجكم من بلادكم ويقتل أشرافكم. قالوا:صدق واللَّه، فانظروا رأياً غير هذا. فقال أبو جهل: واللَّه، لأشيرنّ عليكم برأى ما أراكم أبصرتموه بعد، ما أرى غيره قالوا: وما هذا؟ قال: تأخذون من كل قبيلة وسيطاً شاباً جلداً ثم نعطى كل غلام منهم سيفاًصارماً يضربونه ضربة رجل واحد ... (تفسير الجلالين أسباب نزول الآية ۲۰ من الأنفال).

نقلنا هذا الكلام الطويل لأهميته وخاصة ما كان يقوله الشيخ النجدى- لعنه اللَّه- بأن محمداً سوف يخرجهم من بلادهم إذا سمحوا له بالهجرة. لقد أحسَّ المشركون بخطورة هذه الخطوة (الهجرة) فكيف بصاحبها؟

ج- الوثيقة بين المسلمين وغيرهم فى المدينة: ومن بنودها:

- المسلمون من قريش ويثرب ومَن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، أمة واحدة من دون الناس.

- لا يقتل مؤمن مؤمناً فى كافر، ولا ينصر كافراً على مؤمن. (هدم العصبية القبلية).

- يهود (بنو عوف) أُمّة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ (يهلك) إلا نفسه وأهل بيته.

- إن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم. وإن بينهم النصر على مَن حارب أهل هذه الصحيفة.

ص: ۱۷۰

- كل ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مردّه إلى اللَّه- عزّ وجلّ- وإلى محمد رسول اللَّه.

وهناك بند يمنع أى تعامل مع قريش.

إن أهمية هذه الوثيقة هى فى جعل المدينة قاعدة آمنة للمسلمين فى انطلاقهم لقتال المشركين، هذا من جهة، ومن جهة ثانية جعلت الوثيقة من رسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم المسؤول الحاكم وباعتراف الجميع، وعلى اليهود نصرته فى حال اعتدى على المدينة.

د- السرايا والغزوات: أهميتها تأتى من أنها حققت ما يلى:

۱- جعلت المسلمين متأهبين دائماً لجهاد الكفار.

۲- جعلت الكفار فى وضع غير آمن وباستمرار وذلك لكثافتها.

۳- تأثيرها السلبى على حركة التجارة المكية علماً أن طريق الشام من مكة تمر فى المدينة أو فى محيطها.

۴- أتاحت للمسلمين عقد اتفاقات عدم اعتداء مع قبائل لم تكن على الإسلام مما أعطى المسلمين حرية أكثر فى التحرك ضدّ المشركين، خاصة مشركى قريش.

وإليكم هذه السرايا والغزوات:

۱- سرية حمزة بعد سبعة أشهر من الهجرة: «وخرج حمزة يعترض عير قريش ... وفيها أبو جهل بن هشام، فى ثلاثمائة رجل ... فالتقوا حتى اصطفوا للقتال ... ولكن لم يتم قتال. وكان المسلمون ثلاثين رجلًا».

۲- سرية عبيدة بن الحارث:

«بعثه رسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم، فى ستين رجلًا من المهاجرين ... فلقى أبا سفيان بن حرب وهو فى مائتين من أصحابه ... فإنما كان بينهم الرمى ولم يسلوا السيوف ولم يصطفوا لقتال». وكانت بعد ثمانية أشهر من الهجرة.

۳- سرية سعد بن أبى وقاص:

بعد تسعة أشهر من الهجرة، لم يلتق قريشاً.

۴- غزوة الأبواء بعد سنة من الهجرة: وتسمى غزوة ودان. وهى أول غزوة غزاها النبىُّ نفسه، «وفى هذه الغزوة وادع مخشى بن عمرو الضمرى، وكان سيدهم فى زمانه على أن لا يغزو بنى ضمرة ولا يغزوه، ولا يكثروا عليه جمعاً، ولا يعينوا عدواً، وكتب بينه وبينهم كتاباً». وكانت غيبته خمس عشرةَ ليلة.

۵- غزوة بواط: بعد ثلاثة عشر شهراً من مهاجره. خرج لاعتراض عير قريش ولكنه لم يلق كيداً.

۶- غزوة طلب كرز بن جابر الفهرى: راح فى طلبه لأن كرزاً هذا أغار على أنعام المدينة وسرقها. وفى

ص: ۱۷۱

هذه الغزوة دلالة على أن المسلمين هم حكّام المدينة والمسؤولون عن أمنها.

۷- غزوة ذى العشيرة: بعد ستة عشر شهراً، لم يلتق قريشاً.

«وفى هذه الغزوة وادع بنى مدلج وحلفاءهم من بنى ضمرة».

۸- سرية عبد اللّه بن جحش الأسدى: بعد سبعة عشر شهراً من الهجرة. بعثه النبيُّ فى اثنى عشر رجلًا إلى بطن نخلة وهى قرب مكّة. فاستولى على العير وقتل واحداً هو ابن الحضرمى واسر اثنين. ولهذه السرية أهمية خاصة، لقربها من مكّة، وللقتل والأسر والمغانم التى حصلت فيها. وكذلك للأثر الذى تركته فى نفسية مشركى قريش، وقد كانت هذه الموقعة موضوعاً للتحريض فى معسكر المشركين لمعركة بدر ضد المسلمين.

نضيف ملاحظة على هذه السرايا والغزوات أنها مكثفة جداً فهى تتم شهرياً. هذا إذا أخذنا بعين الاعتبارصعوبة المواصلات. فهذا يعنى أن كثافتها تشكل إرباكاً فعلياً للعدو، مما جعل الأمن العسكرى لقريش مهدداً وكذا أمنها الاقتصادى، فقد باتت تجارة مكة غير آمنة وهذا ما يستتبع شللًا اقتصادياً مما أثر على جميع عوائل مكّة.

غزوة بدر:

أ- عشية الغزوة: يقول أصحاب السير بأن النبيَّصلى الله عليه و آله و سلم خرج فى أربعة عشر وثلاثمائة رجل فيهم من المهاجرين والأنصار، وهى الغزوة الأولى التى يخرج فيها الأنصار مع رسول اللّه. أما الغاية من خروجه فكانت الاستيلاء على قافلة لقريش آتية من الشام بقيادة أبى سفيان بن حرب. ومن الملاحظ أن النبيَّصلى الله عليه و آله و سلم لم يبعث الأنصار قط لاعتراض عير قريش، فلماذا أخذهم معه فى هذه المرّة؟ المهم أن قافلة أبى سفيان تمكنت من الإفلات. وعلم النبيُّ فى هذه الأثناء أن قريشاً جمعت وهى آتية لقتاله. فعرض الأمر على أصحابه. يقول تبارك وتعالى: «كما أخرجك ربُّك من بيتك بالحقِّ، وانّ فريقاً من المؤمنين لكارهون يجادلونك فى الحقِّ بعدما تبيّن كأنما يساقون إلى الموت وهم يَنظرون» (۱). أخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى أيوب الأنصارى قال: قال لنا رسول اللّهصلى الله عليه و آله و سلم ونحن بالمدينة وقد بلغه أن عير أبى سفيان قد أقبلت: «ما ترون فيها لعل اللّه

۱- ۱ الأنفال: ۵- ۶.

ص: ۱۷۲

یغنمناها ویسلمنا؟» فخرجنا فسرنا یوماً أو یومین. فقال: ما ترون فیهم؟

فقلنا: یا رسول اللَّه ما لنا طاقهٔ بقتال القوم إنما خرجنا للعیر. فقال المقداد:

لا تقولوا کما قال قوم موسی: «اذهب أنت وربّک فقاتلا إنا ههنا قاعدون» فأنزل اللَّه الآیتین (تفسیر الجلالین فی أسباب نزول الآیهٔ ۵- ۶ من الأنفال).

من سیاق هاتین الآیتین یتبین وکأن اللَّه- تبارک وتعالی- ما أراد من خروج رسول اللَّه إلا قتال المشرکین.

ویبدو هذا واضحاً فی سیاق الآیهٔ:

«إذ أنتم بالعُدوهٔ الدنیا وهم بالعدوهٔ القصوی والرکبُ أسفلَ منکم، ولو تواعدتم لاختلفتم فی المیعاد ولکن لیقضیَ اللَّه أمراً کان مفعولًا لیهلکَ مَن هلک عن بینهٔ ویحیی من حیّ عن بینهٔ وإن اللَّه لسمیعٌ علیمٌ» (۱). فالتقاء الجمعین تدبیر من ربِّ العالمین. ولا غرابهٔ فی أن یکون الرسول- علیه الصلاهٔ والسلام- علی علم من ربّه بهذا التدبیر وإن لم یخبر أصحابه.

وهذا بین فی الآیهٔ التی یعاتب اللَّه فیها المؤمنین: «وإذ یعدُکم اللَّهُ إحدی الطائفتین أنها لکم وتودُّون أن غیر ذات الشوکهٔ تکون لکم ویریدُ اللَّهُ أن یحقَّ الحقَّ بکلماته ویقطعَ دابر الکافرین لیحقَّ الحقَّ ویُبطل الباطل ولو کره المجرمون» (۲).

مما تقدم یظهر بأن المعرکهٔ لابد من وقوعها بین المسلمین والمشرکین وعن وعی من النبیِّصلی الله علیه و آله و سلم. والظاهر أیضاً بل الجلی هو أن اللَّه- تبارک وتعالی- قد تعهد هذه المعرکهٔ بالنصر.

یقول تبارک وتعالی: «إذ یریکهم اللَّه

۱- ۱ الأنفال: ۴۲.

۲- ۲ الأنفال: ۷- ۸.

ص: ۱۷۳

فی منامک قلیلًا، ولو أراکهم کثیراً لفشلتم ولتنازعتم فی الأمر ولکن اللَّه سلم إنه علیم بذات الصدور» (۱).

ما رآه النبی من قلة عددهم یشدّ من عزیمته ویشدّ من عزیمة أصحابه، ولکن تدبیر من ربِّ العالمین.

ب- معسکر المسلمین عشیة المعرکة: جاء فی طبقات ابن سعد (ص ۱۴): «ومضی رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم حتی إذا کان دون بدر أتاه الخبر بمسیر قریش. فأخبر به رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم أصحابه واستشارهم».

جاء فی الطبری (ص ۴۲۴): «أن أبا بکر قال: فأحسن. ثم قام عمر بن الخطاب فقال: فأحسن». نعود إلی ابن سعد: «فقال المقداد بن عمرو البهرانی: والذی بعثک بالحق، لو سرت بنا إلی بَرک الغِماد لسرنا معک حتی ننتهی إلیه». ویضیف ابن سعد:

«أنه بعد أن انتهی المقداد قال رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم: أشیروا علیّ، وإنما یرید الأنصار. فقام سعد بن معاذ فقال: أنا أُجیب عن الأنصار، کأنک یا رسول اللَّه تریدنا؟ قال: أجل. قال: فامض یا نبی اللَّه لما أردت، فو الذی بعثک بالحق لو استعرضت هذا البحر فخضته لخضناه معک ما بقی منّا رجل واحد. فقال رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم سیروا علی برکة اللَّه، فإن اللَّه قد وعدنی إحدی الطائفتین، فو اللَّه لکأنی أنظر إلی مصارع القوم».

«ثم إن النبیصلی الله علیه و آله و سلم أخذ یتحسّس أخبار قریش وعددهم عن طریق العیون التی بثّها» (۲).

«ونزل المسلمون عند ماء بدر واقترح سعد بن معاذ أن یبنی عریش للنبیّصلی الله علیه و آله و سلم حتی یکون بمأمن فیه رجاء أن یعود سالماً إلی مَن تخلف من المسلمین فی المدینة وأن لا ینکبوا بفقده» (۳) وقام علی حراسته سعد بن معاذ ومعه رهط من الأنصار.

وکان النبیصلی الله علیه و آله و سلم قد خلف علی أهل العالیة، لشیء سمعه عنهم أحدصحابته، والعالیة هی قباء وخطمة ووائل وواقف وبنو أمیة بن زید وقریظة والنضیر، هذا حق لا یترک مجالًا للمفاجآت تأتیه من خلف ظهره.

ولیلة الموقعة غشی المسلمین نعاس فناموا. وأمطرت السماء مطراً خفیفاً ساعدهم علی النشاط وطهرهم، وثبت الأرض تحت أقدامهم.

«فلما أصبح النبیُّصلی الله علیه و آله و سلمصفّ أصحابه قبل أن تنزل قریش، وطلعت قریش ورسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم، یصفف أصحابه ویعدلهم کأنما یقوم

۱- ۱ الأنفال: ۴۳.

۲- ۲ البوطی: ۱۵۷.

۳- ۳ البوطی: ۱۵۸.

ص: ۱۷۴

بهم القـدح، ومعه یومئـذ قدح یشـیر إلی هذا تقدم، وإلی هذا تأخر، حتی اسـتووا» (ابن سـعدص ۱۵). ثم دخل العریش یجأر بالـدعاء متوجهاً بکلیته إلی اللّه تبارک وتعالی: «اللهم هذه قریش قد أقبلت بخیلائها وفخرها، تُحادُّک وتکذّب رسولَک، اللهم فنصـرک الذی وعدتنی، اللهم أحِنْهم الغداة» (۱).

ج- المعرکـهٔ: وبـدأ القتال، قتال التوحیـد ضد الشـرک، والایمان ضد الکفر، وإلیکم هذه الصورهٔ من علی بن أبی طالب علیه السـلام: «لما أن کان یوم بـدر وحضـر البأس التقینا برسول اللّه وکان أشـدَّ الناس بأساً، وما کان منّا أحد أقرب إلی العدو منه» (۲). وهذهصورهٔ أخری من عمر بن الخطاب:

«فلمـا کـان یـوم بـدر نظرتُ إلی رسول اللّهصـلی الله علیه و آله و سـلم، یثب فی الـدرع وثبـاً وهو یقول: سـیهزم الجمع ویولون الـدبر، فعلمت أن اللّه تبارک وتعالی، سیهزمهم» (۳).

ولکن النبی علیه الصـلاهٔ والسـلام مع محاربته للعـدو کان یعود إلی العریش ویـدعو ربه وباسـتمرار، حتی أیـده بالملائکهٔ، وکان اللّه- تبـارک وتعـالی- یبعث إلیه بالوحی حتی تطمئن قلوب المؤمنین: «إذ تسـتغیثون ربّکم فاسـتجاب لکم أنی ممـدکم بألفٍ من الملائکهٔ مُردِفین وما جعله اللّه إلا بشری ولِتطمئنَّ به قلوبُکم وما النصرُ إلا من عند اللّه إن اللّه عزیز حکیم» (۴).

«روی الترمذی عن عمر بن الخطاب قال: نظر النبیّصـلی الله علیه و آله و سـلم إلی المشـرکین وهم ألف وأصحابه ثلاثمائهٔ وبضعهٔ عشر رجلًا فاسـتقبل القبلـهٔ ثم مـدّ یدیه وجعل یهتف بربه: اللهم أنجز لی ما وعدتنی، اللهم إن تهلک هذه العصابهٔ من أهل الإسـلام لا تعبد فی الأرض. فما زال یهتف بربه مادّاً یـدیه مسـتقبلًا القبلـهٔ حتی سـقط ردائوه فأتاه أبو بکر فأخـذ ردائَه وألقاه علی منکبیه، ثم التزمه من ورائه وقال: یا نبیَّ اللّه کفاک مناشدتک ربّک فإنّه سینجز لک ما وعدک فأنزل اللّه الآیهٔ (الجلالین أسباب نزول الآیهٔ ۹ من الأنفال).

وقـد وعـد اللّه- تعالی- المسـلمین بمساعدته من قبل، یوم أن کانوا فی مکهٔ وهو یقصّ علیهم القصـص للأمم السالفهٔ حتی تکون لهم درساً وعبرهٔ. یقول تبارک وتعالی:

«وأورثنا القوم الذین کانوا یُستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التی بارکنا فیها» (۵).

ویقول تبارک وتعالی: «ونُریدُ أن نمنَّ علی الذین استضعفوا فی الأرض ونجعلَهم أئمهً ونجعلَهم الوارثین ونُمکّن لهم فی

۱- ۱ ابن هشام، ۲: ۲۷۲.

۲- ۲ خلیل: ۱۸۲.

۳- ۳ ابن سعد: ۲۵.

۴- ۴ الأنفال: ۹- ۱۰.

۵- ۵ الأعراف: ۱۳۷.

ص: ۱۷۵

الأرض» (۱).

وکان الوحی یواکب المعرکهٔ والنبیُّصلی الله علیه و آله و سلم یطمئن أصحابه ویحضهم علی القتال: «یا أیها النبیُّ حرّض المؤمنین علی القتال، إن یکن منکم عشرونصابرون یغلبوا مائتین وإن یکن منکم مائهٌ یغلبوا ألفاً من الذین کفروا بأنَّهم قومٌ لا یفقهون» (۲). وبما أن الخبر من المولی- عزّ وجلّ- معناه الأمر؛ لذلک خفّف اللَّه عن المؤمنین رحمهٔ بهم:

«الآن خفّف اللَّهُ عنکم وعلِم أنَّ فیکم ضعفاً، فإن یکن منکم مائهٌصابرهٌ یغلبوا مائتین، وإن یکن منکم ألفٌ یغلبوا ألفین بإذن اللَّه واللَّه مع الصابرین» (۳).

وکان النصر المبین للمسلمین فی بدر.

د- جهاز المشرکین: بعد أن نجا أبو سفیان من المسلمین وقد کان بعث إلی قریش لنجدته، تَهیَأت قریش جمیعها لنجدته، من دون استثناء.

علماً أن هناک مصدراً یقول بأن بنی عدی بن کعب لم یخرج منهم أحد (۴).

وتجمع جمیع المصادر علی أن أبا لهب، عمَّ النبیّ، لم یخرج وبعث مکانه.

جاء فی سمط النجوم (ص ۱۵):

«فتجهز الناس سراعاً وقالوا: أیظن محمد وأصحابه أن تکون کعیر ابن الحضرمی؟ کلا واللَّه لیعلمن غیر ذلک». وکانوا یشیرون إلی سریهٔ عبد اللَّه بن جحش رضی اللَّه تعالی عنه.

وجاء فی الطبری: «فلمّا أتی قریشاً الخبر (خبر العیر وتعرض محمد لها) نفر لها أهل مکهٔ (ص ۴۲۲).

وجاء فی البوطی: «فبلغ الخبر قریشاً، فتجهزوا سراعاً، وخرج کلهم قاصدین الغزو، حتی إنه لم یتخلف من أشراف قریش أحد، وکانوا قریباً من ألف مقاتل (ص ۵۷).

«ولما فرغوا من جهازهم وأجمعوا علی المسیر ذکروا ما بینهم وبین بنی بکر بن عبد مناهٔ بن کنانهٔ من الحرب والعداوهٔ وقالوا: نخشی أن یأتونا من خلفنا. وکاد ذلک أن یثبطهم ویثنیهم» (۵). وفی هذا دلالهٔ علی التردد.

وسارت قریش ترید رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم وفی طریقهم عرفوا أن العیر قد أفلتت من أیدی المسلمین، عندها سرت بلبلهٔ فیصفوفهم.

وکانوا قد نزلوا فی الجحفهٔ. ورأی أحد المشرکین من قرابهٔ رسول اللَّه رؤیهٔ وکأن أئمهٔ الکفر یقتلون. فبلغت هذه الرؤیهٔ أبا جهل فقال: «وهذا أیضاً نبیّ آخر من بنی المطلب» (۶).

۱- ۱ القصص: ۵- ۶.

۲- ۲ الأنفال: ۶۵.

۳- ۳ الأنفال: ۶۶.

۴- ۴ سمط النجوم: ۲۲.

۵- ۵ سمط النجوم: ۱۶.

۶- ۶ ابن هشام: ۲۷۰.

ص: ۱۷۶

يقول ابن سعد (ص ۱۴):

رجعت بنو زهرة من الجحفة، أشار عليهم بذلك الأخنس بن شريف الثقفى. وكان بنو زهرة يومئذ مائة رجل وقال بعضهم: بل كانوا ثلاثمائة رجل. وكانت بنو عدى بن كعب مع النفير. فلما بلغوا ثنية لفت عدلوا فى السحر إلى الساحل منصرفين إلى مكة، فصادفهم أبو سفيان بن حرب فقال: يا بنى عدى كيف رجعتم لا فى العير ولا فى النفير، ويضيف ابن سعد:

فلم يشهد بدراً من المشركين أحد من بنى زهرة ولا من بنى عدى».

وجاء فى سيرة ابن هشام (ص ۲۷۱) قال الأخنس لبنى زهرة:

«يا بنى زهرة، قد نجّى اللَّه لكم أموالكم، وخلّص لكمصاحبكم مخرمة بن نوفل، وإنما نفرتم لتمنعوه وماله، فاجعلوا لى جُبنها وارجعوا، فإنه لا حاجة لكم بأن تخرجوا فى غير ضيعة (منفعة)، لا ما يقول هذا، يعنى أبا جهل، فرجعوا».

وقيل أن سبب رجوع الأخنس ببنى زهرة: «أنه خلا بأبى جهل حين تراءى الجمعان فقال: يا أبا الحكم أترى أن محمداً يكذب؟ فقال أبو جهل: كيف يكذب على اللَّه وقد كنّا نسميه الأمين لأنه ما كذب قط، ولكن إذا اجتمعت فى بنى عبد مناف السقاية والرفادة والحجابة والمشورة ثم تكون فيهم النبوة فأى شيء بقى لنا؟» (۱).

ولهذه القصة أثر سيّئ على نفسية المشركين قيادة وعامة وذلك ليقينهم إنما يحاربون اللَّه ورسوله، وفى هذا دلالة على الإحباط الشديد.

«ومضى القوم، وكانت بين طالب بن أبى طالب- وكان فى القوم- وبين بعض قريش محاورة فقالوا: واللَّه لقد عرفنا يا بنى هاشم- وان خرجتم معنا- أن هواكم مع محمد، فرجع طالب إلى مكة مع من رجع» (۲).

ه- معسكر المشركين فى بدر:

وعسكر المشركون بالقرب من بدر الذى كان قد وصلها رسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم وهم فى هذا الوضع المتفكّك نفسياً، فما كان وضعهم بعد أن عسكروا؟

«فلما اطمأن القوم بعث المشركون عمير بن وهب الجمحى، وكانصاحب قداح، فقالوا: احزر لنا محمداً وأصحابه، فصوب فى الوادى وصعد ثم رجع فقال: لا مدد لهم ولا كمين، القوم ثلاثمائة إن زادوا زادوا قليلًا، ومعهم سبعون بعيراً وفرسان.

يا معشر قريش، البلايا (جمع بلية وهى الناقة أو الدابة تربط على قبر الميت فلا تعلف ولا تسقى حتى تموت) تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع. قوم ليست لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم أما ترونهم خرساً لا

۱- ۱ سمط النجوم: ۲۲.

۲- ۲ الطبرى: ۴۲۹- وكذا فى ابن هشام وسمط النجوم.

ص: ۱۷۷

یتکلمون، یتلمظون تلمظ الأفاعی؟

واللَّه ما أری أن نقتل منهم رجلًا حتی یُقتل منّا رجل، فإذا أصابوا منکم عددهم فما خیر فی العیش بعد ذلک.

فروا رأیکم. فتکلم حکیم بن حزام ومشی فی الناس، وأتی شیبهٔ وعتبهٔ وکانا ذوی نقبهٔ فی قومهما فأشاروا علی الناس بالانصراف، وقال عتبهٔ:

لا تردوا نصیحتی ولا تسفهوا رأیی، فحسده أبو جهل حین سمع کلامه، فأفسد الرأی وحرش بین الناس ...

وجاء عمیر بن وهب فناوش المسلمین» (۱). وبدأت الحرب بعد مبارزهٔ أبلی فیها علی علیه السلام بلاءً حسناً وقتل فیها أحد أئمهٔ الکفر. بدأت الحرب التی جرّ أبو جهل قریشاً الیها کرهاً وخوفاً من الوهن والانقسام والتردد.

أما الغایهٔ من الحرب کما حدّدها أبو جهل فهی: «واللَّه لا نرجع حتی نرد بدراً فنقیم علیه ثلاثاً، فننحر الجُزُرَ ونطعم الطعام ونُسقی الخمر وتَعزف علینا القیان، وتسمع بنا العربُ وبمسیرنا وجمعنا فلا یزالون یهابوننا» (۲). وفیهم أنزل اللَّه تبارک وتعالی: «ولا تکونوا کالذین خرجوا من دیارهم بطراً ورئاءَ الناس ویصدُّون عن سبیل اللَّه، واللَّهُ بما یعملون محیط» (۳).

لدینا الآنصورهٔ واضحهٔ لوضع المشرکین المتفکّک قیادهٔ وقاعدهٔ. والذین یعیشون الخوف الحقیقی من المسلمین. أرسل النبیصلی الله علیه و آله و سلم عماراً وابن مسعود لیروا وضع المشرکین لیلهٔ المعرکهٔ، فقالا: «القوم مذعورون فزعون إن الفَرس لیرید أن یصهل فیضرب وجهه مع أن السماء تسح علیهم» (۴).

و- نتائج المعرکهٔ: إذا افترضنا أن الوضع هو کما عرضناه وطرحنا السؤال: أیّ من الفریقین له الحظُّ الأوفر فی الانتصار؟ سیکون الجواب ومن دون تردّد أن الفوز سیکون من نصیب المسلمین. وفی هذا دلالهٔ علی أن المسلمین بقیادهٔ النبیّ قد أخذوا بالأسباب المادیهٔ للنصر. ولکن، من وجههٔ نظرنا کمؤمنین، الأخذ بالأسباب لا یعنی حتمیهٔ النصر، ولکنه یعنی أن احتمال النصر هو الاحتمال الأوفر. والأخذ بالأسباب یسمی العزم، یقول تبارک وتعالی:

«فإذا عزمت فتوکل علی اللَّه».

بقی أن نستعرض العامل الحاسم فی النصر وهو التوکل علی اللَّه.

وما النصر إلا من عند اللَّه.

یقول تبارک وتعالی: «قد کان

۱- ۱ ابن سعد: ۱۶- ونحوه عن ابن هشام: ۲۷۴.

۲- ۲ البوطی: ۱۵۸.

۳- ۳ الانفال: ۴۷.

۴- ۴ خلیل: ۱۸۱.

ص: ۱۷۸

لکم آیهٔ فی فئتین التقتا، فئهٔ تقاتل فی سبیل اللَّه وأخری کافرهٔ یرونهم مثلیهم رأی العین، واللَّهُ یؤید بنصره من یشاء إن فی ذلک لعبرهً لأولی الأبصار» (۱).

ویقول تعالی: «وإذ یُریکموهم إذ التقیتم فی أعینکم قلیلًا ویقللکم فی أعینهم لیقضی اللَّه أمراً کان مفعولًا، وإلی اللَّه ترجع الأمور» (۲).

ویقول تعالی: «إذ یُغشّیکم النعاس أمنهً منه ویُنزل علیکم من السماء ماءً لیطهرکم به ویُذهب عنکم رجز الشیطان ولیربط علی قلوبکم ویُثبت به الأقدام» (۳).

ویقول تعالی: «إذ تستغیثون ربّکم فاستجاب لکم أنی ممدّکم بألف من الملائکهٔ مردفین» (۴).

هذا السیل من الآیات یبین لنا وبوضوح کیف أن اللَّه تبارک وتعالی قد تولی المعرکهٔ. وهذا ناتج من أن المسلمین قد حددوا هدفهم بنصرهٔ دین اللَّه. یقول تعالی: «إن تنصروا اللَّه ینصرکم ویثبت أقدامکم» وهذه سنهٔ ثابتهٔ أزلیهٔ من سنن النصر، لا تتغیر ولا تتبدل.

کما أن الدعاء هو من السنن الثانیهٔ لتأیید اللَّه عزّ وجلّ، یقول تعالی: «قل ما یعبأ بکم ربی لولا دعاؤکم» (۵). لذا رأینا رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم یجأر فی الدعاء قبل وأثناء المعرکهٔ: «اللهم إنّی أسألک عهدک ووعدک؛ اللهم إن شئت لم تعبد بعد الیوم» (۶).

إذن الغایهٔ من القتال هی التأکید علی العبودیهٔ للَّهتبارک وتعالی.

الشأن الذی خلق اللَّه الخلق من أجله:

«وما خلقت الجن والإنس إلا لیعبدون».

المشرکون موعودون بجهنم والمؤمنون موعودون بالجنهٔ أو النصر.

لمن الغلبهٔ إذن؟

والقرآن، القرآن الذی وعاه المسلمون، مسلمو بدر. کان یعدهم بالنصر لأنهم مستضعفون. قال النبیُّ فی دعائه: «اللهم إنهم حفاهٔ فاجملهم، اللهم إنهم عراهٔ فاکسهم، اللهم إنهم جیاع فأشبعهم».

انهم مؤمنون: «وکان حقاً علینا نصر المؤمنین» (۷)، «إن اللَّه یدافع عن الذین آمنوا» (۸).

وانتصر المسلمون فی بدر لالتزامهم بالسنن الإلهیهٔ للنصر: العزم والتوکل. الأخذ بالأسباب والدعاء.

ز- الأنفال: بعد هذا الانتصار الباهر غنم المسلمون الکثیر من الغنائم. واختلفوا فیما بینهم لمن تکون.

کل یریدها له. فکیف السبیل إلی حلّ هذا الإشکال؟ نعود إلی نقطهٔ البدء.

لقد قاتل المسلمون لإعلاء کلمهٔ اللَّه

۱- ۱ آل عمران: ۱۳.

۲- ۲ الانفال: ۴۴.

۳- ۳ الانفال: ۱۱.

۴- ۴ الأنفال: ۹.

۵- ۵ الفرقان: ۷۷.

۶- ۶ الطبری: ۴۴۷.

۷- ۷ الروم: ۴۷.

۸- ۸ الحج: ۲۹.

ص: ۱۷۹

وليس للغنائم. لذلك جاء حلّ هذه المعضلة من عند اللَّه: «يسألونك عن الأنفال قل الأنفال للَّهوالرسول فاتقوا اللَّه وأصلحوا ذاتَ بينكم وأطيعوا اللَّهَ ورسولَه إن كنتم مؤمنين» (۱) وهكذا حلّ الإشكال برضى جميع الناس. «سأل عبادة ابن الصامت عن الأنفال؛ فقال: فينا أصحاب بدر نزلت، حين اختلفنا فى النَّفَل، وساءت فيه أخلاقنا، فنزعه اللَّه من أيدينا، فجعله إلى رسوله، فقسمه رسول اللَّه بين المسلمين عن بواء.

يقول: على السواء» (۲).

قاتل المسلمون لإعلاء كلمة اللَّه. والأنفال هى أيضاً للَّهالذى لولا رحمته لم يكن النصر. يقول تبارك وتعالى: «واذكروا إذ أنتم قليلٌ مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون» (۳).

لا خلاف إذن، إيمان واحتساب وأخوة والرزق من عند اللَّه.

إنها التربية التوحيدية التى ترفع الإنسان إلى مستوى العبودية للَّه وحده، أرفع مستوى يمكن أن يصل إليه الإنسان.

وكانت بدر يوم الفرقان كما أراد ربُّ العزّة، وأصبح المسلمون كتلة مهابة الجانب فى شبه الجزيرة العربية، يمكنها نشر التوحيد فى شتى أنحاء البلاد دون خوف أو وجل.

دروس وعبر:

إن الإحاطة بجميع الدروس والعبر والقوانين من هذه المعركة هى مهمة مستحيلة، لأن السنة ثابتة لا تتغير، ولكن ما هو خاضع للتغير والتبدل هو الإنسان والعصر. وبالتالى فإن تغير الإنسان والعصر يستتبع تغير الفهم لهذه القوانين تبعاً لتطور العلوم الطبيعية والإنسانية، وتطور العلوم يعنى تقدم إمكانية الإنسان على فهم أكثر اكتمالًا للسنن والقوانين الإلهية فى الكون، وفى الطبيعة والمجتمع.

وانطلاقاً من هذا الفهم سنحاول استخلاص بعض الدروس:

۱- المسلمون كانوا قلة وانتصروا فى بدر. هل انتصار القلة على الكثرة قانون اختصّ به المسلمون دون غيرهم؟ إذا كان الجواب بالايجاب. فكيف يمكننا تفسير انتصار الشعب الفيتنامى على أمريكا؟ وكيف يمكن تفسير إنتصار إسرائيل على العرب؟

التفسير الممكن هو أن اللَّه-

۱- ۱ الأنفال: ۱.

۲- ۲ ابن هشام: ۲۹۶.

۳- ۳ الأنفال: ۲۶.

ص: ۱۸۰

تبارک وتعالی- قد جعل قوانین لتطور المجتمعات. وأن الفئهٔ التی تتمکن من اکتشاف هذه القوانین وفهمها وتسخیرها یمکنها النصر. وهکذا یمکننا تفسیر هزیمهٔ المسلمین فی أحد مع أنهم کانوا بقیادهٔ النبیصلی الله علیه و آله و سلم، وکذلک یمکننا تفسیر هزیمهٔ الهنود الحمر أمام جلادیهم ومغتصبی بلادهم.

۲- تحدید الشیطان: المؤمنون یحاربون الشیطان. ونحن کمؤمنین نستعیذ اللَّه من الشیطان الرجیم یومیاً.

مَن هو الشیطان؟ هل هو وهم أم واقع؟ علماً أن اللَّه قد أعلمنا أن الشیطان یمکن أن یکون إنساناً أو مجموعهٔ من الناس أو نظاماً إنسانیاً، کما أن الشیطان یمکن أن یکون من الجان. فإذا کان الشیطان من الجن فما علینا إلا أن نستعیذ باللَّه منه لأنه من الغیب، الذی لا یمکننا رؤیته. وإن کان من الإنس فما علینا إلا تحدیده ومحاربته. ومحاربته بالنسبهٔ للمؤمنین أمر واجب ومستمر. لذلک رأینا الرسول الأعظم قد حدّد الشیطان للمسلمین عندما أعلن أن المعرکهٔ مع قریش: رأس الکفر. علماً أن الکثیر من القبائل العربیهٔ کانت لا تزال علی الشرک. ولکن معرفهٔ الرسول بالعلاقات القائمهٔ فی الجزیرهٔ العربیهٔ دفعته لمحاربهٔ قریش إذ إن الانتصار علیها یعنی تفکیک أو بالأخری تدمیر جمیع أو معظم العلاقات الشرکیهٔ القائمهٔ فی الجزیرهٔ العربیهٔ. وتحدید الرسول کان موفقاً لأنه بعد الانتصار علی قریش (فتح مکهٔ) رأینا جمیع القبائل تأتی إلی الرسول تُعلن إسلامها من دون قتال.

ولا بأس هنا من الإشارهٔ إلی أن تحدید الإمام الخمینی للشیطان الأکبر کان تأسیاً برسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم.

وهذا لم یحصل فی التاریخ الحدیث إلا علی ید الإمام رحمه الله. ولا ضرورهٔ للإشارهٔ إلی أننا لا نزال خاضعین لهذا التحدید. لأن عقدهٔ العلاقات الشرکیهٔ علی الصعید العالمی هی بید أمریکا، وعقدهٔ هذه العلاقات الشیطانیهٔ فی منطقتنا هی بید إسرائیل. فشیاطیننا هی أمریکا وإسرائیل کما سبق تحدیدهما من قبل الإمام الخمینی رحمه الله.

۳- تحدید الأولویات فی العمل: یقول رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم:

«أمرت أن أقاتل الناس حتی یشهدوا أن لاإله إلا اللَّه وأن محمداً رسول‌اللَّه».

ومع هذا رأینا أن رسول اللَّه لم یقاتل الیهود فی المدینهٔ بل کتب عهداً معهم ولم یقاتل بنی وائل وغیرهم مع أنهم کانوا علی الشرک، بل آثر قتال قریش، لأن تحدید الأولویات فی

ص: ۱۸۱

العمل ضرورى للانتصار. لذلك كان الشكل الشركى الذى يجب تحطيمه، حسب تحديد رسول اللَّه هو قريش.

۴- معرفة قواك الذاتية وقوى العدو: سحب جمال عبد الناصر القوات الدولية المرابطة بينه وبين العدو الإسرائيلى. وكان يعتقد أنه سينتصر على إسرائيل خلال ساعات فكانت النتيجة أن هزمت جميع الأنظمة العربية خلال ستة أيام. وإسرائيل نفسها بعد أن تطورت آلتها العسكرية بما لا يقاس بالنسبة لعام ۱۹۶۷ لم تتمكن خلال سبعة أيام من الحرب الضروس من إزاحة مقاتل واحد من المقاومة الإسلامية من جنوب لبنان؟!.

بينما راح رسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم- قبل التوجه إلى المعركة- يستشير أصحابه بما سيقدم عليه، واطمأن إلى جيشه. وراح يتحسس قوى عدوه، وبعد أن عرف قواه وقوى عدوه أقدم على الحرب المنتصرة.

۵- روحية النصر: إذا توجهنا إلى جميع أجهزة الإعلام المكتوبة والمسموعة والمرئية، مع بعض الاستثناءات الضئيلة، نرى أن عدونا هو من الصنف الذى لا يمكن هزيمته.

فإذا كنّا مهزومين نفسياً قبل التوجه إلى المعركة، هل يمكننا الانتصار؟

بالطبع لا. أما جيش المسلمين بقيادة النبيصلى الله عليه و آله و سلم كسب النصر قبل البدء بالمعركة. ماذا قال الرسول لأصحابه؟

قال: إنى أرى مصارع القوم. فى نفس الوقت كان قادة قريش يقنعون أصحابهم بالعودة وعدم دخول المعركة. وهذا ما يجعلنا نفهم كيف أن الحجر المؤمن فى فلسطين يجابه الدبابة الإسرائيلية.

۶- معرفة مكامن الضعف ومكامن القوة: قوة قريش كانت تقوم على تجارتها، لذلك رأينا أكثر السرايا والغزوات تتوجه لتهديد ومنع هذه التجارة.

۷- الإمداد: كان اعتصام المسلمين بحبل اللَّه. أما المشركون فليس لهم إمداد روحى. المسلم موعود بالجنة والمشرك موعود بالنار.

وكان المسلمون قد أنذروا المشركين مدّة ثلاث عشرة سنة فى مكة بالمصير الذى ينتظرهم فى الدنيا والآخرة إن هم استمروا على كفرهم وعنادهم.

۸- الغاية من القتال: كانت

ص: ۱۸۲

غایة المسلمین من القتال إعلاء کلمة اللّه وتدمیر العلاقات الشرکیة، وکانت غایة قریش المجون والفسوق والطغیان.

هذه بعض الدروس والعبر التی أمکننا استخلاصها مع تأکیدنا أنها قاصرة عن الإحاطة.

وأخیراً لابدّ من تأکید ضرورة بذل الکثیر من الجهد الجماعی لدراسة سیرة المصطفیصلی الله علیه و آله و سلم. وذلک بغیة معرفة التأسی به. لأن مجتمعنا الیوم وأعنی المجتمع الإسلامی، بأمسّ الحاجة لهذا، فما نراه من الهجمة الاستکباریة علی جمیع الصعد العسکریة والاقتصادیة والعلمیة والتربویة یحتّم علینا العودة إلی المعین الصافی.

الهوامش:

الحجُّ فی مبناه ومعناه

الحجُّ فی مبناه ومعناه

لبیب بیضون

الأغراض الفردیة والاجتماعیة للعبادات:

یُعدُّ الإسلامُ الفردَ الصالح نواة للمجتمع الصالح. وهذا یعنی أن الهدف النهائی هو المجتمع ولیس الفرد. ولذا إذا

ص: ۱۸۳

تعارضت مصلحة الفرد مع مصلحة الجماعة قدّمت مصلحة الجماعة على الفرد.

من هذا المنطلق نجد أن العبادات التی هی فی أصلها تکلیف فردی، أن هدفها العمیق لیس إصلاح الفرد فقط، وإنما قیام المجتمع الصالح.

فالصلاة التی تهدف إلی تطهیر الفرد من الدنس بردعه عن فعل الفحشاء والمنکر، هدفها أیضاً تخلیص الغیر من شرور الفرد، لأن الفواحش لا یمارسها الفرد إلا مع الغیر.

والزکاة التی تهدف إلی تطهیر النفس من عبودیة المادة، لا یکون مجال إنفاقها وفاعلیتها إلا فی المجتمع، فتکون التأمین الضروری لکل فرد عاجز فی المجتمع لکی یعیش عیشة إنسانیة مرضیة.

أما الصوم الذی هو دورة تدریبیة سنویة للفرد علی التقوی، والالتزام بالواجبات والمحاسبة الدقیقة للنفس علی کل عمل، فهو فی نفس الوقت شعور بحرمان الفقیر من کل حاجاته، حتی الحاجات الضروریة کالطعام والشراب والکساء، فیکون هدفه الاجتماعی مساعدة العاجز والبائس ومشارکة المساکین فی آلامهم ومآسیهم.

أما الأمر بالمعروف والنهی عن المنکر، فهما من العبادات ذات الغرض الجماعی الظاهر، فکل انحراف یراه المسلم فی المجتمع علیه إصلاحه لیحافظ علی المجتمع السلیم. وبما أنه لا انفصال بین مصلحة الفرد ومصلحة المجتمع، فإن إصلاح المجتمع تعود علیه ثماره بشکل غیر مباشر.

من هذا تظهر وحدة المجتمع فی الصلاح والفساد. فکل ما یحدث فی جزء من المجتمع یعود تأثیره علی کل فرد فی المجتمع، وهو فحوی قول النبی الأعظمصلی الله علیه و آله و سلم:

«مثل المؤمنین فی توادهم وتراحمهم وتعاطفهم کمثل الجسد الواحد، إذا اشتکی منه عضو تداعی له سائر الجسد بالسهر والحمی».

فلیس لأحد أن یعیش فی معزل عن غیره، ویزعم أنه حر فیما یعمل، طالما أنه خاضع للتأثیر المتبادل بینه وبین مجتمعه.

وقدصوّر لنا النبیصلی الله علیه و آله و سلم هذه الحقیقة الواقعة خیر تصویر فی حدیثه عن قوم رکبوا فبدأ أحدهم یحفر فی الجزء الذی اختص به. یقولصلی الله علیه و آله و سلم:

«مثل القائم علی حدود اللّه والواقع فیها کمثل قوم استهموا علی سفینة، فأصاب بعضُهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فکان الذین فی أسفلها إذا استقوا من الماء مروا علی من فوقهم، فقالوا: لو أنّا خرقنا فی نصیبنا خَرْقاً ولم نؤذ من فوقنا. فإن یترکوهم وما أرادوا هلکوا جمیعاً، وإذا أخذوا علی أیدیهم نجوا ونجوا جمیعاً».

من هذا المنطلق وقیاساً علی ما سبق، نجد أن فریضة الحجّ ذات مقاصد فردیة واجتماعیة علی حد سواء، شأنها فی ذلک شأن کل العبادات.

وبما أن فریضة الحج مبتناة علی اجتماع الناس بأعداد کبیرة، ومن شتی أصقاع الأرض ودول الإسلام، فإن الأهداف الاجتماعیة فیها لابُدّ من أنها هی الغالبة.

ص: ۱۸۴

ونحن إذا نظرنا إلی الحجّ فی معناه ومبتغاه نجد أن هدفه تصفیة النفوس وتزکیتها من أدران الخطیئة والذنوب، وذلک بوفادتها إلی بیت اللّه الذی یغفر الذنوب، واستضافتها فی داره، وطوافها حول کعبته، کدلالة علی خلوصها من قیود الشیطان وسلطته، وارتباطها الوحید بعمود الإسلام وقبلته.

لکن طواف المسلمین فی جموعهم المحتشدة حول الکعبة یعطی- إضافةً لذلک- المعنی التوحیدی للمجتمع الإسلامی، فهم فی طوافهم حول مرکز واحد مع اختلاف ألوانهم وأجناسهم، یشبهون نجوم السماء التی انتظمت فی مجرة واحدة هی مجرة الإسلام. أو إنهم کالإلکترونات فی الذرة یتشابهون فی تکوینهم وطبیعتهم ولا یختلفون إلّا بمقدار قربهم وبعدهم عن النواة. وتتجسم معانی الإسلام الحقیقیة فی هذا اللقاء الفرید، وقد خلع الجمیع زینة الدنیا لیتحلوا بزینة الدین.

ولا فرق بینهم فی موقفهم هذا بین أبیضهم وأسودهم ولا بین فقیرهم وغنیهم ولا بین رئیسهم ومرؤوسهم ولا بین عربیهم وأعجمیهم.

یقول النبیصلی الله علیه و آله و سلم: «لا فضل لعربی علی أعجمی، ولا لأبیض علی أسود، ولا لحر علی عبد، إلّابالتقوی».

وإذا کان الإسلام حریصاً کل هذا الحرص علی تنقیة نفس الفرد المسلم فی فریضة الحج مما علق بها من أرجاس وأدران، فما أحراه أن یهدف فی هذه الفریضة إلی تنقیة المجتمع الإسلامی مما یعانیه من أمراض وأسقام وتخلیصه مما یعتوره من محن وأخطار.

لذلک کان الحجُّ أنجح فرصة لاجتماع المسلمین علی طاولة واحدة، ومدارستهم لمشاکل المسلمین ووضعهم الخطط القویمة لدفع الأخطار المحیقة بهم.

فیکون الحج عبارة عن لقاء أخوی فی کنف اللّه وعلی مائدة اللّه لدراسة شؤون أمة اللّه.

یقول سبحانه فی سورة الحج:

«وأذّن فی الناس بالحج یأتوک رجالًا وعلی کل ضامر یأتین من کل فج عمیق لیشهدوا منافع لهم ...» (۱).

وهل أعظم منفعة للمسلمین من أن یتدارسوا ما ینفعهم وما یضرهم، فیعملون علی ما ینفعهم ویدرَءُون عنهم ما یضرهم.

ونحن لسنا مبتدعین فی هذا المعنی بل متمثلین بأعمال النبیصلی الله علیه و آله و سلم وسیرته. فلقد کانصلی الله علیه و آله و سلم یتخذ من الحج منبراً لتوجیه المسلمین وإرشادهم بما یحفظ کیانهم وسلامتهم. ومن أبرز ذلک خطبته المشهورة فی حجة الوداع التی حذّر فیها المسلمین من بعض الأُمور التی تضعفهم وتزعزع کیانهم، ومنها أن لا یقتتلوا فیما بینهم، وأن لا یثیروا النعرات القبلیة التی کانت بینهم کالمطالبة بالثأر، یقولصلی الله علیه و آله و سلم:

«أیها الناس، إن دماءکم وأموالکم علیکم حرام إلی أن تلقوا ربکم، کحرمة یومکم هذا، فی شهرکم هذا، فی بلدکم هذا، ألا هل بلغت اللّهم اشهد .. من کانت عنده أمانة فلیؤدها إلی من ائتمنه علیها وإن ربا الجاهلیة موضوع ..

وإن دماء الجاهلیة موضوعة .. وإن مآثر الجاهلیة موضوعة .. أیها الناس، إنما المؤمنون إخوة، ولا یحل لامرئ مال أخیه إلا عن طیب نفس، ألا هل بلغت اللّهم اشهد .. ألا لا ترجعوا بعدی کفاراً یضرب بعضکم رقاب بعض، فإنی

۱- ۱ الحج: ۲۷- ۲۸.

ص: ۱۸۵

ترکت فیکم ما إن أخذتم به لن تضلوا، کتاب اللَّه ربکم».

الحجُّ هو العبودیة الخالصة للَّه:

والآن لننظر فی حقیقة ما یفیدنا به الحج. فهل نحن نفهم الحج علی حقیقته؟! إن الحج هو العبودیة الخالصة للَّه وحده. إننا نرجم إبلیس ثم نرزح أمام نیر إبلیس ونقع فی قبضته.

هل الحجُّ مجرد طقوس بلا معنی ولا هدف؟

لقد أراد بعض المسلمین أن یجمدوا معنی الحج ویحجروا علیه لیجعلوه جسداً بلا روح، وطقوساً بلا معنی.

وکذلک الصلاة، فمتی کانت الصلاة مجرد حرکات وسکنات، إذن لم تکن فی حقیقتها تحمل معنی التجرد من کل عبودیة لغیر اللَّه ..

کیف یرتع بعض المسلمین فی أکناف المستعمرین الکافرین، ویأتمرون بأمرهم ویستمدون القوة منهم، ثم یدّعون الإسلام، والعبادة للواحد الدیان ..

یقول تعالی: «أرأیت الذی ینهی عبداً إذاصلی» (۱) فکیف بمن ینهی أحداً عن أیة عبادة للَّه. کیف یجوز لأحد من المسلمین أن ینهی مسلماً عن ممارسة أیة عبادة للَّهفی بیته الحرام، الذی جعله مثابةً للناس وأمناً؟ «وما نقموا مِنهم إلّاأن یؤمنوا باللَّه العزیز الحمید» (۲).

إن الحج أعظم فرصة وأکبر سوق لتجارة التقوی والتقرب من اللَّه، وکل من یمنع أحداً من المسلمین من ممارسة هذا الحق فهو مخالف لحقیقة الإسلام.

یجب أن ینتبه کل مسلم مهما کان نوعه ولونه أن الحج دورة تدریبیة یتحرر فیها المسلم من أنواع الخضوع والعبودیة لغیر اللَّه، علی مستوی الفرد والجماعة، وأنه مطالب إذا رجع إلی وطنه أن یعمل علی جعل مجتمعه متحرراً من کل أنواع الاستعباد والاستعمار للقوی غیر الإسلامیة، وخاصة تلک التی تحارب الإسلام وتریدمحوه ومحقه.

إن الحج هو امتحان لنا واختبار لمدی إیماننا ویقیننا بخالق الوجود، الذی هو خالق کل نور وکل طاقة وکل قوة وکل شیء، والذی هو فوق کل فرد عظیم أو دولة عظمی. یقول سبحانه فی سورة النور:

«اللَّه نور السموات والأرض، مثل نوره کمشکاة فیها مصباح، المصباحُ فی زُجاجة الزجاجةُ کأنها کوکب درّی، یوقد من شجرة مبارکة زیتونة، لا شرقیة ولا غربیة ...» (۳).

۱- ۱ العلق: ۹- ۱۰.

۲- ۲ البروج: ۸.

۳- ۳ النور: ۳۵.

ص: ۱۸۶

لنستمد من ربنا وحده عزيمتنا وعزتنا، ولنقتبس من ديننا قوتنا وهدينا .. ولنتذكر أن قوة إسلامنا من قوة اتحادنا وتضامننا، حتى نكون يداً واحدة على كل أعداء الإسلام .. عند ذلك نفرض لنفسنا السلام، سلام العزة والإسلام، وليس سلام الخضوع والإستسلام.

النبيصلى الله عليه و آله و سلم لم ترهبه قوة الشرق ولا قوة الغرب، حين بدأ دعوته الحقة بحفنة من المؤمنين الصادقين، فلما رأى اللّه منهمصدق النية أنزل عليهم النصر، وقد تألبت عليهم كل قوى الشر من أحزاب العرب واليهود، فلم يزدهم ذلك إلا إيماناً وتسليماً.

هذه هيصفة المؤمن الحق، الذى لا يتوجّه إلّاالى اللّه، ولا يتوكل إلّاعلى اللّه، ولا يستمد القوة إلّامن اللّه.

بهذا الإيمان الصحيح فتح أجدادنا الدنيا وأصبحوا أعزّة، وبدون هذا الإيمان الصحيح استعمر الكفار بلادنا وأصبحنا أذلة ..

يقول الفيلسوف الكبير الدكتور محمد إقبال رحمه الله فى شعره المترجم:

كنا نقدم للسيوفصدورنا لم نخشَ يوماً غاشماً جبارا

وكأن ظل السيف ظِل حديقة خضراء تنبت حولنا الأزهارا

كنا جبالا فى الجبال وربما سرنا على مرج البحار بحارا

بمعابد الإفرنج كان أذاننا قبل الكتائب يفتح الأمصارا

لم نخشَ طاغوتاً يحاربنا ولو نصب المنايا حولنا أسوارا

ندعو جهاراً لا إله سوى الذيصنع الوجود وقدّر الأقدارا الهوامش:

تعريفٌ بكتاب «اخبار مكّة» للفاكهى

تعريفٌ بكتاب «أخبار مكّة» للفاكهى

محمد على مهدوى راد

ص: ۱۸۷

خلال تـدوين التاريـخ الإسـلامى، كان لطريقـة تـدوين تاريـخ المدن والأمصار قدمٌ عريقٌ فيه. وقد احتلّ تاريخ مكّةَ وما جرى فيها من الوقائع والأحداث أهميّةً بارزةً تتناسب ومكانتها ضمن هذا السياق.

فمكّـةُ مدينـةٌ عريقـة ذات شأن عظيم وصـيت شائع فى الآفاق. وكانت منـذ القـدم محطَّ أنظار الشـعوب والأمم، وهى من منظار القـدم التاريخى تُعدُّ من أقدم الأمصار التى شيّدت على وجه المعمورة، وضـمّت بين ربوعها شعوباً وقبائلَ شتّى. وفى العصر الإسلامى كانت أخبار مكّـة، والنصوص التى تُعنى بأحـداثها ووقائعها المختلفـة تحظى بأهميـة بالغـة لـدى المسـلمين، فقد كانت فضائل مكّة وأخبارها ومكانتها الرفيعة وامتدادها التاريخى تلقى اهتماماً واسعاً لدى المسلمين ولأسباب كثيرة.

فقـد كـانت- ولاـ زالت- المعرفـة الدقيقـة لما دوّن عن مكّـة تحتلُّ أهميـة قصوى نابعـة من ضـرورتها فى تفسـير القرآن، وفهم الآيات الرّبانيّة، وسـيرة النبيِّ، وكيفية إنبثاق الرسالة الإسـلاميّة وانتشار شعاعها فى كلّ الأرجاء. وعلى هذا الأساس فإنّ أقدم النُصوص المدوّنة فى الحضارة الإسلاميّة هى تلك التى كتبت عن تاريخ مكّة والمدينة.

قِدَم هذه النصوص:

يظهر أن أقدم مُصَنَّفٍ ورد فى كتب التاريخ والسيرة حول هذا الموضوع، هو كتاب محمد بن عمر الواقدى، الذى ولد عام ۱۳۰ وتوفى عام ۲۰۷ للهجرة (۱)، وكان محـدّثاً كبيراً ومؤرخاً حاذقاً. وكان كتابه الموسوم ب «أخبار مكّـة» مصـدراً لمن تلاه من المحقّقين الذين استقوا منه فيما كتبوه عن مكّـة من أخبار ونصوص. وجاء من بعـده على بن محمد المدائنى (۱۳۵- ۲۲۵ ه) وهو من المؤرخين الذين أغنوا التاريـخ بغزارة مؤلّفـاتهم وتنوع كتاباتهم. وذكر ابن النـديم- الـذى نقل آثاره تفصـيلياً وبشـكل موضوعى- أن له كتاباً عن مكّة اسـمه «تاريـخ مكّـة»، ولا يوجـد لهـذا الكتاب أىُّ أثر اليوم شأنه فى ذلك شأن الكثير من مؤلّفاته الأخرى. وينبغى لى التـذكير هنا بأن الكثير من المصادر الأخرى التى تحدّثت عن سيرته ومؤلّفاته لم تذكر عن هذا الكتاب شيئاً (۲).

بعد كتاب المدائنى لابدّ من الاشارة إلى الكتاب القيم الذى ألّفه أبو الوليد محمد بن عبد اللّه بن أحمد الأزرقى (...

إلى مـا يقـارب ۲۵۰ ه)، وعنـوانه «أخبـار مكّـة»، ونقـل فيه أخبـاراً كـثيرة عنهـا. ومن حسن الحظّ أن الكتـاب موجـود اليوم، ولاـ يزال المحقّقون يرجعون إليه وينهلون من فيضهِ (۳).

۱- ۱ يلاحظ وجود اختلاف طفيف فى سنة ولادته بين المصادر المختلفة، انظر كتاب: الوافى بالوفيات، لصلاح الدين خليل بن أبيك الصفدى، ۲: ۲۳۸- النجومالزاهرة فى ملوك مصـر والقـاهرة، لجمـال الـدين ابى المحاسن يوسف بن تغرى، ۲: ۱۸۴- كتاب المغازى للواقدى، ۱: ۵.

۲- ۲ انظر: تاريخ بغداد، ۱۲: ۵۴- معجم الأدبـاء لياقوت الحموى، ۱۴: ۱۲۴- والنجوم الزاهرة، ۲: ۲۵۹- سير أعلام النبلاء، ۱۰: ۴۰۰- وتاريخ التراث العربى، ۱: الجزء ۲: ۱۳۹- أخبار مكّة للأزرقى المقدّمة. تجدر الإشارة إلى اختلاف المؤرخين فى سنة وفاته أيضاً.

۳- ۳ سنتحدّث عن هذا الكتاب بالتفصيل فى أحد أعداد «الميقات» المقبلة.

ص: ۱۸۸

ألّف أيضاً الزبير بن بكّار الذى ولد عام ۱۷۲ وتوفى عام ۲۵۶ للهجرة كتاباً فى هذا الموضوع. وكتابه هذا أشار إليه السخاوى (۱)، وذكرته أيضاً مصادرُ أُخرى (۲). إلّاأن النصوص الواردة فى الكتب التاريخية والمصادر التى تحدثّت عن سيرته، والفهارس التى أحصت مؤلفاته لم تذكر شيئاً عن هذا الكتاب (۳).

يُعَدُّ عمر بن شَبّة أيضاً من المؤرّخين الذين كتبوا عن مكّة وأخبارها، وله كتاب يُدعى ب «تاريخ مكّة» ذكره البخارى ونقل عنه (۴)، وقال: إنّ له كتاباً آخر فى هذا الصدد واسمه «أُمراء مكّة»، لكن البعض احتمل أن يكون كلا الاسمين عنواناً لكتاب واحد (۵).

نسبت بعض المصادر إلى الحسن البصرى (م ۱۱۰) كتاباً اسمه «تاريخ مكّة»، ويبدو أن نسخة منه موجودة الآن فى أحد مكتبات مصر (۶).

ثم يأتى بعد كل هذا كتاب أبى عبد اللّه محمد بن إسحاق الفاكهى، وهو كتاب قيّم وفريد وقد سمّاه ب «أخبار مكّة فى قديم الدهر وحديثه» وهو محور اهتمامنا الآن:

يوصف كتاب الفاكهى بأنّه كتابٌ تاريخى واجتماعى وجغرافى، يُتاح للمرء- بالاستناد إليه- التعرف على الكثير من الحقائق المتعلقة بمكّة، والكيفية التى كانت عليها الأطراف المحيطة بها. والموجود حالياً هو الجزء الثانى من الكتاب وهو يحمل بين دفّتيه ما يناهز الثلاثة آلاف حديث وخبر.

أما الجزء الأول منه فقد كان فى متناول أيدى المحقّقين والمحدّثين حتّى سنوات من بعد تأليفه، فكانوا يستفيدون من مضامينه ومحتوياته. وقد أعاد محقّق هذا الكتاب- وبالاستناد إلى نقلهم وروايتهم-صياغة قسمٍ من جزئه الأوّل، وهذا ما سنشير اليه لاحقاً.

أهمية الكتاب:

لقد ظل كتاب الفاكهى وعلى مَرّ الزمن موضعَ اهتمام العلماء والمحدّثين والمؤرّخين، فانتفع منه الكثيرون واكّدوا أهميته الكبيرة فى تاريخ الإسلام. أثنى عليه ابن حجر العسقلانى الذى استفاد منه كثيراً فيما ألّفه عن أخبار مكّة قائلًا:

«كتاب قيّم فى خمسة كتب» (۷).

وكتب تقى الدين محمد بن أحمد الفاسى المكّى الذى نقل فى كتابه الكثير مما جاء فى كتاب الفاكهى: «امور مفيدة جداً ليست من معنى تأليف الأزرقى ولا من المعنى الذى ألّفناه» (۸).

لقد حوى كتاب الفاسى علماً غزيراً ونافعاً. وقوله هذا- وهو قول رجل عارف- يحمل منتهى الدلالة على المكانة الرفيعة لكتاب الفاكهى وسعة مادّته ووفرة المعلومات المدوّنة فيه.

النقطة الأخرى التى تتضح من خلالها أهمية كتاب الفاكهى هى المعلومات والبيانات المسطورة عليصفحاته، ولا أثر اليوم لمصادرها الأصلية.

لقد ضبط محقّق الكتاب- وهو لا شك محقّق جاد وبارع- النصوص والأخبار التى نقلها الفاكهى عن الآخرين بالشكل التالى:

«نقل عن كتاب عثمان بن عمرو بن الساج فى تاريخ مكّة (۴۷) مورداً (۹).

۱- ۱ الإعلان بالتوبيخ لمن ذَمَّ أهل التاريخ، السخاوى: ۶۴۸ مطبوع ضمن علم التاريخ عند المسلمين، ۲: ۳۱۹.

۲- ۲ أخبار مكّة، للازرقى المقدّمة: ۱۰- أخبار مكّة، للفاكهى المقدّمة، ۱: ۳۴. نقل الفاكهى قسماً من آثاره فى كتابه.

۳- ۳ انظر: معجم الأُدباء، ۱۱: ۱۶۴- الفهرست: ۱۲۳- تاريخ التراث العربى، ۱: الجزء ۲: ۱۴۷.

۴- ۴ تاريخ المدينة المنوّرة، ۱: المقدمة، ى.

۵- ۵ نفس المصدر.

۶- ۶ نفس المصدر.

۷- ۷ تعليق التعليق، ۵: ۴۷۱، هذا الكتاب من المؤلفات المهمة لابن حجر: انظر الحافظ بن حجر العسقلانى، عبد الستار الشيخ ۳۹۱-۴۰۲- اتحاف القارئ بمعرفة جهود العلماء عليصحيح البخارى: ۷۶.

۸- ۸ شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، ۱: ۴.

۹- ۹ لمعرفة المزيد عن حياته راجع كتاب: تاريخ التراث العربى، ۱: الجزء ۲: ۲۰۱.

ص: ۱۸۹

وعن الواقدى ۲۶ مورداً، وعن مؤلّفات الزبير بن بكار ۱۴۳ مورداً لا يوجد منها إلا جزء يسير فى مؤلفاته المطبوعة.

نقل عن كتاب لأبى عُبيدة معمر بن المثنّى ۱۱ نصاً عن آبار وأخبار مكّة، وأخذ عن كتاب «فضائل مكّة» لأبى بكر الحميدى (صاحب السند) ۲۹ نصاً.

استقى الفاكهى أيضاً من بعض مصنّفات الحديث القديمة التى لا وجود لها اليوم ككتابَى «الجامع» و «المناسك» لابن جُريج ونقل عنهما ۲۴۸ حديثاً بطرق مُختلفة.

نقل أيضاً عن كتاب «الجامع» لسفيان الثورى ۱۰۸ أحاديث، وعن «الجامع» لسفيان بن عينية ۷۳۷ حديثاً ونصّاً، ونقل عن مصنّف وكيع بن الجرّاح ۲۴ حديثاً ونصاً، وكذا نقل عن «سُنن موسى بن طارق أبى قُرّةَ ۱۶ نصّاً».

وضَمّن الفاكهى كتابه هذا أسماء عدد من مشايخه فى الحديث، ونقل من كتبهم عدداً من الأحاديث والنصوص، ومن جملة ذلك كتاب «السُنن» لسيد بن منصور إذ نقل عنه ۱۱ نصّاً. وأخذ عن أحد كتب الحسين بن حسن المروزى ۱۱۵ حديثاً ونصاً، وعن الحسن بن على الحلوانى ۳۲ نصاً، وعن مسند محمد بن يحيى بن أبى عمر العدنى المكّى ۵۲۶ خبراً، وعن مسند يعقوب بن حميد بن الكاسب ۱۸۸ حديثاً ونصّاً.

راجع الفاكهى كتب السيرة لغرض تدوين كتابه، ومن جملة كتب السيرة التى أفاد منها وهى مفتقدة اليوم ما يلى: كتاب عروة بن الزبير الأسدى وأخذ عنه ۵ أخبار، و «المغازى» لموسى بن عقبة وقد أخذ عنه ۱۳ نصاً.

إضافة إلى ما ذكر، كان الفاكهى ينقل الأحاديث والنصوص أيضاً عن أشخاصٍ لا أثر اليوم لمؤلّفاتهم، وبهذا فإنّه يكون قد أودع بين دفّتى كتابه قسماً عظيماً من التراث التاريخى والحديثى مدّخراً إيّاه للأجيال والعصور (۱).

كتاب الفاكهى فى مؤلفات الآخرين:

غدا كتاب «أخبار مكّة» موضع اهتمام العلماء بعد تدوينه ونشره. فقد اقتبس الكثير من المحدّثين والمؤلفين مقاطع منه وضمنوها مؤلّفاتهم، ومن جملتهم: أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق الحربى فى كتابه «المناسك»، وأبو عمر بن عبد البر، فى «الاستيعاب»، وأبو عبيد البكرى فى «معجم ما استُعجم»، وياقوت الحموى فى «معجم البلدان»، وكتاب «المشترك وضعاً المفترقصقعاً»، ومحمد بن أحمد الفاسى فى «العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين»، وكتاب «شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام»، وابن حجر العسقلانى فى «فتح البارى» و «الإصابة» و «تهذيب التهذيب» و «تعليق التعليق»، وعمر بن فهد المكّى فى «إتحاف الورى بأخبار أمّ القُرى»، ومحمد بن عبد الرحمن السخاوى فى «المقاصد الحسنة»، وجلال الدين السيوطى فى «الدر المنثور»، و «تاريخ الخلفاء» و «الجامع الكبير»، ومتّقى الهندى فى «كنز العمّال»، وجمال الدين بن ظهيرة المخزومى فى «الجامع اللطيف فى فضل مكّة وأهلها وبناء البيت الشريف»، وقطب الدين النهروانى فى «الأعلام بأعلام بيت اللّه الحرام» و ... الخ.

لقد ذكر المحقّق هذه المجموعة وسواها وأتى أيضاً على ذكر موارد النقل فى هذه المؤلّفات بالدّقة (۲).

۱- ۱ انظر: أخبار مكّة، ۱ المقدمة: ۳۳- ۳۵.

۲- ۲ نفس المصدر.

ص: ۱۹۰

لمحة سريعة لفصول الكتاب:

لم يبوّب الفاكهى كتابه بشكل منظم، فكان يأتى بالعنوان ويدرج تحته ما لديه من معلومات. أمّا المتبقّى من الكتاب- اليوم- فهو يبدأ من النصوص التى تتحدث عن الحجر الأسود وفضيلته وأحكامه، وقد وردت هذه ضمن ۱۵ عنواناً و ۲۱۴ حديثاً وخبراً.

تناول هذا الفصل «الحجر الأسود» وكيفيّته وقدمه، وآداب استلامه وزيارته، وكيفية استلام النساء إيّاه، ومدى ارتفاعه عن الأرض، والأركان الأُخرى وكيفيّتها، والمسح عليه بالأيدى، والتقبيل وغيرها من آداب الأركان. تمتاز النصوص الواردة فى هذا الفصل بالدقة، وجاءت إلى جانبها أيضاً أخبار ومواضيع تاريخية واجتماعية مهمّة.

تحدّث فى الفصل الثانى عن مقام «الملتزم». قال ياقوت الحموى: «الملتزم»؛ ويقال له أيضاً: «المَدْعَى» و «المتعوّذ»: هو ما بين الحجر الأسود والباب ... (۱).

استعرض فى هذا الفصل مقام «الملتزم» مستعيناً بالأخبار والروايات، وتحدّث عن أهميّته وفضائله، وعظمة الدعاء فى هذا المكان والصورة التى يتم فيها، وذكر من وقفوا فيه موقف التضرع. ونقل أيضاً مواضيع أخرى مفيدة فى هذا الباب وقد تضمّن هذا البحث ۷۶ حديثاً وخبراً.

اشتمل الفصل الثالث (ج ۱، ۱۸۶- ۳۶۸)، وهو فصل طويل نسبياً، على ۶۰ بحثاً و ۴۷۹ حديثاً وخبراً عن الطواف حول الكعبة وكيفيّته. فالكعبة بناء قديم حضىَ على مرّ العصور بتقديس واحترام الشعوب والأقوام. وكان الطواف حولها سُنّةً متّبعةً، إلا أن بعض التغييرات قد طرأت عليه عبر التاريخ فبدّلت من كيفيّته وأسلوب إقامته.

يتحدّث هذا الفصل عن طواف الكعبة وفضيلته وآدابه، وكيفية القيام بهذه العبادة المهمّة. الأحاديث والأخبار الواردة فى هذا البحث نفيسة جداً فهى تكشف لنا عن الكثير من السنن والآداب الدينية والاجتماعية التى كانت سائدة عند الأقوام والشعوب آنذاك.

يصف هذا الفصل كيفية الطواف، وكيفية طواف النساء فى الظروف والأزمنة المتباينة. وكيفية طواف أصحاب النذور؛ فالأشخاص الذين فى رقبتهم نذر يطوفون على حالة وهيئة خاصّة، ويشير كذلك إلى كيفية إنهاء الطواف.

والطواف نيابة عن الأحياء أو الأموات، وطواف الأحرار وطواف العبيد فى زمن الجاهلية، والحوادث التى وقعت خلال الطواف فى الكعبة، وانهدام الكعبة ... الخ. وقد ورد كلُّ ذلك بشكل مفصّل ويضم بين ثناياه الكثير من الأخبار والروايات. ونقل وفسّر فى ختامه الحديث الشريف: «لا تُغزى مكة بعد الفتح».

وفى الفصل الرابع (ج ۱، ۳۶۸- ۴۳۸) تناول وجوب الحج من خلال استعراضه ل ۱۷ بحثاً، ونقله ل ۱۸۷ حديثاً وخبراً دُرجت تحت عنوان «فريضة الحجّ»، وأوضح أهمية هذه الشَعيرة الإلهية الكبرى من خلال تفسيره للآية: «ومَن كفر فإن اللَّه غنىّ عن العالمين». واستعرض مواضيع شتّى ضمن عناوين متعددة: كاستطاعة الحجّ، والزاد والراحلة فى الحجّ، وحجّصغار السن، وفضيلة السير إلى الحجّ، والنتائج السيئة المترتّبة على ترك الحجّ، ومكانة الزائر لبيت اللَّه، والمغفرة لذنوب الحجّاج، وفضل الحاج يوم القيامة الذى زار بيت اللَّه وهو عارف بأهمية تلك الزيارة وما لها من حرمة.

۱- ۱ معجم البلدان، ۵: ۱۹۰- وانظر أيضاً إلى معجم دهخدا، حرف «م»: ۱۰۶۲.

ص: ۱۹۱

يمتاز هذا الفصل على غيره بما فيه من جوانب فقهية وأبعادٍ أخلاقية. وفيه نصوص تلفت النظر للتعرّف على فتاوى الفقهاء فيصدر الإسلام. ويشتمل أيضاً على أحاديث تستوجب الاهتمام فى آداب الزيارة وما ينبغى أن يتحلّى به الزائر منصفات. وتمثل خاتمة الفصل عرضاً لضرورة المسارعة فى أداء فريضة الحجّ واجتناب التهاون فيها.

تحدّث مؤلّف الكتاب فى الفصل الخامس، وهو الفصل الأخير فى المجلّد الأوّل (۴۴۰- ۴۸۱) عن مقام إبراهيم وفضيلته، وأشار أثناء ذلك إلى قيام إبراهيم فى المقام، والأثر الذى يمكن مشاهدته عليه، والجلوس خلف مَقام إبراهيم والصلاة فيه، والبيعة بين الركن والمقام وسوى ذلك من الأمور الأخرى المتعلّقة فيه. ويضم هذا الفصل بين ثناياه نُصوصاً تاريخية على قدر كبير من الأهمية. ويلاحظ فى هذا الفصل وجود أحاديث تتحدث عن الإمام المهدى (عج) من جملتها الرواية التالية:

«يبايع المهدى بين الحجر والمقام على عدّة أهل بدر، ثلاثمائة وثلاثة عشر» (۱).

يتناول الفصل السادس (ج ۲، ۵- ۸۶) بئر زمزم وكيفيته وتاريخه والفصول التاريخية التى تناوبته على مرّ الزمن. يركّز هذا الفصل على النمط الذى يتمّ به حفر بئر زمزم للمرّة الأولى، وطريقة الاستفادة منه فى الأدوار التاريخية المتعاقبة. وفيه أيضاً نصوص وأخبار عن قدسيّة ماء زمزم عند الشعوب، وسقيه وحمله للمرضى للاستشفاء به. وفى هذا الفصل أيضاً وردت أسماء زمزم والعيون المتكونة منه وكيفية البناء عليه. ومن الأخبار التى يمكن العثور عليها فى هذا الفصل هى الأخبار المتعلّقة ببئر زمزم ومكانته، ومن الذى كان يتولى أمره والحفاظ عليه على مرّ الدهر وتعاقب الدول. تندرج المواضيع والأخبار المختصّة بزمزم خلال الأدوار التاريخية تحت ۱۹ عنواناً يضم ۱۲۹ حديثاً وخبراً. فقد كان لزمزم وكيفية الاستسقاء منه على مرّ التاريخ دورٌ لا يُستهان به فى بناء التركيب السياسى والاجتماعى لنظام القبيلة فى تلك الربوع آنذاك. وتشتمل تلك الأخبار على مواضيع مهمّة عن أهمية ودور ذلك المقام فى المسائل المذكورة.

ويُعدّ الفصل السابع (ج ۲، ۸۶- ۲۰۹) من الفصول المهمّة فى الكتاب. يشرح هذا الفصل ما يتعلق بالمسجد الحرام وفضله وأحكامه. وفيه أيضاً ذكر للحدود الدقيقة لأبعاده والصورة التى كان عليها بناؤه الأول، وما أُضيف عليه إلى عهد الفاكهى، ومن المواضيع المهمّة التى وردت فى هذا الفصل هى الصلاة فى المسجد الحرام وأحكامها والنوم فيه، والآراء التى طرحها علماء وفقهاء ذلك العصر، وكذلك كيفية استفادة المسلمين من المسجد الحرام فى ذلك اليوم.

وفضيلة الأذان، والمؤذن الذى عُيّن فيه. وتحدّث كذلك عن حكم الاعتكاف، وما يجوز وما لا يجوز فيه من أنواع التصرّفات والأعمال. ثمّ ذكر الإضافات التى ألحقت به وفقاً لترتيبها التاريخى، مع وصف دقيق لبناء المسجد والمسافات والفواصل التى كانت موجودة فى ذلك الحين، مضيفاً إليها ما كان موجوداً من قناديل وزينة ومنائر وبيوت متّصلة به.

وهذا الفصل هو من الفصول التى ينبغى الاهتمام بها؛ نظراً لما يحتويه من مواضيع فقهية وتاريخية واجتماعية مهمّة، كان لها دورها فى تاريخ الإسلام وفى معرفة دور المسجد الحرام فى التحوّلات السياسية التى حصلت فيصدر

۱- ۱ أخبار مكّة، للفاكهى، ۱: ۴۷۰.

ص: ۱۹۲

الإسلام.

وتطرق الفصل الثامن من الكتاب إلى موضوع السعى بين الصفا والمروة، وما ورد فى التاريخ بشأن هذين الجبلين، والبداية والنهاية المفروضة للسعى بينهما والأحكام والحدود الخاصة بهما.

ورد فى هذا الفصل ۱۶ بحثاً و ۱۷ حديثاً كلها مخصصة لوصف البناء الذى كان قد أُقيم فوق الفسحة الفاصلة بين الصفا والمروة، والدور التى كانت متّصلة به، وطواف أهل الجاهلية والأشعار والأقوال التى كانوا يردّدونها أثناء السعى، والأصنام التى كانت موضوعة على الصفا والمروة، والمسافة الفاصلة بينهما، إن لنصوص هذا الفصل أهمية خاصّة من الوجهة التاريخية؛ لأنها تعين على معرفة بعض آداب ومعتقدات العصر الجاهلى وأحد مظاهره العبادية المتمثّلة بالسعى بين الصفا والمروة.

ويُعَدّ الفصل التاسع (ج ۲، ۲۴۶- ۳۸۵ و ج ۳، ۱- ۱۴۹) من الفصول الطويلة فى الكتاب ويحوز أهمية قصوى بسبب ما يتضمنه من ترسيم لحدود الحرم، وكيفية تحريم الحرم ونصب العلائم الدّالة على تلك الحدود وتغييرها على مرّ التاريخ، ومن ثم ذكره لأسماء مكّة، والخلفاء الذين سكنوها والصحابة الذين توفّوا فيها. وقد ورد فى هذا الفصل ذكر مجاورة مكّة وفضل الصبر على البلايا والمكاره التى تحفّ بمن يختار سكناها.

يحتل هذا الفصل مكانة هامّة بين فصول الكتاب، فهو يتحدث عن قيام عبد اللَّه بن الزبير ومعاركه، وما جرى فيها على أهل مكّة؛ ولهذا فهو مفيد من الناحية السياسية والاجتماعية والثقافية.

واختصّت الصفحات الأُخرى فى هذا الفصل لتبيان الحوادث الطبيعية والوقائع السياسيّة التى شهدتها مكّة، والآداب والسُنن التى تطبع ساكنيها. وفيه أيضاً أخبار مثيرة وجذّابة عن الحفلات ومجالس الأنس والشراب والطرب التى دأب الناس على إقامتها فيها.

ويضمّ هذا الفصل بين طيّاته أيضاً أخباراً عن مكّة وأهلها فى نظر الآخرين، والأهمية والقداسة التى كانت توليها بقية المدن والأمصار والقبائل لأهل مكّة، والأشعار التى وصفوهم بها، وأخباراً أخرى عن الزهاد والقُضاة والعلماء والعباد والأمراء الذين عاشوا فيها، والكيفية التى كان أهل مكّة يقرأون بها القرآن وآداب ختمه عندهم، والطريقة التى كانوا يلتبون بها حين وصولهم إلى «والضحى» عند قراءة القرآن.

وجاء فيصفحات الكتاب الأخرى ذكر جدّة وأحوالها وأخبارها، وفضيلة الموت فيها، وكذلك أشار إلى «البطحاء» و «الأبطح» وموقعها الدقيق فى مكّة، وذكر من كانت أسماؤهم وكناهم على اسم الرسولصلى الله عليه و آله و سلم وكنيته من أهل مكة.

ينتهى هذا الفصل بذكر الخطب التى ألقيت فى اجتماعات مكّة، كخطبة أبى ذر، وعتبة بن سفيان، والحجّاج بن يوسف، وداود بن على بن عبد اللَّه و ... الخ وهى خطب تفضى بنا إلى معرفة الكثير من الأحوال السياسية والأوضاع الاجتماعية التى كانت سائدة آنذاك.

أما الفصل العاشر (ج ۲، ۱۵۷- ۲۰۸) فهو تحت عنوان «باب جامع من أخبار مكّة فى الإسلام» ويختص بذكر الأخبار والمواضيع حول إدارة مكّة فى الجاهلية والإسلام، وفيه عناوين فرعية نذكر فيما يلى بعضها على سبيل المثال وهى: ولاة مكّة من الذين ماتوا فيها، ولاة مكّة من قريش وسواها وبعض أعمالهم وسيرتهم، قضاة مكّة من قُرشيّ الطائف، وسكن قبيلة ثقيف فيها ... الخ.

الفصل الحادى عشر (۲۰۸- ۲۴۳) وهو فصل قصير إلّاأنه طريف وحرىّ بأن يُقرأ، وقد جرى فيه الحديث عن الأوائل فى مكّة من أمثال: إنَّ أوّل من ضرب الدينار والدرهم هو آدم (۳: ۲۰۸)، وإنَّ أوّل من اتّخذ للخطابة منبراً هو إبراهيم (۳: ۲۰۹) و ... الخ. وقد كتب محقّق الكتاب عن هذا الفصل ما يلى:

يُعَدُّ هذا الفصل من الفصول الطريفة والمهمّة فى كتاب الفاكهى، فقد بذل جُهداً واسعاً فى جمعه وترتيبه، وهو ما يؤشر على سعة اطّلاعه ومراجعته لمختلف المصادر. فالفاكهى هو الوحيد من بين مؤرّخى مكّة الذى عالج هذا الموضوع، وقد نقل فى هذا الفصل ۶۲

حديثاً وخبراً (۱).

الفصل الثانى عشر (۲۴۳- ۲۵۹) وهو أيضاً فصل قصير تطرق فيه للأحكام الشرعية للبيع والإجارة وامتلاك البيوت فى مكّة وبناء البيوت فيها. وتحدّث فيه أيضاً عمَّن يتمكّن من بناء دار هناك والسكن فيها، وعَمَّن لا يتمكن من الإقامة فيها، وجاء كل ذلك فى ۴۱ حديثاً ونصّاً.

الفصل الثالث عشر (ج ۳، ۲۸۳- ۳۵۳) وهو من الفصول الطويلة والمهمة فى هذا الكتاب، فهو يزوّدنا بمعلومات مهمّة ودقيقة عن القبائل والبطون التى سكنت مكّة، وعن الجوانب المتعلّقة بالحياة الاجتماعية والقبلية التى كانت سائدة فى تلك الربوع آنذاك.

وجاء فى هذا الفصل على ذكر حارات مكّة وأحيائها وأجواء الحياة القبلية فيها، وأسماء الدور والأحداث التاريخية التى شهدتها مكّة فى ذلك الزمن، وكلّها مواضيع جذّابة وتستحق القراءة، وذكر فيه أوّل من قسّم الأراضى على القبائل وجعل لكلّ بطن محلّة خاصة بها، وفَصل بيوت كلّ قبيلة وحدودها، فهو قد ذكر على سبيل المثال بيوت أبناء عبد المطلب بشكل دقيق (ج ۳، ۲۶۳- ۳۰۳). وقد وردت فى طيات الكتاب نصوص ومعلومات تاريخية جمّة منها الحوادث التى وقعت فى هذه الأحياء والبيوت، وعقود البيع والشراء التى حصلت فيما بينهم، ومن تحالف مع هذه الأحياء والدور، والأمور التى تصدّى لها وجوه القوم والشخصيات البارزة لتلك القبائل والبطون.

يُختتم الجزء الثالث بالفصل الرابع عشر (۳۵۳- ۳۹۲)، ويضمّ معلومات دقيقة عن حدود مكّة وتهامة، وحكم طرد المسلم من مكّة، وحكم القاتل الذى التجأ إلى الحرم، والأشجار التى يجوز قطعها فى الحرم والاستفادة منها، وحكم الصيد فى الحرم ومقدار كفّارته، والحيوانات التى يجوز قتلها فى الحرم و ... الخ.

وجاء فى الفصل الخامس عشر (ج ۴، ۵- ۹۶) ذكر الأماكن التى تُستحب فيها الصلاة، وهى بعض المساجد من أمثال: المسجد الموجود فى «دار الأرقم»، ومسجد فى «عرفة»، و «مسجد الكبش»، و «مسجد البيعة»، و «مسجد ذى طُوى»، ومسجد فى «جبل النور» «جبل حراء»، ومسجد قرب شعب أبى طالب و ... الخ. وذكر فيه أيضاً مقبرة مكّة فى زمن الجاهلية، ومقبرة المهاجرين، وآثار النبى والصحابة، واستعرض أيضاً جبال وبقاع مكّة.

وبمناسبة ذكر القبور، أورد روايات مهمّة بشأن زيارتها، من جملتها:

قال رسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم: «زوروا القبور فإنّها تذكركم الموت» (۲).

وأشار فى هذا الفصل أيضاً إلى وادى «محصّب» (۳) وحدوده والنصوص الواردة بشأنه، وأورد الإشارة هنا إلى أنّ «محصّب» أرض واقعة على مسير مكّة باتجاه منى وهنالك اختلاف فى تحديد حدودها، ويَعدُّ أهلُ السُنّة قيامَ الليل فيها بعد العودة من منى، مستحباً.

يتولى الفصل السادس عشر (ج ۴، ۹۶- ۱۲۸) الحديث عمّا كان فى مكّة من آبار وعيون وبُرَك وأحواض فى زمن الجاهلية والإسلام، وهو فصل يسترعى الاهتمام بسبب ما يحتويه من لمحات اقتصادية واجتماعية، وفيه إجابات مفصّلة عن الأسئلة المطروحة بشأن الأشخاص الذين فطروا تلك الآبار والعيون، وكيفية استثمار الناس لتلك الينابيع؛ وما هى الدوافع والمقاصد التى كانت وراء حفر تلك الآبار؟ وما هى مكانة القبائل أو الأشخاص الذين كانوا يبادرون لمثل هذه الأعمال؟ وما هى أهميّة بئر زمزم بين كل تلك الآبار؟ وما هى الآبار التى تمّ حفرها، والينابيع التى استُثمرت، والعيون التى تدفقت بعد انبثاق الإسلام؟ وتجدر الإشارة إلى أن كل ذلك جاء منظوماً على هيئة الأشعار والقصص التى تحكى كيفية الاستفادة من تلك المصادر المائية، وهى مفيدة لمن أراد التعرّف على الآداب والرسوم والسنن التى كانت سائدة فى العصر الجاهلى فى محيط مكّة.

ركّز الفصل السابع عشر (ج ۴، ۱۲۹- ۲۴۶) على ذكر الطرق والشوارع والوديان ومجارى السيل والأماكن التاريخية التى كانت قائمة فى مكّة، والمداخل والمخارج والجبال المتصلة بالحرم، والأماكن التاريخية التى دارت فوقها الأحداث والوقائع المهمة.

وكما ذكرنا مراراً بأنّ الفاكهى لم يكتف بذكر الأماكن والأحداث، بل كان يبين كل ما يمت إلى ذلك الموضوع بصلة. فهو قد ذكر

على سبيل المثال قمّة أحد الجبال بمناسبة حديثه عن الجبال، وقال: إنها تُنسب إلى أحد المكيين، وأشار أيضاً إلى ذهاب النبيّصلى الله عليه و آله و سلم إلى ذلك المكان وما حصل فيه من مبايعة الرجال والنساء له، ووصف ذلك الموقف بالتفصيل ذاكراً ما جرى فيه بالشكل التالى:

أخبرنى عبد اللَّه بن عثمان بن خُثَيم، أن محمد بن الأسود بن خلف أخبره، أنّ أباه الأسود حضر النبيّصلى الله عليه و آله و سلم يبايع الناس يوم الفتح، قال: جلس عند قرن مصقلة.

قال: وقرن مصقلة الذى إليه بيوت ابن أبى ثُمامة، وهى دار ابن سُمرة، وما حولها.

قال الأسود: فرأيتُ النبيصلى الله عليه و آله و سلم جلس إليه، فجاءه الناسُ الصغار والكبار، والرجال والنساء، يبايعونه على الإسلام والشهادة. قال: قلتُ: وما الشهادة؟ قال: أخبرنى محمد بن الأسود أنّهصلى الله عليه و آله و سلم بايعهم على الإيمان باللَّه، والشهادة: لا إله إلّااللَّه (۴).

كتب فى هذا الفصل أيضاً- وبمناسبة الحديث عن «شعب البيعة» عن بيعة العقبة، وأسهب فى وصف من شهدها وكيفية حصول تلك الواقعة وما جرى خلالها، ولا يخلو هذا الموضوع من الأهمية بسبب ما يحتويه من جوانب تاريخية مهمّة تساعد على معرفة الظروف التى سهّلت هجرة الرسولصلى الله عليه و آله و سلم إلى المدينة المنوّرة.

خصص الفصل الثامن عشر (۲۴۶- ۳۱۱) للحديث عن منى وما يتعلق بها، وما لها من فضيلة ومكانة، وحدودها وأحكامها، وكيفية رمى الجمرات، والطرق المؤدّية إليها. ومنازل النبىّ والخلفاء فيها، ومسجد خيف وما يمتاز به من فضائل، والمواضيع المتعلّقة به كالعبادة وقيام الليل فيه، وكذلك أحكام رمى الجمرات، وما جاء فى أدب العرب عن منى وما يرتبط بها.

ومن المواضيع الأخرى التى تطرّق إليها هذا الفصل هو مسجد «الكبش» وفضيلته والأخبار التى وردت فيه، وأوّل من رمى الجمرات، ورمى جمار إبراهيم عليه السلام باعتبارها سُنّة قديمة، والدعاء والذكر أثناء الرمى، واسم مقبرة منى، وأوّل من نصبصنماً فى هذه البقعة، ومساحة مُنى ومدى طولها وعرضها، ومساحة مسجدها.

ينتهى المجلد الرابع بالفصل التاسع عشر (۳۱۱- ۳۲۹) وفيه جرى التركيز على المزدلفة، ووجه تسميتها، وفضيلتها، وأحكامها، والطرق المؤدّية إليها. وتحدّث هذا الفصل أيضاً عن قُزَح (وهو جبل قليل الإرتفاع فى جنوب شرقى مزدلفة ويشرف على مسجد المشعر الحرام) والمشعر الحرام ومسجد المشعر الحرام، والمسافة الفاصلة بينه وبين عرفات. تتسم النُصوص والمعلومات الواردة فى هذا الفصل بالدقّة والطرافة والأهمية.

أما الفصل العشرون من الكتاب (ج ۵، ۵- ۵۴) فهو مكرّس للحديث عن عرفة وحدودها وفضيلتها وأحكامها، ووصف مسجدها، وفضيلة الدعاء فى عرفة والصوم فيها، ووقوف النبىّ فيها قبل وبعد الهجرة. وتولى هذا الفصل أيضاً بيان سبب تسمية تلك الأرض باسم عرفة، ووصف منبرها والبعد الفاصل بينه وبين المسجد الحرام، وذكر بالمناسبة قبر «ميمونة» زوجة رسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم ومحلّه فى أطراف مكّة.

الفصل الحادى والعشرون (۵۷- ۱۰۶) وهو الفصل الأخير من الكتاب، ويبيّن بعض الأماكن المعروفة الواقعة على مقربة من مكّة من أمثال مسجد التنعيم وما له من فضائل وما ورد فيه من أخبار، ومسجد الجعرانة، ومسجد الحديبية، وأخبار عن عدد العمرات التى أدّاها النبيُّصلى الله عليه و آله و سلم. والمدن والقرى الواقعة فى أطراف مكّة التى كانت تتبع سلطة والى مكّة، والمناطق التى وطأتها أقدام النبىّ وأصحابه فى الغزوات و ... الخ.

إنّ نظرة سريعة على الفصول الذهبية لكتاب الفاكهى تظهر لنا وبكلّ وضوح مدى الأهمية والمنزلة السامية التى يحتلّها هذا الكتاب فى تاريخ الإسلام ومكّة، ودوره فى التعرّف على الحوادث التى وقعت فيصدر الإسلام. ولا يقتصر كتاب الفاكهى على سرد تاريخ مكّة فحسب، بل ويتعدّاه أيضاً إلى تدوين تاريخ السياسة والثقافة والأدب والاعتقادات والسُنَن التى كانت سائدة فى مكّة أثناء العصر

الجاهلى، وبداية ظهور الإسلام. إن استقراء الجوانب المختلفة لذلك الكتاب تظهر لنا وبكلّ وضوح بأنّه كتاب لا يستغنى عنه أىُّ محقّق أو مؤرّخ أو فقيه أو مفسّر أو محدّث أو باحث راغب فى إدراك حقائق الإسلام عن طريق البحث والدراسة.

وكما ذكرنا سابقاً فإن الفاكهى لم يبوّب الكتاب، والفصول الآنفة على أساس التقسين الذى أوجده المحقّق الجاد والبارع للكتاب.

ملحقات الكتاب:

سبقت منّا الإشارة إلى أنّ ما استعرضناه من كتاب الفاكهى يمثل الجزء الثانى منه. وقد تولّى محقّق الكتاب عملية استخراج الجزء الأوّل منه، من المصادر المختلفة وأعادصياغتها بالشكل والترتيب الذى نستعرضه فيما يلى على شكل ملحقات:

يتركز الحديث فى الملحق الأوّل على كيفية مجىء إبراهيم عليه السلام إلى مكّة، وقصّة بئر زمزم، وذبح إسماعيل. ومما يلفت الانتباه أن الفاكهى فى بحثه هنا يريد أن يثبت أن الذبيح هو إسماعيل وليس إسحاق وينبه إلى نفوذ النصوص المحرّفة لأهل الكتاب وتسلل الإسرائيليات إلى المصادر والمؤلفات الإسلامية.

تتحدّث النصوص الواردة فى هذا الملحق أيضاً عن زواج إسماعيل بامرأة من العمالقة وكيفية مجىء بعض القبائل إلى مكّة، والسبب فى تسمية أُولئك القوم بالعمالقة. والأخبار التى تبيّن تاريخهم العريق، وتذكر بعض القبائل التى سكنت تلك البقاع وبعض العادات والتقاليد التى كانت تطبع حياتهم الاجتماعية.

إضافة إلى ذلك ورد فيه ذكر الحروب والأيام التاريخية الهامّة التى مرّت بهم، و «النسىء» ومن كان مسؤولًا عنه، وأوّل من بَنى الكعبة والكيفية التى كان عليها البناء ووضع الحجر الأسود، وتطوّر بناء الكعبة بعد الإسلام حتّى زمن الفاكهى وغير ذلك من المواضيع.

إشتمل الملحق الثانى على بعض الرسومات التى أوردها المحقّق نقلًا عمّا كان الفاكهى قد عرضه فى كتابه، وهى رسومات تصوّر بعض المناطق والأماكن المشهورة مع ايضاحات لأوضاعها، وبهذه الصورة يبيّن الترابط بين الماضى التاريخى لها وحاضرها المشرق.

يضمّ الملحق الثالث خرائط توضيحية عن مكّة والأطراف المحيطة بها، وهى تعكس وضع مكّة وما كانت عليه فى ذلك الزمن، ومن جملة ما تضمّنته تلك الخرائط ما يلى:

۱- مكّة فى القرن الثالث للهجرة.

۲- أشهر الدور والأماكن والجبال فيها.

۳- الآبار التى كانت فيها آنذاك.

۴- الينابيع والأحواض والبرك والصهاريج.

۵- الجدران والأسوار والقلاع.

۶- الطرق الرئيسة فى مكّة، والمضائق والمنعطفات والطرق الجبلية والمقابر.

۷- الأماكن التاريخية والمساجد.

۸- رسوم دقيقة لبناء الكعبة، والمسجد الحرام وما يحيط به فى العام ۲۷۲ للهجرة فى عهد خلافة المهدى العبّاسىّ.

بهذه اللمحة الوجيزة تنتهى مضامين هذا الكتاب القيم الذى تولّى المحقّق دراسته وتحقيقة بأسلوب منهجى شامل ومتين.

أُسلوب الفاكهى فى تدوين الكتاب ونقل النصوص:

اتّضح لنا- من خلال الخلاصة التى استعرضناها لموضوع الكتاب- الأُسلوب الذى اتبعه الفاكهى فى تحريره.

ونحاول فيما يلى التوسع فى شرح هذا الموضوع. فهذا الكتاب يحتوى على ما يقارب الثلاثة آلاف حديث ونصّ وروايةً، وقد وردت جميعها مؤيّدة بأسانيدها: وقد راعى المؤلف فى نقله لتلك الأحاديث جميعَ الأصول المتّبعة فى النقل والرواية وبشكل دقيق. فهو يصرّح أحياناً بأنه سمع الحديث (ج ۳، ۲۲۲)، ويشير فى أماكن أُخرى بأنّه قد استقاه من مصدر آخر وعرضه على «شيخه فى الحديث»، ويظهر فى أحيان أُخرى بأنه نقل النص «إجازةً» (ج ۳، ۱۷۴). ويضيف فى بعض المواضع قرائن أخرى لعملية النقل ليثبت

أن سَماعهُ كان قطعياً (ج ۵، ۱۴ الرقم ۲۷۳۳)، ويذكر أحياناً المكان الذى سمع فيه الحديث (ج ۳، ۱۳۴- ج ۲، ۱۳۵) وإذا شكّ بكلمة فى الحديث فإنّه يشير إليها (ج ۲، ۱۱۱). ويصرّح كذلك بذكر المحدثين الذين رآهم وكانوا واسطة له فى نقل جميع هذه الروايات (ج ۲، ۳۰۳).

وإذا ورد أىُّ تصحيف فى نصّ الحديث فهو يصرّح به، ويشير إليه مذكّراً به بعد نقل الحديث (ج ۳، ۳۴- ج ۴، ۳۰).

وهو مع كل هذا يعطى رأيه فى بعض الأوقات فى كيفية الحديث وصحّته أو سقمه (ج ۳، ۱۶۰).

ومن بعد هذا يَحسُن بنا القول بأنَّ الفاكهى قد ولد بمدينة مكّة، ونما وترعرع بين ربوعها، وعلى هذا فإن القسم الأعظم من الكتاب يتألّف من أوصاف وتصاوير تمّت مشاهدتُها عياناً ومن غير واسطة، وقائمة على الدقّة والأمانة.

ولم يكتف المؤلف بنقل الآثار والأخبار بل إنّه نقدها وأعطى رأيه فيها بعد دراسته وتمحيصه لها. وتتجلّى هذه المسألة على أشدّها فى البحوث الفقهية، ولا سيما تلك المتعلّقة منها بالطواف والسعى والإحرام والوقوف فى عرفة وتحديد مواقع وحدود الأماكن المقدّسة والتاريخية.

وللأدب العربى فى هذا الكتاب أيضاً مكانته الرفيعة والمرموقة. فهو يستعرض الأشعار العربية فى المناسبات المختلفة، ويكون بهذا قد مزج بحوث الكتاب بصبغة الأدب العربى وخلّف وراءه أثراً أدبياً طريفاً. ومن الأوجه الأخرى التى تستوجب الثناء فى كتاب الفاكهى هو تنوّع المآخذ وتعدد مصادر النقل. وإلى جانب كل هذا ينبغى القول: إنّه قد بذل جهداً مضنياً فى جمع وتبويب الأخبار، ونقل الأسانيد بدقّة متناهية لكى يبقى الأبواب مُشرعة أمام المحقّقين اللاحقين لنقد وتقييم الأُسلوب الذى اتّبعه فى نقله.

مؤلف الكتاب:

هو محمّد بن اسحاق بن العباس الفاكهى من العلماء والمؤرخين والمحدّثين فى القرن الثالث الهجرى. لا توجد معلومات دقيقة عن سَنَة ولادته، ويحتمل محقّق الكتاب أن تكون سنة ولادته ما بين عام ۲۱۵- ۲۲۰ فى مدينة مكّة، ونشأ وترعرع فيها وبدأ دراسته فيها أيضاً؛ فأخذ العلم عن مشايخ مكّة، ولم يقف عند هذا الحد بل سافر إلى البلدان الأخرى لكسب المعرفة وتعميق ما ناله من العلوم. ومن جملة البلدان التى سافر إليها بغداد والكوفة وصنعاء، وحضر فى حلقات العلم التى كان يعقدها مشايخها وعلماؤها وأخذ عنهم العلم والمعرفة.

كانت له فى مكّة مكانة اجتماعية مرموقة، وهذه الحقيقة يمكن استنتاجها من بين ثنايا النصوص التى أوردها فى كتابه، فهو يدوّن فى بعض الأحيان أحداثاً، ويصف مواضع ومواقف لا يتيسّر للمحدّث العادى الوصول إليها. ومن القرائن الأخرى الدالّة على سموّ مكانته هى الأخبار التى أوردها، وتحدّثَ فيها عن المراسلات التى كانت تجرى بين الأمراء ووصفه الدقيق لها.

أحصى محقّق الكتاب ۲۳۱ شيخاً من مشايخ الفاكهى وذلك استناداً إلى ما ورد من أخبار ونصوص فى «أخبار مكّة» (ج ۱، ۱۹- ۲۹)، وهذا يدلّ على سعيه الحثيث ونشاطه الدؤوب من أجل تحصيل العلم وتوسيع دائرة معارفه.

تاريخ وفاة الفاكهى مجهول أيضاً. يقول محمد بن أحمد بن على الفاسى: «لا أعلم سنة وفاته، إلا أنه كان فى العام ۲۷۲ حيّاً قطعاً (۵). وقد نقل قول الفاسى هذا الكثير من كُتّاب السيرة واعتمدوا عليه (۶). ويرى البغدادى أنه توفى عام ۲۸۵ من غير ذكر أىّ مصدر موثوق لهذا القول (۷).

أما محقّق الكتاب فيرجّح- ومن خلال دراسته وتدقيقه فى الأخبار والنصوص التى أوردها الفاكهى فى كتابه- أنّ سنة وفاته كانت بين عام (۲۷۲) وعام (۲۷۹).

تحقيق الكتاب:

تولى تحقيق الكتاب وتنقيحه عبد الملك بن عبد اللّه بن دهيش وهو من الكُتاب والفضلاء السعوديين. ونشره فى ۶ أجزاء مزوّدة بالهوامش التفصيلية. الأجزاء من (۱- ۵) هى نصّ الكتاب وملحقاته، أما الجزء السادس فهو مختص بالفهارس. ويُعَدّ تحقيق هذا

الكتاب واحداً من الأمثلة الرائعة التى يُحتذى بها فى التحقيق العلمى للنصوص القديمة.

ونحاول إنهاء هذه المقالة بإلقاء نظرة سريعة على النمط الذى اقتفاه فى تحقيقه لهذا الكتاب:

۱- نصُّ الكتاب:

لقد قام المحقّق بتنقيح الكتاب على أساس النسخة الوحيدة الموجودة منه، وقابل هذه النسخة مع مصادر الكتاب، ومع الكتب الأخرى التى ألّفها معاصروه أو اللّاحقون من العلماء، وتضمنت كتبهم شيئاً مما نقلوه عنه، أو كان فيها مواضيع مشابهة لمواضيع كتابه؛ وذلك لغرض الحصول على نصّ سليم ودقيق. وقد ثبت فى النصِّ كلَّ ما رآهصواباً بعدَ أن بذل جهداً حثيثاً وتحقيقاً مناسباً ودقيقاً فى مقارنة النسخة الموجودة مع ما ذكرنا من مصادر، وذكر فى الهامش موارد التحريف والتصحيف والأخطاء التى وقعت فى النسخة الخطيّة. وصحّح أسانيد الكتاب بمراجعة لكتب الرجال، وهذّبها من كل ما لحق بها من تحريف وسقطات وتصحيف، فشخص الحديث بدقّة وذكره كما هو، إن كانصحيحاً أو ضعيفاً أو ما شابه ذلك. وخرّج كل ما حواه الكتاب من أشعار وأخبار وأحاديث وآثار وحدّد أماكنها بالدقّة فى مصادرها.

۲- الهوامش:

ذكر المحقّق فى الهوامش مصادر النقل بدقّة، وأشار فيما إذا كانت هذه الروايات والأخبار لها نظائر فى المصادر، وكان أحياناً يشير بإيجاز إلى شخصية الراوى، ويشير إلى موقعه بين رجال الحديث. وإن كانت الوقائع والحوادث والأماكن غير واضحة الدلالة فى النصِّ ومذكورة فيه باختصار، فإنّه يوضّحها ويُبيّن دلالتها بدقّة ويُصحّح أخطاء المحقّقين فى هذا المجال إن وُجدت، إضافةً إلى أنّه كان يوضّح غامض الكلمات.

۳- الفهارس:

خصّص المحقّق المجلد السادس للفهارس الفنيّة للكتاب، وأورد فيه فهارس للآيات والأحاديث، والأعلام، والأشعار، والأماكن، والمصادر، والمواضيع. فقد رتّب الأحاديث فى فهرسها الخاص على أساس الحروف الأبجدية ومن ثم ذكر الراوى وموضعه فى الكتاب.

وقسّم أيضاً فهرس الأعلام إلى الأقسام التالية:

۱- فهرس الرواة؛ وحدّد فى هذا الفهرس مشايخ الفاكهى بالحرف (ش).

۲- فهرس الرجال والأعلام الذين وردت أسماؤهم فى الكتاب من غير الرواة.

۳- فهرس أصحاب الحرف.

۴- فهرس القبائل والأقوام.

ورتّب أيضاً فهرس مواضيع الكتاب متسلسلة وفقاً لحروفها الأبجدية. ونظم فى الفهرس كلَّ المواضيع والأماكن والحوادث التى ورد لها ذكر فى الكتاب. وأتى فى فهرس الأشعار على ذكر الأشعار أوّلًا ثم ذكر من بعدها القافية واسم الشاعر.

أما فهرس المراجع فقد حدّد فيه بدقّة المصادر والمراجع التى اعتمد عليها. وأورد فى خاتمة الكتاب فهرساً عاماً لمواضيع المجلّدات الخمسة.

۴- مقدّمة الكتاب:

افتتح المحقّق الكتاب بمقدّمة تحقيقية مطوّلة ومفيدة ضمّنها شرحاً لسيرة المؤلف وشيوخه وتلاميذه.

وقد سبق لنا أن قُلنا: بعدم توفّر معلومات وافية عن سيرة المؤلف فى كتب السيرة. وقد تحدّث المحقّق- بشكل مفصّل ومن خلال التمعّن فى نصوص الكتاب- عن سيرته والتاريخ التقريبى لولادته ووفاته، وما قام به من رحلات فى طلب العلم، وعن مكانته العلمية والاجتماعية فى القرن الثالث للهجرة، ومشايخه وتلاميذه. ثم انتقل إلى الكلام عن كتاب الفاكهى، فأبرز أهميته، وذكر المصادر

والمراجع التى عوّل عليها الفاكهى، وأوضح مدى التأثير الذى خلّفه فى آثار مَن جاء بعده.

وبيّن فى ختام مقدّمته الأسلوب الذى اقتفاه فى دراسة الكتاب وتحقيقه وتنقيحه. إنّ تحقيق هذا الكتاب يمثّل نموذجاً ملموساً للتحقيق العلمى والمتعمّق والواسع والدقيق.

الهوامش:

الإخلاص فى الحج

«الإخلاص فى الحج»

عادل العلوى

قال اللّه تعالى فى كتابه الكريم:

«وما أُمروا إلّاليعبدوا اللّه مخلصين له الدين ...» (۸).

لقد خلق اللّه الإنسان فى أحسن تقويم، وتمدّح بخلقه فى قوله تعالى: «فتبارك اللّه أَحسن الخالقين» (۹) وركّبه من سرّ وعلن، وروح وبدن. وبدنه من تراب وروحه من أمر ربه «ونفختُ فيه من روحى» (۱۰) فأودعه أسرار خلقه.

جرمهصغير ولكن انطوى فيه العالم الأكبر. فدنا فتدلّى فكان قاب قوسين أو أدنى، فعلّمه الأسماء الحسنى وفهّمه البيان الأتم، وأناله اللّه تعالى بخضوعه وعبوديته له المقام الشامخ، فإن العبوديّة جوهرة كنهها الربوبيّة، وأنطقه بأقواله سبحانه ومَن أصدق من اللّه قيلًا، وأصبغه بصبغته ومَن أحسن من اللّهصِبغة، وهداه النجدين:

نجد الخير ونجد الشر، وجعله مختاراً فى سلوك الطريقين إمّا شاكراً وإمّا كفوراً.

وخلق لروحه وبدنه منافيات وملائمات، وآلام ولذّات، ومنجيات ومهلكات، فمنافيات البدن الأمراض والأسقام الجسمانية، وملائماته الصحة واللّذات الجسمانية، والمتكفّل ببيان تفاصيل هذه الأمراض، وكيفية علاجها هو علم الطب، ومنافيات الروح وآلامه هى رذائل الأخلاق وذمائمها التى تهلكه وتشقيه، وترديه وتهويه إلى أسفل السافلين، فيكون كالأنعام بل أضل سبيلًا، وقلبه كالحجارة بل أشدّ قسوة. والمتكفّل ببيان هذه الرذائل الأخلاقية ومعالجاتها هو (علم الأخلاق).

أماصحة الروح فتتمّ برجوعها إلى فضائل الأخلاق ومحامدها التى تُنجيه وتُسعده فى الدارين، وتأخذ بيديه إلى مجاورة أهل الحقّ عند مليك مقتدر فى مقعدصدق.

وإنما بعث اللّه رسوله خاتم النبيين محمدصلى الله عليه و آله و سلم ليتمّم مكارم الأخلاق، فقالصلى الله عليه و آله و سلم: «إنّما بعثتُ لأُتمم مكارم الأخلاق» وقد مدحه ربّه فى قوله تعالى: «وإنك لعلى خلق عظيم» (۱۱). وقد أقسم فى سورة الشمس بأحد عشر قسماً أنه «قد أفلح من زكّاها وقد خاب من دسّاها» حتى قيل أوجب الواجبات الأخلاق الحسنة والمحمودة.

ثم البدن مادىّ فانٍ، وكل من على الأرض فان. والروح مجرد باق، وإذا اتّصفت بشرائف الأخلاق كانت منعّمة فى السعادة الأبدية، وإن اتّصفت برذائلها كانت فى الشقوة والعذاب مخلّدةً.

فعلى المرء الواعى أن يهذّب نفسه، ويزكّى أخلاقه، ويعالج أمراضه، قبل فوات الأوان. كما أن المريض ينبغى له أن يعالج بدنه وصحته. وكلُّ شىءٍ إنما يعالج بضدّه، فإن علاج اليابس بالرطب، والرطب باليابس، والحار بالبارد والبارد بالحار، وهكذا أمراض الأخلاق، فإن الجهل يُعالج بالعلم، والبخل بالسخاء، والكبر بالتواضع، والشّره بالكفّ عن الشهوات، ومرض الرياء بالإخلاص. وإن كان ذلك كلّه يستلزم التكلّف والمرارة، فإنّ مَن أراد أن يعالج مرض بدنه عليه أن يتحمّل مرارة الدواء، وأن يصبر عن المشتهيات، وكذلك الروح حيث يُريد الإنسان علاجها فلابد له من احتمال مرارة المجاهدة وشدّة الصبر الذى هو سيّد الأخلاق. فيصبر على فعل الطاعات والعبادات، وترك المعاصى والآثام، ليداوى بالصبر أمراض القلوب. وإن علاجها أولى من علاج الأبدان، فمرض البدن

يخلص الإنسان منه بالموت، ولكن مرض الروح- والعياذ باللّه- يدوم حتى بعد الموت.

فالحرىّ بمن يخاف على نفسه وقلبه وروحه أن يباشر المعالجة قبل الموت، فإنه سيندم يوم لا ينفعه الندم.

ثم أصل تهذيب النفس وتزكيتها أن يقف الإنسان على حقيقة نفسه، ويرى عيوبها ومهلكاتها. فمن كملت بصيرته وتمّت حذاقته، لم تخف عليه عيوبه. ومن عرف الأمراض والعيوب يسهل عليه التداوى والتخلّص منها. ولكنّ أكثرَ الناس جهلوا عيوب أنفسهم، فيرون القذى فى أعين الآخرين، ولا يرون الجذع فى عيونهم.

ولابدّ من الاعتدال والحكمة فى الأخلاق فهما الصحة للقلب والنفس والروح. أما الميل والانحراف عن حدّ الاعتدال فهما المرض والسقم الذى يخاف منه.

وعلاج النفس لمحو الرذائل والأخلاق الذميمة عنها، يكسبها الفضائل والأخلاق الحميدة، كما أن تخلية القلب من الأهواء والأمراض النفسيّة، وتحلّيه هو الآخر بالأخلاق الفاضلة، يجعل الروح أكثر جلاءً، ويصقلها حتى تكون كالمرآة تنطبع فيها أسرار اللّه وكونه.

ثم الغالب على أصل المزاج البدنى هو الاعتدال، وإنما تعتريه العلل المغيرة بعوارض الأغذية والأهوية والأحوال. وكذلك الروح، فكل مولود يولد على الفطرة المعتدلة الصحيحة، وإنما أبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه، فالمحيط والتربية والتعلّم والتعوّد لها الأثر البالغ فى اكتساب الإنسان الرذائل والآثام.

ولما كان البدن فى ابتداء خلقه لم يخلق كاملًا، وإنما ينمو ويكمل وتقوى القوى فيه بالنشوء والتربية بالغذاء والماء، فكذلك النفس تخلق ناقصة، إلا أنها قابلة للتكامل المنشود فى جبلته، والذى خُلق الإنسان من أجله، يصل الإنسان بجهده وجهاده إلى كماله، وأن يكون مظهراً لأسماء اللّه وصفاته. وتكمل هذه النفس بالتزكية وتهذيب الأخلاق، وتغذيتها بالعلم النافع والعمل الصالح والإيمان الراسخ.

وإذا كان البدنصحيحاً، فشأن الطبيب حينئذٍ تمهيد القانون وبيانه للصحة والمحافظة عليها، وإن كان البدن مريضاً فشأن الطبيب أيضاً جلب الصحة إليه، فكذلك النفس، فإن كانت سليمة وزكيّة ومهذّبة الأخلاق، فينبغى السعى من أجل حفظها وسلامةصحتها وبقائها، واكتساب زيادةصفائها وجلائها، وإن كانت عديمة الكمال، فاقدة للصفاء الروحى، فينبغى الجهد المتواصل لجلب الصحة النفسيّة إليها. هذا ومن أمراض القلب الخطرة جداً هو الرياء فى النوايا والعمل، فإنّه كدبيب نملة سوداء فى ليلة ظلماء عليصخرةصلداء، فمَن يحسّ بدبيبها؟

وان الرياء من عمل الشيطان الرجيم ليضل الناس ويغويهم «قال فبعزّتك لأغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين» (۱۲).

ويقابل الرياء الإخلاص، «والأعمال بالنيات»- كما ورد فى الخبر- «ولكل امرئ ما نوى»، والنيّة من عمل الجوانح وهو القصد القلبى نحو العمل المقصود اتيانه والمنشود فعله. ولو كانت النية خالصة للّه سبحانه فإنها توجب قبول الأعمال، فإنّ الكلم الطيّب- وهو الذى فيه الإخلاص كما ورد فى الأثر- يصعد إلى اللّه سبحانه، وإنما يتقبّل اللّه من المتقين، والإخلاص أساس التقوى.

قال رسول اللّهصلى الله عليه و آله و سلم: طوبى للمخلصين أولئك مصابيح الهدى، تنجلى عنهم كلّ فتنة ظلماء (۱۳).

وقالصلى الله عليه و آله و سلم: العلماء كلّهم هلكى إلّا العاملون، والعاملون كلّهم هلكى إلّاالمخلصون والمخلصون على خطر.

وقالصلى الله عليه و آله و سلم: إذا عملت عملًا فاعمل للّهخالصاً لأنّه لا يقبل من عباده الأعمال إلا ما كان خالصاً.

وقالصلى الله عليه و آله و سلم: ليست الصلاة قيامك وقعودك إنما الصلاة إخلاصك، وأن تريد بها وجه اللّه.

وقال أمير المؤمنين على عليه السلام:

العمل كلّه هباء إلا ما أُخلص فيه.

وقال عليه السلام: ضاع مَن كان له مقصدٌ غير اللّه.

وقال الإمام الصادق عليه السلام:

ولابدّ للعبد من خالص النيّة فی کلّ حرکة وسکون؛ لأنه إذا لم یکن ذلک منه یکن غافلًا، والغافلون قد وصفهم اللَّه تعالی فقال: «أولئک کالأنعام بل هم أضل سبیلًا» وقال: «أولئک هم الغافلون».

قال اللَّه تعالی عن لسان نبیّه:

«قل إنّی أمرت أن أعبد اللَّه مخلصاً له الدین وأمرت لأن أکون أوّل المسلمین» (۱۴).

قال رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم: إنّ لکل حقّ حقیقة، وما بلغ عبد حقیقة الإخلاص حتی لا یحبّ أن یحمد علی شیء من عمل للَّه.

وقالصلی الله علیه و آله و سلم فی حدیث آخر:

«أما علامة [علامات] الُمخلص فأربع: یسلم قلبه وتسلم جوارحه وبذل خیره وکفّ شرّه.

وعن أمیر المؤمنین علی علیه السلام قال: مَن لم یختلف سرّه وعلانیته، وفعله ومقالته فقد أدّ الأمانة وأخلص العبادة.

قال أبو حامد الغزالی فی إحیاء علوم الدین فی بیان حقیقة الإخلاص- بعد أن ذکر أقوال الشیوخ فیها-:

الأقاویل فی هذا کثیرة ولا فائدة فی تکثیر النقل بعد انکشاف الحقیقة، وإنما البیان الشافی بیان سید الأولین والآخرین، إذ سُئل عن الإخلاص فقال: «هو أن تقول ربّی اللَّه ثم تستقیم کما أُمرت» أی لا تعبد هواک ونفسک ولا تعبد إلا ربّک، وتستقیم فی عبادته کما أمرک- إیاک نعبد وإیاک نستعین- وهذه إشارة إلی قطع کلّ ما سوی اللَّه عزّ وجلّ من مجری النظر وهو الإخلاص حقّاً.

ثم من آثار الإخلاص فی حیاتنا الفردیة والاجتماعیّة، وفی العلمیّة والعملیّة، هو تفجّر ینابیع الحکمة وجریانها من قلب المخلص علی لسانه.

وقال رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم: قال اللَّه عزّ وجلّ: لا أطلّع علی قلب عبد فأعلم منه حبّ الإخلاص لطاعتی لوجهی وابتغاء مرضاتی إلا تولیت تقویمه وسیاسته.

وقال أمیر المؤمنین علی علیه السلام:

غایة الإخلاص الخلاص. والمخلص حریّ بالإجابة، وعند تحقق الإخلاص تستنیر البصائر، وبالإخلاص ترفع الأعمال، وفی إخلاص النیّات نجاح الأمور، ومَن أخلص بلغ الآمال، أخلص تنل.

حریّ أن تکتب هذه الکلمات بأقلام من نور علی وجنات الحور، فما أروع قوله علیه السلام: أخلص تنل.

کلمتان فقط ولکن فیها ما فیها من الأسرار والحِکم والحقائق، فإن الإنسان إنما ینال ما ینال بالإخلاص.

وقال الإمام الصادق علیه السلام: إن المؤمن لیخشع له کلّ شیء ویهابه کلّ شیء، ثم قال: إذا کان مخلصاً للَّه أخاف اللَّه منه کلّ شیء حتی هوام الأرض وسباعها وطیر السماء.

ثم یا هذا هل بعد الإخلاص من مقصود ومنشود؟

وقد قال الإمام الباقر علیه السلام: ما بین الحق والباطل إلا قلّة العقل- أی من یختار الباطل فهذا من قلّة عقله- قیل: وکیف ذلک یا بن رسول اللَّه؟

قال: إن العبد یعمل الذی هو للَّهرضیً فیرید به غیر اللَّه، فلو أنه أخلص للَّه، لجاءَه الذی یرید فی أسرع من ذلک (۱۵).

هذا فی الإخلاص الذی هو من جنود العقل، ویقابله الریاء الذی هو من جنود الجهل، وقد قال اللَّه تعالی فی محکم کتابه: «ولا تکونوا کالّذین خرجوا من دیارهم بطراً ورئاء الناس ویصدّون عن سبیل اللَّه» (۱۶).

قال رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم لابن مسعود: یا بن مسعود إیاک أن تظهر من نفسک الخشوع والتواضع للآدمیین، وأنت فیما بینک وبین ربّک مصر علی المعاصی والذنوب. یقول اللَّه تعالی:

«یعلم خائنة الأعین وما تخفی الصدور».

وقال: أشد الناس عذاباً يوم القيامة من يرى الناس أن فيه خيراً ولا خير فيه (۱۷).

قال أمير المؤمنين على عليه السلام:

المرائى ظاهره جميل وباطنه عليل.

وقال الإمام الصادق عليه السلام:

إياك والرياء فإنه من عمل لغير اللَّه وكله اللَّه إلى من عمل له.

وعن رسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم: ان الملك ليصعد بعمل العبد مبتهجاً به فإذاصعد بحسناته يقول اللَّه- عزّ وجلّ- اجعلوها فى سجّين إنه ليس إيّاى أراد به.

وفى حديث آخر: تصعد الحفظة بعمل العبد مبتهجاً به فيطأُون الحجب كلّها حتى يقوموا بين يدى اللَّه فيشهدوا له بعملصالح ودعاء، فيقول اللَّه تعالى: أنتم حفظة عمل عبدى وأنا رقيب على ما فى نفسه، إنه لم يردنى بهذا العمل عليه لعنتى.

وقالصلى الله عليه و آله و سلم: إن المرائى يُنادى يوم القيامة: يا فاجر! يا غادر! يا مرائى! ضلّ عملك وبطل أجرك، اذهب فخذ أجرك ممّن كنتَ تعمل له.

وقال الصادق عليه السلام: ما على العبد إذا عرفه اللَّه ألّا يعرفه الناس؟

إنّه من عمل للناس كان ثوابه على النّاس، ومن عمل للَّه كان ثوابه على اللَّه، وإن كلّ رياء شرك.

قال اللَّه عزّ وجلّ: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملًا أشرك فيه غيرى فأنا منه برىءٌ فهو للذى أشرك.

وقال رسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم: إنّ اللَّه تعالى لا يقبل عملًا فيه مثقال ذرّة من رئاء.

وقالصلى الله عليه و آله و سلم: يا بن مسعود إذا عملت عملًا من البرّ وأنت تريد بذلك غير اللَّه فلا ترج بذلك منه ثواباً فإنّه يقول: «فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً» (۱۸).

وعن شدّاد بن أوس قال:

رأيت النبيّصلى الله عليه و آله و سلم يبكى، فقلتُ: يا رسول اللَّه! ما يبكيك؟ فقال: إنى تخوّفت على أُمتى الشرك أما إنّهم لا يعبدونصنماً ولا شمساً ولا قمراً، ولكنهم يراؤون بأعمالهم.

وعن الإمام الصادق عليه السلام:

يُجاء بعبد يوم القيامة قدصلّى فيقول:

يا ربّصلّيت ابتغاء وجهك فيقال له:

بلصليت ليقال ما أحسَنصلاة فلان اذهبوا به إلى النار.

ولكلّ شىءٍ علامة، وقد جاء فى علامة المرائى عن رسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم: «اما علامة [علامات] المرائى فأربع؛ يحرص فى العمل للَّهإذا كان عنده أحد، ويكسل إذا كان وحده، ويحرص فى كل أمره على المحمدة، ويحسن سمته بجهده».

وقال الإمام الباقر عليه السلام:

الإبقاء على العمل أشدُّ من العمل. قال الراوى وما الإبقاء على العمل؟ قال:

يَصلُ الرجل بصلة، وينفق نفقة للَّه وحده لا شريك له فتكتب له سراً، ثم يذكرها فتمحى فتكتب له علانيةً، ثمّ يذكرها فتمحى وتكتب له رياءً.

قال رسول اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم فى وصف المؤمن: لا يعمل شيئاً من الخير رياءً، ولا يتركه حياءً. وفى غرر الحكم عن أمير المؤمنين عليه السلام:

كلّ حسنة لا يراد بها وجه اللَّه تعالى فعليها قبح الرياء وثمرها قبح الجزاء.

وقال الإمام الصادق عليه السلام: ما كان من الصدقة والصلاة والصوم وأعمال البرّ كلّها تطوّعاً فأفضلها ما كان سرّاً، وما كان من ذلك واجباً مفروضاً فأفضله أن يعلن به (۱۹)، فالرياء حرام والمرائى عند اللَّه سبحانه ممقوت ومغضوب عليه، وقد شهدت لذلك الآيات والأخبار والآثار كما ذكرنا.

هذا غيض من فيض فى أخبار الإخلاص والرياء وبيان حدودهما وما يترتب عليهما من الآثار فى الدنيا والآخرة.

وبعد هذه الوقفة العاجلة عند عظمة الأخلاق الإسلاميّة، ودورها البالغ فى حياة المسلم الرسالى، وبعد عرض موجز عن الإخلاص والرياء، وإنّ القلبَ منشؤهما ومحطهما، فإنه العالم باللَّه وهو العامل للَّه، والساعى والمخلص والمتقرب إليه، وهو الكاشف بما عند اللَّه ولديه، وإنما الجوارح أتباع له، وخَدَم وآلات يستخدمها القلب كاستخدام الراعى للرعيّة، وهو المقبول عند اللَّه إذا سلم من غير اللَّه، وهو المحجوب عنه إذاصار مستغرقاً بغير اللَّه، وهو المخاطب وهو المطالب، وهو المثاب والمعاقب، فيفلح الإنسان إذا زكّاه، ويشقى ويخيب إذا دَنّسَهُ ودسّاه، وهو المطيع للَّهبالحقيقة، وإنما التى تظهر على الجوارح الظاهرية من العبادات أنواره، فهو سلطان البدن، وهو العاصى المتمرد على اللَّه، وإنما السارى على الأعضاء من الفواحش آثاره. وبظلمانيته ونورانيته تتجلّى المحاسن الظاهرية ومساويها، فإن كلّ إناء بما فيه ينضح، وهو الذى إذا عرفه الإنسان فقد عرف نفسه، ومن عرف نفسه عرف ربّه، فتارة يهوى إلى أسفل السافلين ويكون كالأنعام بل هو أضلّ سبيلًا، وأخرى يصعد إلى أعلى عليين، ويرتقى إلى عالم الملائكة المقرّبين.

ومن لم يعرف قلبه ليراقبه ويراعيه ويترصّد ما يلوح من خزائن الملكوت عليه وفيه ومنه، فهو ممّن قال اللَّه تعالى فيه: «ولا تكونوا كالذين نسوا اللَّه فأنساهم أنفسهم اولئك هم الفاسقون» (۲۰). فمعرفة القلب وحقيقة أوصافه أصل الدين، وأساس السالكين، فلا تغفل.

فلابدّ للمؤمن من أن يخلص فى نواياه وأعماله، وحركاته وسكناته، حتى يلقى اللَّه وليس فى قلبه سواه وذلك هو القلب السليم، الذى ينفع فى يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون.

والمؤمن الحاج، والمؤمنة الحاجة لابدّ لهما من الإخلاص فى مناسكهما، وفى حجّهما وعمرتهما، فإنّ الحجَّ من فروع الدين ومن العبادات، وشرطها الأوّل النيّة الخالصة متقرّباً بها إلى اللَّه سبحانه وتعالى.

والحجُّ من العبادات الدينية والسياسيّة والاجتماعية ذات المفاهيم القيّمة، روحياً وبدنياً، فرديّاً واجتماعيّاً، فى جميع جوانب الحياة من العبادة، والإقتصاد والسياسة، والثقافة والحضارة، والأخوة الإسلاميّة وغير ذلك.

ويكفى فى شرافة الحج، ومقامه الشامخ فى الدين الإسلامىّ الحنيف، أنه أحد الأركان التى بنى عليها الإسلام، فهو من الأسس الأولى التى يعلو عليها الإسلام العظيم. وتتجلّى فى الحجّ روح المحبّة والأخوة والصفاء، وحكومة الروحانيّات على الماديّات.

وكل مسلم متحمّس لدينه يرى فى حجّه وعمرته، أن الإسلام يعلو ولا يعلى عليه، وأن هذا الدين القيم لو تمسّك به أهلُه حقَّ التمسك، وطبقوه فى كل زوايا حياتهم لحكم العالم ولرفرفت راياته على ربوع الأرض ولو كره المشركون.

فإن الإنسان الضائع، والبشرية التائهة تجد انشودتها وسعادتها فى هذا الدين، فهو يتكفل سعادة الإنسان فى دارى الدنيا والآخرة.

فالحجُّ يمثّل بوضوح عزّ الإسلام وبقاءه وسلطانه، وكرامة المسلمين وشرفهم، فليس لأُمّة وملّة من الأمم والملل مثل هذا المؤتمر العالمى العظيم، والمشهد السنوى الكبير، الحافل بالخيرات والبركات؛ ليشهدوا منافع لهم؛ ليجتمع فيه المسلمون من شرق الأرض وغربها على اختلاف جنسيّاتهم، وطوائفهم، واشكالهم وألوانهم ولغاتهم، ولا يتميز غنيّهم عن فقيرهم ورئيسهم عن مرؤوسهم، وكلّ واحد منهم وقد اتزر بأحد ثوبى الإحرام وارتدى بالآخر؛ ليلبى دعوة اللَّه، التى يدويصداها عبر الأحقاب والأجيال من شيخ الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام فى قوله تعالى: «وأذن فى الناس بالحجّ يأتوك رجالًا وعلى كل ضامر يأتين من كل فجّ عميق» (۲۱).

فالحجّ فلاح وصلاح وقد أفلح من اقامه، ورفع بنيانه كما أمر الشارع به، وإنما ركّز القرآن الكريم، ورسولُ اللَّه الأعظمصلى الله عليه و آله و سلم، وأهل بيته الأطهار عليهم السلام على الحجّ لما فيه من المغزى والمعنى الملكوتى، ولأنّه يحتوى على كثير من العبادات،

والفضائل الأخلاقية، والخير والإحسان الاجتماعى، والثواب الأخروى فإنه من بين أركان الإسلام ومبانيه، عبادة العمر وختام الأمر، وتمام الإسلام وكمال الدين فيه، قال النبيصلى الله عليه و آله و سلم:

«من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً وإن شاء نصرانياً» (۲۲).

فهو نقلة اجتماعية، ورحلة جماهيريّة يتّجه فيها الناس من كلصوب ومكان؛ لأداء فريضة إلهيّة واجبة، فى مكان مقدس واحد هو أشرف بقاع الأرض: مكّة المكرّمة.

وفى زمان واحد من الأشهر الحرم، ذى الحجة المبارك؛ ليمارسوا شعائر موحدة، ومناسك دينيّة، وطقوساً خاصة، تجرّد الإنسان عن عالم الماديّات، وتحلّق بروحه إلى عالم ملكوتى وروحانى بلا نهاية، إلى الرفيق الأعلى فيكون قاب قوسين أو أدنى.

ولكن نوايا الناس مختلفة، والإنسان على نفسه بصيرة، ولو ألقى معاذيره وأستاره، فقد روى فى خبر من طريق أهل البيت عليهم السلام: «إذا كان آخر الزمان خرج الناس للحجِّ أربعة أصناف: سلاطينهم للنزهة، وأغنياؤهم للتجارة، وفقراؤهم للمسألة، وقرّاؤهم للسُّمعة» (۲۳).

فليس كلّ من أدى فريضة الحجِّ نال الكمال وبلغ العُلى، بل بشرطها وشروطها والإخلاص أوّل شروطها.

قال الإمام الصادق عليه السلام: الحجُّ حجّان: حجٌّ للّهوحجٌّ للناس، فمن حجّ للّه كان ثوابه على اللّه الجنّة، ومن حجّ للناس كان ثوابه على الناس يوم القيامة (۲۴).

ولا يخفى أنّ من يدخل الجنة فهو من السعداء لقوله تعالى: «وأمّا الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها ...» (۲۵) فمن كان سعيداً فى حجّه، إنما يخلص للّهفى مناسكه ويبتغى وجه اللّه فى أعماله، ومن عمل للناس فقد خسر الدنيا والآخرة، فإن الدنيا الدنيّة دار ممرّ، وأهل الدنيا لا وفاء لهم، وفى الآخرة كلّ ينادى وانفساه، وكلّ يفرّ من أخيه وصاحبته وبنيه وعشيرته التى كانت فى الدنيا تؤويه. فمن الحماقة وقلّة العقل أن يعمل الإنسان لغير اللّه سبحانه، كما ورد فى الخبر.

قال الإمام الصادق عليه السلام: مَن حجّ يريد به اللّه ولا يريد به رياءً وسمعة غفر اللّه له البتّة (۲۶)- أى قطعاً-.

فمن حجّ ليُنادى فى المجتمعات والنوادى: يا حاج فلان، يا حاجّة فلانة، وليفخر على الآخرين ويتطاول عليهم، لم يصيبه من حجّه إلا التّعب والنّصب. والأعمال العبادية تبطل بالرياء فيجب إعادتها وقضاؤها حينئذٍ. فهل بعد هذا إلا الإخلاص فى النوايا والعمل؟!

وعن الإمام الصادق عليه السلام فى حديث يذكر علامات ظهور المهدى عليه السلام: ... ورأيت طلب الحجّ والجهاد لغير اللّه ... فكن على حذر واطلب من اللّه النجاة (۲۷).

ختامه مسك:

ولنختم الموضوع بما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام فى أسرار الحجّ ودقائقه، وعلوّ معانيه وسموّ مفاهيمه:

روى فى مصباح الشريعة عنه-صلوات اللّه وسلامه عليه وعلى آبائه وأولاده الطاهرين- أنّه قال: «إذا أردت الحجَّ فجرّد قلبك للّه تعالى من كلّ شاغل وحجاب كلِّ حاجب، وفوّض أمورك كلَّها إلى خالقك، وتوكّل عليه فى جميع ما تظهر من حركاتك وسكناتك، وسلّم لقضائه وحكمه وقدره، ودع الدنيا والراحة والخلق، واخرج من حقوقٍ تلزمك من جهة المخلوقين، ولا تعتمد على زادك وراحلتك وأصحابك، وقوّتك وشبابك ومالك، مخافة أن يصير ذلك عدوّاً ووبالًا، فإنّ من ادعى [ابتغى] رضا اللّه، واعتمد على ما سواه،صيّره عليه وبالًا وعدوّاً؛ ليعلم أنّه ليس له قوّة وحيلة، ولا لأحد إلّا بعصمة اللّه وتوفيقه.

فاستعد استعداد من لا يرجو الرجوع، وأحسن الصحبة، وراع أوقات فرائض اللّه وسنن نبيّهصلى الله عليه و آله و سلم، وما يجب عليك من الأدب، والاحتمال والصبر، والشكر والشفقة، والسخاوة وإيثار الزاد على دوام الأوقات، ثم اغسل بماء التوبة الخالصة ذنوبك، والبس كسوة الصدق والصفا، والخضوع والخشوع، وأحرم من كلِّ شيءٍ يمنعك عن ذكر اللّه، ويحجبك عن طاعته، ولبِّ تلبيةصادقةصافية، خالصة زاكية للّه تعالى فى دعوتك، متمسّكاً بالعروة الوثقى، وطف بقلبك مع الملائكة حول العرش، كطوافك مع

المسلمين بنفسك حول البيت، وهرول هرولة من هواك، وتبرّأ من حولك وقوّتك، واخرج من غفلتك وزلّاتك بخروجك الى منى، ولا تتمنّ ما لا يحلّ لك ولا تستحقّه، واعترف بالخطايا بعرفات، وجدّد عهدك عند اللَّه تعالى بوحدانيّته وتقرب إليه، واتّقه بمزدلفة، واصعد بروحك إلى الملإ الأعلى بصعودك على الجبل، واذبح حنجرة الهوى والطمع عند الذبيحة، وارم الشهوات والخساسة والدناءة والذميمة عند رمى الجمرات، واحلق العيوب الظاهرة والباطنة بحلق شعرك، وادخل فى أمان اللَّه، وكنفه، وستره وكلاءته، من متابعة مرادك بدخولك الحرم، ودُر حول البيت محقّقاً لتعظيمصاحبه، ومعرفة جلاله وسلطانه، واستلم الحجر رضا بقسمته وخضوعاً لعزّته، وودّع [ودع] ما سواه بطواف الوداع، واصف [وصفِ] روحك وسرّك للقائه يوم تلقاه بوقوفك على الصفا، وكن بمرأىً من اللَّه، نقيّاً [ونقِ] أوصافك عند المَروة، واستقم على شرط حجّتك هذه، ووفاء عهدك الذى عاهدتَ به مع ربّك، وأوجبته له الى يوم القيامة.

واعلم بأنّ اللَّه- تعالى- لم يفرض الحجّ، ولم يخصّه من جميع الطاعات بالإضافة إلى نفسه بقوله تعالى: «وللَّه على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلًا» ولا شرع نبيّه سُنّةً من خلال المناسك على ترتيب ما شرّعه، إلّا للإستعانة والإشارة إلى الموت والقبر والبعث والقيامة، وفضل بيان السبق من الدخول فى الجنّة أهلها، ودخول النار أهلها بمشاهدة مناسك الحجّ من أولها إلى آخرها لأولى الألباب وأولى النهى (۲۸)، انتهى كلامهصلوات اللَّه عليه وسلامه، واغتنموا الفرص يا ضيوف الرحمن، ويا حجّاج بيت اللَّه الحرام، وإنما يتقبّل اللَّه من المتّقين المخلصين.

وآخر دعوانا أن الحمد للَّهربّ العالمين.

الهوامش:

حِوارٌ مع ممثّل الولى الفقيه فى شؤون الحجِّ والزيارة

حِوارٌ مع ممثّل الولى الفقيه فى شؤون الحجِّ والزيارة

مجلّةُ الميقات: فى البداية نشكركم على إتاحة هذهِ الفرصة للاطلاع على آرائكم القيّمة بشأن الحجِّ وما يتعلق به من مسائل:

كم مرّة تشرفتم بالحجِّ، وفى أى الأعوام؟

ج: بسم اللَّه الرحمن الرحيم، بما أن هذا هو أول لقاء لى مع مجلة «ميقات الحجِّ» الغرّاء، لذا أودُّ الإشارة إلى أنّ مكان هذه المجلة كان خالياً- حقاً- فى مكتباتنا، وبين الكتب والمجلّات التى تصدر فى الجمهورية الإسلامية والعالم الإسلامى، ومن حسن الحظ، مُلِئ هذا المكان الآن بحول اللَّه- تعالى- وهمم الإخوة الأعزاء فى معاونية التعليم والتحقيق لبعثة سماحة القائد الإمام الخامنئى (دام ظلّه). وآمل أن تجد هذه المجلة طريقها نحو التكامل من خلال تعاون الكتاب الملتزمين كافة معها، لتحتل موقعها اللائق فى العالم الإسلامى.

وفيما يخصّ الإجابة على سؤالكم لابد لى من القول: إننى لم أكن قبل انتصار الثورة الإسلامية قد تشرّفتُ بالحجِّ، إلّاأننى- بعد انتصار الثورة الإسلامية- تشرفتُ بالحجّ مرتين وقبل أن أتولى مسؤولية شؤون الحجّاج؛ المرّة الأولى فى العام ۱۳۵۸ ه. ش حيث كنت مرشداً دينياً لإحدى قوافل الحجاج، وفى المرة الثانية ذهبتُ- أيضاً- كزائر وكان ذلك على ما أظن فى العام ۱۳۶۲ ه. ش. وفى عام ۱۳۷۰ ه. ش حمّلنى سماحة القائد (دام ظله) مسؤولية شؤون الحجاج الإيرانيين إلى بيت اللَّه، وما زلتُ أتحمل هذهِ المسؤولية.

الميقات: الحجّ سفرٌ إلهى ومعنوى، والمعروف أنّ الذينَ يوفقون لهذا السفر- خصوصاً السفرة الأولى- يحتفظون فى ذاكرتهم بذكريات جميلة عن ذلك. فما هى أحاسيسكم ومشاعركم وأنتم تدخلون الحرمين الشريفين أول مرّة؟

ج: لا يمكن وصف الأحاسيس التى تتملك الإنسان فى تلك اللحظات وايصالها إلى الآخرين. إنَّ الحالة التى تتملك الإنسان فى السفرة الأولى لا تتكرر فى السفرات التالية لها، حيث الإحساس بعظمة هذين المكانين المقدسين لهو من الذكريات التى لا يمكن نسيانها. فهناك الأماكن المقدسة التى كان يتواجد فيها الأنبياء العظام وأولياء اللَّه الذين طافوا حول البيت الحرام. وهناك الأرض التى

شهدت أهم الأحداث فى تاريخ الإسلام، حيث انطلاقة الإسلام الأولى.

فعندما عرف الإنسان هذه الأجواء للمرّة الأولى، وراحت هذه المعانى تدخل ذهنه بنحو وآخر، تملكته حالة خاصة، وكم هو جميل وعظيم أن ينتفع بها فى تزكية نفسه والتقرُّب أكثر فأكثر إلى البارئ تعالى.

الميقات: منذ أعوام وأنتم تتعاطون الأحاديث والروايات. وتحفظون القرآن الكريم، لهذا فإنكم على معرفة واسعة بمعارف الثقلين حول الحجِّ. فما هى مكانة الحجّ فى تعاليم القرآن والحديث؟

ج: يوجد فى هذا المجال كلام كثير، كما أنه لا يمكن حتى حصر القليل منه فى مقال، والأمر بحاجة إلى تأليف الكتب من أجل توضيحه من جميع أبعاده، وبالطبع يوجد هناك بعض ما كُتب فى هذا المجال، إلّاأن ما يمكن طرحه بإيجاز فى لقاء واحد هو: أن الحجَّ واحد من المرتكزات الثقافية، والسياسية، والاجتماعية فى الإسلام. والحجّ يُعد- إلى جانب الصلاة والصيام والخمس والزكاة وسائر فروع الدين- واحداً من أهم فروع الإسلام، ويمتاز عن بقية فروع الدين بجامعيته وشموليته. ففى الحجِّ تكون السياسة إلى جانب العبادة. والمسائل الثقافية إلى جانب العبادة.

وبقصارى الكلام يمكن القول: إنَّ الحجَّ هو المظهر الحقيقى لأبعاد الإسلام ومعارفه، وبعبارة واحدة، يجب استعمال التعبير القرآنى الجميل فى وصف الحجّ «قياماً للناس» وأنه مبدأ النهوض الشامل فى العالم الإسلامى. ومن هنا فقد كان الإمام الخمينى قدس سره يُعير أهميّة كبيرة للانتفاع بأجواء الحجّ الملكوتية فى مختلف المجالات التى يحتاجها المجتمع الإسلامى.

فللقرآن الكريم تعبيران يدعوان إلى التأمل فيما يخصّ مكانة الحجِّ من وجهة نظر القرآن والإسلام.

الأول «قياماً للناس» الذى يعنى أن الحجَّ هو مبدأ النهوض الشامل.

والثانى «ليشهدوا منافع لهُم» ويُستفاد من هذه الآية أن الشعوب الإسلامية عندما تحضر هى أو ممثِلون عنها فى تلك الديار المقدسة، يجب أن تشهد منافع كثيرة. وكما بيّن ذلك الإمام الراحل قدس سره فى بياناته القيّمة؛ المنافع مطلقة ولا تختص بمنفعة معيّنة. كما وجاء فى الروايات- أيضاً- أنه عندما سُئل الإمام عليه السلام ما هو المراد من المنافع؟ المنافع الدنيوية أم الأخروية أم الاثنان معاً؟ أجاب الإمام عليه السلام: كل المنافع الدنيوية والأخروية.

فالإمام الراحل قدس سره يفهم من «ليشهدوا منافع لهم» شيئاً ملفتاً للنظر، فهو يقول: إنَّ أكبر المنافع الضرورية للمجتمع الإسلامى- اليوم- فى العالم هو حقه الذى يجب أن ينتزعه من المستكبرين، فهذه الثروة العظيمة للمسلمين أى النفط الذى يأخذه الاستكبار العالمى من المجتمع الإسلامى مجاناً، يجب الحؤول دونه، يجب على الأمة الإسلامية أن تضع يداً بيد وتنتزع هذه المادة الحيويّة الماديّة من حلقوم الاستكبار العالمى، وتأخذ حقّها من الغزاة، وهذه المسألة يمكن للحجّ أن يضمنها. فبإمكان المسلمين فى ذلك المؤتمر العظيم أن يتفاهموا ويتفقوا ويتحدوا ويقفوا بوجه المستكبرين، من أجل ضمان منافعهم الماديّة على الأقل.

الميقات: لقد أشرتم إلى نكتة مهمة جداً، فإن مسألة «قياماً للناس» و «ليشهدوا منافع لهم» يمكن للعالم الإسلامى أن ينتفع بها فى الحجّ فى المجالات المختلفة؛ السياسية، والاقتصادية و ... والآن من المناسب طرح هذا السؤال وهو: ما هو الاختلاف بين الوضع الحالى للحجّ وبين المكانة التى وضع الإسلام فيها الحجّ، وما الذى يجب عمله من أجل الوصول إلى الحج المنشود؟

ج: يوجد بين الحج الحقيقى- أو بتعبير إمام الأمة، رضوان اللّه تعالى عليه، الحج الإبراهيمى- وبين الحجّ الحالى الفاقد للمحتوى اللازم اختلاف كبير. وفى الواقع لا يمكن مقايستهما مع بعض وهما يقعان فى نقطتين متقابلتين.

فالحج الذى يُريده الإسلام الأصيل من المسلمين، هو الحجُّ الذى يكون مبدأً للنهوض والثورة. وهو الحجّ الذى يستطيع تأمين منافع المجتمع الإسلامى، لا أن يكون فيصالح منافع أعداء الإسلام. إن المستكبرين يريدون من الحجّ أن يكون وسيلة لتهدئة المجتمع الإسلامى لهم، وتبرير تسلطهم على أراضى الإسلام.

ويجب القول: إنَّ الحج اختلف اختلافاً جذرياً بعد انتصار الثورة الإسلامية عن حجِّ ما قبل الثورة. ولقد أحيا الإمام الراحل قدس سره

البُعدَ السياسى للحجِّ فى سبيل إحياء الحجّ الحقيقى الأصيل. وقد سعى بنظرته الثقافية إلى إحياء هذا البُعد المهم للحج فى حياته وليتركه اليوم كأمانة ثمينة وقيّمة بأيدى الأمة الإسلامية. والآن فإن مسؤولى الجمهورية الإسلامية هم المؤتمنون على هذه الأمانة، ونأمل أن نتمكن من حراسة هذه الأمانة الإلهية العظيمة بشكل لائق. إن إحياء البعد السياسى للحج هو الذى وضع الحجَّ فى اتجاهه الصحيح. وإن كان يجب أن نعترف أنه لا تزال هناك مسافة كبيرة حتى نصل إلى الحجّ الحقيقى، إلّاأنه على أية حال، فقد ابتدأت هذه الحركة من قبل الإمام الراحل قدس سره ونظام الجمهورية الإسلامية المقدس فى إيران على أمل أن تستمر وتتواصل حتى تحقيق كامل أهدافها.

الميقات:صحيحٌ أن الوضع الحالى للحج هو أفضل بكثير بالقياس إلى ما قبل الثورة، ولكن يبدو أنه لا زال هناك الكثير مما لم يُعمل. فما هى مقترحات سماحتكم من أجل إقامة مراسيم الحجِّ بشكل أفضل وأكمل؟

ج: إنّ أول ما يجب الانتفاع به من الحج هو «تربية النفس» حيث إنّ واحدة من المشاكل المهمة والأساسية للعالم الإسلامى هو تجاهل هذه المسألة. ولو زاد عدد القوى المخلصة والواعية والمسؤولة والأشخاص الذين يفكرون بحاجات العالم الإسلامى فى المجتمعات الإسلامية فسوف يؤدى ذلك بشكل طبيعى إلى أن تقع السلطة فى أيديهم، وتحلُّ مشاكل المسلمين بالنتيجة. وفى الظروف الراهنة، قد انطلقت شرارة الوعى والشعور بالمسؤولية فى العالم الإسلامى ببركة الثورة الإسلامية، واكتسب الشباب المسلم فى أكثر البلدان الإسلامية الوعى واليقظة، وبدأوا بإعداد أنفسهم. بأمل أن تستمر هذه الحركة- إن شاء اللَّه- إلى أن تأخذ البلدان الإسلامية زمام أمورها بنفسها. فمالم يكن الإنسان قد ربَّ نفسه، لا يمكنه أن يخطو خطوات مؤثرة فى سبيل تربية المجتمع الإسلامى، كما لا يمكنه أن يُفكر بحلول لمشكلات العالم الإسلامى، فإذا تمكن المسلمون أن يخطوا فى الحجِّ هذه الخطة، إذا هم مستعدون لمواجهة مختلف المشاكل التى تأخذ- اليوم- بتلابيب العالم الإسلامى.

والشىء الثانى الذى يمكن للإنسان أن ينتفع به ويستفيد منه فى الحجّ، ويُعد ضرورياً لمواجهة مشاكل العالم الإسلامى، هو «وحدة العالم الإسلامى». فلو وضع أكثر من مليار مسلم يداً بيد، واستغلوا الإمكانيات والأماكن الحساسة والستراتيجية التى يمتلكونها كما ينبغى، فلن تتمكن أية قوة من مقاومتهم، ولأصبح القول الفصل لهم ليس فى العالم الإسلامى وحسب بل فى العالم كله. وأن أفضل مركزٍ يمكن أن يضمن الوحدة للمسلمين هو الحج.

إن موسم الحجّ لهو مجمع حقيقى للتقريب فى العالم الإسلامى. فهناك يمكن لزعماء البلدان الإسلامية- علماءً كانوا أو سياسيين- أن يجتمعوا ويمدوا يد الوحدة بعضهم إلى بعض، ويفكروا بإيجاد حلولٍ لمعضلات العالم الإسلامى، بدلًا من الخلافات التى منشؤها- بالأساس- الأهواء النفسانية ووساوس الإنس والجن الشيطانية.

فإذا امتلك حَجُّنا هذين الشيئين أو البعدين (تربية النفس والوحدة) فسيكون حلّ مشاكل العالم بالنسبة للمسلمين بسيطاً، ولا تجد، والحال هذه، مشكلة تستعصى على الحل. وإذا كنّا اليوم نشهد مشاكل وقمع المسلمين فى بلدان إسلامية؛ كالبوسنة والهرسك، وفلسطين المحتلة، وبعض المناطق الأخرى الذين يتألم قلب كلّ إنسان لمظلوميّتهم، فإنَّ سبب ذلك يعود إلى انعدام الوحدة بين المسلمين، وعلى أى حال، يمكن الانتفاع بالحج لصالح المجتمعات الإسلامية الكثيرة فيما يتعلق بمختلف القضايا؛ الفردية، والاجتماعية، وكذلك القضايا الثقافية والعقائدية، والسياسية، والاقتصادية، وحتى العسكرية.

لقد كان إمام الأمة- رضوان اللَّه تعالى عليه- يصدر أهم بياناته فى أيام الحج، وهذا الأمر يدلُّ على مدى اهتمامه وأمله بهذه القاعدة العظيمة! فقد كان الإمام قدس سره يعتقد وجوبَ أن يشع النور من هذا المركز ويُتحرك منه لحل مشاكل العالم الإسلامى.

لميقات: إن أعمال العمرة والحجّ والتمتع، من الإحرام حتى آخر المراحل، لكل واحد منها ميزة خاصة، ففى رأيكم أى هذه الأعمال، يمكن للإنسان أن يشعر فيها بذروة المعنوية؟

ج: إنّ مناسك الحج، من الإحرام حتى آخر عمل، هى مظاهر للجلال والعظمة. فعندما يحضر المسلمون من أقصى نقاط العالم إلى

تلك الديار المقدسة ويتركون جانباً كل المميزات؛ يؤدى الجميع، الفقير والغنى، الأبيض والأسود، الرئيس والمرؤوس، الرجال والنساء، يؤدون جميعاً سلسلة أعمال واحدة جنباً إلى جنب، ويقفون لدعاء البارئ تعالى و ... ولعله لم يكن يوجد مشهد عبادى واجتماعى أعظم واجلُّ من هذا المشهد. ولكن من بين جميع الأعمال، توجد بعض الأعمال التى تتمتع بميزات بارزة مثل الوقوف فى عرفات، والوقوف فى المَشعر، فهناك حيث يجتمع الحجاج فى مكان واحد، بين جبال عرفات أو فيصحراء المشعر، يُسلمون القلوب إلى البارئ تعالى، فى تلك اللحظة الخاصة بين الطلوعين. ومن ثم يحضرون بعد ذلك جميعاً بمهابة لا يمكن وصفها إلى منى حيث تصل العظمة والمهابة المعنوية غاية ذروتها.

الميقات: منذ السنة التى تشرفتم فيها إلى الحج وإلى الآن، تم تخريب الكثير من الآثار الإسلامية فى مشروع توسيع الحرمين- وحتى خارج المشروع- فما هو التحول والتغيير الذى شاهدتموه فى هذه الأماكن منذ ذلك الوقت وإلى الآن؟

ج: مقدارٌ من هذه التغييرات، التى أُجريت فى الأبنية التأريخية الإسلامية، يعود إلى ما قبل انتصار الثورة، وإننى لم أكن قد وفقتُ للذهاب إلى هناك قبل انتصار الثورة الإسلامية كى أتمكن من المقايسة بهذا الشأن. وبالطبع هناك كتب مؤلفة ومطبوعة بهذا الخصوص يمكن الرجوع إليها.

إلّاأنه منذ عام ۵۸، الذى سافرت فيه إلى الحج لأول مرّة، وإلى الآن حصلت تغييرات كثيرة فى مسجد النبى بالمدينة المنوّرة. ولم يكن موجوداً فى عام ۱۳۵۸ كل هذا الموجود الآن فى مشروع توسيع مسجد النبيِّ من أسواق، ودور، وفنادق، وكل هذه التغييرات قد حصلت خلال هذه الفترة التى تمتد إلى ما يقارب الخمسة عشر عاماً. كما قد أُجريت خلال هذه الفترة بعض التغييرات فى البقيع. فمسجد قبا لم يكن بهذا الشكل الذى هو عليه الآن، وإنما كان عبارة عن مسجدصغير. ولم يكن زقاق بنى هاشم ودار الإمام الصادق عليه السلام قد تمّ تخريبه فى ذلك الوقت. ولم يكن مسجد القبلتين بهذا الشكل الذى هو عليه الآن. وكذلك مسجد الشجرة لم يكن بشكله الفعلى الآن وإنما كان عبارة عن مسجدصغير. هذه هى التغييرات الحاصلة فى المدينة المنوّرة.

وفى طريق مكة، لم يكن وضع المواقيت على ما هو عليه الآن. فلقد كان مسجد الجحفة، مسجداًصغيراً جداً حتى إنّه لم يكن له باب وهيكل مقبول. وكذلك ممرّه كان فيه مصاعب كثيرة، ومبنى قرن المنازل هو الآخر جديدٌ أيضاً.

وإن أعمال التوسعة الحاصلة الآن فى المسجد الحرام كلها حديثة، سواء فى ذلك المسجد الكبير المضاف إليه أو الأقسام التى تمّ ايجادها فى الجهة اليمنى من المسعى.

وقد تمّ ايجاد تغييرات جذرية فى عرفات، حيث لم تكن قبل ذلك الكثير من هذه الأشياء، وكان الناس يواجهونصعوبات كثيرة. وكذلك فى منى، وبالطبع أن التشجير هنا ليس مثل عرفات. وهناك تحول فى الجمرات.

فجمرة العقبة كانت جبلًا خالصاً؛ لم يكن مفتوحاً منه أكثر من قسم واحد حيث كانوا يدخلون من باب واحد ويخرجون من الباب الآخر. إنّ هذه هى مجموعة التغييرات التى كانت ملموسة بالنسبة لنا، وهناك أماكن كثيرة أخرى أعدمت ولم يبقى منها أثر.

الميقات: من الطبيعى أنَّ كلَّ الذين يتشرّفون بالحجِّ لديهم طموحات وحاجات يطلبونها من اللّه تعالى، والكثير منها يحظى بالاستجابة، هل لكم أن تحدثونا عما طلبتموه من اللّه تعالى أثناء سفركم إلى مكة أو المدينة، وهل حظيت هذه الطلبات بالاستجابة أم لا؟

ج: أنَّ أهم ما يطلبه الحاجّ فى هذا السفر المعنوى، بل يجب أن يكون مأربه الوحيد هو «اللّه» فقط. فلا ينبغى للإنسان أن يحجَّ بيت اللّه ويطلبَ شيئاً غير اللّه، وإذا ما توجه الحاجّ للّهفقط سيكسبُ كلَّ شىء (ماذا فقدَ مَنْ وجدكَ وماذا وَجَدَ مَنْ فقدك).

لقد سعيتُ على الدوام أنْ لا أطلب من اللّه نعماً ماديّةً، ولا أتذكر أننى قد طلبتُ من اللّه أموراً تتعلق بحياتى الشخصية إلى الآن، وبالطبع فقد دعوتُ للأصدقاء والأقارب.

فما طلبته من اللّه أثناء هذه الأسفار الأربعة الأخيرة كان بخصوص الأمور الاجتماعية، وبخصوص الأمور المتعلقة بالحجِّ.

الميقات: إنَّ حجاجنا يمثّلون طبقاتٍ مختلفةٍ وبعضهم بما يمتلكونه من قناعاتٍ سابقةٍ أو بسبب عدم امتلاكهم للتعليم الصحيح فى

مجالات التعامل فهم يخلقون المصاعب، فما هى توصياتكم إلى حجاج بيت اللّه الحرام فى هذا المجال باعتباركم أميراً للحاجّ؟

ج: المسألـة الأولى التى يجب على كلِّ حاجٍ الاهتمام بها، هى أنَّ الحجّ فرصةٌ استثنائية ووجيزةٌ جداً ولعلّها لا تحصل لأغلب النّاس إلا مرّة واحدةً مدى عمرهم، لهذا فمن أجل أن ينتفع الحاجُّ بهذه الفرصة القصيرة والاستثنائية والثمينة غاية الانتفاع؛ يجب عليه أن يخطّط لنفسه قبل شهورٍ من الحجِّ فى كيفية الاستفادة من الأيام واللّيالى واللحظات التى تمرّ خلال هذا السفر الإلهى.

وللأسف فإنَّ قسماً من حجاجنا وبسبب الإهمال وعدم التخطيط يصطدمون بأجواءٍ خاصةٍ بحيث لا يعرفون ماذا يفعلون ولا يلبثون حتى يجدوا أنَّ هذه الأسابيع المعدودة قد انصرمت! ولم ينتفعوا بها الانتفاع اللازم. فلو كانوا قد سَعَوْا كثيراً لتمكنوا مثلًا من أداء أعمال الحجّ بصورةٍصحيحة، وطبعاً هذا مهمّ جداً، لكن لابدّ للحاج من أن يُحدِثَ تغييراً فى وضعهِ خلال هذه الأيام، وأن تظهر فى روحهِ وباطنهِ ثورةٌ. فقد ورد فى الروايات أنَّ الحجَّ يُطهّر الإنسان من الأدران. فالإنسان يتطهر طهارةً واقعيةً عندما تحصل فى ذاتهِ الثورةُ، وأنْ يشعر بالاستنارةِ والمعنوية.

إنَّ الكثير من حجّاج بيت اللّه يهدرون وقتهم فى التجوّل بالمتاجر أو الأعمال التافهة وأحياناً فى الأعمال الضّارة، بسبب عدم الانتباه إلى هذا المعنى أو بسبب التخبط.

يقول القرآن الكريم:

«قل هل نُنَبِّئُكم بالأخسرين أعمالًا الذين ضلَّ سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يُحسنونصُنعاً» (۲۹).

يتصورُ البعض أنه يقوم بأعمالٍ حسنةٍ، بينما هى مضرةٌ للغايةِ بالنسبة للنظام الإسلامى وللإسلام أيضاً وبالتالى فهى مضرةٌ لهم جداً.

ففى المكان الذى يسوده مذهبٌ غير المذهب الشيعى يجب أنْ نتصرّف بنحو لا يؤذى الآخرين، فنحن هناك نمثل الإسلام الأصيل فإذا لم يؤدِ حجاجنا الصلاة فى أوّل وقتها، واذا تواجدوا خارج المسجد الحرام أثناء وقت الصلاة، أو خارج مسجد النبيصلى الله عليه و آله و سلم أو المساجد القريبة من البيوت، أو تواجدوا فى السوق وارتكبوا عملًا مخالفاً يلحقُ ضرراً جسيماً بالإسلام والجمهورية الإسلامية فإن ذلك كله يعتبر من الذنوب كما أنه يُعطى فرصة للآخرين لذمنا، فكلُّ ذلك ناجمٌ عن الإهمال وعدم التخطيط.

على حجاج بيت اللّه المشاركة فى المجالس التى تُعقد لتعليم مراسيم الحجّ قبل أشهرٍ من سفرهم، والعلماء مكلَّفون كذلك بإقامة هذه المجالس بصورةٍ منتظمةٍ.

لقد سمعتُ أنَّ دروس الحجّ تقام فى ماليزيا قبل ستة أشهر من الحجِّ ويشترك فيها الحجّاج، وعندهم مجالس منتظمةٌ للغاية، إضافةً إلى مشاريعهم لتمكين الأفراد على أداء مناسك الحجِّ ولديهم مشاريع جيدة جداً بهذا الخصوص. وباختصار فإننا مكلّفون بإقامة دروس الحجّ قبل أربعة أو خمسة أشهر من الحج، وعلى الحاجّ أن يعتبر نفسه مكلّفاً بحضور هذه المجالس. والنقطة الأخيرة هى أن على الحاجّ أن يغتنم وقته ويخطّط له. فإنَّ أيام الحج أيام مراقبةٍ ومحاسبةٍ دقيقةٍ للنفس فيجب عليه أن يباشر تربية نفسهصباح كلّ يوم بما أعدَّ لنفسهِ من برامج، وأن يسيطر على اللحظات والساعات كى لا يقوم بما لم يخطط له، وإذا قصَّرَ- لا سمح اللّه- يستغفر اللّه ويصمّم على أن لا يتكرر منه ذلك التقصير كى يستطيع الانتفاع بذلك الجو الملكوتى معنوياً على أفضل وجه.

الميقات سنواتٌ عديدةٌ وأنتم تتحمّلون مسؤولية إمارة الحجيج من قبل ولى أمر المسلمين، وقد أُنجزت أعمالٌ جيدة جداً فى المجالات المختلفة للحج عليصعيد اختيار العلماء الصالحين الكفوئين والإداريين المتميّزين والمجرّبين، وتأليف الكتب، والنشاطات التعليمية، وتوضيح المسائل المتعلقة بالحجِّ عن طريق الإذاعة والتلفاز. وكذلك على الأصعدة التنفيذية، فقد حقّقت بعثة الحجِّ ومنظمة الحجِّ والزيارة نجاحات باهرةً، فما هو تقييم سماحتكم للوضع الراهن، وما مقدار نجاحكم، وكيف تفكرون بالنسبة للمستقبل؟

ج: على هذا الصعيد من الأفضل أن يحكم الآخرون، ولكن ما استطيع أن أُقدّمه إجمالًا هو: بفضل اللّه، ومن خلال الجهود التى بذلها الأصدقاء والزملاء فى بعثة قائد الثورة على مدى السنوات الأربعة المنصرمة، يمكننا القول إنَّ التغيير الأساس الذى طرأ فى البرمجة والتخطيط والتنفيذ، وما يلاحظ الآن فيما يختصّ بالحجِّ هو نتيجة للمبادرات التى قام بها الإخوة الأعزاء خلال هذه الفترة، وطبعاً فإنّ

الإخوة الأعزاء الذين عملوا سابقاً تحمّلوا مصاعب كثيرةً (شكر اللَّهُ سعيهم) وعملوا ما فى وسعهم، وكلّ ما لدينا هو استمرارٌ لما بُذلَ من جهودٍ سابقاً، ولكن ما كان موجوداً فى السابق هو أنَّ الحجَّ كان ذا طابعٍ موسميٍّ حيث توضع الخطط من قبل مجموعةٍ ما فى موسم الحجّ ولعلَّه قبل موسم الحج بشهر أو شهرين- ثم يُعطّل، فلم تكن هناك تشكيلات ثابتةٌ- تتابع- المسائل المتعلّقة بالحج على مدار أيام السّنة، أما الآن فقد وفقنا اللَّه- تعالى- فاستحدثت التشكيلات الثابتة التى تمارس نشاطاتها فيما يتعلق بمسائل الحجِّ على مدى أيام السنة، وفى جميع المجالات أيضاً، سيما مجال البحوث والأمور الثقافية التى يحتاجها الحجّاج أكثر من أىّ شىء آخر، فخلال هذه الفترة تمَّ تأليف ما يقرب من ۷۰ أثراً، واصدار مجلّتين قيّمتين، إحداهما هذه المجلّة «ميقات الحجِّ» باللغة العربية، والأخرى مجلة «ميقات الحجّ الفصلية» التى تصدر باللغة الفارسية، وهذا من الأعمال القيّمة التى انجزت. إنّ استمرارصدور هاتين المجلّتين سيؤدى الى حصول تغييرٍ فيما يرتبط بجميع مسائل الحجِّ عليصعيد البحوث، إضافةً إلى التأثير الثقافى والمعنوى الذى تتركانه فى أبناء شعبنا، وكذلك يمكن أن يكون لهما التأثير نفسه على شعوب بقيّة الأقطار.

على أية حالٍ، يمكن القول وبعبارةٍ واحدة: إنّ بعثة القائد المعظم استطاعت أن توفّر الأرضية اللازمة لبلوغ الأهداف النهائية للحجِّ فى جميع الأبعاد، مع وجود أمدٍ بعيدٍ أو فاصلة بيننا وبين الحالة المرجوّة، إلّاأنّ أعزتنا فى بعثة القائد المعظم استطاعوا إعداد الأرضية لبلوغ تلك الأهداف، آملين أن تحظى بقبول اللَّه تعالى.

الميقات بسبب اهتمام سماحتكم بالتنظيم فى جميع المجالات ولحسن الحظ فقد أوجدتم هذا التنظيم فى أمر الحجِّ وتوصلتم إلى نتائج ايجابية، فاليوم يذهبُ الحاجُّ إلى الحجِّ معزّراً وهناك يشعر بالعزَّةِ أيضاً، ويؤدى مراسم الحجِّ بالنحو الذى يحظى بقبول البارئ- عزّ وجلّ- وبتلك الأهداف التى أشرتم إليها، ولكن فى السنوات الأخيرة تهامست الألسن حول إحالة منظمة الحجّ إلى القطاع الخاص، ونظراً إلى أنَّ القطاع الخاص يسعى إلى الكسب المادّى وقليلًا ما يهتم بالأمور الثقافية. فماذا تقولون بهذا الخصوص، هل توافقون على إحالة الحجِّ إلى القطاع الخاص، وما هو مقدار جديّة هذا الأمر؟

ج: هناك عدّة أمور جديرةٌ بالاهتمام فى هذا المجال، الأمر الأول هو أنَّ مسألة إحالة الحجِّ على القطاع الخاص منتفيةٌ على الإطلاق فى الظروف الراهنة، لأنَّ لدينا ما يقارب ۴۵۰ ألف حاج مسجلة أسماؤهم ولا تستطيع منظمة الحجِّ والزيارة اتخاذ أىّ قرارٍ بهذا الخصوص ما لم ترسلهم إلى الحجّ. وهذه المجموعة مسجلةٌ منذما يقارب ۱۰ سنوات ولعل هذا الوضع السائد الآن يستمر خمس سنوات أخرى.

بناءً على ذلك، فإنّ هذه المسألة منتفيةٌ بشكلٍ عام فى الظروف الراهنة، وأما ما يحدث فى المستقبل فيجب ملاحظة الوضع السياسى، والاجتماعى، والاقتصادى للبلاد، وما هو رأى المسؤولين فى ذلك الوقت؟ وبالطبع لابدّ من أن أقول: إنَّ التجربة التى لدينا بخصوص سوريا ليست بالتجربة الناجحة، أى لم تكن لإحالة زيارة العتبات المقدسة فى سوريا للقطاع الخاص ذات نتيجة جيدة، وأما الفائدة الوحيدة التى تركتها، هى أنّها نفعت الحكومة إلى حدٍ ما من الناحية الاقتصادية، وأما فى الجانب الثقافى فى الوقت الراهن فضررها كبير جدّاً، ونحن بصدد التقليل من هذه المشكلات والأخطاء والأضرار قدر الإمكان.

على أيةِ حالٍ، فاذا ما أصبحت هناك خصوصية أو ضرورة لإحالة الحجِّ على القطاع الخاصّ فيجب أنْ يكون أصل العمل بيد الدولة بنحوٍ لا- يحصل أىُّ تغييرٍ فى البرامج والتنظيم الفعلى، لئلا يكون الوضع كما كان عليه قبل الثورة، فلا يمكن القبول بتلك الحالة بأىِّ شكل لأنه لن يوصلنا الى أهدافنا الثقافية.

الميقات: من خلال اهتمام سماحتكم فإنَّصفاءً ومحبَّةً خالصةً تسود بين بعثة القائد المعظم ومنظمة الحجّ والزيارة، وكل الأعزاء الذين يعملون فى هذين المركزين يعملون بإخلاص وجديّةٍ ومن جانب آخر فإنَّ خصائص خدمة حجاج بيت اللَّه الحرام تُنمى الحوافز لدى الجميع على الخدمة، وكسؤالٍ أخيرٍ، وددتُ أنْ أرى ما هو طموحكم وتوقعكم من العاملين فى مجال الحجِّ؟ وما هى توصياتكم إلى هؤلاء الأعزاء؟

ج: إنَّ طموحی من الزملاء فی بعثة القائد المعظم ومنظمة الحجّ والزیارة هو أنْ یلتفتوا إلی أنَّ هذه المؤسسات مؤسساتٌ خاصةٌ لذلک تتعلّق بها آمالٌ خاصة.

فهذه مؤسسات تصبو إلی توجیه مجامیع من المتلهفین لحجّ بیت اللّه، إلی مرکز الوحی، لتخدم الحجاج إلی جانب بیت اللّه ومرقد رسولهصلی الله علیه و آله و سلم والأئمة الطاهرین علیهم السلام لذا یجب أن تنجز واجبها بنحوٍ مجردٍ عن کلِّ ضعف.

یجب أن تتعطر هذه المؤسسات أکثر من غیرها بعطر الإخلاص للّهفلابد من أن یتمتع العاملون فی هذه التشکیلات بإخلاصٍ مضاعفٍ، وإذا ارتکبنا تقصیراً- لا سمح اللّه- فمن الممکن أن نتعرض لغضبه. یجب أن نبذل کلَّ ما فی وسعنا وأن نخدم حجاج بیت اللّه الحرام بکلِّ وجودنا. فالحاج الذی یُرید السفر الی الحجِّ یجب أن یکون مرتاح البال. فمع أنَّ الحجّ فیه مشاکل طبیعیة إلّاأنَّ ذلک لا یعتبر معذّراً لنا ولا مبرّراً لتقصیرنا. إنَّ المحافظة علی بیت المال الذی تضعه الحکومة تحت تصرّفنا لتوفیر الراحة للحجاج، هی مسألة حساسةٌ للغایة، حیث یجب مضاعفة الاهتمام بذلک فی الجانب التنفیذی، فإنَّ العبثَ ببیتِ المال حتی بقدر ریالٍ واحدٍ أو ۱۱۰۰ من الریال هو ذنبٌ عظیمٌ سیما فی الظروف الاقتصادیة التی یمرّ بها بلدنا فی الوقت الحاضر، فیجب التدقیق فی استئجار البیوت ومختلف المشتریات. بل یجب الاحتیاط حتی لا تُهدَر ذرةٌ من بیت المال. والحمد للّهفقد کان للمسؤولین والعاملین فی الحجّ والزیارة جهود حثیثة بهذا المجال علی أمل أنْ یتحسَّنَ الوضع یوماً بعد یوم.

أسأل اللّه- تعالی- المزید من التوفیق والتقدم لجمیع القائمین علی الخدمة فی بعثة القائد المعظم ومنظمة الحجّ والزیارة.

الهوامش:

لبّیک قد لبّیتُ لک

لبّیک قد لبّیتُ لک

أبو نواس

إلهنا ما أعدلکْ ملیکَ کلِّ مَنْ مَلَکْ

لبیکَ قد لبیتُ لک لبیکَ إنّ الحمدَ لک

والملک لا شریک لک ما خاب عبدٌ أمّلک

أنت له حیث سلک لولاکَ یا ربّ هلک

یا مخطئاً ما أغفلک عجل وبادر أجلک

واختم بخیر عملک لبیک إنّ الملک لک

والحمد والنعمة لک والعزّ لا شریک لک

مفتاح القلوب

مفتاح القلوب

ریاض عبید- لبنان

دمعةُ العشقِ راحةٌ لِمُغالی ما لأحداقی، فی غرامی، ومالی؟!

لا تغرُّ الدّموعُ منّی فأهدا أو تداوی الضلوعَ عندَ اعتلالی

لیس فی الکونِ عازفٌ وسعیدُ لیس فی سِفْرِهِ قلوب خَوالی

فغنائی مُسربَلٌ بشقائی أین منّی عُذوبةُ الموّال؟

ومرارى مكبّلٌ لِصوابى وصَبائى مُعلَّقٌ بالوصالِ

واشتياقى إليه أَلغى زمانى ودعانى إلى ربوع الشَّمالِ

فنوى البعد عن بلادِ حبيبى حملتْنى على جناح الخيالِ

هانَ عمرى هناكَ دون اعتمارى ولقائى أُمَّ القُرى، واكتحالى

وَتَفادَيتُ دونَ نظرةِ عينٍ فى شهوبِ الحبيبِ، أو فى التِّلالِ

حيث سارتْ خُطاهُ تمشى الهُوَينا واجتهادُ النّفوسِ خَطْوُ الرّجالِ

حيثُ عطرُ الذُّرى روى مجدَ طه واختصارُ الزّمانِ سَحرُ الكمالِ ... ***

يا ديارًا، يفوقُ عندى هواها لَهَفاتى لوثبةِ الآمالِ

لى بأعطافك الحنائنِ وَعدٌ طيّب ذكرهُ كشهدٍ مُسالٍ واعترانى إزاءَ قُدسِكِ لَأىٌ نافذُ السَّهْمِ، رائقُ الإشتمالِ

ذاكَ سعىُ الحجيج يتلو هتافاً سَطَّرتْهُ الدّموعُ عندَ القِبالِ

تزحفُ الأبوابُ احتضاناً فضاقتْ لِسُراةِ العيونِ رحبُ الْمجالِ

وأنا الوعدُ طافَ بى فبرانى حُبُّكمْ، رامَ فى لُمَى العُذّالِ

وصلاتى عندَ المقامِ نداءٌ أَرَّقَ العالمينَ فى الإبتهالِ

طوّف الطيرُ بالقلوبِ وغنّى ساعياً أو مهرولًا منْ أَثالِ

يضحكُ الليل فى نهارٍ مديدٍ لا يُقاسُ الرّضى هُنا باللّيالى

تتركُ الشمسُ فى القلوبِ نفوساً تُطْلعُ النّورَ من خلالِ الخِلالِ

وكزحفِ السَّديم يعبُر جندٌ هلّلوا بالمنى بظلّ الهِلالِ

عرفاتٌ، ووقفةُ الخَلْقِ فيهصورةُ الحشرِ، خُصَّ بالإبتهالِ

ما الجمارُ الدّماءُ ما الحَلْقُ عِتقٌ أوثقَ الإحرام اتّجاهَ الرّحالِ

ما هُناكَ المكانُ يطوى زماناً .. ما هناكَ الزّمانُ رَهْنُ المَكانِ ..

ما هُناكَ الأنا .. وأنتَ .. وكُنّا .. ما هناكَ النشيدُ بينَ النّصالِ

أَوَ بعدَ الفتونِ ذا من فتونٍ؟ أَوَ بَعْدَ الجمالِ ذا منْ جمالِ؟!

وبدا البابُ، يالَقُرَّةِ عينى! مدخلّ الحقِّ، وثبةُ الْأَجيالِ

سُلَّمُ المجدِ، والزّمانُ ضنينُ موطنُ الوحى، مقصدُ الترحالِ

يا رياضَ الحبيبِ، جئْتُكِ سَعياً تعتلينى لُهاثَةُ المِعجالِ ...

يحملُ القلبُ ثقلَ عمرى ويُلقى فى كيانى حَبَّ النَّقا المِهيالِ

وغَزَتْ لحظةُ اللّقاء تمادتْ وأضاءتْ بصيرتى وقنالى

واعتلى همَّتى خشوع رطيبُ والحنايا تضجُّ بالإنفعالِ

۱- ۱ أخبار مكّة، ۱: ۴۱.

۲- ۲ أخبار مكّة، ۳: ۵۶.

۳- ۳ انظر: معجم البلدان، ۵: ۶۲- أخبار مکّة، ۴: ۷۲- ۷۳ فی الهامش- ومعجم دهخدا، الحرف «م»: ۹۳۸.

۴- ۴ أخبار مکّة، ۴: ۱۳۷.

۵- ۵ العقد الثمین، ۱: ۳۱۰.

۶- ۶ انظر کشف الظنون، ۱: ۳۰۶- معجم المؤلفین، ۴: ۴۰- هدیة العارفین، ۲: ۳۱۰- الأعلام، ۶: ۲۸.

۷- ۷ أخبار مکّة، ۱: ۳۲. أخبار مکّة فی قدیم الدهر وحدیثه، تصنیف الإمام أبی عبد اللّه محمد بن إسحاق الفاکهی، دراسة وتحقیق عبد الملک بن عبد اللّه بن دهیش الطبعة الأولی، مکتبة ومطبعة النهضة الحدیثة، مکّة المکرّمة، ۱۴۰۷ ۲۲۷۳صفحة وزیری تصویر.

۸- ۸ البینة: ۵.

۹- ۹ المؤمنون: ۱۴.

۱۰- ۱۰ الحجر: ۲۹.

۱۱- ۱۱ القلم: ۴.

۱۲- ۱۲ص: ۸۲- ۸۳.

۱۳- ۱۳ کنز العمال ح ۵۲۶۸- الدرّ المنثور، ۲: ۲۳۷.

۱۴- ۱۴ الزمر: ۱۱- ۱۲.

۱۵- ۱۵ الروایات نقلناها من «میزان الحکمة» المجلد الثالث فراجع.

۱۶- ۱۶ الأنفال: ۴۷.

۱۷- ۱۷ کنز العمال: ح ۷۴۸۵.

۱۸- ۱۸ الکهف: ۱۰۵.

۱۹- ۱۹ نقلنا الروایات من میزان الحکمة، ۴: ۲۲ فراجع.

۲۰- ۲۰ الحشر: ۱۹.

۲۱- ۲۱ الحج: ۲۷.

۲۲- ۲۲ تفسیر ابن کثیر، ۱: ۳۸۶.

۲۳- ۲۳ المحجة البیضاء، ۲: ۱۸۹ أخرجه الخطیب البغدادی فی تاریخه، ورواه ابو عثمان الصابونی فی کتاب المائتین بلفظ آخر کما فی المغنی.

۲۴- ۲۴ کتاب میزان الحکمة، ۲: ۲۷۶.

۲۵- ۲۵ هود: ۱۰۸.

۲۶- ۲۶ میزان الحکمة، ۲: ۲۷۶.

۲۷- ۲۷ نفس المصدر.

۲۸- ۲۸ المحجة البیضاء، ۲: ۲۰۷.

۲۹- ۲۹ الکهف: ۱۰۳- ۱۰۴.

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فی سَبیلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علیّ بْنُ موسَی الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... َ يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فی تلخيص بحار الأنوار، للعلّامة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" الثّقافيّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذی" – رَحِمَهُ اللهُ – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَيت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز "القائميّة" للتحرِّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإماميّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجی الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثَّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشّباب و عموم الناس إلی التّحَرِّی الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فی المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلّاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التی يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، علی أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ– فی آكناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فی أنحاء العالَم – مِن جِهةٍ اُخرَی.

– من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثُلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائميّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضيّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمريّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسيم النظام التلقائیّ و اليدویّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع "ما قبلَ المدرسة" الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّی (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَة

المكتب الرّئيسيّ: إيران/أصبهان/ شارع"مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائى/"بناية"القائميّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِي الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم – فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ وليّ التوفيق.

مرکز القائمیة للبحوث والتخریبات الکمبیوتریة
اصبهان
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹